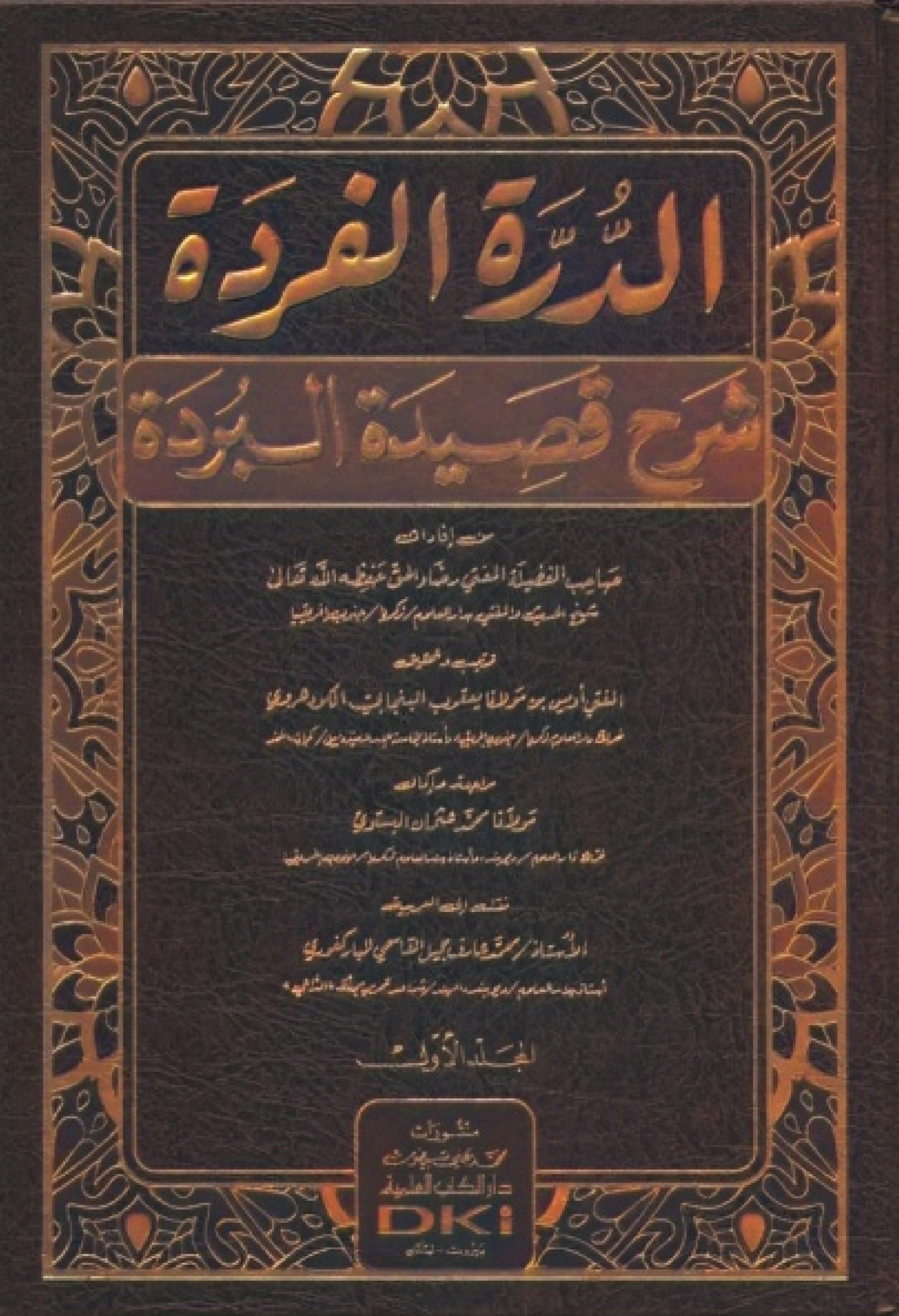

الدُّرَّةَ الفَرِدَة
شرح قَصِيدَة البُرْدَة
من إفادات
صاحب الفضيلة المفتي مختار الحق حفظه الله تعالى
ترتيب وتعليق
المجلد الأول
منشورات
دار الكتب العلمية
DKI
بيروت - لبنان



بسم اللہ الرحمٰن الرحیم

الفَردَة فِي شَرحِ البُردَة

تألیف

تاج الشریعة العلّامة اختر رضا القادری الازہری

مفتی الدیار الهندیة

جمع وترتیب

عاشق حسین الکشمیری

استاذ مرکز الدراسات الاسلامیة جامعة الرضا

تحت إشراف

نجل تاج الشریعة

محمد عسجد رضا القادری

رئیس مرکز الدراسات الإسلامیة جامعة الرضا

بریلی یوبی الهند

تزئین کار

عتیق احمد حشمتی، استاذ مرکز الدرسات الاسلامیہ جامعۃ الرضا، بریلی شریف

نبذة عن الشيخ الإمام تاج الشريعة المفتي الأعظم بالهند
محمد أختر رضا القادري الأزهري حفظه الله

مولده ومسقط رأسه:

هو الإمام القدير الشأن محمد أختر رضا خان الحنفي القادري الأزهري، ولد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر محرم سنة (١٣٦٢ هـ) الموافق (١٩٤٣/٢/١ م) بمدينة بريلي في شمال الهند التي تبعد مسافة (٢٥٠) كيلومتراً من العاصمة دلهي في اتجاه الشرق.

نشأته ونسبه:

الشيخ حفظه الله ولد في بيتٍ في بيتٍ عامر بالعلم والعلماء المعروفين في القارة الهندية منذ أكثر من مئتي عام؛ حيث إنه ابن حفيد الشيخ الإمام الهمام، وحيد الزمان فريد الأوان، المجدد لأوائل القرن الرابع عشر الهجري، سيدي أحمد رضا خان الحنفي البريلوي، فنسبه إليه يصل عن طريق والديه:

فهو ابن الشيخ المفسّر الأعظم بالهند مولانا محمد إبراهيم رضا (المكنّى: جيلاني ميان)، ابن حجّة الإسلام الشيخ محمد حامد رضا، ابن الشيخ أحمد رضا الحنفي البريلوي.

ومن جهة والدته، فإن جدّه من والدته هو المفتي الأعظم بالهند محمد مصطفى رضا خان القادري الحنفي، ابن الشيخ أحمد رضا الحنفي البريلوي.

تعلمه العلوم وأساتذته:

أخذ الشيخ حفظه الله الدروس الأوّليّة والعلوم الابتدائية العقليّة والدينيّة عن العلماء الأكابر المعروفين في وقته، وعن والده وجده من والدته الشيخ محمد مصطفى، وحصل على شهادةِ خريجِ العلوم الدينية من دار العلوم منظر الإسلام بمدينة بريلي. ثم أكمل أدامه الله تعليمه في جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة في الفترة ما بين (١٩٦٣م) إلى (١٩٦٦م) درس فيها اللغة العربية وتخصص في الأحاديث وتفسير القرآن العظيم.

حياته العملمية والعلمية:

بعد عودةِ الشيخ حفظه الله من القاهرة إلى الهند انخرطَ في التدريس بدار العلوم منظر الإسلام.

أسس بعد فترة دار الإفتاء بعد أخذ الإجازة من مرشده ومعلّمه المفتي الأعظم بالهند الشيخ محمد مصطفى رضا (المتوفى سنة ١٤٠٢ هـ) وترك التدريس بدار العلوم منظر الإسلام.

وقد استخلف المفتي الأعظم بالهند الشيخ محمد مصطفى رضا قبل وفاته حفيده الشيخ العلامة محمد

أختر رضا، وعيّنه مفتياً عاماً بالهند، حيث رآه أهلاً لذلك۔

وقد برع الشيخ في الإفتاء وحلّ المسائل المعقّدة المتعلّقة في الفقه وغيره، ولا غرو في ذلك؛ لأنه تخرّج على يد المفتي الأعظم نفسه۔

إن سماحة الشيخ كثير السفر لنشر الدين والتوعية الفكريّة وعقيدة أهل السنة والجماعة، وله تلامذة ومحبّون منتشرون، ليس في الهند فحسب بل في سائر المعمورة، ويعتبر سماحته المربي لهم وهم ينهلون من علمه ومكانته الروحانية، وقد أعطي الشيخ لقب (تاج الشريعة) من قبل كبار العلماء۔

وللشيخ ميل كبير لكتابة الشعر والمدائح، وإلقائها في المحافل والمناسبات، وقد نشر ديوانه المسمّى: (نغمات أختر)، ولاحقاً تمّ نشر ديوانه باسم: (سفينه بخشش) بمعنى: (سفينة الغفران) عام (١٩٨٦م)، وتمّ إصدار طبعة جديدة ومنقحة سنة (٢٠٠٦م) والديوان يشتمل على مدائح الشيخ باللغتين العربية والأردية، وتوجد مدائح وقصائد للشيخ لم تنشر بعد۔

وللشيخ عدّةُ تصانيف ورسائل باللغتين الأردية والعربية، وجارٍ ترجمة بعضها من الأردية إلى العربية والإنجليزية، من هٰذه التصانيف:

١) الدفاع عن كنز الإيمان في جزأين۔

٢) حكم التصوير۔

٣) عمليات التلفزيون والفيديو۔

٤) الحق المبين۔

٥) مرآة النجدية۔

٦) تحقيق أنّ أبا إبراهيم تارح لا آزر۔

٧) تعريب رسالة "شمول الإسلام لأصول الرسول الكرام" للعلامة أحمد رضا رحمه اللّٰه۔

٨) رسالة سد المشارع على من يقول أن الدين يستغني عن الشارع۔

٩) رسالة الصحابة نجوم الاهتداء۔

١٠) "الهاد الكاف في حكم الضعاف" هو تعريب لرسالة من اللغة الأردية للإمام أحمد رضا رحمه اللّٰه تسمّى "منير العينين في حكم تقبيل الإبهامين"، ونبذة من رسالة نادرة صنفها الإمام بالعربية سمّيت "مدارج طبقات الحديث" التي قام سيّدي الشيخ محمد أختر حفظه اللّٰه تحقيقها وجمعها والتعليق عليها۔

١١) تعريب قوارع القهار على المجسمة الفجار۔

١٢) تعريب الأمن والعلى لناعتي المصطفى بدافع البلاء.

١٣) تعريب حاجز البحرين الواقي عن جمع الصلاتين. ١٤ ـ تعريب سبحان السبوح عن عيب كذب مقبوح.

١٥) تعريب النهي الأكيد عن الصلاة وراء عدى التقليد.

١٦) الفردة في شرح البردة وهو الّذي بين أيدينا.

إنّ دار الإفتاء بمدينة بريلي والذي يديره الشيخ بنفسه لا يعتبر دار إفتاء لمنطقته الجغرافية فقط، وإنما ساهم في تقديم الفتوىٰ إلىٰ سائر العالم علىٰ طريقة أهل السنة والجماعة، وقد بلغ عدد فتاوى الدار مايزيد علىٰ خمسة آلاف فتوىٰ.

إنّ الشيخ العلاّمة أدام اللّٰه بركاته عليه ليس بارعاً في اللغتين العربية والأردية فحسب، بل إنّ له ملكة عظيمة في اللغة الإنجليزية، وقد ساهم سماحته بالإفتاء والإملاء بالإنجليزية، وصدر له كتاب فيها.

نسأل اللّٰه العلىٰ القدير أن الصحّة والعافية لشيخنا العلاّمة محمد أختر رضا، ويلبسه حلل التقوىٰ واتباع السنّة النبوية الشريفة، وأن يطيل اللّٰه في عمره، وأن يبقيه ذخراً للإسلام والمسلمين منصوراً علىٰ أعدائه، ويحفظه منهم، وأن ينفعنا بعلومه وأنواره في الدارين، اللّٰهم آمين.

وصلّى اللّٰه على سيّدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وأبائه الطيبين وزوجاته أمهات المؤمنين، وأصحابه الكرام والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.



خادم الشيخ الفقير إلى الله

محمد خالد المكي

مقدّمة العلّامة المفتي شبّير حسن الرضوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رفع ذكر حبيبه المصطفى دافع المرض والوباء، والصلاة والسلام على رسوله صاحب الجود والسخاء، وعلى آله وأصحابه الّذين فازوا بالصّدق والصفاء، وعلى كلّ من نحا نحوهم إلى يوم الدين.

أمّا بعد! فإنّ البردة الشريفة للإمام البوصيري رحمه الله تعالى نالت مكانة مرموقة وشهرة عظيمة بين المدائح والقصائد والأناشيد الّتي أنشدت في مدح الرسول صلّى الله تعالى عليه وسلّم وتداولها النّاس والعلماء في مشارق الأرض ومغاربها وصنّفوا كتباً عديدة في بيان معانيها الرفيعة ومفاهيمها السامية ومطالبها العالية، وكشفوا ما فيها من الأسرار الخفيّة والفوائد النادرة ورفعوا اللّثام عن وجهها بعبارات سهلة وأساليب جذبة ومن تلك السلسلة الذهبيّة هذا الكتاب الّذي بين أيديكم للعلّامة الفهّامة قاضي القضاة في الهند الشيخ محمّد أختر رضا خان الحنفي القادري الأزهري الشهير بتاج الشريعة دام ظلّه العالي على الأمّة المسلمة.

قام الشيخ الكبير بشرح هذه القصيدة الشريفة بعبارة فصيحة لها في النفس أثر خلّاب بأساليب رائعة تختلب الأذهان وتثير الوجدان، واختار من الألفاظ والأساليب أخفّها على السمع وأقواها أثراً في النفوس وأروعها حسناً وجمالاً، وبيّن الفروق الخفيّة بين صنوف الأساليب وشرح الحقائق العلميّة والأدبيّة الّتي لا تخلو من غموض وخفاء بسطوع بيانه ورصانة حججه وسلك فيه مسلكاً يختلف بمسالك المتقدّمين الّذين عقدوا العزم على شرح هذه القصيدة الطيّبة، وبذلوا قصارى جهودهم في إيضاح غموضها وبيان خفاء ها، وإنّي أرى في شرح الشيخ العظيم ميزات عديدة أودّ أن أقدّم إليكم بعضاً منها:

الأولى: تحدّث الشيخ عن الألفاظ المفردة لغة واستعمالاً، وأبان الربط بين معناها اللّغوي والاصطلاحي وأتى بالأمثلة من أشعار العرب وأقوالهم لزيادة الوضاحة والبيان وإقامة الدليل على ما ذهب إليه.

الثانية: حلّل الكلمات الصعبة تحليلاً نحوياً وصرفياً، وبيّن تصرّف الكلمات من حالة إلى أخرى، وأشار إلى حسن اختيارها في المكان الّذي استخدمها الناظم والمادح لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم، وتكلّم عن وجوه الإعراب، وأعرب الأبيات كلّها إعراباً بحيث زال كلّ من الخفايا الإعرابية واللّغوية.

الثالثة: تحدّث عن الأبيات من حيث الفصاحة والبلاغة وأوضح التشبيه وأركانه وأقسامه

وأغراضه والحقيقة والمجاز والاستعارة التصريحية والمكنيّة والمجاز المرسل والعقلي والمحسّنات اللّفظيّة والمعنويّة وغيرها من الضروب والصنوف بالأمثلة الواضحة السهلة غير غامضة وصعبة.

الرابعة: يتعقّب على تسامح الشارحين لهذه القصيدة الشريفة بالأدلّة الساطعة ويرفع التضاد والتناقض الواقع في كلامهم بكلّ وضوح ولا يتجاوز الحدّ معهم.

الخامسة: يشرح كلّ بيت من الأبيات الفائزة على قمّة الأدب والجمال شرحاً يتّضح المفهوم والمراد منه وضوح الشمس في النهار، ويرتفع الحجاب عن وجه الشكوك والشبهات ويزيل الإيراد والاعتراض، وتتجلّى عقائد أهل السنّة والجماعة خلال الشرح، ويستنبط الشيخ من الأبيات الفوائد الغالية، ويستخرج من بحارها الموّاجة اللآلي النادرة ويؤيّدها بالآيات القرآنية الطيّبة والأحاديث النبويّة الشريفة وأقوال الصحابة وأفعالهم وآراء الفقهاء وفتاواهم، ويردّ الفرق الضالّة والمضلّة والكفرة والفجرة ردّاً بليغاً بالحجج القاطعة والبراهين الواضحة، ويبيّن عقائدهم الباطلة وأفكارهم الزائغة وأنظارهم الكاسدة وآراءهم الفاسدة بياناً لا تخفى على من له قليل من العلم والفكر.

وأخيراً أرجو من فضل الله تعالى أن يتلقّى العام والخاص من الأنام هذا الشرح العظيم الملىء بالمعلومات الذهبيّة والفوائد النادرة واللآلي المضيئة، وأدعو الله تعالى أن يمنح الشارح الفخيم بعيشة راضيّة ويحفظه من النوائب والشدائد في الدنيا والآخرة، وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



الفقير إلى ربّه القدير شبّير حسن الرضوي غفر له
الجامعة الإسلامية رونا هى فيض آباد يوبى الهند

قصيدة البردة

للشيخ شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري رحمه الله تعالىٰ

المتوفى ٦٩٧ھ: (أوّل البسيط)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الفصل الأوّل فی ذکر العشق

رقم الأبيات			صفحة الشرح
١	أمن تذكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ	مزَجْتَ دمعا جرى من مُقْلَةٍ بِدَمِ	٥
٢	أم هبّت الريح من تلقاء كاظمةٍ	وأومض البرق في الظلماء من إضَمِ	٨
٣	فما لعينيک إن قلتَ اكفُفا همتا	وما لقلبک إن قلت استفِقْ يَهِمِ	٩
٤	أيحسَبُ الصبُّ أنّ الحبّ مُنْكَتِمٌ	ما بين مُنْسَجِمٍ منه ومُضْطَرِمِ	٩
٥	لولا الهوىٰ لم تُرِقْ دمعا علىٰ طلل	ولا أرقت لذكر البان والْعَلَمِ	١٣
٦	فكيف تنكر حُبًّا بعد ما شهدت	به عليک عدول الدمع والسَّقَمِ	١٥
٧	وأثبت الوجد خطَّي عبرة وضنىً	مثل البهار علىٰ خدّيک والعَنَمِ	١٧
٨	نعم سرىٰ طيف من أهوىٰ فأرّقني	والحبّ يعترض اللذات بالْألَمِ	١٨
٩	يا لائمي في الهوىٰ العذري معذرة	منّي إليک ولو أنصفتَ لم تَلُمِ	٢٣
١٠	عدتک حالي لا سرّي بمستترٍ	عن الوشاة ولا دائي بِمُنْحَسِمِ	٢٦
١١	محّضتني النصحَ لكن لستُ أسمعه	إنّ المحبّ عن العذّال في صَمَمِ	٢٧
١٢	إنّي اتّهمتُ نصيحَ الشّيب في عذَلي	والشيب أبعد في نصحٍ عن التُّهَمِ	٢٨

الفصل الثانی فی منع هو النفس

رقم الأبيات			صفحة الشرح
١٣	فإنّ أمّارتي بالسّوء ما اتّعظتْ	من جهلها بنذير الشيب والهَرَمِ	٣١
١٤	ولا أعدّتْ من الفعل الجميل قِرىٰ	ضيفٍ ألمّ براسي غيرَ مُحْتَشِمِ	٣٣

۱۵	لوكنت أعلم أنّي ما أوقّرة	كتمت سرًّا بدالي منه بالكتَم	۳۵
۱۶	مَن لي بردّ جماحٍ من غوايتها	كما يردّ جماح الخيل باللُّجُم	۳۶
۱۷	فلا ترُمْ بالمعاصي كسرَ شهوتها	إنّ الطعام يقوّي شهوةَ النَّهِم	۳۷
۱۸	والنفس كالطفل إن تُهمله شبّ على	حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم	۳۷
۱۹	فاصرف هواها وحاذر أن تولّيه	إنّ الهوىٰ ما تولّى يُصْم أو يَصِم	۳۸
۲۰	وراعِها وهي في الأعمال سائمة	وإن هي استحلت المرعى فلا تُسِم	۳۹
۲۱	كم حسّنت لذّة للمرء قاتلة	من حيث لم يدر أنّ السمّ في الدَّسَم	۴۰
۲۲	واخش الدسائس من جوع ومن شبع	فربّ مخمصة شرّ من التُّخَم	۴۳
۲۳	واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت	من المحارم والزم حِمْيَة النَّدَم	۴۷
۲۴	وخالف النفس والشيطان واعصهما	وإن هما محّضاك النُّصْحَ فاتّهِم	۴۸
۲۵	ولاتطع منهما خصماً ولا حكماً	فأنت تعرف كيد الخَصْم والحَكَم	۵۰
۲۶	أستغفر الله من قول بلا عمل	لقد نسبت به نسلاً لِذي عُقُم	۵۳
۲۷	أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به	وما استقمتُ فما قولي لك استَقِم	۵۴
۲۸	ولا تزوّدت قبل الموت نافلةً	ولم أصلّ سوى فرض ولم أصُم	۵۵

الفصل الثالث فی مدح رسول الله ﷺ

۲۹	ظلمت سنّة من أحيى الظلام إلى	أن اشتكت قدماه الضُرّ من وَرَم	۵۸
۳۰	وشدّ من سغبٍ أحشاءه وطوىٰ	تحت الحجارة كشحاً مترف الأَدَم	۵۹
۳۱	وراودته الجبال الشمّ من ذهب	عن نفسه فأراها أيّما شَمَم	۶۱
۳۲	وأكّدت زهدهٗ فيها ضرورته	إنّ الضرورة لا تعدو على العِصَم	۶۳
۳۳	وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من	لولاه لم تخرج الدنيا من العَدَم	۶۵
۳۴	محمد سيّد الكونين والثقلين	والفريقين من عُرْب ومن عَجَم	۶۷
۳۵	نبينا الآمر الناهي فلا أحد	أبرّ في قول "لا" منه ولا "نعم"	۷۰

۳۶	هو الحبيب الّذي ترجى شفاعته	لكلّ هول من الأهوال مُقْتَحَم	۷۳
۳۷	دعا إلى الله فالمستمسكون به	مستمسكون بحبل غير مُنْفَصِم	۸۱
۳۸	فاق النبيّين في خلق وفي خلق	ولم يدانوه في علمٍ ولا كرمِ	۸۶
۳۹	وكلّهم من رسول الله ملتمس	غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيَم	۹۰
۴۰	وواقفون لديه عند حدّهم	من نقطة العلم أو من شَكْلَة الحِكَم	۹۲
۴۱	فهو الّذي تمّ معناهٗ وصورته	ثمّ اصطفاه حبيباً بارئ النَّسَم	۹۳
۴۲	منزّه عن شريك في محاسنه	فجوهر الحسن فيه غيرُ منقسِم	۹۸
۴۳	دع ما ادّعته النصارى في نبيّهم	واحكم بما شئت مدحاً فيه وَاحْتَكِم	۹۹
۴۴	وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف	وانسب إلى قدره ماشئت من عِظَم	۱۰۱
۴۵	فإنّ فضل رسول الله ليس له	حدّ فيعرب عنه ناطق بِفَم	۱۰۶
۴۶	لو ناسبت قدره اٰياته عظماً	أحيا اسمه حين يدعى دارس الرِّمَم	۱۰۸
۴۷	لم يمتحنّا بما تعيا العقول به	حرصاً علينا فلم نَرْتَبْ ولم نَهِم	۱۱۰
۴۸	أعيا الورى فهم معناه فليس يرى	في القرب والبعد فيه غير مُنْفَحِم	۱۱۲
۴۹	كالشمس تظهر للعينين من بعد	صغيرة وتكلّ الطرف من أَمَم	۱۱۳
۵۰	وكيف يدرك في الدنيا حقيقته	قوم نيام تسلّوا عنه بالحُلُم	۱۱۶
۵۱	فمبلغ العلم فيه أنّه بشر	وأنّه خير خلق الله كُلِّهِم	۱۱۷
۵۲	وكل أي أتى الرّسل الكرام بها	فإنّما اتّصلت من نوره بِهِم	۱۱۸
۵۳	فإنّه شمس فضل هم كواكبها	يظهرن أنوارها للناس في الظُّلَم	۱۱۸
۵۴	أكرم بخلق نبي زانه خلق	بالحسن مشتمل بالبِشر مُتَّسِم	۱۱۹
۵۵	كالزهر في ترف والبدر في شرف	والبحر في كرم والدهر في هِمَم	۱۲۰
۵۶	كأنّه وهو فرد في جلالته	في عسكر حين تلقاه وفي حَشَم	۱۲۲
۵۷	كأنّما اللّؤ لُؤ المكنون في صدف	من مَعْدِنَيْ مَنْطِق منه ومُبْتَسَم	۱۲۳
۵۸	لا طيبَ يعدِل تُرْباً ضمّ أَعْظُمَه	طوبى لِمُنْتَشِق منه ومُلْتَثِم	۱۲۴

الفصل الرابع فى مولده عليه أفضل الصلاة والسلام

٥٩	أبان مولده عن طيب عنصره	يا طِيبَ مُبْتَدَإٍ منه ومُخْتَتَمِ	١٢٧
٦٠	يوم تفرّس فيه الفرس أنّهم	قد أنذروا بِحُلُولِ البُؤسِ والنِّقَمِ	١٢٨
٦١	وبات إيوان كسرى وهو مُنْصَدِعٌ	كشمل أصحاب كسرى غير مُلْتَئِمِ	١٣٣
٦٢	والنار خامدة الأنفاس من أسَفٍ	عليه والنهر ساهي العينِ من سَدَمِ	١٣٧
٦٣	وساء ساوة أن غاضت بحيرتها	وَرُدَّ واردُها بالغَيْظِ حين ظَمِي	١٤٠
٦٤	كأنَّ بالنار ما بالماء من بلل	حزناً وبالماء ما بالنار من ضَرَمِ	١٤١
٦٥	والجنّ تهتف والأنوار ساطعة	والحق يظهر من معنى ومن كَلِمِ	١٤٢
٦٦	عموا وصمّوا فإعلان البشائر لم	تُسْمَعْ وبارقة الإنذار لم تُشَمِ	١٤٥
٦٧	من بعد ما أخبر الأقوام كاهنُهم	بأنَّ دينَهم المعوجَّ لم يَقُمِ	١٤٥
٦٨	وبعد ما عاينوا في الأفق من شهب	منقضّة وَفْقَ ما في الأرض من صَنَمِ	١٤٦
٦٩	حتى غدا عن طريق الوحي مُنْهَزِمٌ	من الشياطين يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ	١٤٧
٧٠	كأنّهم هرباً أبطال أبرهةٍ	أو عسكرٌ بالحَصَى من راحَتَيْه رُمِي	١٤٨
٧١	نبذاً به بعد تسبيحٍ ببطنهما	نَبْذَ المسبِّح من أحشاءِ مُلْتَقِمِ	١٤٨

الفصل الخامس فى معجزاته ﷺ

٧٢	جاءت لِدَعْوَتِه الأشجارُ ساجدةً	تَمْشي إليه على ساقٍ بلا قَدَمِ	١٥٢
٧٣	كأنّما سطرت سطراً لما كتبت	فروعُها من بَدِيع الخطِّ باللَّقَمِ	١٥٢
٧٤	مثل الغمامة أنّى سار سائرةً	تَقِيه حرَّ وَطِيسٍ لِلْهَجِير حَمِي	١٥٥
٧٥	أقسمت بالقمر المنشق إنّ له	من قلبه نسبةً مبرورةَ الْقَسَمِ	١٥٧
٧٦	وما حوى الغار من خير ومن كرم	وكلّ طرف من الكفّار عنه عَمِي	١٦٠
٧٧	فالصدق في الغار والصديق لم يرما	وهم يقولون ما بالغار من أَرِمِ	١٦٤
٧٨	ظنّوا الحمام وظنّوا العنكبوت على	خير البريّة لم تنسج ولم تَحُمِ	١٦٤
٧٩	وقاية الله أغنت عن مضاعفة	من الدروع وعن عالٍ من الأُطُمِ	١٦٤
٨٠	ما سامني الدّهر ضيماً واستجرتُ به	إلاّ ونلتُ جواراً منه لم يُضَمِ	١٦٧
٨١	ولا التمستُ غِنَى الدارين من يده	إلاّ استلمتُ النّدَى من خير مُسْتَلَمِ	١٦٧
٨٢	لاتُنْكِرِ الوحيَ من رؤياه إنّ له	قلبًا إذا نامت العينان لم يَنَمِ	١٦٩

۸۳	وذاک حین بلوغٍ من نبوّته	فلیس یُنکَر فیه حال مُحتَلِم	۱۷۱
۸۴	تبارک اللّٰه ما وحيٍ بمکتسب	ولانبي علی غیب بِمُتَّهَم	۱۷۳
۸۵	کم أبرأَتْ وصبا باللّمْسِ راحتُه	وأطلقتْ أرِباً من رِبْقَةِ اللّمَم	۱۷۵
۸۶	وَأحْیَت السَّنَةَ الشَّهبَاءَ دَعْوَتُه	حتی حَکَتْ غُرّةً في الأعْصَر الدُّهُم	۱۷۹
۸۷	بعارِضٍ جادَ أَوْ خِلْتَ البِطاحَ بها	سَیْباً من الیمّ أو سَیْلاً من العَرِم	۱۷۹

الفصل السادس فی شرف القرآن الکریم ومدحه

۸۸	دَعْني وَوَصْفِيَ آیاتٍ له ظهرت	ظهورَ نارِ القِرَی لیلاً علی عَلَم	۱۸۴
۸۹	فالدّرُّ یزداد حُسْنًا وهو مُنْتَظِم	ولیس یَنْقُصُ قَدْرًا غیرَ مُنْتَظِم	۱۸۵
۹۰	فما تَطَاوُلُ آمال المدیح إلی	ما فیه من کرم الأخلاق والشِّیَم	۱۸۶
۹۱	آیاتُ حقٍّ من الرحمن مُحْدَثَةٌ	قدیمةٌ صفةُ الموصوف بالقِدَم	۱۸۷
۹۲	لم تقترن بزمان وَهْيَ تُخْبِرُنا	عن المَعَاد وعن عاد وعن إرَم	۱۹۶
۹۳	دامت لدینا ففاقت کلَّ معجزةٍ	من النبیّین إذ جاءت ولم تَدُم	۱۹۹
۹۴	محکَماتٌ فما یُبْقِین من شُبَه	لذي شقاقٍ وما یُبْغِینَ من حَکَم	۲۰۰
۹۵	ما حُورِبَتْ قطّ إلاّ عاد من حَرَبٍ	أعدی الأعادي إلیها مُلْقِيَ السَّلَم	۲۰۳
۹۶	رَدَّتْ بلاغتُها دعوی مُعَارِضِها	رَدَّ الغَیُورِ یدَ الجاني عن الحُرَم	۲۰۵
۹۷	لها معان کموج البحر في مدد	وفوق جوهره في الحسن والقیم	۲۰۶
۹۸	فما تعدّ ولا تحصی عجائبُها	ولا تُسَامُ علی الإکثار بالسَأَم	۲۱۱
۹۹	قَرّتْ بها عینُ قاریها فقلتُ له	لقد ظَفِرت بحبل اللّٰه فَاعْتَصِم	۲۱۲
۱۰۰	إن تَتْلُها خیفةً من حرّ نارِ لظی	أطفأتْ حرّ لظی من وِردِها الشَّبِم	۲۱۲
۱۰۱	کأنّها الحوضُ تَبْیَضُّ الوجوهُ به	من العُصاة وقد جاءوه کالحُمَم	۲۱۶
۱۰۲	وکالصراط وکالمیزان مَعْدِلَةٍ	فالقسطُ من غیرها في الناس لم یَقُم	۲۱۶
۱۰۳	لا تَعْجَبَنْ لحَسودٍ رَاحَ یُنْکِرُها	تجاهُلاً وَهْوَ عینُ الحاذق الْفَهِم	۲۱۸
۱۰۴	قد تُنْکِرُ العینُ ضوءَ الشمس من رَمَدٍ	وینکر الفمُ طَعْمَ الماء من سَقَم	۲۱۸

الفصل السابع فی إسراءه ومعراجه ﷺ

۱۰۵	یا خیر من یمّم العافون ساحتَه	سعیاً وفوق متون الأینُق الرُّسُم	۲۲۲
۱۰۶	ومن هو الآیةُ الکبری لمعتبرٍ	ومن هو النعمةُ العظمی لِمُغْتَنِم	۲۲۳

۱۰۷	سَرَيْتَ من حَرَمٍ ليلاً إلى حَرَمِ	كما سَرَى البدرُ في داجٍ من الظُلَمِ	۲۲۳
۱۰۸	وبتَّ ترقى إلى أن نلت منزلةً	من قابَ قوسينِ لم تُدْرَك ولم تُرَمِ	۲۲۳
۱۰۹	وقدّمتک جميعُ الأنبياء بها	والرسلِ تقديمَ مخدومٍ على خَدَمِ	۲۲۶
۱۱۰	وأنت تخترق السبعَ الطباقَ بهم	في موكبٍ كنتَ فيه صاحبَ الْعَلَمِ	۲۲۶
۱۱۱	حتى إذا لم تَدَعْ شأواً لِمُسْتَبِقٍ	من الدنوِّ ولا مرقىً لِمُسْتَنِمِ	۲۳۰
۱۱۲	خفضتَ كلَّ مقامٍ بالإضافة إذ	نُودِيتَ بالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ	۲۳۱
۱۱۳	كَيمَا تفوزَ بوصلٍ أيِّ مُسْتَتِرٍ	عن العيونِ وسِرٍّ أيِّ مُكْتَتِمِ	۲۳۱
۱۱۴	فَحُزْتَ كلَّ فِخَارٍ غيرَ مُشْتَرَكٍ	وَجُزْتَ كلَّ مقامٍ غيرَ مُزْدَحَمِ	۲۳۵
۱۱۵	وجلَّ مقدارُ ماوُلِّيتَ من رُتَبٍ	وعزَّ إدراکُ ما أُولِيتَ من نِعَمِ	۲۳۵
۱۱۶	بشرى لنا معشرَ الإسلام إنَّ لنا	من العناية ركناً غيرَ مُنْهَدِمِ	۲۳۶
۱۱۷	لمّا دعا اللّٰهُ داعينا لطاعته	بأكرم الرسل كنّا أكرمَ الأُمَمِ	۲۳۶

الفصل الثامن فی جهاد النبی ﷺ

۱۱۸	راعت قلوبَ العِدَا أنباءُ بَعْثَتِه	كنبأة أجْفَلَتْ غُفْلاً من الْغَنَمِ	۲۴۱
۱۱۹	ما زال يلقاهمُ في كل مُعْتَرَكٍ	حتى حَكَوْا بالْقَنَا لَحْمًا على وَضَمِ	۲۴۱
۱۲۰	وَدُّوا الفِرَارَ فكادوا يَغْبِطون به	أشلاءَ شالَتْ مع العِقْبَان والرُّخَمِ	۲۴۲
۱۲۱	تمضي اللّيالي ولا يدرون عِدّتَها	مالم تكن من ليالي الأشهر الحُرُمِ	۲۴۲
۱۲۲	كأنّما الدينُ ضيفٌ حلّ ساحتَهُمْ	بكلِّ قرمٍ إلى لَحْمِ العِدَا قَرِمِ	۲۴۶
۱۲۳	يجرُّ بحرَ خميسٍ فوق سابحةٍ	يرمي بموجٍ من الأبطالِ مُلْتَطِمِ	۲۴۶
۱۲۴	من كلِّ مُنْتَدِبٍ لله مُحْتَسِبٍ	يَسْطُو بمُستاصِلٍ للكفر مُصْطَلِمِ	۲۴۸
۱۲۵	حتى غدت ملّةُ الإسلام وَهْيَ بهم	من بعد غُربتِها موصولة الرَّحِمِ	۲۴۹
۱۲۶	مكفولةً أبداً منهم بخيرِ أبٍ	وخيرِ بَعْلٍ فلم تَيْتَمْ ولم تَئِمِ	۲۴۹
۱۲۷	هم الجبالُ فسل عنهم مُصَادِمَهُمْ	ماذا رأى منهم في كلِّ مُصْطَدَمِ	۲۵۱
۱۲۸	وسل حنيناً وسل بدراً وسل أحداً	فصولُ حَتْفٍ لهم أدْهَى من الْوَخَمِ	۲۵۱
۱۲۹	الْمُصْدِري البيضِ حُمراً بعد ما وردتْ	من العِدَا كلَّ مسودٍ من اللِّمَمِ	۲۵۸
۱۳۰	والكاتبينَ بِسُمْرِ الخطِّ ما تركتْ	أقلامُهم حرفَ جسمٍ غيرَ مُنْعَجِمِ	۲۵۸
۱۳۱	شَاكِي السلاحِ لهم سِيمَا تُميّزهم	والوَرْدُ يمتاز بالسِّيما عن السَّلَمِ	۲۶۰
۱۳۲	تُهدِي إليک رياحُ النصرِ نشرَهُمُ	فتحسَبُ الزهرَ في الأكمام كلَّ كَمِي	۲۶۰

١٣٣	كأنّهم في ظهور الخيل نبتُ رُبا	من شدّة الحزم لا من شدّةِ الحُزُم	٢٦٢
١٣٤	طارت قلوبُ العِدَا من بأسهم فرَقًا	فما تفرّق بين البُهْم والبُهُم	٢٦٢
١٣٥	ومن تكن برسول الله نصرتُه	إن تلْقَهُ الأسد في أجامها تَجِم	٢٦٤
١٣٦	ولن ترى من وليّ غيرَ منتَصِر	به ولا من عدوّ غيرَ منقَصِم	٢٦٤
١٣٧	أحلّ أمّته في حِرْزِ ملّته	كا للّيثِ حلّ مع الأَشْبالِ في أَجَم	٢٦٥
١٣٨	كم جدّلَتْ كلماتُ الله من جَدِلٍ	فيه وكم خَصَم البرهانُ من خَصِم	٢٦٨
١٣٩	كفاك بالعلم في الأمّي معجزةً	في الجاهليةِ والتأديبِ في اليُتم	٢٦٨

الفصل التاسع فی التوسل بالنبی ﷺ

١٤٠	خدمته بمديح أستقيل به	ذنوب عمر مضى في الشعر والخِدَم	٢٧٢
١٤١	إذ قلّداني ماتُخشَى عواقبُه	كأنّني بهما هدي من النَّعَم	٢٧٣
١٤٢	أطعتُ غيّ الصِبا في الحالتين وما	حَصَلْتُ إلاّ على الآثام والنَّدَم	٢٧٤
١٤٣	فيا خسارةَ نفسٍ في تجارتها	لم تَشْترِ الدِّينَ بالدنيا ولم تَسُم	٢٧٤
١٤٤	ومن يَبِعْ آجلاً منه بعاجله	يَبِنْ له الغبنُ في بيع وفي سَلَم	٢٧٦
١٤٥	إن آت ذنباً فما عهدي بمُنتَقِضٍ	من النبي ولا حَبْلي بمُنصَرِم	٢٧٧
١٤٦	فإنّ لي ذمّةً منه بتَسْمِيتي	محمّداً، وَهُوَ أوفَى الخَلق بالذِّمَم	٢٧٨
١٤٧	إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي	فضلاً، وإلاّ فقُلْ، يا زلّة القَدَم	٢٧٩
١٤٨	حاشاه أن يحرم الراجي مكارمَه	أو يرجع الجار منه غيرَ مُحْتَرَم	٢٧٩
١٤٩	ومنذ ألزمتُ أفكاري مدائحَه	وجدته لخلاصي خير مُلْتَزَم	٢٨١
١٥٠	ولن يفوتَ الغِنى منه يداً تَرِبَتْ	إنّ الحيا يُنْبِتُ الأزهار في الأَكَم	٢٨١
١٥١	ولم أُرِدْ زهرةَ الدنيا الّتي اقتطفتْ	يدا زهير بما أثنى على هَرِم	٢٨١

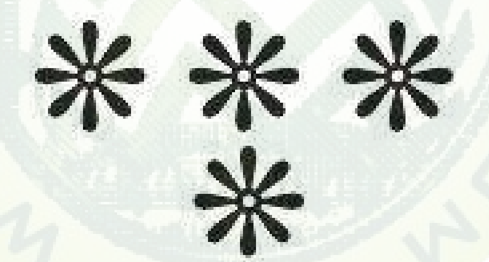
الفصل العاشر فی المناجدة وعرض الحاجات

١٥٢	يا أكرم الرُّسْل مالي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العَمَم	٢٨٦
١٥٣	ولن يَضِيقَ رسولَ الله جاهُک بي	إذا الكريم تجلّى باسم مُنْتقم	٢٨٦
١٥٤	فإنّ من جودک الدنيا وضرّتها	ومن علومک علم اللّوح والقَلَم	٢٨٨
١٥٥	يا نفس لا تقنطي من زلّة عظُمت	إنّ الكبائر في الغفران كا للّمَم	٢٩٨
١٥٦	لعلّ رحمةَ ربّي حين يَقْسِمُها	تأتي على حسب العصيان في القِسَم	٢٩٨

١٥٧	يا ربِّ واجعل رجائي غير مُنْعَكِسٍ		لديك واجعل حسابي غير مُنْخَرِمِ	٣٠٣
١٥٨	والْطُفْ بعبدك في الدّارين إنّ له		صبراً متى تَدْعُهُ الأهوالُ يَنْهَزِمِ	٣٠٣
١٥٩	وأذن لِسُحْبِ صلاةٍ منك دائمةٍ		على النبيّ بمنهلٍّ وَمُنْسَجِمِ	٣٠٥
١٦٠	ما رنّحت عذابات البان ريحُ صَبا		وأطرب العيسَ حادي العيس بالنغم	٣٠٥

زاد بعض الصالحين هذه الأبيات

١٦١	ثمّ الرضا عن أبي بكر وعن عمر		وعن علي وعن عثمان ذي الكرم	٣٠٨
١٦٢	والآل والصحب ثمّ التابعين لهم		أهل التقى والنقا والحلم والكرم	٣٠٨
١٦٣	يارَبِّ بالمصطفى بلّغ مقاصدنا		واغفرلنا ما مضى يا واسع الكرم	٣٠٨
١٦٤	واغفر إلهي لكلّ المسلمين بما		يتلون في المسجد الأقصى وفي الحرم	٣٠٨
١٦٥	بجاه مَنْ بَيْتُه في طيبةٍ حرمٌ		وإسمه قَسَمٌ من أعظم الْقَسَم	٣٠٩
١٦٦	وهذه بردةُ المختارِ قد خُتِمَتْ		والحمد لله في بدء وفي ختم	٣٠٩
١٦٧	أبياتُها قدأتت سِتِّينَ مع مائةٍ		فَرِّجْ بها كَرْبَنَا يا واسعَ الكَرَمِ	٣٠٩





الفصل الأوّل
فى الغزل وشكوى الغرام

رقم البيت (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسلام على سيّدنا محمّد الصادق الأمين

وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد اقترح منّي بعض خلّص الأحباب أن أشرح لهم قصيدة البردة الّتي أنشدها الشيخ الإمام شرف الدين البوصيري قدّس الله سرّه فإنجاحاً لطلبتهم عزمت على أن أشرحها إسعاداً لهم وتيمّناً بهذه القصيدة الميمونة المباركة متّكلاً على الله ومستعيناً به وهو حسبي ونعم الوكيل وقبل أن أشرع في الشرح ينبغي أن أقدّم بين يدي الشرح نبذة عن الشيخ الإمام شرف الدين البوصيري قدّس الله سرّه.

وشيئاً يسيراً ممّا يتعلّق بسبب إنشاد الإمام شرف الدين البوصيري هذه القصيدة وبعض الشروط الّتي يجب مراعاتها حين قرائة هذه القصيدة ليتمّ النفع لقارءها وتحصل البركة لمن قرأها ولمن سمعها إن شاء الله تعالى.

أمّا بالنسبة إلى منشئ هذه القصيدة فهو الإمام شرف الدين البوصيري وكان ساكناً بمصر وهو مشهور بالبوصيري نسبة إلى أبو صير محطّة قريبة من الإسكندرية. وكان رحمه الله تعالى بارعاً في العلوم العربية. وكان شاعراً مُجيداً. وكان فصيحاً بليغاً في غاية الفصاحة ونهاية البلاغة. وكان في بداية أمره من مقرّبي السلاطين. وكان مشتغلاً بخدمتهم ومشتغلاً بمدحهم كما أشار إلى هذا في آخر هذه القصيدة إذ يقول:

خدمته بمديح أستقيل به
ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم

إذ قلّداني ما تُخشى عواقبه
كأنّني بهما هدى من النعم

فسأله الشيخ: هل رأيت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم اللّيلة؛ أجاب الإمام إنّي لم أره البارحة. وبعد ذلك يحكي الإمام عن نفسه فيقول: امتلأ قلبي بعد سماعي هذه الكلمة من الشيخ شوقاً ومحبّة وعشقاً للنبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فاشتغلت بمدح النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم ومدحته بقصائد كثيرة. واتّفق أن أصابه الفالج فُلِجَ الإمام شرف الدين البوصيري رضي الله تعالى عنه وبطل نصف البدن وقطعه المرض عن الحركة. فلجأ إلى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأنشأ قصيدة يستشفي بها. فرأى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم ذات ليلة وهو نائم ورآه ماثلاً بين يدي النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم يمتدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بهذه القصيدة الّتي اشتهرت بالبردة. وبعد ما أتمّ القصيدة مسح النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم يده الشريفة على بدنه. فأصبح بحمد الله تعالى بارئاً. ولقيه صديق له يقال له أبو رجاء في الطريق فسأله أن يُسْمِعَه القصيدة الّتي مطلعها:

أمن تذكّر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

فتعجّب الإمام شرف الدين البوصيري رضى الله تعالى عنه. وقال له: وما أدراك بهذه القصيدة وإنّى لم أنشدها على أحد؛ قال أنا سمعتها عند النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم البارحة وأنت تنشدها. والنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم فرح بهذه القصيدة يسمعها ويتمايل لسماعها كما تتمايل الأغصان المثمرة. هذا ما يتعلّق بسبب إنشاد هذه القصيدة وما اتّفق له بسببها من الشفاء ومن رؤية طلعة النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم البهيّة.

وأمّا الشروط الّتي يجب مراعاتها فقالوا ينبغي للقارى أن يكون على وضوء وكذا السامع. وينبغي أن يستقبل القبلة ويجلس متأدّباً. وينبغي أن يداوم على الصلاة على النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم بعد كلّ بيت. ويلتزم الصلاة الّتى صلّى بها الإمام البوصيرى رضى الله تعالى عنه وهو قول الإمام:

مولاى صلّ وسلّم دائماً أبداً
على حبيبك خير الخلق كلّهم

لأنّ هذه هى صيغة الصلاة الّتى صلّى بها الإمام شرف الدين البوصيرى قدّس الله سرّه بين يدى النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ولذلك آثرها على غيرها من الصيغ لأنّها من بركات النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ولذلك قالوا لا بدّ أن يواظب من يقرأ هذه القصيدة على الصيغة الّتى هى مأثورة عن منشئها شرف الدين البوصيرى رضى الله تعالى عنه. ويُروى أنّ بعض المحبّين وكان مشتغلاً بقراءة هذه القصيدة تمنّى أن يزور النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ولم يوفّق له الزيارة مع أنّه كان مداوماً على هذه القصيدة الّتى من خواصّها أنّ مواظب هذه القصيدة يوفّق لزيارة النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم فشكى حاله إلى شيخ قال لا تراعى الشروط. قال لا بل أراعيها فراقب الشيخ وأطرق هنيهة. ثمّ قال وقفت على السرّ الّذى لم توفّق من أجله لك الزيارة. قال السرّ أنّك لا تصلّى على النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالصيغة الّتى صلّى بها الإمام شرف الدين البوصيرى.

ويحكى أنّه لمّا بلغ إلى قوله:

فمبلغ العلم فيه أنّه بشر

كفّ وامتنع كأنّه أُرْتِجَ عليه. فقال النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم: امض يا إمام. قال الإمام: إنّى لم أوفّق للشطر الثانى فقال النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم مكمّلاً للبيت ومرشداً له إلى الشطر الثانى قال:

وأنّه خير خلق الله كلّهم

فبعد ما أملى عليه النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم هذا الشطر تمّ له البيت:

فمبلغ العلم فيه أنّه بشر
وأنّه خير خلق الله كلّهم

قال الناظم الفاهم:

أمن تذكّر جيران بذى سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

جرّد الناظم الفاهم ههنا من نفسه شخصاً يخاطبه وكأنّ هذا الشخص المجرّد كتم ما به من الهوى وأنكر أن

يكون به شيء من الهوى فخاطبه الناظم الفاهم وقرّره بما ينكره لا بدّ أن تكون محبّاً وعاشقاً و كيف تنكر ذلك و كيف يتأتّى لك إنكاره مع أنّ شأنك وحالك يُنبِئ عن فؤادك ويخبر أنّ قلبك منطوٍ على محبّة معشوق فقال:

أمن تذكّر جيران بذى سلم
مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدم

الهمزة للاستفهام ولها الصدارة. ومن متعلّق بمزجت قدّمت إفادة للحصر أى من أجل تذكّرك مزجت الدمع بالدم لا لشيء غير هذا وقدّمت إفادة للحصر ورعاية للنظم وإفادة للتعليل يعنى أنّ سبب بكاءك تذكّرك للجيران الكائنين بذى سلم موضع بالمدينة. وقوله مزجتَ من المزج والمزج هو الخلط ولكنّ بينهما فرقاً أبداه أهل المعرفة باللّغة. فالمزج خلط الشيئين بحيث يتكوّن منهما حقيقة واحدة كما أنّك تمزج الماء باللّبن والأقط بالسمن أو بالعسل. ويتكوّن بهذا كلّه حقيقة واحدة. والخلط أعمّ من هذا تقول خلطتُ الدراهم بالدنانير. فالدراهم والدنانير مخلوطة ولكن بخلطهما لا تتأتّى حقيقة واحدة. فالدراهم بحالها والدنانير بحالها. والأمر فى الأوّل على العكس إذا مزجتَ هذا بهذا اضمحلّ ما مزجته وصار شيئاً واحداً. وهذا هو الفرق. والدمع هو الماء السائل من العين. والدمع قد يكون من الحزن وقد يكون من الفرح. فالدمع الّذى يكون من الحزن يكون فيه الحرارة والدمع الّذى يكون بالفرح يكون دمعاً بارداً. وجرى فعل ماض من الجرى وهو السيلان أى أمن تذكّر جيران مزجت دمعاً (ماء) جرى من عينيك (سال من عينيك) بدم. والتذكّر من الذِّكر أو من الذُّكر. والذِّكر ما يكون باللّسان والذُّكر ما يكون بالقلب والتنوينات فى جيران ودمعا ومقلة ودم معوّضة عن المضاف إليه. وهو كاف الخطاب أى أمن تذكّرك جيرانك بذى سلم مزجت دمعك الّذى سال من مقلتك بدمك. وذى سلم موضع بالمدينة مركّب من مضاف ومضاف إليه. المضاف هو ذو. وذو كلمة بمعنى الصاحب. وأبدى العلماء فرقاً بين ذى وبين صاحب بأنّك إذا قلت ذى سلم فهذا الأسلوب ينبئ عن الشرف فى المضاف. ولو قلت صاحب فالشرف فى المضاف إليه كما يقال صاحب النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ولكن أظنّ أنّ هذا أغلبى وهذا منقوض بقوله سبحانه وتعالى (وما صاحبكم بمجنون) فى هذه الكلمة صاحب مضاف والشرف فى المضاف لا فى المضاف إليه كما هو معلوم. وصاحب المراد به النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهو أشرف الأشرفين. و كذلك ما ادُّعى من أنّه إذا قيل ذو فلان فالشرف فى ذو. هذا منقوض أيضاً بذى الخويصرة فلا شرف هنا فى المضاف ولا فى المضاف إليه. هذا ما كان يتعلّق بذى سلم. وسلم بفتح اللّام اسم للشجرة. وسَلِم بكسر اللّام اسم جمع واحده سلمة وهو أيضاً اسم للشجرة. وذى سلم المراد به ظاهراً موضع بين مكّة والمدينة كان ينزله النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى سفره إلى مكّة. وفى هذه الكلمة أوجه أخر: فسلم المراد بها السلامة. وذو سلم المراد به مكان ذو سلامة من الآفات وهو الجنّة وأعلى علّيّين. أو المراد به عالم الأرواح. والمراد بالجيران إمّا المحبوب والجمع للتعظيم. والمحبوب هنا هو سيّد المحبوبين النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. أو المراد بالجيران الأنبياء والصالحون والأرواح العالية. كأنّ الناظم الفاهم اشتاقت نفسه إلى موطنه الّذى هو موطن كلّ إنسان وهو عالم الأرواح. ولذلك ورد فى حديث (حبّ الوطن من الإيمان). يعنى المؤمن مهما كان فى الدنيا فإنّ نفسه تشتاق إلى المنزل الأوّل والموطن الأصلى الّذى هو مقرّه فى

النهاية كما كان مقرّه فى البداية وهو عالم الأرواح الّذى جاء منه وينتهى إليه بعد الموت.

رقم البيت (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وعلى آله الكرام وصحبه الفخام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد تكلّمنا فيما سبق على البيت الاول من بردة المديح للإمام شرف الدين البوصيرى وهو:

أمن تذكّر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وها نحن نتابع شرحنا لهذه القصيدة المباركة وقد حان لنا أن نشرع فى شرح البيت الثانى وهو قول الناظم الفاهم:

أم هبّت الريح من تلقاء كاظمة
وأومض البرق فى الظلماء من إضم

قال الشارحون أمْ هبّت الريح أم ههنا متصلة ومضى عليه أكثر الشرّاح ومعنى كونها متصلة أنّ البيتين فى حكم كلام واحد لايستغنى أحدهما عن الآخر. وقال بعض الشرّاح أم ههنا منقطعة أى هى بمعنى بل، كأنّه قيل ماسبب مزجك الدمع بالدم أهو تذكّر جيران بذى سلم فلهذا مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم. لأنّك تذكّرت جيراناً بذى سلم. وبعد ذلك أضرب السائل وقال: لا بل هبّت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم. هبوب الريح يعنى مجيئها أو نشرها أو تحركها. والريح من المؤنّثات السماعية سمّى الريح ريحاً من الرواح لأنّ الريح فى رواح دائم. وعلى كون أم متصلة قوله هبّت الريح وأومض البرق فى تأويل مصدر يعنى أمن تذكّر جيران مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم أم من هبوب الريح من تلقاء كاظمة أو من إيماض البرق فى الظلماء من إضم. السائل ههنا تدّعى أنّك محبّ ويقرّر المحبّ والعاشق بعشقه ومحبّته. والمحبّ يكتم حبّه وعشقه. والسائل يتمادى فى الادّعاء بأنّك محبّ ويستدلّ على ذلك بآثار المحبّة كأنّه يدّعى أنّك محبّ ويستدلّ لذلك بترتيب قياس فيقول مزجك الدمع بالدم من آثار المحبّة و كون الريح هبّت من تلقاء كاظمة فهيّجت منك البكاء هذا أيضاً من آثار المحبّة وإيماض البرق من إضم فى اللّيلة الظلماء أظهر منك الكامن ولمكتتم فى قلبك وهو الشوق إلى المحبوب هذا أيضاً من آثار المحبّة. فأنت محبّ لامحالة ولاسبيل إلى إنكار ذلك وقد ظهرت منك آثاره. والقضية مانعة الخلو وليست بمانعة الجمع يعنى لايخلو أنّك قد بكيت من تذكّر جيران ومزجت الدمع بالدم أوهاج منك البكاء لأنّ الريح هبّت من تلقاء كاظمة أو لانّ البرق قد لمع من ناحية إضم ولامانع من الجمع واجتماع كلّ هذه الأمور. والبرق عند أهل السنّة سوط الملك أى درّته والرعد اسم للملك. والقلب محل العقل عند أكثر أهل السنّة والجماعة وفى التعبير بالقلب لطيفة هى أنّ القلب مشتق من التقلّب ولذلك سمّى القلب قلباً لأنّه دائما فى تقلّب ولايستقرّ على حال ومع ذلك الشاعر الناظم الفاهم يدّعى على المحبّ أنّك فى همّ مستمرّ وحزن دائم لاتتحوّل عن هذا ولا تتغيّر ولا

تتقلّب حالتك. وتلقاء بكسر التاء كالتبيان مصدر وليس على هذه الزنة بكسر التاء مصدر وماجاء ممّا سواهما بكسر التاء فهو صفة أو اسم كالتلعاب بمعنى كثير اللعب والتلعاب مصدر بمعنى اللعب. وكذلك التماثل اسم للمثال والصورة ويطلق على صورة ذى روح على صورة حيوان يقال فى ثوبه تماثيل أى فى ثوبه صور الحيوانات.

كاظمة قيل موضع بقرب المدينة وقال الخربوتى كاظمة اسم من أسماء المدينة وكاظمة مشتق من الكظم وهو تسكين الغضب وقد جاء فى التنزيل "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" يعنى الله سبحانه وتعالى يمتدح الّذين يملكون أنفسهم عند الغضب، ويسكن غضبهم والّذين دأبهم العفو عن الناس وبشّر بعد ذلك بأنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ المحسنين. وعند ذلك تحضرنى حكاية أوردها الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين عند هذه الآية وهى أنّ أمة سيّدنا زين العابدين كانت توضّئه وصادف أن سقط الإبريق من يدها ووقع على وجه سيّدنا زين العابدين فأصابته شجّة فنظر إليها مغضباً فتلت الأمة هذه الآية قالت "الكاظمين الغيظ". فلمّا بلغت "والله يحبّ المحسنين" قال أنت حرّة لوجه الله. وسمّيت المدينة بالكاظمة مجازاً لأنّ المدينة ليست هى الكاظمة وإنّما الكاظم من يسكنها فتسميته بالكاظمة على سبيل المجاز كما يقال جرى النهر والنهر ليس بجارٍ وإنّما الجارى فيه الماء وهذا من إطلاق المحل وإرادة الحال. وفيه وجه آخر يحتمل أن يراد بالكاظمة الضريح الشريف والمرقد المنيف لسيّدنا محمد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم من إطلاق العام وإرادة الخاص. وهبوب الريح إمّا هو على الحقيقة أو هو مجاز. والمراد من هبوب الريح ما يلزم من هبوب الريح لأنّ الريح إذا هبّت فهبوب الريح يستتبع إيصال شىء إلى ما تصل إليه كالكلأ اليابس ونحوه وههنا يراد به وصول أثر من ناحية المحبوب والبلدة الحبيبة يهيج للعاشق البكاء ويحرّك الكوامن من الشوق والغرام.

ويجوز أن يراد بالريح الرائحة الطيّبة. فالمعنى أيّها الباقى هل شمّ أنفك الرائحة الطيّبة الّتى وصلت إليك على أثر ريح هبّت من ذلك الجانب فهيّج البكاء. ويحتمل أن يراد بالريح ريح صبا. وههنا يمكن القول بالاستعارة كأنّ الناظم الفاهم ادّعى أن سيرة سيّدنا محمد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم وشمائله ومكارم أخلاقه من حنين ريح صبا. ثمّ شبّه تلك الشمائل والسيرة الطيّبة بريح صبا فكنى المشبّهة وصرّح بالمشبّهة به وهذا استعارة مصرّحة. والهبوب أيضاً فيه مجاز وفيه استعارة فالهبوب فيه ترشيح للاستعارة التصريحيّة يعنى هل وصلت إليك شمائله وسيرته الطيّبة وتذكّرت مكارم أخلاقه الّتى تشبه ريح صبا والّتى انتشرت فى الآفاق وعمّت البلاد فهيّج ذلك منك البكاء.

رقم البيت (٢، ٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم

وعلى آله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد تكلّمنا فيما مضى على البيت الثانى من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم: أم هبّت الريح من تلقاء

كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم وقد استوفينا الكلام على هذا البيت وها نحن نشرع فى شرح البيت الثالث وهو قول الناظم الفاهم:

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا

وما لقلبك إن قلت استفق يهم

وهذا البيت مرتبط بما قبله. ويفهم من هذا البيت أنّ الناظم الفاهم جرّد من نفسه شخصاً وخاطبه كما صنع فى البيتين الّذين قبله. وكأنّ الشخص المجرّد ورد من جهته المنع على القياس الّذى رتّبه الناظم الفاهم وهو أنّ مزجك الدمع بالدم وهيجانك واشتياقك بهبوب الريح وإيماض البرق يشعر بأنّك مستهام عاشق مشتاق. لأنّ من كان هذا حاله لابدّ أن يكون مشتاقاً. فالشخص المجرّد أنكر أن يكون به ما ادّعاه الناظم الفاهم من الحبّ وقال سلّمت أنّى مزجت الدمع بالدم وطرأت علىّ الآثار الّتى ذكرتها ولكنّى لا أسلّم أنّى صبّ ومشتاق ومحبّ. لم لا يجوز أن يكون بكائى لمرض أو آفة. فالناظم الفاهم تفنّن فى الاستدلال وتحوّل إلى دليل آخر فقال إن كنت تنكر الحبّ فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم. فالفاء فى قوله فما لعينيك فصيحة تفصح عن شرط مقدّر أى إن كنت تنكر الحبّ فما حصل لعينيك إن قلت لهما اكففا أى احتبسا وامتنعا أو كفّا دمعكما. وذلك لأنّ الكفّ يستعمل لازماً ومتعدّياً. فعلى تقدير كونه لازماً يكون المعنى امتنعا. وعلى كونه متعدّياً يكون المعنى كفّا أى امنعا دمعكما. فما لعينيك أى ما حصل لعينيك؟ وقوله إن قلت اكففا همتا هذا تفسير لقوله ما. وهمتا أى سالتا دمعاً فالتميز هنا محذوف. كذلك وما لقلبك إن قلت استفق يهم أى ما حصل وما حدث لقلبك إن قلت له استفق أى أفِق من غمرتك وكن صاحياً من غفلتك. إذا قلت له هذا لم يمتثل أمرك بل يتمادى فى الغرام. وإذا قلت له استفق يهم. هذا فى محلّ الجزم يعنى يهيم ويتحيّر. وقوله همتا فعل ماضى مثنىّ ومعناه سالتا. وضمير التثنية راجع إلى العينين. وإسناد الهميان وهو السيلان إلى العينين على سبيل المجاز لأنّ العينين لاتسيلان. وإنّما السائل منهما الدمع. وإسناد الهميان إلى العينين كقولك سال الميزاب وقولك سال الوادى والميزاب لا يسيل إنّما الماء هو الّذى يسيل من الميزاب. والوادى لا يسيل إنّما ذلك الماء الّذى يسيل فى الوادى. وردّ السكّاكى هذا إلى الاستعارة المكنيّة. شبّه العين بالمطر فى الشرافة والعلوّ. كما أنّ المطر أشرف المياه وأعلاها. كذلك العين أشرف الأعضاء وأخصّها. فالشرافة والعلوّ وجه الشبه الجامع بين المشبّه والمشبّه به. ثم ادُّعى للمشبّه به فردان فرد متعارف وفرد غير متعارف. فرد متعارف المطر وغير متعارف العين. ثمّ استُعير المشبّه به فى الذهن وهو الفرد المتعارف أعنى المطر للعين وهو الفرد الغير المتعارف. ثمّ ذُكر فى الخارج العين وهو المشبّه والفرد الغير المتعارف وأريد به المطر وهو الفرد الغير المتعارف. ثمّ انتُزع من جانب المشبّه وهو سيلان العين أمر وهمى والأمر الوهمى هذا شُبّه بالمطر فى سرعة الجريان. ثمّ ذُكِرَ اللّفظ الدال على المشبّه به وهو سالتا وأريد المشبّه. ويجرى فيه أيضاً مذهب الجمهور بأن يشبّه العين فى الذهن بالمطر فى سرعة الجريان. ثمّ استعير المطر فى الذهن للعين. وفى الخارج ذُكِرَ المشبّه أعنى العين وأريد هو يعنى المشبّه وللرمز والإشارة إلى الاستعارة الّتى كانت فى الذهن أثبت همتا وهذا

الإثبات تخييل. وهذه الاستعارة تخييلية والهيمان هذا من لوازم المشبة. وإنّ جملة همتا جزاء لقوله ا كففا، و كذلك يقال فى قوله يهم يعنى يهم جزاء لقوله "إن قلت استفق". والقلب شكل صنوبرى تحت الضلع الأيسر وهو منبع الحياة والإيمان. قال بعض العرفاء خلق الله الروح أوّلاً ثمّ خلق الجسد. وأمر الروح بالازدواج مع الجسد. فالروح ازدوجت مع الجسد، ووُلِدَ بينهما ولدان ذكر وأنثى. فالذكر هو القلب الّذى هو موضع الإيمان، والقلب تبع الروح. والأنثى هى النفس وتبعت الشيطان والجسد. والنفس محلّ الفساد. وكما قيل النتيجة تكون تابعة لأخصّ المقدّمتين. ويؤيّد ما قاله العرفاء قول النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم "ألا إنّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهى القلب".

قوله استفق أمر من استفاق وهو بمعنى أفق واستفاق بمعنى أفاق والسين فيه للوجدان أى كن مفيقا. ويهم من الهيمان وأصله يهيم وهو فى محلّ الجزم جزاء لقوله إن قلت استفق. ويهم من هام يهيم بمعنى تحيّر ودُهش حذفت ياء للجزم. وفى هذا البيت جناس شبيه بالمشتق بين قوله همتا وقوله يهم. فهمتا من الهيمان ويهم من الهيمان. وهذا ما يقال فى صناعة البديع الجناس الشبيه بالمشتق كما فى قوله تعالى (قال إنّى لعملكم من القالين). فقال من القول وقالين من القلى. وبين قال والقالين جناس شبيه بالمشتق كذلك ههنا جناس شبيه بالمشتق. والقول ههنا بمعنى الخطاب لأنّه تقرّر أنّ القول إذا تعدّى باللّام كان بمعنى الخطاب وإذا تعدّى بفى كان بمعنى الاجتهاد وإبداء الرأى وإذا تعدّى بعلى كان بمعنى الاعتراض والكذب والتقوّل وإذا تعدّى بالباء يكون بمعنى الحكم أى قال به أخذ به وحكم به. أبوحنيفة قال بكذا أى أفتى بكذا. وفى القول إذا تعدّى بالباء أوجه شتّى: يقال قال برجله أى مشى بها أوضرب بها وقال برأسه أى أشار برأسه وقال بثوبه أى رفع ثوبه وقال بالماء على يده أى أمرّ الماء وقلّبه على يده.

وبقى أن أذكر خاصية الأبيات الثلاثة. يحكى الشيخ الخرپوتى شارح قصيدة البردة عن أستاده أنّه قال خاصية هذه الأبيات الثلاثة أنّه إذا كانت عندك بهيمة لاتتعلّم فاكتب هذه الأبيات الثلاثة فى زجاج وامحها بماء المطر واسقها للبهيمة فإنّها تتعلّم وتذلّل لك.

يقول الخرپوتى قال الأستاذ طوّل الله بقاه جرّبته فوجدته صحيحاً. وخاصية أخرى هى أنّك إذا كتبت هذه الأبيات الثلاثة فى رقّ غزال وعلّقت على عضد رجل بلسانه ركاكة فإنّه يتعلّم بسرعة وتزول ركاكته ويكون فصيحاً.

أودّ أن أكمل كلاما يتعلق بقوله ا كففا وقبل أن أجىء ببقيّة الكلام يناسب ان أُذَكِّرَكَ بما قلت فيما سبق من أنّ الكفّ يستعمل لازماً ومتعدّياً. فاللّازم بمعنى الامتناع والمتعدّى بمعنى المنع. فمعنى قوله ا كففا كما قلت فيما سبق على تقدير كونه لازماً امتنعا أيّتها العينان عن البكاء أو امنعا دمعكما من السيلان على كونه متعدّياً. واعترض على هذا أنّه كان حق الكلام أن يقول كفّا بالإدغام ولايقول ا كففا بفكّه. وأجيب أنّه ارتكب فكّ الإدغام لضرورة الشعر وقد جمع الشاعر مايغتفر لضرورة الشعر فى قوله إشباع تحريك وفكّ لمدغم وتذكير تأنيثٍ وعكسه بندرة ويحضرنى ههنا بمناسبة الكفّ ما قيل من المثل وهو خير الناس من كفّ فكّه وفكّ كفّه وشرّ الناس

من كفّ كفّه وفكّ فكّه. والمعنى خير الناس من حفظ لسانه والتزم الصمت وامتنع عن كثرة الكلام. وهذا كما قال عليه الصلاة والسلام (قل خيراً وإلاّ فاسكت أو كما قال صلّى الله تعالى عليه وسلّم). ومعنى فكّ كفّه أى بسط كفّه بالخير وبادر إلى الإنفاق فى وجوه البرّ وشرّ الناس بعكس ذلك من أرسل لسانه وكثر كلامه وتكلّم بالشرّ و كفّ كفّه أى قبض كفّه وبخل بالمال فلم ينفقه فى وجوه البرّ.

وفى قوله ا كففا وهمتا صنعة من علم البديع تسمّى الطباق وهو الجمع بين المعنيين المتقابلين لأنّ ا كففا بمعنى امتنعا أو امنعا وهمتا بمعنى سالتا فامتناع العين أو منع العين عن الجريان بالدمع والجريان بالدمع مفهومان متقابلان. ففيه صنعة الطباق على هذا المعنى.

ولمّا لم يجب المسؤول السائل الّذى طرح إليه سوالاً يستفهمه عمّا حصل لعينيه وقبله من فرط البكاء والهيمان وامتناعهما عن امتثال أمره وتمادى العينين فى إسالة الدموع واستمرار القلب فى الهُيام والغرام لما لم يجب المسؤل رجع السائل إليه منكراً وردّاً لإنكاره قال:

أيحسب الصبّ أنّ الحبّ منكتم

ما بين منسجم منه ومضطرم

أيحسب بكسر السين وفتحها أى أيظنّ. والصبّ العاشق المشتاق والمستهام. والصبّ هنا صفة غلبت عليها الاسمية. وسمّى العاشق بالصبّ لكثرة صبّه الدموع. أيحسب الصبّ أنّ الحبّ منكتم أنّ الحبّ فى محلّ نصب مفعول أيحسب. والحبّ هو الميل الطبعى ميل القلب إلى الشىء كالعطشان يميل إلى الماء. ومنكتم اسم فاعل بمعنى مستتر ومختفٍ. يعنى أيحسب الصبّ أنّ الحبّ منكتم أى مستتر ومختفٍ ما بين دمع منسجم. ومنسجم بمعنى السائل. وهذا فى موقع الصفة والموصوف محذوف تقديره دمع أى أيحسب الصبّ أنّ الحبّ منكتم ما بين دمع منسجم منه أى من الصبّ أو من الحبّ. فالضمير راجع إمّا إلى الصبّ وإمّا إلى الحبّ. وإذا كان راجعاً إلى الصبّ فمن ابتدائية. وإذا قدّر الضمير راجعاً إلى الحبّ فمن سببية لإفادة السبب. أيحسب الصبّ أنّ الحبّ منكتم مختفٍ ما بين دمع منسجم وحرّ قلب مضطرم. ومضطرم من الضرام وهو الاحتراق. ومضطرم اسم فاعل على وزن مفتعل والتاء بعد الضاد أبدلت بالطاء. ومضطرم صفة لقلب وههنا مضاف محذوف اقتضاه المقام لتصحيح الكلام. لأنّ الناظم الفاهم ادّعى أنّ الحبّ منكتم ما بين دمع منسجم وبين قلب مضطرم. فأفاد أنّ الحبّ متوسّط بين الشيئين وهذا التوسّط يقتضى أنّ الحبّ خارج عن القلب مع أنّ الحبّ لايكون خارجاً عن القلب. الحبّ محلّه القلب فلو أجرينا الكلام على ظاهره فسد المعنى. ولذلك قدّر الشارح هنا مضافاً محذوفاً وأفاد أنّ الكلام على تقدير مضاف أى ما بين دمع عين منسجم وحرّ قلب مضطرم. ودلالة اضطرام القلب على الحبّ بسبب مايلازمه أى يلازم المحبّ من اصفرار الوجه وتغيّر حاله وسحافة بدنه أى هزال جسمه. فهذا من قبيل الاستدلال بالمسبّب على السبب.

وفى البيت التفات من الخطاب إلى الغيبة حيث قال أيحسب الصبّ. فالظواهر كلّها من قبيل الثانى يعنى من قبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة. ويناسب هذا البيت والّذى قبله ما أنشده الشاعر وهو الظهير الأردبيلى

حيث يقول:

طرفي وقلبي ذا يسيل دماً وذا
دون الورى أنت العليم بقرحه

وهما بحبّك شاهدان وإنّما
تعديل كل منهما في جرحه

بقيت أمور وددتُ أن أذكرها إتماماً للكلام. منها أنّ التنوين في منسجم للتكثير. ولعلّه قد مرّ أنّ المنسجم بمعنى السائل والتنوين في مضطرم للتعظيم والمضطرم الملتهب. وقد مرّ أنّ الطاء في مضطرم مبدلة من التاء. وقوله ما بين منسجم ومضطرم ما زائدة أونكرة صفة لمنكتم أو موصولة. وعلى هذا التقدير الأخير ما صفة أو بدل من الحبّ. ويمكن أن يقال ما بين منسجم ومضطرم في محلّ النصب على الظرفية أي مكتتم عن الناس فيما بين منسجم ومضطرم أي في محلّ متوسّط بين دمع عين منسجم وحرّ قلب مضطرم. وقد مرّ أنّ الضمير في منه راجع إلى الصبّ أو الحبّ. وأنّ من ابتدائية على التقدير الأوّل يعني إذا كان الضمير راجعاً إلى الصبّ أو سببيّة على التقدير الثاني يعني إذا كان الضمير راجعاً إلى الحبّ. ومنه إمّا صفة لمنسجم أو حال من منسجم. وإيضاحاً للمرام أودّ أن أعيد بعض ما قلت في شكل سوال. لماذا قدّر الشارح. فقال: ما بين دمع عين منسجم وحرّ قلب مضطرم؟ الجواب أظهر المقدّر هنا إشارة إلى أنّ منسجم صفة لعين. وقدّر الدمع المضاف إلى العين لأنّ المقام يقتضي هذا التقديرلأنّه جليّ أنّ العين لاتنسجم والعين لاتجري ولاتسيل. إنّما الدمع هو الّذي ينسجم ويسيل ولذلك قدّر المضاف وقال مابين دمع عين منسجم. و كذالك القول في حرّ قلب مضطرم. أظهر ههنا المقدّر إشارة إلى أنّ مضطرم صفة قلب. وقدّر المضاف. فقال: ما بين دمع عين منسجم وحرّقلب مضطرم. لأنّه ادّعى أنّ الحبّ مختفٍ متوسّط بين دمع عين منسجم وحرّ قلب مضطرم. والتوسّط يقتضي هذا التقدير كما لايخفى.

رقم البيت (٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الخامس من الفصل الأوّل وهو قول الناظم الفاهم:

لو لا الهوى لم تُرِقْ دمعاً على طلل
ولا أرِقْتَ لذكر البان والعلم

كأنّ المسئول للسائل يقول وهو يظنّ أنّ حبّه سيخفى على السائل بضرب من الحيلة. يقول سلّمنا إنكارك على الحبّ ولكنّي لست بصبّ ولست بالمحبّ فما دليلك على ذلك؟ قال السائل منتقلاً من دليل إلى آخر وماضياً في الاستدلال:

لو لا الهوى لم تُرِقْ دمعاً على طلل
ولا أرِقْتَ لذكر البان والعلم

أى لو لا الهوى موجود منك لم ترق أى لم تصبّ من الإراقة وهو الصبّ دمعاً على طلل أى فى طلل. ولا أرقت أى لم تسهر ولم تزُل مستيقظاً طول الليل لذكر البان أى من أجل ذكر البان. فاللّام هنا للتعليل. قوله لذكر البان والعلم. البان شجرة عربيّة يكثر ذكرها فى أشعار المحبّين. يذكرونها فى جملة ما يذكّرهم من معاهد الأحبّة. فالبان شجرة الأحبّة. والعلم بمعنى الجبل أو الطويل منه. وهو أيضاً من جملة ما يذكره الشعراء من معاهد الأحبّة. ولولا حرف امتناع لوجود أى لو لا الهوى موجود لامتنعت من صبّ الدموع ولتصبّرت. ولكنّك لم تتصبّر وأجريت الدموع واشتقت من ذكر المعالم وهبوب الريح وإيماض البرق. فدلّ ذلك على أنّ الهوى المفرط ثابت وموجود. وهو الّذى منعك الصبر والسلوان. ولو لا كما قلت حرف امتناع لوجود. فلو لا كلمة مركّبة من لو ولا لازمة الدخول على المبتدأ والخبر محذوف وجوباً وجوابه لم ترق دمعاً على طلل. و كما قلت لو لا لازمة الدخول على المبتدأ. والمبتدأ هنا الهوى وخبره محذوف وجوباً أى موجود. وسدّ مسدّه مجزومها أى لم ترق دمعاً على طلل. وأردف الدليل المذكور بآخر أى جاء بدليل آخر تلو ما مضى من دليل وهو قوله ولا أرقت لذكر البان والعلم. وقد مرّ أنّ البان والعلم من مواضع الأحبّة. والبان شجر والعلم الجبل أو الطويل منه. ويحتمل أنّه خصّ البان والعلم بالذكر وقال (ولا أرقت لذكر البان والعلم) لشبه المحبوب الّذى هاجت فى قلبه ذكراه وتحرّك من فؤاده هواه. شبّههما وذكر البان والعلم لشبه محبوبه فى طول القامة بالبان الشجر والعلم الجبل. فذكر البان والعلم تشبيهاً للمحبوب بالبان والعلم فى طول القامة وحسن الهيئة وطيب الرائحة. وإنّما أورثه ذكرهما السَهَر لفناء الرطوبات الكائنة بدماغه المتولّدة من صعود أبخرة المعدة إليه بكثرة الحرارة الناشئة من الحبّ. وقد جرت العادة أنّ النوم يتولّد من الرطوبات إذا كثرت. فتجمّد هناك أى فى الدماغ إذا كثرت الرطوبات ويتولّد منها النوم والسبات. ولذا تنعكس الحرارة عند النوم إلى داخل الجسد. وسببها الأعظم كثرة الطعام والشراب لاشتغال الحرارة بهضمها فينجمد لذلك وينام. والمحبّ الّذى شغله حبّه عن الأكل والشرب تفنى رطوباته وتتضاعف حرارته الغريزيّة المتولّدة من لوعة الحبّ وحُرقته. فتنقطع رطوباته فلا ينام لا سيّما إذا تذكّر معاهد الأحباب أو ما هو شبيه بها. وقد مضى منّى أن قلت إنّ اللّام فى لذكر البان للتعليل والألف واللّام فى الهوى لإفادة الجنس أو لإفادة العهد. والمعنى لو لا جنس الحبّ. لو لا حقيقة الحبّ. لو لا ماهية الحبّ. أو المعنى لو لا هواك على إرادة العهد لم ترق دمعاً على طلل.

بقى هنا شىء أودّ أن أنبّهك عليه. وهو أنّ صاحب الذخر والعدّة السيد محمد على بن علّان الصدّيقى المكّى قال فى شرح هذا البيت لولا الهوى موجود لديك لم ترق أى لم تصبّ دمعاً على طلل أى فى طلل منسوب للأحبّة إن قدّر أنّه رآه يبكى فيها وفيه تكلّف وإلّا فهى للتعليل. (ص١٠٥)

أقول ما ادّعاه من التكلّف ليس كما ينبغى. ويبدو أنّ هذا ذهول من السيّد. وقد بنى هذا الاعتراض على أنّه رآه يبكى فيها. ومعلوم أنّ الناظم الفاهم فى كلّ هذه الأبيات جرّد من نفسه شخصاً وخاطبه بمضمون هذه الأبيات. وكلّ هذا أمر ليس مبنيّاً على المحقق والواقع. وإنّما هو تخيّل وتصوّر. فكذلك ههنا الناظم الفاهم جرّد من نفسه شخصاً وخاطبه بأمر تخيّله وتصوّر. فهو يقول لولا الهوى موجود لديك لم تجِئ إلى هذه الحالة كأنّك تبكى على طلل.

ومعلوم أنّ كلّ هذا مبنى على المبالغة. وهى من محسّنات الشعر.

ثمّ أردف الناظم الفاهم هذين البيتين بدليل ثالث فقال:

ولا أعارتك لونى عبرة وضنًى
ذكرى الخيام وذكرى ساكن الخيم

وهذا البيت لايوجد إلّا فى النسخة الّتى شرحها السيّد محمد على ابن علّان الصدّيقى المكّى. وأكثر النسخ من قصيدة البردة خِلْو من هذا البيت. والمعنى ولاأعارتك أى ولاأعطتك على وجه العارية لونى عبرة وضنًى. المراد باللّونين هنا اللّباسان الكسوتان على وجه التشبيه. فههنا المشبّه به مضاف إلى المشبّه كما يقال أجار ناس أى ناس كالأجار. أضيف المشبّه به وهو الأجار إلى الناس كذلك الشأن هنا أضيف المشبّه به وهو قوله لونى إلى المضاف إليه وهو العبرة والضنى. وشبّه الحال الّتى أورثتها العبرة والضنى باللّباسين. وقوله ذكرى الخيام وذكرى ساكن الخيم. الذكرى بمعنى التذكّر. وههنا استعارة شبّه الذكر بشخص يصلح للإعطاء فقال ولاأعارتك ذكرى أى ولاأعطتك ذكرى الخيام وذكرى الخيم ولا ألبستك ولا كستك ذكرى الخيام اللّباسين من العبرة والضنى. وذكر الشارح ههنا أنّ فى قوله لونى عبرة وضنى استعارة بالكناية على معنى أنّه شبّه حالة الصبّ والمشتاق باللّباس. ورمز للمشبّه به لقوله أعارتك. ففى قوله لونى عبرة وضنى استعارة بالكناية. لأنّه ذكر المشبّه به وأراد المشبّه ورمز له بقوله أعارتك. فهذه استعارة تخييلية. وأظنّ أنّه ليس ههنا استعارة بل ههنا المشبّه به والمشبّه كلاهما موجودان فى قوله لونى عبرة وضنى. فقوله لونى مشبّه به وعبرة مشبّه. والاستعارة بالكناية فى قوله ذكرى. شبّه الذكرى بالشخص الّذى يعطى. وأثبت له الإعارة رمزاً للمشبّه به. والمعنى ولاأعارتك أى لاأعطتك ذكرى الخيام وذكرى ساكن الخيم. ولم تورثك الحالة الّتى استتبعتها العبرة والضنى.

رقم البيت (٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لمّا أقام الدلائل على إثبات غرامه وشدّة هيامه ولم يبق له عذر ولم يصحّ له نكر أقبل عليه يخاطبه بالخطاب التعجّبى فقال:

فكيف تنكر حبّاً بعد ما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم

الخطاب هنا مبنى على التعجّب قاله ابن جماعة. وقال الأصل والعضد. والمراد بالأصل القسطلانى فى مشارق الأنوار والمراد بالعضد العلّامة عضد الدّين الشيرازى الشافعى. قال صاحب الأصل والعضد إنّ الخطاب إنكارى والاستفهام ههنا إنكار. فعلى قولهما المعنى أنّ الناظم الفاهم جرّد من نفسه شخصاً تخيّلك أنّه ينكر الحبّ. وأقام على حبّه وغرامه دلائل متعدّدة. ولمّا أثبت ما ادّعاه عليه من الهوى أقبل عليه الناظم الفاهم يخاطبه منكراً

عليه بالاستفهام الإنكاري فقال:

فكيف تنكر حبّاً بعد ما شهدت
به عليك عدول الدمع والسقم

الفاء ههنا لإفادة الترتيب يعني أنّ هذا الاستفهام مترتّب على ما قبله و كيف في محلّ النصب حال من تنكر. كيف تنكر أي كيف تأبى و كيف تجهل و كيف يسوغ لك أن تجهل ما بك من الهوى؛ بعد ما شهدت أي بعد ما أخبرت به خبراً متحقّقاً ومتأكّداً لا يصحّ إنكاره بعد ما شهدت به عدول الدمع والسقم. العدول جمع عدل وهو في الأصل مصدر والمصدر لا يُثنّى ولا يُجْمَع. ولكن قد يُنْقَل المصدر عن المصدريّة ويجمع بملاحظة الذات. فههنا نقل المصدر العدل وسمّي به الفاعل الّذي قام به العدل مبالغة كما يقال زيد عدل أي عادل ونُقِل عن المصدريّة وجُمِعَ لمناسبة الدمع والسقم وهما متعدّدان. والمراد بالعدول ما فوق الواحد وقد يجاء بالجمع ولا يراد به الجمع حقيقة وإنّما يراد به ما فوق الواحد كما أريد هنا ما فوق الواحد. لأنّ الدمع والسقم اثنان. والدمع العبرة السائلة من عينيك والسقم أي المرض الّذي أصاب بدنك. فاللّام في كلّ من الدمع والسقم للعهد.

وقال العضد بالاستعارة المكنيّة في العدول على معنى أنّ الناظم الفاهم شبّه في نفسه الدمع والسقم بالعدول. فعبّر الدمع والسقم وأراد المشبّه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الشهادة. فإثبات الشهادة استعارة تخييلية والعدول فيه استعارة مكنيّة تبعتها استعارة تخييليّة جرت أوّلاً في المصدر ثمّ أُجريت في الفعل. فهي استعارة تبعيةّ تخييليّة كذا قال.

وأشار صاحب الذخر والعدّة بعد قوله (كذا قال) إلى التأمّل فقال (فتأمّل). ولعلّ وجه التأمّل أنّ الاستعارة لا يجتمع فيها المشبّه والمشبّه به. بل لا بدّ أن يكون أحد الشيئين من المشبّه والمشبّه به مضمراً. فإمّا أن يكون المشبّه مضمراً ويكون المشبّه به مظهراً. وإمّا أن يكون المشبّه به مضمراً ويكون المشبّه مظهراً. وههنا ليس كذلك فإنّ المشبّه والمشبّه به كلاهما موجودان في هذا التركيب لأنّ عدول الدمع والسقم من باب إضافة المشبّه به وهو العدول إلى الدمع والسقم. والدمع والسقم هما المشبّهان بالعدول. فهذا وجه التأمّل فيما يبدو.

وفي قوله:

فكيف تنكر حبّاً بعد ما شهدت
به عليك عدول الدمع والسقم

جمع بين الإنكار والشهادة والعدول. وهذا ما يسمّى بمراعاة النظير في فنّ البديع. وأتى بالجمع فقال عدول الدمع والسقم وكان حقّه أن يقول عدل الدمع والسقم لملاحظة إفراد الدمع والسقم ولكنّه أتى بالجمع لأنّ الدمع يحصل في أوقات متعدّدة. والسقم كذلك يستمرّ فيتأتّى في أوقات عدّة فنزل الأوقات المتعدّدة بمنزلة الذوات المتعدّدة. ولذلك قال عدول الدمع والسقم.

قال الخرفوتي: هذا البيت أوّل الأبيات الستّة الّتي تمايل فيها النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم حين قرأه الإمام في رؤياه عليه الصلاة والسلام. وينبغي للقاري لحاجة أن يقرأ هذا البيت ثلاثاً. كذا قاله شارح هذه القصيدة جعفر

بأشا. إلهي لا تجعلنا من زمرة أهل الفسق والهوى، واجعلنا ممّن ملئ بمحبّة نبيّك المصطفى، وعينه في كلّ وقت من عشقه جرى وبكى. (ص٢١،٢٠)

رقم البيت (٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت السابع من الفصل الأوّل وهو قول الناظم الفاهم:

وأثبت الوجد خطّي عبرة وضنى

مثل البهار على خدّيك والعنم

أي وبعد ما أثبت الوجد خطّي عبرة وضنى: مثل البهار على خديك والعنم. وبهذا التقدير يتبيّن لك أنّ قوله وأثبت الوجد جملة معطوفة على قوله شهدت المقتحم عليها بعد ما، و كذلك يقدّر هنا ما مصدرية الّتي دخل عليها بعد أي وبعد ما أثبت الوجد خطّي عبرة وضنى أي فكيف تنكر حبّاً بعد ما شهدت به عليك العدول من الدمع والسقم وبعد ما أثبت الوجد خطّي عبرة وضنى، والوجد هو الحزن وحرقة القلب وخطّي عبرة مضاف ومضاف إليه، والإضافة هنا للاختصاص، فالإضافة هنا لامية أي خطّين لعبرة وضنى، والعبرة هي الدمعة الجارية من العين، والتنوين فيها للتكثير أي عبرة كثيرة. وضنى معناه المرض المستلزم لصفرة البدن وضعف الجسم وضنى مكسور منوّن والتنوين فيه للتعظيم أي مرض عظيم. ومثل البهار مضاف ومضاف إليه وهو منصوب صفة خطّي عبرة وضنى، ومثل من الأسماء المتوغّلة لذلك لم يستفد التعريف مع كونه مضافاً إلى البهار المعرّف باللّام لأنّه متوغّل في الإبهام فلايتعرّف ولو أضيف إلى معرّف، والبهار هو الورد الأصفر، والعنم أي مثل العنم، فالمضاف هنا محذوف وهو معطوف على قوله مثل البهار. والعنم شجرة ذات أغصان حمر، والمراد تشبيه الخطّين بالعنم في الحمرة لامتزاج الدمع السائل من العين بالدم. وتشبيه أثر الضنى في البدن بالبهار في الصفرة. يمكن أن يراد تشبيه الخدّين بالبهار في الصفرة ما فوقه من الحمرة. فشبّه الخدّين بالبهار المفروش تحت العنم في الصفرة الّتي يعلوها خطّان أحمران من امتزاج الدمع بالدم. ولمّا لم يبق للمخاطب حيلة اضطرّ إلى الإقرار ولم يجد سبيلاً إلى الإنكار أفصح بلسان المقال كما قد أقرّ باللّسان في البيت التالي بما به من الصبابة وفرط العشق وشدّة الهوى وما به من الهيام فقال:

نعم سرى طيف من أهوى فأرّقني

والحبّ يعترض اللّذات بالألم

وموعد شرح هذا البيت في اللّقاء القادم.

رقم البيت (٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

وعدناك أيها السامع الكريم بشرح البيت التالي وهو قوله:

نعم سرى طيف من أهوى فأرّقني والحبّ يعترض اللّذات بالألم في اللّقاء القادم. ولكن عنّت لي نكات حسان عند مراجعتي لعصيدة الشهدة بشرح البردة للعلّامة الخربوتي أودّ أن أوافيك ببعضها لإتمام النفع. قال العلّامة الخربوتي ما معناه ولمّا شهد على عشق المخاطب ومحبّته. وبعبارة أخرى لمّا شهد على دعوى الناظم الفاهم على المخاطب بعشقه ومحبّته شاهدان عادلان صادقان أقبل عليه يخاطبه فيقول كيف تنكر حبّاً بعدما شهدت به عليك شاهدان صادقان عادلان. وأمر القاضي في دار الحكومة الكاتب بإثبات ما تقرّر لديه وثبت عنده من عشقك وهيامك فقال للكاتب أكتب ما تقرّر وثبت لدينا من عشق المحبّ وفرط صبابته. فأقبل الناظم الفاهم يخاطب الشخص المجرّد ويقول كيف تنكر حبّاً بعدما شهد به عادلان وثبت عند القاضي. أمر القاضي الكاتب بتسجيله فكتب الكاتب بأمر القاضي. فقال يخاطب "وأثبت الوجد خطّي عبرة وضنى مثل البهار على خدّيك والعنم". والإثبات جعل الشيء ثابتاً ومقرّراً بالكتابة أوبغيرها. والمراد ههنا الكتابة بقرينة السياق وهو قوله خطّي عبرة وضنى. والوجد الأحزان القلبية والحالات العشقية. وهوفي محلّ الرفع مرفوع فاعل أثبت. وإسناد أثبت إلى الوجد مجازي على معنى السبب كما يقال أهلك المرض و كما يقال أنبت الربيع البقل أي كان المرض سبباً للهلاك وكان الربيع سبباً لإنبات البقل. وفي الوجد استعارة مكنيّة بأن شُبِّه في الذهن بالكاتب وطُوي ذكر المشبّه به وتُركت الاستعارة في جانب وأطلق الوجد وأريد به معناه. وشبّه الوجد بالكاتب فأطلق الوجد على الكاتب الّذي هو المشبّه به ثمّ أتى بما يلائم المشبّه به ويلازمه وهو قوله أثبت بمعنى كتب فههنا استعارة مكنيّة في الوجد تبعتها استعارة تخييليّة في قوله أثبت فقوله أثبت تخييل وإيقاعه على الخطّين ترشيح لأنّ الخطّين مشبّه به وكلمة خطّين استعيرت للحالة الّتي ظهرت على وجه الناظم الفاهم فشُبّهت هذه الحالة بالخطّين فههنا استعارة تصريحيّة في الخطين لأنّ المشبّه به مصرح به وخطّين خطّي عبرة وضنى فيه إضافة المشبّه به إلى المشبّه كما يقال جرى ذهب الأصيل على لجين الماء. وقوله مثل كما مرّ منصوب على أنّه صفة لخطّي عبرة. وفيه وجهان آخران من الإعراب ذكرهما الخربوتي فقوله مثل منصوب على أنّه حال أومنصوب على أنّه مفعول ثان لأثبت. وهذا يتّجه على تضمين أثبت معنى جعل أي جعل الوجد خطّي عبرة وضنى. خطّي عبرة هذا مفعول أوّل ومثل مفعول ثان لجعل. والعنم بفتحتين اسم شجر أغبر ليّن يشبه البنان قيل هو الحناء وقيل البقّم والبقم خشب شجره عظام وورقه كاللوز وساقه أحمر. ويرجّح الأول يعنيكون العنم بمعنى الحنّاء يرجّح هذا المعنى قول الشاعر:

النشر مسك والوجوه دنانير
وأطراف الأكفّ عنم

وأيّاما كان فالمماثلة في الاحمرار فحسب. وفي هذا البيت من صنائع البديع لفّ ونشر معكوس أي ولفّ ونشر

مشوّش أى على خلاف الترتيب حيث ذكر فى الشطر الأوّل الحمرة والصفرة فبدأ بالحمرة وعكس الحال فى الشطر الثانى حيث بدأ بالصفرة أوّلا. ونكتة هذه المخالفة وعدم مراعاة الترتيب الوزن والنظم.

وحاصل المعنى كيف تنكر المحبة بعد أن شهد بها شاهدا عدل ما استطعت ولم تقدر على جرحهما. وحكم عليك قاض لاينقض حكمه و كتب على خدّيك منشور المحبّة بخطّين أحمرين. فكلّ من يراك يقرأ آية المحبّة من خدّيك فإنكارك لايسمن ولايغنى من جوع. وذكر الخرپوتى بعد هذا بيتين هما من ألطف ما قيل فأنشد:

اغفر يا من بسعة مغفرته شوّقنى

واعف عنّى الفعل الّذى من رضاك فرّقنى

ولاتحرّقنى بنار الجحيم

أنّ عشق نبيّك أحرقنى

وبعد إذ فرغت من إعطاء البيت الّذى مضى من الشرح نصيبه الأوفى حان لى أن أشرح لك قول الناظم الفاهم الّذى يلى وهو قوله:

نعم سرى طيف من أهوى فأرّقنى والحبّ يعترض اللّذات بالألم لمّا أثبت الناظم الفاهم دعواه وأكّد على العاشق ما ادّعاه بمزيد من التأكيد وأيّده أشدّ تائيد حتى لم يبق له مجال للإنكار أقبل العاشق مقرّاً على سبيل الاضطرار فقال:

نعم سرى طيف من اهوى فأرّقنى

والحب يعترض اللذات بالألم

ونعم تأتى على ثلاثة أوجه: أحدها حرف تصديق مخبر بعد قول القائل قام زيد. وثانيها إعلام مستخبر بعد قول القائل أقام زيد؛ وثالثها وعد طالب بعد قوله افعل أولا تفعل وههنا من قبيل الثانى.

والفرق بين نعم وبلى ان نعم حرف تصديق لكن يقع تصديقا للايجاب والنفى فى الخبر والاستفهام جميعا وبلى تختص بالنفى خبرا او استفهاما على معنى أنّها إنّما تقع تصديقا للمنفى على سبيل الايجاب ولاتقع تصديقا ولهذا لوقال القائل بلى فى جواب الست بربكم كان مؤمنا لأنّه أى لأنّ قول القائل بلى فى قوّة بلى أنت ربّنا ولو عكس فقال القائل نعم فى جواب ألست بربّكم كان القائل كافراً لأنّه فى قوّة قول القائل نعم لست ربّنا وقد نظمه بعضهم فى بيت فقال:

بعد نفى قل نعم لا بعد إيجاب كذا

بعد إيجاب نعم لا بعد إيجاب بلى

وسرى طيف من أهوى فعل ماض وطيف فاعل والجملة استينافية كأنّ قائلاً قال كيف كان حالك أيّها المقرّ بالعشق والصبابة؛ فقال واستأنف يبيّن حالته بقوله سرى طيف من أهوى وسرى من السرى وهو السير ليلاً. ورد فى التنزيل (سبحان الّذى أسرى بعبده ليلاً) لايقال لانسلّم أنّ أسرى فى قوله تعالى (أسرى بعبده ليلاً) بمعنى السير باللّيل كيف ولم يدلّ على هذا إلّا قوله تعالى (ليلاً) و كونه أى كون السير باللّيل مأخوذ من قوله تعالى (ليلاً). وإلاّ

لكان مستدركاً للجواب. ذكر المفسّرون فى معنى هذه الآية أنّ أسرى هو السير ليلاً، وجيء بقوله ليلاً إشارة إلى أنّ السير كان فى جزء قليل من اللّيل، فالتنوين فيه للتقليل، ولم يستغرق السرى طول اللّيل، فتنوين ليلاً للتقليل، وسيأتى تفسيره وعسى أن نوافيك بما قاله المفسّرون إن تيسّر لنا ذلك.

قال الشيخ العلامة إسماعيل الحقّى الآفندى فى روح البيان: الإسراء السير باللّيل خاصّة كالسرى يقال أسرى وسرى أى سار ليلاً ومنه سريّة واحد السرايا لأنّها تسرى فى خفية وأسرى به أى سيّره ليلاً. وقال القرطبى: الإسراء سير اللّيل يقال سريت مسرى وسرى وأسريت إسراء. وقيل أسرى سار من أوّل اللّيل وسرى سار من آخره والأوّل أعرف انتهى ملتقطاً.

والطيف الخيال ومن فى قوله طيف من اسم موصول عبارة عن المحبوب وجاء به مبهماً للتفخيم. وأهوى نفس المتكلّم من هوى يهوى بمعنى أحبّ، والضمير الراجع إلى الموصول محذوف والتقدير سرى طيف من أهواه. والفاء فى قوله فأرّقنى جواب الشرط محذوف، وعلى هذا فالفاء فصيحة أى لمّا جاء إلىّ خيال المحبوب ومحبّة المعشوق فأرّقنى. وفيه التفات من الخطاب إلى المتكلّم على عكس ما صنع فى المطلع وأرّق من التأريق بمعنى التسهير والإيقاظ من النوم. والنون فيه للوقاية. والإيقاظ من النوم إمّا على حقيقته لأنّه إذا امتلأ قلب المشتاق بخيال المحبوب والأشواق يمنع هذا الخيال النوم ويكون نصب عينيه ولا يُحْجَب عنه أبدا. ويكون فى اليقظة دائماً. وإمّا مجاز من سلب الغفلة الّتى تورثه أحوال الدنيا ولذّاتها وهو المناسب كما ترى لسياقه. والواو فى قوله والحبّ يعترض اللّذات. بالألم إمّا حالية والجملة الاسمية بعدها فى محلّ نصب وقعت حالاً. وإمّا استينافية معانية كأنّه سئل هل شغلت فى أثناء محبّتك باللّذات فقال والحبّ يعترض اللّذات بالألم. وأبدى الخربوتى وجهاً آخر. قال: ويمكن أن تكون الواو عاطفة من عطف العلّة على معلولها إذ هو علّة لما قبله. فكأنّ الناظم الفاهم قال: إذ الحبّ يعترض اللّذات بالألم. ويعترض من اعترض له بسهم أى أقبل بسهم قبله فرماه به فقتله. وعلى هذا فيعترض بمعنى يقتل. ففى إسناده إلى الحبّ مجاز واستعارة تبعيّة لأنّه شبّه القتل بالاعتراض فى شدّة التأثير والتبديل لأنّه يتأتّى بالقتل تبديل الشكل، و كذلك يحصل فى الاعتراض ثمّ استعير الاعتراض لمفهوم القتل. فذكر الاعتراض وأراد القتل وجرت الاستعارة أوّلاً فى الاعتراض وهو المصدر و بتبعية المصدر جرت الاستعارة فى الفعل وهو يعترض واشتق من القتل صيغة يقتل وشبّه الهيئة الحاصلة من يقتل بالهيئة الحاصلة من يعترض بواسطة العلاقة الّتى هى فى مصدر الفعلين أعنى القتل والاعتراض ثمّ ذكر يعترض وأراد يقتل. وفى الحبّ استعارة مكنيّة على مذهب السكّاكى. واللّذات بالنصب جمع لذّة مفعول يعترض. وبالألم متعلّق بيعترض. والألم كالكدر لفظاً ومعنىً ولكن ههنا أطلق الألم وأراد به المعنى المجازى من السهم حيث شبّه الألم بالسهم بجامع كونه مهلكاً. ويمكن أن يقال فى هذا الشطر استعارة تمثيليّة والاستعارة التمثيليّة تشبيه هيئة مأخوذة من الأمور المعقولة بهيئة منتزعة من الأمور المحسوسة. والأمور المعقولة ههنا كون الحبّ قاتلاً و كون الألم مهلكاً و كون اللذات مهلكة بالحبّ و كون الحبّ رامياً بسهم الألم إلى اللّذات شبهّت هذه الهيئة المأخوذة من الأمور المعقولة بالهيئة المنتزعة من الأمور المحسوسة وهى كون الشخص رامياً و كون السهم مرميّاً به و كون شخص آخر أو حيوان مرميّاً

إليه و كون السهم مهلكا ثمّ استعير الهيئة المنتزعة من الأمور المحسوسة لمفهوم الهيئة الّتي انتزعت من الأمور المعقولة. ثمّ ذكر الهيئة المنتزعة من الأمور المحسوسة وأراد الهيئة الّتي انتزعت من الأمور المعقولة تدبّره وأمعن النظر فيه وأتقنه جيّداً.

وحاصل المعنى أنّ العشق يعترض اللّذات فيهلكها بسبب من الألم كما أنّ الرامى يهلك من رمى إليه من إنسان أوحيوان بالسهم المرمى به لأنّ العشق الحقيقى إذا دخل قلب أحد يقطعه عن لذائذ الدنيا ونعيمها فلا يبقى له الذوق بشىء من الأشياء لأنّ الدنيا والأخرى ضدّان لايجتمعان. حكى أنّ هارون الرشيد تفكّر ذات يوم فقال فى نفسه لوجمعت عين الدنيا والآخرة من غير أن أترك واحداً منهما واتّفق أنّ بهلول الولى اطّلع على خاطره عن طريق المكاشفة فجاء إلى قصره وكان أمام قصره عمود متروك منذ سنين وكان العمود عظيماً بحيث لو اجتمع أهل البلدة على رفعه لم يقدروا عليه فأخذ بهلول بطرف من العمود و رفعه ثمّ تحوّل إلى طرف آخر وأخذ به فرفعه. ثمّ قصد إلى وسط العمود فأخذه فلم يرفعه. وهارون الرشيد ينظر إلى ما يصنعه بهلول فطلبه هارون وقال ماحملك على ما صنعت قال بهلول إرشاد الملك إلى أنّ ما تفكّر فيه لا سبيل إليه قال إنّى أردت أن أجمع الآخرة فقدرت عليها وعندما رفعت الطرف الآخر أردت أن أجمع الدنيا فقدرت عليها ثمّ إنّى أردت أن أجمع بين الدنيا والآخرة فلم أقدر عليها فكذلك أردت أن أرشدك إلى أن لا سبيل إلى ما تفكّرت فيه.

وخاصّية هذا البيت على ما قال الخرپوتى أنّك إذا كنت تتّهم امرأة فاكتب هذا البيت على ورقة أترجّة أى اللّيمونة وضعها على ثديها الأيسر وهى نائمة فإنّك إذا فعلت هذا نطقت المرأة فى حال نومها بجميع ما فعلت من مليح أو قبيح. قال الخرپوتى: وهذا مجرّب و كذا إذا شككت فى أحد هل أخذ من مالك شيئاً فاكتب هذا البيت فى جلد ضفدع مدبوغ وعلّقه فى عنقك فإنّ السارق يندهش إذا رآك ويقرّ بما جنى إن شاء الله تعالى.

تتمّة: أودّ أن أعيد ما قاله الخرپوتى فى التفرقة بين نعم وبلى تذكرة وزيادة للبيان وإيضاحاً للمرام وإزالة للابهام وها أنا ذا أعيد ما قاله العلّامة الخرپوتى قال ما نصّه: الفرق بينه وبين بلى أنّ نعم حرف تصديق لكن يقع تصديقاً للإيجاب والنفى فى الخبر والاستفهام جميعاً وبلى يختصّ بالنفى ولاتقع تصديقاً. ولهذا لوقال القائل بلى كان مؤمناً فى جواب (ألست بربّكم) لأنّه فى قوّة بلى أنت ربّنا. ولو قال القائل نعم فيه لكان كافراً لأنّه فى قوّة نعم لست ربّنا وقد نظمه بعضهم:

بعد نفى قل نعم لا بعد إيجاب كذا

بعد إيجاب نعم لا بعد إيجاب بلى

وأنت خبير بأدنى التأمّل أنّ فى عبارة الخرپوتى شيئاً من الإبهام وما أورده من البيت لايخلو عن مزيد من الإبهام وفيه مناقضة ظاهرة حيث قال فى الشطر الأوّل: (بعد نفى قل نعم لابعد إيجاب كذا). وفى الشطر الثانى قال: (بعد إيجاب نعم لا بعد إيجاب بلى).

وبملاحظة الشطرين يظهر لك التناقض حيث منع أن يجاء بنعم بعد إيجاب فى الشطر الأوّل وفى الوقت نفسه أجاز أن يجاء بنعم بعد إيجاب فى الشطر الثانى ولعلّ فى البيت تصحيفاً وقع على أيدى بعض النسّاخ أورث خبطاً فى

المعنی ولعلّ المراد: بعد نفي قل نعم وبعد نفي نفي أي بعد إيجاب لمنفي لا تقل نعم وبعد ذلك قال كذا أي هكذا قل نعم بعد إيجاب. مجرّد إفادة أنّ نعم تقع تصديقاً بعد نفي وإيجاب جميعاً بخلاف بلى فإنّها تختصّ بالنفي وتقع تصديقاً للمنفي على سبيل الإيجاب ولذلك قال لا بعد إيجاب بلى أي بلى تختصّ بالنفي فيجاء ببلى بعد النفي ولا يجاء ببلى بعد الإيجاب وزيادة لإيضاح المقام أودّ أن أتلو عليك نصّاً ممّا لخّصه الإمام الجلال السيوطي في همع الهوامع من المغني في إيضاح وتبيين كامل. قال رحمه الله تعالى ما نصّه:

(بلى) حرف مرتجل (له) أي للجواب أصلي الألف. (وليس أصلها بل) العاطفة بعد النفي في الفعل (والألف زائدة) عليها دخلت للإيجاب. وقيل: للإضراب (أو للتأنيث خلافاً لزاعمه). استدلّ قائل الأوّل بلزوم كون ما قبلها منفيّاً أبداً. والثاني بإمالتها وكتابتها بالياء. والقياس على تأنيث رُبّ وثَمّ ونحوهما بالتاء. (وتختصّ بالنفي وتثبته) سواء كان مجرّداً نحو (زعم الّذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى). أو مقروناً بالاستفهام حقيقيّاً كان نحو أليس زيد بقائم؟ فيقال: بلى أو توبيخاً نحو: "أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوّي بنانه" (القيامة: ۳،۴). أو تقريريّاً نحو: "ألست بربّكم قالوا بلى". (الأعراف: ۱۷۲) أجرى النفي مع التقرير مجرى النفي المجرّد في ردّه "ببلى". ولذلك قال ابن عبّاس وغيره: لو قالوا: نعم. كفروا. ووجهه أنّ نعم تصديق للخبر بنفي أو إيجاب. وأمّا وقوعها بعد الاستفهام المثبت في حديث: (أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنّة. قالوا: بلى). فهو إمّا قليل أو من تغيير الرواة كما تقرّر في غير ما موضع. (۲/۳۹۱)

وقال رحمه الله تعالى في بيان نعم: (نعم) بفتح النون والعين في أشهر اللّغات (وكسر عينها) مع فتح النون لغة لكنانة. وبها قرأ الكسائي. (و) كسر (نونها) مع كسر العين اتّباعاً لغةٌ لبعضهم. حكاها في المغني. (وإبدالها) أي العين (حاء) فيقال: نحم (لغة) حكاها النضر بن شميل. وفي المغني أنّ ابن مسعود قرأ بها. قال أبو حيّان: لأنّ الحاء تلي العين في المخرج وهي أخفّ من العين لأنّها أقرب إلى حروف الفم.

حرف (للجواب تصديقاً لمخبر) كقولك لمن قال: قام زيد أو ما قام زيد: نعم. (وإعلاماً لمستخبر) كقولك لمن قال: هل جاء زيد؟ نعم. وفي التنزيل: (فهل وجدتم مّا وعد ربّكم حقّاً قالوا نعم) (الأعراف: ۴۴) (ووعداً لطالب) كقولك لمن قال: اضرب زيداً: نعم. وكذا لمن قال: لا تضرب زيداً. وهلّا تفعل.

(وتكون بعد إيجاب) نحو قام زيد. فيقال: نعم. (و) بعد (نفي) نحو: ما قام زيد. فيقال نعم. (و) بعد (سؤال عنهما) نحو أكان كذا. وأما قام زيد. فيقال: نعم. فهي في الموجب والسؤال عنه تصديق في الثبوت. وفي المنفي والسؤال عنه تصديق النّفي.

(قيل: وترد للتذكير) بما بعدها. وذلك إذا وقعت صدراً لجملة بعدها كقولك: نعم. هذه أطلالهم. قال ابن هشام: والحقّ أنّها في ذلك حرف إعلام. وأنّها جواب لسؤال مقدّر. وقال أبو حيّان: هي فيه تصديق لما بعدها وقُدِّمَت. قال: والتقديم أولى من ادّعاء معنى لم يثبت لها. (۲/۵۰۵)

ها نحن قد أسمعناك من همع الهوامع ما فيه توضيح للمرام وكشف للإبهام مع زيادة معاني في أوجز المباني ويمكن أن يكون ما حكاه الخر پوتي من البيت وهو قوله "بعد نفي قل نعم لا بعد إيجاب كذا" يمكن أن يكون صوابه

كما أقول:

بعد نفي قل نعم أو عند إعلام كذا
بعد إيجاب نعم لا بعد إيجاب بلى

وبهذا يتّزن ما قدّمه الخرپوتي من الوجوه الّتي تجيء عليها نعم من كونها تصديقاً لمخبر أو إعلاماً لمستخبر ومن كونها إيجاباً لموجب. وقوله لا بعد إيجاب بلى معناه ظاهر بما قدّمنا من الخرپوتي وبما جئنا به من مزيد البيان من همع الهوامع وهو أنّ بلى تختص بالنفي وتقع بعد المنفي على معنى أنّها تكون تصديقاً للمنفي على سبيل الإيجاب.

رقم البيت (٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد أن استقصينا الكلام على البيت الّذى مضى حان لنا أن نتابع الكلام فى البيت الّذى يتلوه وهو قول الناظم الفاهم:

يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة
منّى إليك ولو أنصفت لم تلم

يا حرف نداء للبعيد والقريب. ولائمى أى يا عاذلى. معذرة مفعول به مفعول لفعل مقدّر تقديره إقبل أو خُذْ. ومنّى جار ومجرور متعلّق بقوله معذرة. وإليك فى محلّ الحال من الضمير المجرور قبله. ويجوز فى قوله معذرة وجوه من الإعراب. يجوز أن يكون معذرة مرفوعاً أى معذرة خبراً لمبتدأ مقدّر تقديره هذه معذرة أو معذرة مرفوع على الابتداء فمعذرة مبتدأ ومنّى صفة معذرة وإليك خبره. ولو حرف امتناع يفيد امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه. والمعنى لو أنصفت يعنى امتنع الكفُّ عن الملامة لأنّك لم تنصف ولو أنصفت لم تلم. والهوى العذرى موصوف وصفة والعذرى منسوب إلى قبيلة بنى عذرة. وهم قبيلة اشتهروا بخفّة قلوبهم وصدق مودّتهم واشتهرت نساء هم بالعفّة. فإنّهم إذا هووا هووا أى هلكوا. وإذا أحبّوا سقطوا. ويمكن أن يكون العذرى منسوباً إلى العذر أى هوىً يستحقّ كلّ أحد أن يعذر صاحبه فى هذا الهوى المستولى على قلبه. وفى البيت إيماء لطيف إلى أنّه ينبغى للمحبّ فى الله أن يستغرق عمره فى الدأب فى الطاعة. وأن لا يملّ ذلك أصلاً. وفى قوله لم تلم تجنيس ناقص. ولعلّنا أن نزيد هذا البيت شرحاً ونأتى بوجوه أخر تتعلّق بقوله معذرة منّى إليك وبحكاية عجيبة تتعلّق بما جرى لشابّ هوى ابنة عمّه من بنى عذرة فانتظروا.

قال الخرپوتى فى شرحه لهذا البيت ما معناه " لمّا كان المخاطب منكراً للدعوى بأنّه مبتلئ بالعشق كانت المكالمة بين الخصم والمدّعى عليه بالخطاب والضمير. ثمّ لمّا أقرّ المدّعى عليه بالدعوى أرخى له العنان ووسّع عليه فى ذلك الزمان وفارقه الخصم برهة من الزمان وبعد عنه المتكلّم قليلاً فعدل عن الخطاب والضمير إلى الخطاب بالنداء فقال يالائمى اهـ.

إذ صيغة النداء تدلّ على البعيد ويجوز أن يكون الخطاب بالنداء لإمالة المقصود إلى الأداء كما قال سعدى چلپى فى تفسير قوله تعالى (يأيها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام) الآية والمقصود بالنداء ههنا الاعتذار من المحبّة والهوى ورجاء قبول عذره من اللّائم. لائم اسم فاعل من اللّوم وهو مضاف إلى ضمير المتكلّم. والمعنى يا من يلومنى بلومه ويعاتبنى بعتابه. وفى الهوى ظرف للملامة. وفى ههنا لإفادة السببيّة أى لإفادة أنّ الهوى سبب للملامة لأنّ من وقع فى الهوى يلام دائماً فى كلّ صبح و مساء إذ المحبّ يكون له فى كلّ وقت أنين ويعانى من حبّه شدّة ومذلّة ولذا قيل:

نون الهوان من الهوى مسروقة
فصريع كلّ هوى صريع هوان

والعذرى بالجرّ صفة الهوى بضمّ العين منسوب إلى قبيلة بنى عذرة وهى قبيلة فى اليمن مشهورة بكثرة العشق ومعروفة بوفرة الشوق و كثير من شبابهم يموت بهذا الداء لعدم وجدانهم دواء لمرضهم لأنّ فى قلوب رجالهم ضعفاً أى ليس فيهم غشّ ولا دناءة وفى نساء هم عفّة. والمعنى يا من يلومنى فى الهوى الّذى يشبه هوى بنى عذرة فى العشق الشديد والشوق المديد أو المعنى يا لائمى فى وقوعى فى الحبّ المستولى الّذى من شأنه أن يقبل العذر به من صاحبه كلّ أحد لأنّ ذلك الحبّ مستولٍ بالإضطرار فلا يلام عليه من ابتلى به.

وحان لى آلان أن أذكر لك حكاية أعطيتك موعداً بذكرها أوردها الشيخ زاده والخرپوتى: حكى أنّ الأصمعى أراد أن يذهب إلى قبيلة من الأعراب مشهورة بالفصاحة والبلاغة عند أولى الألباب ليتعلّم منهم الفصاحة حتّى يذهب من لسانه الركاكة ففتّش فى القبائل فسمع أنّ قبيلة بنى عذرة مشهورة بالفصاحة فيما بين العرب فذهب إلى تلك القبيلة فى اليمن فأضافه بعضهم وكان لصاحب البيت بنت رشيقة القد صبيحة الخدّ فصيحة الكلام مليحة الملام فجرّ الأصمعى منها المحبّة لكونه مضافاً لها والمشهور أنّ الجرّ من عمل الإضافة. يقول الأصمعى ثمّ خرجت من بيت المضيف لأتفرّج وأطوف فى هذه القبيلة فرأيت شابّاً لطيفاً كالهلال نحيفاً كالخلال مصفرّ اللّون من العشق كالعنم وعلامة المحبّة فى وجهه كالشمس على العلم. فى قلبه إيقاد واشتعال كأنّه مرتحل إلى الأخرة بارتحال. فسألته عن الحال وما فى جسمه من الملال. فأجاب بالرعشة والاضطراب: الحبيبة الّتى كنت فى بيتها ضيفاً بنت عمّ ذلك المصاب ولنيران هواها فى قلبه اشتعال والتهاب وما رآها منذ سنين وله من فراقها زفرة وأنين. قال الأصمعى فمضيت إلى بنت عمّه لأحصّل مرام هذا الفتى وأرجو منها بلعلّ وليت ومتى. وقلت: يا راحة جراحة كلّ قلب كئيب. أرى فيكم حرمة وذماماً لكلّ غريب فجئت إليكم متشفّعاً فى أمر هذا الشابّ. فتعطّفى عليه باستمالة قلبه المصاب. قالت: صلاحه وفلاحه فى فراقنا وفوزه فى الاحتراق بلواعج أشواقنا فبعد اللّتيا والّتى قبلت إنجاح منيتى. فذهبت إلى ذلك الشابّ. وقلت: استعدّ لمشاهدة المحبوب و كن مراقباً لمواصلة المطلوب. فبينما ذلك هاج الغبار من جانب المحبوب فغشى عليه ووقع فى النار الّتى كانت بين يديه. فاحترق بعض أعضاءه. فمشيت إلى الحبيبة وحكيت لها الحال. فقالت: يا سليم القلب إنّه لا يطيق مشاهدة غبار نعالنا. فكيف يطيق مشاهدة أنوار جمالنا.

وحكى أيضاً أنّ الأصمعى فى أثناء طوافه فى هذه القبيلة رأى حجراً قد كتب عليه هذا البيت:

أيا معشر العشّاق بالله أخبروا
إذا اشتدّ عشق بالفتى كيف يصنع

فكتب الأصمعى على الحجر تحت هذا البيت بيتاً وهو:

يدارى هواه ثمّ يكتم سرّه
ويصبر فى كلّ الأمور ويخشع

فلمّا جاء الأصمعى رأى مكتوباً بعد بيته هذا البيت:

فكيف يدارى والهوى قاتل الفتى
وفى كل يوم روحه تتقطع

فكتب الأصمعى تحته هذا البيت:

إذا لم يطق صبراً وكتماً لسرّه
فليس له شيء سوى الموت أنفع

فلمّا جاء الأصمعى فى اليوم الثالث رأى شاباً واضعاً رأسه على الحجر ميتاً وقد كتب على الحجر هذا البيت:

سمعنا أطعنا ثمّ متنا فبلّغوا
سلامى إلى من كان للوصل يمنع

(ص ٣٦-٣٥)

ومعذرة مصدر من العذر منصوب بفعل مقدّر أى اقبل ومنّى متعلّق به وإليك صلة معذرة. وقال الشيخ زاده رحمه الله تعالى يجوز أن تكون معذرة مفعولاً له.

وإليك اسم فعل والمعنى يالائمى فى المعذرة ابتعد عنّى فإنّك ظالم وقوله ولو أنصفت الواو للابتداء أوللحال ولو لانتفاء الثانى لانتفاء الأوّل نحو لو جئتنى لأكرمتك والإنصاف العدل أى لو عدلت لما هجوتنى بالملام ولعذرت من ابتلى برزايا الآلام. ولم تلم فعل جحد مطلق من الملامة. وياء المتكلّم مفعوله أى تنفى الملامة عنّى. والخربوتى قال ههنا فى بيان كلمة أهوى قال من هوى، فأفاد أنّه من باب علم وحده. وقال فيما قبله عند قول الناظم "لولا الهوى اه" قال هوى مصدر بالكسر من باب علم أوهوى من باب ضرب. وفيه مناقضة ظاهرة لاتخفى على المتأمّل حيث أفاد هناك أنّ هوى يجيء من باب علم ومن باب ضرب وههنا كسره على باب علم. فأفاد أنّه لايجيء بمعنى العشق إلاّ من باب علم. وهذا الّذى أفاده هنا هو الموافق لما جاء فيكتب اللّغة. ففى المعجم الوسيط ما نصّه: هوى الشيء يهوى هُوِيًّا وهويانا: سقط من علوّ إلى سفل. وهوِى فلان فلاناً يهوَى هوًّى وهو هوٍ وهى هوِية.

وفى القاموس للإمام مجد الدين الفيروزآبادى: الهوى بالقصر العشقُ يكون فى الخير والشرّ. وإرادةُ النفس، والمهوى. وهَوِيَه كرَضِيَه هوًّى فهو هوٍ: أحبّه.

أقول: وبما ذكرت لك من معنى الهوى نقلاً عن القاموس تبيّن لك أنّ الهوى بمعنى العشق يكون فى الخير والشر

إلّا أنّه فى الشرّ أغلب فى عرف الشرع لأنّه فى عرف الشرع ميل القلب إلى ما يأباه الشرع.

رقم البيت (١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت العاشر من الفصل الأوّل وهو قول الناظم الفاهم:

عدتك حالىَ لا سرّى بمستتر
عن الوشاة ولا دائى بمنحسم

لمّا قدم العاشق عذره إلى اللّائم وارتجى منه أن يترك الملامة فى الهوى العذرى وأبى اللّائم أن يقبل عذره أقبل عليه العاشق يقول:

عدتك حالىَ لا سرّى بمستتر
عن الوشاة ولا دائى بمنحسم

قولك عدتك حالى اه أى سرت إليك حالى فأُصِبتَ بما أُصِبتُ به من العشق وعلى هذا فهو دعاء على اللّائم ويحتمل أن يكون دعاء للائم. وهذا إذا كان عدتك بمعنى تجاوز عنك أى تجاوز عنك وبعد عنك ما أنا فيه من العناء و البلاء فلم تصب بما أصبت به. وبما قرّرنا يعلم أنّ عدتك يحتمل معانى عدّة يقال عدا إليه أى سرى فيكون من قبيل الحذف والإيصال كما فى قوله تعالى (واختار موسى قومه). إن تعدّى بعلى يكون بمعنى ظلم فعلى هذا جملة عدت إمّا دعاء على اللّائم أو دعاء له كما قدّمنا. وإن تعدّى بأن يكون للبعد والمجاوزة ويأتى فيه الوجهان من الدعاء للائم كما قدّمنا. والدعاء عليه بأن يقال الجملة دعاء عليه بالحرمان من الوصول إلى مرتبة العشّاق والجملة خبرية لفظاً وإنشائية معنىً وعدّى بدون الصلة بمعنى سار سريعاً. قوله حالى أى ما أنا فيه من مضارّ العشق ومصائب الهوى. ثمّ بيّن حاله بعض البيان فى قوله: لا سرّى أى أمرى الخفى الّذى ينبغى كتمه وأراد به العشق. بمستتر أى مختف. عن والوشاة جمع واشٍ كالنحاة والغزاة والواشى بمعنى اللّامز المنافق الّذى يسعى بالفساد بين العاشق والمعشوق ليفرّق بينهما. وذلك لوجود علامات الكثيرة الدالّة على حاله من امتزاج الدمع بالدم وصفرة اللّون ونحول البدن و كثرة الأنين والسهر وغير ذلك من أمارات العشق ودلائل الهوى. ثمّ كأنّ سائلاً قال كيف كان حالك؟ فأجاب بقوله لا سرّى إلى آخره فتكون جملة "لا سرّى بمستتر" استينافية ولا مشبّهة بليس وسرّى مضاف إلى ياء المتكلّم وهو بالرفع محلًّا اسم لا. والباء فى بمستتر زائدة وهو خبر "لا" وعن متعلّق بمستتر.

وقوله ولا دائى عطف على لا سرّى وإعادة حرف النفى للتأكيد. والداء المرض مضاف إلى ياء المتكلّم أى ولا مرضى القائم بى وهو العشق. والمنحسم اسم فاعل من الانحسام بمعنى الانقطاع أى ولا مرضى بمنقطع بالوصول إلى الحبيب.

وحاصل معنى البيت يا لائمى إنّى رجوت الاعتذار منك كثيراً فما قبلت وما تركت الملامة فأنا أرجو الله تعالى

أن يبتليك بمثل ما ابتليت فيسرى إليك بلاء أو يجاوز الله البلاء عنك ويبعد العناء منك. فكأنّ السائل سأل عن ابتلاءه بأنّه كيف الحال فى ابتلائك؛ فقال كنت ملابساً بحال لم يكن سرّى بمستتر عن الغمّازين بين المحبّ والمحبوب لأنّه سلب عنّى الاختيار وكان سرّى مكشوفاً بالاضطرار إذ ورد عن الكمّل والكبار العشق هتك الأستار وكشف الأسرار وكان أيضاً مرضى أعنى العشق للنّبى المختار غير منقطع عنّى فى كلّ ليل ونهار ولا ينفعنى البعد عنه والفرار إلّا الوصلة إلى جنابه الّذى كلّمه الأحجار والأشجار وإلى رؤية جماله الّذى طلعت منه الأنوار.

رقم البيت (١١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الحادى عشر من الفصل الأوّل وهو قول الناظم الفاهم:

محّضتنى النصح لكن لست أسمعه
إنّ المحبّ عن العذّال فى صمم

أخذ الناظم الفاهم يقدّم معذرة إلى اللّائم وقد كرّر اللّائم اللوم وأصرّ العاشق على الإباء وحاول أن يكفّ اللّائم عن اللوم برفق ولين أقبل عليه ملاطفاً له يقول محّضتنى النصح فى المنع من العشق ظنّاً منك أنّ عشقى لفلان ابن فلان لا للنّبى ولا للرّحمن. فاعتذر إليه من عدم القبول لنصحه مع إشعار بالفرار من التزكية والعجب. قال عليه الصلاة والسلام (لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أعظم من ذلك العجب العجب) فأقبل عليه يقول:

محّضتنى النصح لكن لست أسمعه
إنّ المحبّ عن العذّال فى صمم

قوله محّضتنى أى أخلصت لى أيّها اللّائم. والنصح منصوب على أنّه مفعول ثان له وهو النصيحة أى إرادة الخير للغير. وكلمة لكن للاستدراك. لست أسمعه أى لست أقبله ولا أذعن له. فالمراد بالسماع القبول والإذعان. قال ابن حجر المكّى فى العمدة: لست أسمعه أى سماع قبول وإذعان. وعليه ينزل قوله فى التنزيل العزيز "سمعنا وأطعنا" وقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم اسمعوا وأطيعوا. والجملة مستأنفة فى محلّ التعليل لما ثبت من القيل.

ثمّ علّل النفى المذكور بقوله "إنّ" بكسر الهمزة. "المحبّ" أى العاشق. وفيه التفات من المتكلّم إلى الغيبة "عن العذّال" أى اللوّام. وهو متعلّق إمّا بأسمعه أو بصمم وهو أولى من جهة المعنى (ولا بأس بتقدّم معمول المصدر إذا كان ظرفاً إذ يكفى فيه رائحة الفعل كما نصّ عليه الشيخ فى قوله تعالى (فلما بلغ معه السعى). وعبّر أوّلاً باللوم وثانياً بالعذل تفنّناً وتنبيهاً على ترادف اللّفظين. "وفى صمم" خبر إنّ أى كائن فى صمم عن سماع كلامهم.

وفى هذا البيت تلميح إلى قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى (حبّك الشىء يُعمِى ويصمّ).

وخاصّية هذا البيت إنّك إذا كنت تخاف من شرّ أحد أو مكروه فاكتب هذا البيت فى كاغذ ويكون الكاغذ دائرة واجعلها على مقدّم رأسك تحت العمامة فإنّك تكون بإذن الله تعالى محفوظاً من شرّه ومكره.

رقم البيت (١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الثاني عشر من الفصل الأوّل وهو قول الناظم الفاهم:

إنّي اتّهمت نصيح الشيب في عذلي

والشيب أبعد في نصح عن التّهم

أخذ العاشق في مزيد تأكيد بعد تأكيد لما سبق منه من عدم القبول لنصح اللّائم، وشرع يبرّر ما هو فيه من عدم الاستماع فأقبل يقول:

إنّي اتّهمت نصيح الشيب في عذلي

والشيب أبعد في نصح عن التّهم

الجملة في محلّ التعليل لما سبق. قال الخرفوتي: تقدير إنّي لأنّي حذف الجار لكونه قياسياً فهو في الحقيقة علّة انتهى. وقضيّة قوله أن يجوز ههنا الوجهان: أحدهما أنّي اتّهمت بفتح همزة أنّ على حذف الجارّ ونظائره كثيرة وأكتفي ههنا بمثال واحد من التنزيل قال تعالى سبحانه (وبشّر الّذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنّات) الآية. والوجه الآخر إنّي بالكسر والجملة في محلّ التعليل على كلّ حال.

واتّهمت نفس متكلّم من باب الافتعال بمعنى حملت على التهمة. يقال اتّهمت فلاناً بكذا أي نسبته إلى شيء يورثه العار. والتهمة اسم وتاءه بدل من الواو إذ أصله وهمة كما في تخمة. ونصيح الشيب منصوب على أنّه مفعول لاتّهمت. والنصيح فعيل بمعنى الفاعل أي الناصح مضاف إلى الشيب والاضافة إمّا من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها أي حملت الشيء الناصح على التهمة. وإمّا من قبيل إضافة المشبّه به إلى المشبّه أي الّذي هو كالناصح في الإخبار عن قرب الموت أو النصيح مصدر فإضافته إلى الشيب من إضافة المصدر إلى فاعله. ويحتمل أن يكون الإضافة بيانيّة. والمراد بنصيحة الشيب كون الشيب قائلاً بلسان الحال: قد قرب الارتحال وحان الزوال فهذا أوان التوبة من سيّء الأحوال.

ورد في الخبر أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه لمّا كان خليفة نبّه أعرابياً أن ينادي في كلّ صباح وراء داره بيا عمر لاتنس موتك. واعمل في الدنيا بقدر مقامك فيها. فلمّا وجد عمر رضي الله تعالى عنه في لحيته بياضاً. قال للأعرابي: اترك النداء لأنّ مخبري ومذكّري حصل في نصب عيني فلم يبق لندائك حاجة. (الخرفوتي ص٣١)

وفي عذلي متعلّق باتّهمت والعذل بفتح الذال وسكونها بمعنى اللّوم والمصدر عذل بسكونها. وإضافته إلى المفعول أي في عذله إيّاي. والشيب أبعد اه أظهر في موضع الإضمار أي أشدّ بعداً. الواو في والشيب حالية والشيب مبتدأ وأبعد خبره. وفي نصح متعلّق بأبعد وتنوينه عوض عن المضاف إليه أي في نصحه عن التهم وفي بعض الروايات من التهم وهو متعلّق بأبعد على خلاف الروايتين. ومن التفضيليّة محذوف أي من كلّ ناصح.

وقال الشيخ زاده: هذا البيت تأكيد من حيث المعنى للبيت المقدّم أي فما ظنّك في اتهامي لك أيّها اللّائم بعد ما لا يقبل نصيحة الشيب قلبي الهائم. ولا ريب أنّ الشيب أبعد من التهم في الإمحاض فقس حال قبول مقالك على هذا واقض ما أنت قاض.

أقول: ولا منافاة بين هذا وبين ما مرّ من الخرفوتي أنّه في الحقيقة علّة. فقد يكون الشيء علّة لشيء ومؤكّداً له من حيث المعنى في نفسه. والعلّة لما فيها من معنى التقوية والتأييد للمعلول لا يخلو عن معنى التأكيد. فمرجع كلّ إلى معنى واحد وهو التقوية والتأييد.

ومن ههنا انتقال من بيان حال المحبّ والشكاية عن اللّائم إلى بيان حال النفس والشكاية عنها لأنّ المانع عن التوجّه الكلّي إلى الوطن الأصلي هذه النفس الأمّارة بسوء الأعمال والمرغّبة إلى قبائح الأفعال ولهذا توجّه الخطاب إليك بقوله عليه الصلاة والسلام (أعدى عدوّك نفسك الّتي بين جنبيك). والانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب يكون أحسن تطرئة لنشاط السامع وأكثر إيقاعاً للإصغاء إليه. وإعجاز كلام ربّ العزّة وهو قرآنه الكريم وفرقانه العظيم لانصبابه في هذه القواليب وورودِه على تلك الأساليب.

وادّعى الشيخ زاده أنّ إعجاز القرآن العظيم ليس إلّا لانصبابه في هذه القواليب وورودِه على تلك الأساليب. وهو كما ترى حصر ادّعائيّ وإلّا فوجوه الإعجاز كثيرة لا تُحصى ولذلك تصرّفت في عبارته ببعض تغيير.

قال الباجوري: وفائدة هذين البيتين أنّك إذا أحببت شخصاً في الحلال وتستحي منه ومن الناس أن تكلّمه فاكتبهما في ساعة الزهرة في صحفة من نحاس وامح تلك الصحفة بماء المطر واشربها فإنّك تقوى على المحبوب وتجتمع به ولا تخشى من أحد أبداً وتفشي إليه سرّك وتبلغ منه مقصودك إن شاء الله تعالى. (ص١٠)

الفصل الثانی
فی التحذیر من هوی النفس

رقم البيت (١٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الأوّل من الفصل الثاني وهو قول الناظم الفاهم:

فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتّعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرم

لمّا كان قوله (إنّي اتّهمت نصيح الشيب في عذلي) مشعراً بأنّه لم يقبل نصحه ولم يأخذ بقوله أشار إلى بيان علّة ذلك فقال:

فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتّعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرم

الفاء في فإنّ للتعليل. والأمّارة مبالغة اسم الفاعل بمعنى الآمر بالسوء مبالغة وإضافته إلى ياء المتكلّم للعهد أي أمّارتي المعهودة وهي النفس. ويجوز أن يكون من حذف الموصوف وذكر الصفة وإرادته منها فإنّ الأمر بالسوء مبالغة صفة النفس بقرينة تخصيصه تعالى بالنفس في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام (إنّ النفس لأمّارة بالسوء) فيكون في هذا البيت صنعة تلميح إلى هذه الآية. وبالسوء صلة لأمّارة والسوء الشرّ والاتعاظ قبول الوعظ ومن للسببية والنذير بمعنى الإنذار كالنكير بمعنى الإنكار أو بمعنى المنظر كالبديع بمعنى المبدع. والإضافة من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها على ما عرفت من التأويل أو من الإضافة البيانية كما فيكتاب المفتاح وشهر رمضان وإن اعتبرت المشابهة بين الشيب والنذير يكون من قبيل لجين الماء أعني المشبّه به إلى المشبّه وهو أحد وجهي التشبيه للتأكيد. والهرم تناهي الشيب وبالنذير يجوز أن يتعلّق باتّعظت وأن يتعلّق بجهلها فيكون من تنزيل العالم منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم. فالمعنى أنّ نفسي الأمّارة بالسوء والعيب ما قبلت الوعظ من نذير الشيب فتمادت في غواية الجهل بعد الهرم وما كبحت عنان جماح الشهوة بأيدي الندم.

اعلم أنّ الناظم نظمه الله في سلك أوليائه قد أورد أصول الصفات الذميمة النفسانية في عدّة أبيات وأثبتها على حوبائه اقتداء للنبي الّذي قال لهضم نفسه (وما أبرّئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء) واقتفاء لأثر الحبيب الّذي سلك طريق كلام المنصف في قوله (وما لي لا أعبد الّذي فطرني وإليه ترجعون). ولسلوك هذا الطريق شأن عجيب في البلاغة لأنّه يكون أكثر إيقاظاً لإصغاء السامعين وأقوى ذريعة لإصاختهم من حيث لا يخاطبهم بما يمجّ عنه أسماعهم ويتنفّر عنه طباعهم. فإذا لم يضربوا في أوّل الأمر عن كلامه صفحاً ولم يطووا دون مرامه كشحاً فيستدرجهم بإلقاء الحقّ عليهم من حيث لا يعلمون. فالصفات المذكورة من صفات المخاطب لكنّ المتكلّم أثبتها لنفسه لرعاية نكتة نبّهنا عليها. ولمّا آل الكلام إلى هذا وجب تمهيد مقدّمة لمعرفة ماهية النفس وطريق

تزكيتها المقدّمة قال الله تعالى (إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّى)، وقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (أعدى عدوّك نفسك الّتى بين جنبيك) اعلم أنّ النفس عين لطيفة هى معدن الأخلاق الذميمة مودعة بين جنبى الإنسان أى جميع جسده. وهى أمّارة بالسوء. وهى مجبولة على ضدّ الروحانيّات المخلوقة عن الملكوت الأعلى فإنّهم يأمرون بالخير وينهون عن الشرّ. وهى مخلوقة من الملكوت السفلى كالشياطين وهم لا يأمرون إلّا بالشرّ ومن طبعهم التمرّد والإباء والاستكبار ولهذا تأبى النفس عن قبول الموعظة وتظهر التمرّد كما أشار إليه بقوله فإنّ أمّارتى بالسوء ما اتّعظت البيت.

وفى بعض الروايات إنّ الله تعالى لمّا خلق النفس قال لها أقبلى فأدبرت. وقال لها أدبرى فأقبلت على ضدّ العقل. وأمّا منشأ خلقة النفس فإنّ الله تعالى لمّا نفخ الروح فى جسد آدم عليه الصلاة والسلام خلق من ازدواج الروح والجسد ولدين ذكراً وهو القلب يشبه والده الروح العلوى فيأمر بالخير وجعل موضعه المضغة الصنوبرية فى الجانب الأيسر من الصدر. وأنثى وهى النفس تشبه والدتها الجسد السفلى فيأمر بالشرّ وجعل موضعها جميع الجسد وقد خلقها على صورة جهنّم وخلق بحسب كلّ دركة فيها صفة لها. وهى باب من أبواب جهنّم يدخل فيها من هوى إلى دركة من دركاتها السبع. وهى سبع صفات الكبر والحرص والشهوة والحسد والغضب والبخل والحقد. فمن زكّى نفسه عن هذه الصفات فقد عبّر عن هذه الدركات السفلية. ووصل إلى درجات الجنان العلويّة كما قال تعالى (قد أفلح من زكّاها). ومن لم يزكّ نفسه عن هذه الصفات بقى فى درجات جهنّم خائباً خاسراً كما قال تعالى (وقد خاب من دسّاها).

ثمّ اعلم أنّ هذه الصفات من مقدّمات النفس وتتولّد منها صفات أخرى ومنشأ جميع الصفات النفسانية صفتان مركوزتان فى جبلّة كلّ حيوان ولا بدّ منهما فى التعيّش وهما الشهوة والغضب. فبالشهوة يجذب المنافع على نفسه وبالغضب يدفع المضارّ عن نفسه فإذا استعمل الشهوة فى طلب ما يحتاج إليه يتولّد منها الحرص. وإذا استعمل الغضب فى دفع مضرّته تولّد منه الحقد. وإن رأى شيئاً ممّا يحتاج هو إليه مع غيره ولم يدفعه إليه تولّد منه الحسد. وإن كان معه شىء وطلبه من يحتاج إليه فيمنعه عنه تولّد منه البخل. وإن كان منه ما يحتاج إليه جمع كثير ويتواضعون له ويتضرّعون إليه فى طلب مقاصدهم منه وهو ينظر إليهم بنظر الحقارة وإلى نفسه بنظر العزّة يتولّد منه الكبر والعجب. وإن كان بغيره ما يحتاج هو إليه ولم يدفعه إليه وهو قادر على أن يتأخّر منه بالقوّة وحمل الحرص على أخذه منه يتولّد منه الظلم والتعدّى. وكذلك جميع الأخلاق الذميمة يتولّد بعضها من بعض ما لم يحسم مادّتها وحسم مادّتها بتزكية النفس على قانون الشريعة والطريقة عن صفاتها. (شيخ زاده ص٣٢،٣٣).

هذا البيت والاثنان بعده خاصيتها أنّ من كانت نفسه غالبة عليه وامتنعت من التوبة وعجز عن مخالفة النفس فليكتب الأبيات الثلاثة يوم الجمعة بعد الفراغ من صلاتها ويمحوها بماء ورد ويشربها فإذا شربها استمرّ جالساً مستقبل القبلة حتّى يصلّى العصر والمغرب ويذكر الله تعالى ويكرّر هذه الأبيات فى بعض الأوقات أيضاً فإنّه لا يفارق هذا المجلس إلّا وقد انقادت نفسه وحسن حالها إن شاء الله تعالى ويوفّقه الله للتوبة.

رقم البيت (١٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الثاني من الفصل الثاني وهو قول الناظم الفاهم:

ولا أعدّت من الفعل الجميل قرى

ضيف ألمّ برأسي غير محتشم

لمّا وقع الفراغ من بيان سوء حال الأمّارة وتماديها في العصيان وعدم اتّعاظها آن له أن يبيّن أنّها غير متخلّية من الرذائل ولا متحلّية بالفضائل فأقبل يقول:

ولا أعدّت من الفعل الجميل قرى

ضيف ألمّ برأسي غير محتشم

الجملة معطوفة على جملة (ما اتّعظت)، والمراد بالاتّعاظ اجتناب القبائح وبالإعداد الإتيان بالأفعال الحميدة.

أعدّت أي هيّأت وهو عطف على ما اتّعظت. من الفعل الجميل أي الحسن من فضيل العبادات وشريف القربات. قرى بكسر القاف وهو في الأصل: ما يقدّم للضيفان من الطعام والشراب. والمراد هنا التوبة النصوح المشفوعة بالأعمال الصالحات. ضيف هو الشيب. ألمّ أي نزل ذلك الضيف. برأسي حالة كونه غير محتشم: أي مستحٍ في إلمامه حيث ألمّ بغير إذن منّي ولا إرادة وأطال الإقامة فلم يرتحل إلّا بالموت.

وفي الحديث الصحيح (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه).

ثمّ الأصل في تزكية النفس ترقّيها من مقاماتها ولها أربع مقامات: مقام الأمّارية قوله تعالى (إنّ النفس لأمّارة بالسوء)، ومقام اللّوامية قوله تعالى (فلا أقسم بالنفس اللّوامة)، ومقام الملهمية قوله تعالى (ونفس وّما سوّاها. فألهمها)، ومقام المطمئنّة قوله تعالى (يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك). وإن ترقّي النفس من مقاماتها على حسب مراتب التوبة. والتوبة أوّل منزل من منازل السالكين. وأوّل مقام من مقامات الطالبين. وحقيقة التوبة في اللّغة الرجوع. والمراد بها في الشرع الرجوع عمّا لا يرضاه الله تعالى. وللتوبة أربع مراتب على حسب مقامات النفس. فالمرتبة الأولى مختصّة بإسم التوبة. وهي للنفس الأمّارة. قال الله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون)، وقال عليه الصلاة والسلام (التائب من الذنب كمن لا ذنب له). وهذه مرتبة عوام المؤمنين. وهي ترك المنهيّات والقيام بالمأمورات وقضاء الفوائت وردّ الحقوق والاستحلال عن المظالم والندم على ما جرى والعزم على أن لا يعود إلى ما منه انتهى هذه توبة الأفعال والأقوال. والمرتبة الثانية الإنابة وهي للنفس اللّوامة قال الله تعالى (وأنيبوا إلى ربّكم). وهذه مرتبة خواصّ المؤمنين من الأولياء. والإنابة إلى الله تعالى ترك الدنيا والزهد في ملاذّها وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس بمخالفة هواها والمداومة على جهادها. فإنّ الله تعالى يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين. ويشير إلى أنّ التوبة وتطهير النفس عن دنس الأوصاف الذميمة من

نتائج محبّة الله الأزليّة بقوله يحبّهم. وهذا كما قال رجل لرابعة إنّي قد أكثرت من الذنوب والمعاصي فلو تبت هل يتوب عليّ؛ فقالت لا بل لو تابت عليك لتبت. وذلك لأنّ العصيان من صفة الإنسان كما قال تعالى (وعصى آدم ربّه فغوى). والتوبة من صفة الحقّ سبحانه وتعالى كما قال (فتاب عليه وهدى). وقال إنّه كان توّاباً. فتوبة العبد أثر توبته سبحانه كما أنّ محبّة العبد لله تعالى نتيجة محبّة الله الأزلية كما أشير إليه بقوله (يحبّهم ويحبّونه). بل جميع ما يتعلّق به مشيئة العبد وإرادته أثر من آثار مشيئة الله تعالى وإرادته كما قال تعالى (وما تشاءون إلّا أن يشاء الله). ولذا قيل المراد مريد والمريد مراد. فالنفس إذا تحلّت بالإنابة دخلت في مقام القلب واتّصفت بصفته لأنّ الإنابة من صفة القلب قال تعالى (وجاء بقلب منيب). والمرتبة الثالثة الأوبة وهي للنفس الملهمة قال الله تعالى (نعم العبد إنّه أوّاب). وهذه مرتبة خواصّ الأولياء والأوبة إلى الله تعالى من آثار الشوق إلى لقاءه. فمن تاب خوفاً من عقابه فهو صاحب توبة. ومن تاب طمعاً في ثوابه فهو صاحب إنابة. ومن تاب شوقاً إلى لقاءه فهو صاحب أوبة. فالنفس إذا تحلّت بالأوبة دخلت في مقام الروح وهو مقام العبودية الملكية لقوله تعالى (فادخلي في عبادي). ومن أمارات الأوّاب المشتاق أن يستبدل المخالطة بالعزلة ومنادمة الأخدان بالخلوة واستوحش عن الخلق واستأنس بالحق وجاهد نفسه في الله حقّ جهاده ساعياً في قطع تعلّقاتها عن الكونين. والمرتبة الرابعة الرجوع وهي للنفس المطمئنّة قال الله تعالى (يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك). وهذه مرتبة أخصّ الأنبياء والأولياء. وقوله (ارجعي إلى ربّك) صورة جذبة العناية الربوبيّة إلى نفوس الأنبياء والأولياء. يجذبها من أنانيّتها إلى هوية ربوبيّته راضية أي طائعة تلك النفوس شوقاً إلى لقاء ربّها مرضيّة أي على طريق مرضيّة في السير. ولربّها بإذلة نفسها في مشاهدة اللّقاء طامعة برفع الاثنينية دوام الالتقاء. قيل لمّا قدّم الحلّاج ليقطع يده قطعت اليد اليمنى أوّلاً فضحك. ثمّ قطعت اليسرى فضحك ضحكاً بليغاً. فخاف أن يصفرّ وجهه من بزق الدم. فكبّ بوجهه على الدم السائل ولطّخ وجهه بدمه وأنشأ يقول:

الله يعلم أنّ الروح قد تلفت
شوقاً إليك ولكنّي أمنّيها

ونظرة منك يا سؤلي ويا أملي
أشهى إليّ من الدنيا وما فيها

يا قوم إنّي غريب في دياركم سلّمت
روحي إليكم فاحكموا فيها

ما أسلم النفس للأسقام تتلفها
إلّا لعلمي بأنّ الوصل يحييها

نفسي المحبّ على الآلام صابرة
لعلّ مسقمها يوماً يداويها

ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال يا مولاي إنّي غريب في عبادك. وذكرك أغرب منّي. والغريب يألف الغريب. ثمّ

ناداه رجل وقال: یا شیخ ما العشق؛ قال ظاهره ما یری وباطنه ما دقّ عن الوری. والحمد للّٰه الکاشف للکروب والصلاة علی نبیّه الحبیب المحبوب۔ (الشیخ زاده ص ۳۶،۳۷)

رقم البیت (۱۵)

بسم اللّٰه الرحمن الرحیم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الکریم وآله وصحبه الکرام أجمعین ومن تبعهم بإحسان إلی یوم الدین۔

أمّا بعد فهذا أوان الشروع فی شرح البیت الثالث من الفصل الثانی وهو قول الناظم الفاهم:

لو کنت أعلم أنّی ما أوقّره

کتمت سرّاً بدا لی منه بالکتم

شهد الناظم الفاهم علی نفسه بأنّها لم توقّر ضیف المشیب الّذی ألمّ برأسه غیر محتشم ولا محترم ولم تعدّ له قِریً من الفعل الجمیل واستتبع ذلك الندم علی ما صدر من نفسه فأقبل یقول:

لو کنت أعلم أنّی ما أوقّره

کتمت سرّاً بدا لی منه بالکتم

"لو" لامتناع الثانی لامتناع الأوّل والتقدیر لکن لم أعلم فلم أکتم سرّاً بدا لی اھ "و کنت" مع خبره أعنی جملة "أعلم" فعل شرط. وأنّ مع إسمه وخبره قائم مقام مفعولی "أعلم"، "ما" فی "ما أوقّره" نافیة. و"أوقّره" علی صیغة المتکلّم من التّوقیر بمعنی التعظیم والتکریم والاحترام. وضمیر المفعول راجع إلی الضیف المراد منه الشیب. "وکتمت" جزاء الشرط أی: أخفیت. "سرّاً" مفعول "کتمت"، أی: أمراً خفیّاً من الشیب. وأوقع الکتم علی السرّ مبالغة فی إخفاءہ۔ "بدا" صفة "سرّاً" أی ظهر. "لی" قبل غیره. لأنّی أطّلع من أحوال نفسی علی ما لم یطّلع علیه غیری. "ومنه" متعلّق ببدا وضمیره للشیب. "وبالکتم" متعلّق بکتمت والکتم نبت یختضب به کالحناء. أی بأنّ أخضبه به بعد نزوله کی لا أنسب إلی عدم توقیره الناشی عن نفسی الأمّارة بالسوء۔

وفی هذا البیت من صنائع البدیع ردّ العجز علی الصدر وهو فی البیت أن یکون أحد اللّفظین فی آخر البیت والآخر فی صدر المصراع الأول أو یکون أحدهما فی آخر البیت والآخر فی صدر المصراع الثانی کقوله:

وقد کان البیض القواضب فی الوغی

بواتر فهی الآن من بعدها بتر

حاصل معنی البیت لو کنت عالماً بأنّی ما أعظم وما أکرم وما أوقّر الضیف أعنی الشیب بالإطعام بالفعل الجمیل لکنت کاتماً وساتراً أول وهلة للأمر الّذی ظهر لی من ذلك الضیف أعنی الشیب بالخضاب بالحناء لأنّه سنّة من نزل علیه الوحی فی جبل حراء فلا یعرف أحد أمری ولا یظهر سرّی ویرفع عنّی الفضاحة ویقطع منّی الهجو والشناعة وتلخیصه أنّی لو کنت عالماً بأنّی لا أکون عاملاً فی حال الاختیار والشیخوخة وزاهداً وتارکاً للسیّئات والشرور لکتمت شیبی بالخضاب بالحناء حتّی لا یهجونی الناس بأنّه کان شیخاً ذا شیب وهو فی هذا السنّ لا یکون

عاملاً وزاهداً بل يكون تاركاً للأوامر والسنن لكن ما علمت عدم عملي فلا كتمت فقد هجوني۔ (الخرپوتی:٣٨)

رقم البيت (١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الکریم وآله وصحبه الکرام أجمعین ومن تبعهم بإحسان إلی یوم الدین۔

أمّا بعد فقد فرغنا من شرح البیت الثالث وهذا أوان الشروع فی شرح البیت الرابع عشر من الفصل الثانی۔ تبرّم الناظم الفاهم من تمادی النفس الأمّارة فی غیّها وأعیاه کبحها عن جریها یسائل هل من متکفّل بردّ جماح النفس الأمّارة وأخذ یُنْشِد مستفهماً عمّن یکفیه أمره فقال:

من لی بردّ جماح من غوایتها
کما یردّ جماح الخیل باللّجم

"من لی" استفهام استعطاف واستغاثة أی من ذا الّذی یتکفّل لی؛ "بردّ جماح" أی إباء وامتناع عن کلّ خیر من جمح الفرس: إذا أعیی راکبه من شدّة عَدْوِه وعدم انقیاده وتنکیره للتعظیم. "عن" وفی نسخة "من"، "غوایتها" أی ضلالتها بمواعظ السنّة وأسرارها القدسیّة والظرف متعلّق بردّ "کما یردّ" أی مثل ما یردّ فما مصدریّة و الکاف بمعنی "مثل" صفة لموصوف محذوف نصب علی أنّه مفعول مطلق۔ "جماح الخیل" أی عتوّها وغلبتها الفرسان والإضافة إلی موصوفها و"الخیل" اسم جمع لا واحد له من لفظه سمّیت بذلک لأنّها تختال فی مشیتها وهی أشرف البهائم قد جاء مدحها فی قوله تعالی "ومن رباط الخیل تُرهبون به عدوّ الله وعدوّکم"۔ (الأنفال:٦٠) (العمدة ص١٥٣) و"اللجم" متعلّق بیردّ واللّجم جمع لجام وهو الحدیدة المعترضة فی جانبی فم الفرس۔

وفی هذا البیت إشارة إلی أنّ ریاضة النفوس المعبّر عنها بالتزکیة أصل جمیع الفلاح کما قال تعالی (قد أفلح من زکّاها) وهی لا تتیسّر إلّا برائض عالم بقوانین الریاضة فائض علی الطالب سجال الإفاضة ولا تظنن أنّ تزکیة النفس تتیسّر بطریق العقل کما ظنّت الفلاسفة والبراهمة وغیرهم من الجهال وشرعوا فی تزکیة نفوسهم بالریاضات والمجاهدات علی العمیاء فوقعوا فی الآفات والشبهات والضلالات فإنّ تزکیة النفوس کمعالجة الأبدان فکما لا یجوز للمریض استعمال الأدویة إلّا بنظر طبیب حاذق ذی تجربة فی المعالجة کذلک تزکیة النفس لا تتیسّر إلّا بنظر نبی أو ولی ذی تجربة فی هذا الشأن وهذا أحد أسرار بعثة الأنبیاء علیهم الصلاة والسلام فإنّهم الحذّاق فی علم تزکیة النفوس ولهذا بعثهم الله تعالی لیزکّوا بعلاج الشرائع نفس کلّ قنوط ویؤس۔ (الشیخ زاده ص٣٨)۔

وفی هذا البیت من صنائع البدیع جناس بین مَن و مِن وبین بِرَدّ ویُرَدّ وبین الجماح والجماح وتناسب بین الخیل واللّجم۔ (الخرپوتی ص٤٠)

(وفائدة هذا البیت والاثنین بعده) أنّ من أکثر تلاوتها عند شروعه فی إزالة منکر مفتتحاً تلاوتها عشر مرّات فإنّه یری الهیبة والقبول بالکمال بإذن الله تعالی۔ (الباجوری ص١٢)۔

(رقم البيت ١٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الخامس من الفصل الثاني وهو قول الناظم الفاهم:

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها

إنّ الطعام يقوّي شهوة النهم

لا يزال الناظم الفاهم يتفنّن في العبارة وينتقل من أسلوب إلى آخر ففي البيت الأوّل أخذ يتحدّث عن نفسه ويستعطف غيره للتكفّل بأمره وفي هذا البيت التفت من التكلّم إلى الخطاب وتحدّث على لسان من استعطفه وأخبر عنه بما أجاب فأنشد يقول:

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها

إنّ الطعام يقوّي شهوة النهم

الفاء يفصح عن شرط محذوف يفهم ممّا سبق أي إن كنت عرفت أنّ النفس الأمّارة حريصة على الشرور والقبائح فلا ترم اهـ و"لا ترم" أي لا تطلب. "بالمعاصي" أي بتمكينها من معاصيها صغائر كانت أو كبائر. ومثلها الرذائل المباحة الخارمة للمروءة كالأكل في السوق لغير سوق. "كسر شهوتها" أي إذهابها بالمروءة على أنّه المصدر المبني للمفعول وإذهابها على أنّه المصدر المبني للفاعل. وضمير "شهوتها" للنفس. وعلّل ذلك النهي على طريق ضرب المثل بقوله "إنّ" بكسر الهمزة "الطعام" أي جنسه. وهو ما يؤكل ويشرب. "يقوّي" أي يزيد. شهوة الشخص "النهم" أي الشديد الشهوة إليه.

وحاصل معنى البيت يا من زيّن نفسه بحبّ الشهوات والنساء والبنين وكان حاله من العشق في البكاء والأنين لا تطلب كسر شهوة النفس وقطعها بالمعاصي والذنوب إذ من المقرّر والشهير بين الصغير والكبير أنّ المعاصي تقوّي شهوة النفس والنفس لا تسأم ولا تشبع منها. اللّهمّ لا تكلنا إلى أنفسنا في زمان يسير ولا تجعل مصيرنا دار السعير واجعل أمورنا موافقة لمرضاتك إنّك كاشف كلّ عسير ومعين كلّ أسير وعنايتك لعبادك كثير وبسير.

(الخرپوتي ٣١)

(رقم البيت: ١٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت السادس من الفصل الثاني وهو قول الناظم الفاهم:

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على

حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

الواو إمّا عاطفة وإمّا استينافية. والنفس كما قال العلّامة الباجوری لطيفة ربّانية وهی الروح قبل تعلّقها بالأجساد. وقد خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفی عام. فكانت حينئذ فی جوار الحق وقربه فتستفيض من حضرته بلا واسطة. فلمّا أمرها الحق أن تتعلّق بالأجساد عرفت الغير فحجبت عن حضرة الحق بسبب بُعدِها عنه تعالی. فلذلك احتاجت إلی مذكّر. قال تعالی (فإنّ الذكری تنفع المؤمنين). فهی قبل تعلّقها بالجسد تسمّی روحاً وبعد تعلّقها به تسمّی نفساً فالاختلاف بينهما اعتباری. (الباجوری ص١٣). والألف واللّام فی النفس للعهد والمراد بها النفس المعهودة الأمّارة.

وقوله كالطفل. الكاف بمعنی المثل مرفوع محلّاً علی أنّه خبر أی النفس الأمّارة كائنة مثل الطفل والطفل ولد يمضی عليه بعد ولادته زمان قليل. والإنسان فی الرحم يسمّی جنيناً وإذا وُلِد يسمّی وليداً وإذا مضی عليه زمان قليل يسمّی طفلاً وبعده يسمّی صبيّاً وبعده مراهقاً وبعده غلاماً إلی أن يبلغ لتسع عشرة سنة ثمّ منه شابّاً إلی ثلاث وثلاثين ثمّ منه كهلاً إلی إحدی وخمسين ثمّ منه شيخاً إلی آخر العمر. وشبّه النفس بالطفل فی عدم السآمة من المداومة علی المألوفات فكما أنّ الطفل إن تركته علی ما ألفه من الرضاع دام علی حبّه وإن منعته عنه امتنع كذلك النفس إن خلّيتها وما ألفته من المعاصی دامت علی حبّه وإن منعتها عنه امتنعت.

وقوله "إن تهمله" أی تتركه علی ما ألفه من الرضاع "شبّ" أيكبر "علی حبّ الرضاع". علی إمّا بمعنی "مع" أی مع محبّته إيّاه فلا يتركه أبداً لأنّه صار عادة له وطبعا. أو علی معناه ومتعلّق بمحذوف هو حال أی حريصاً وملازماً عليه. "والحبّ" معلوم. والرضاع بالفتح والكسر شرب الولد لبن أمّه. وفی كلام السلف كثرة الرضاع تفسد الطباع. "وإن تفطمه" عطف علی "إن تهمله" أی إن تمنعه عنه بأن توطّنه علی طعام آخر. "ينفطم" أی يمتنع فلا يعود إليه لكراهته إيّاه. فكذلك النفس إذا تركتها ترتع فی أودية المعاصی ألفتها وتعذّر رجوعها عنها. وإن منعتها عنها بأن شغلتها بالطاعات امتنعت عنها وكرهتها فلا تعود إليها أبدا.

رقم البيت (١٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلی يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع فی شرح البيت السابع من الفصل الثانی وهو قول الناظم الفاهم:

فاصرف هواها وحاذر أن تولّيه إنّ الهوی ما تولّی يصم أو يصم

إذا عرفت أنّ النفس لايرام كسر شهوتها بإرسالها فی معاصيها بل بكبحها عنها. وفطمها عن رضاعها:

فاصرف هواها وحاذر أن تولّيه

إنّ الهوی ما تولّی يصم أو يصم

الفاء فصيحة. اصرف أی ادفعه. والهوی بالقصر لغةً: الميل إلی الشیء. وعرفاً: ميلان النفس إلی ما يترتّب عليه ذمّ فی العاجل وعقاب فی الآخرة. (العمدة ص١٦٢)

وحاذر: أي خف فيكلّ زمان. وعلى أيّ حال. ومن ثمّ اختاره على احذر. أن تولّيه أي تجعله والياً عليها يتصرّف فيها تصرّف الأمير في المأمور. وعلّل ذلك بقوله: إنّ بكسر الهمزة على الاستيناف وفتحها على إرادة التعليل، وإضمار لامه. الهوى أي كلّ فرد من أفراده. ما أي مهما. تولّى فعل ماض والضمير راجع إلى الهوى. يصم بضمّ أوّله أي يقتل، من أصمى الصيد أي قتله حذف منه الياء علامة للجزم لأنّه مجزوم بما الشرطية. أو يَصم أو للعطف وهو يجيء لمعان كما قاله الأصوليون أنّه في الأكثر يجيء للشك أو للتشكيك وقد يجيء للإباحة والتخيير نحو جالس الفقهاء أو المحدّثين وقد يجيء بمعنى بل كقوله تعالى (فهيكالحجارة أو أشدّ قسوة) وقد يجيء بمعنى حتّى كقوله تعالى (ليس لك من الأمر شيء أويتوب عليهم) وقد يجيء بمعنى إلى نحو لألزمنّك أو تعطيني حقّي وقد يجيء بمعنى إلى أن إذا وقع بعدها مضارع منصوب ولم يكن قبلها مضارع كذلك كقول امرء القيس:

فقلت له لا تبك عينيك إنّما

تحاول ملكاً أو تموت فتعذرا

وما وقع ههنا فهو بمعنى الشك كما لا يخفى. (الخرپوتي ص٣٣)

وقوله يَصم مضارع من وَصَمَ إذا جعله ذا عيب حذف مفعولهما للضرورة أي يصمك ويجعلك ذا عيب في النّاس. ثمّ إنّ بين الفعلين أعني يصم ويَصم جناساً تامّاً كما لا يخفى.

والمعنى أنّه يقول أيّها المحترق في نار الجوى والمبتلى بمقاسات شدائد البعد والنوى فاصرف النفس عن متابعة الهوى لأنّ اتّباعه سبب الضلال والبعد عن حضرة الإله المتعال كما قال الله تعالى (ولاتتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله). وكما بعض الصحابة عن الرسول روى ما عُبِدَ إله أبغض على الله تعالى من الهوى. فلا تجعل النفس خليع العذار فيما تهواه. ولا تكن ممن اتّخذ إلهه هواه. إذ كلّ ما سلّط عليه الهوى أهلكه وأرداه أو جعله ضالّاً لا يُرجى هداه.

رقم البيت (٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الثامن من الفصل الثاني وهو قول الناظم الفاهم:

وراعها وهي في الأعمال سائمة

وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

الواو عاطفة من عطف الإنشاء على الإنشاء أعني على جملة حاذر. وراع أمر مِن راعى يراعي مراعاة أي لَاحِظْها أي النفس الأمّارة بالسوء وتتبّع أحوالها وتأمّل دسائسها. وهي أي والحال أنّها في الأعمال أي الصالحة وهو متعلّق بسائمة. سائمة أي متلبّسة بها تلبّس الماشية بسومها في المرعى. وإن هي استحلت كقوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره). وهي عطف الإنشائية على مثلها لأنّ خبريّة الشرطيّة وإنشائيّتها تابعة للجزاء إن خبر

فخبر وإن إنشاء فإنشاء. "استحلت المرعى" أي عدّته حلواً واستطابت. المرعى بفتح الميم موضع الرعي أي ما تتعاطاه من الأعمال الصالحة الشبيهة بمرعى الماشية بأنّ أحبّتها ومالت بطبعها إليها. والمراد منه النوافل لا الواجبات والمستحبّات فإنّهما لايستوجبان الشرك بالاستحلاء. (الخرپوتی ص٣٦). "فلا تسم" نهی حاضر من أسام إذا أخرج الدابّة إلى المرعى فحذف منه الياء للجزم. والمعنى فلا تبق نفسك فی ذلك بل ازجرها وامنعها.

وحاصل معنى البيت وراع النفس ولازمها والحال أنّها تشبه السائمة فی مرعى الأعمال الصالحة. فإن ترعها فی ذلك المرعى وتحفظها فی رعيها عن الضرر والفساد تعمل صالحاً. وإن تتركها تبادر إلى ما اعتادته وتضرّ صاحبها بفعلها ضرراً سيّئاً. وإنّ النفس إذا ألفت بعض النوافل وعدّته حلواً واعتادت فلا تسم تلك النفس ولاترسلها على حالها وازجرها وامنعها. لأنّ النفس لو وجدت فی عبادة من العبادات لذّة فی غاية اللّذات لكان فيها معصية من العجب والرياء والزهو على الورى. فيجب توطينها على عبادة لاتجد فيها حلاوة لأنّها لو جعلت العبادة عادة لم تكن فيها فائدة. حكی عن بعض الصالحين أنّه قال حججت كذا و كذا مرّة فبان لی أنّ جميع ذلك مشوب بحظی وذلك أنّ والدتی سألتنی يوماً أن أسقيها جرعة ماء فثقل ذلك على نفسی فعلمت أنّ مطاوعة نفسی فی الحجّات كانت لحظ وشرف لنفسی إذ لو كانت نفسی على خلوص لم يصعب عليها ما هو حقّ الشرع كذا فی البريقة. والمعنى التصوّفی لهذا البيت أيّها العارف بالله اجعل نفسك فانياً فی الله وحصل رضا الله ولاتبق فی الأعمال فإنّ البقاء فی الأعمال مرتبة الصلحاء والزهاد من الرجال و كن مستغرقاً فی ملاحظة واجب الوجود واترك رؤية القعود والسجود فإن بقيت فيها تكن محجوباً وإن تركتها وبلغت إلى ما فوقها تكن مطلوباً فإنّ وراء الأعمال والاستدلال أصول الكمال وهو حقيقة الوصال فإنّ النفس لخباثتها أحبّت أن تبقى فی الذكر والتفكّر والتأمّل فعليك بالتحوّل ولو بالتحمّل. (الخرپوتی ص٣٦)

أقول ولعلّ هذه هی مرتبة الإحسان الّتی فُسّرت فی الحديث (أن تعبد الله كأنّك تراه). والحديث اشتمل على هذا المعنى اللّطيف وهو الوصول إلى مشاهدة حضرة اللّطيف بتفانی العبد عن شهود نفسه كأنّه لم يكن على أحد الوجوه المحتملة فی قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (فإن لم تكن) أی إن تفانيت فی عبادتك فكأنّك لم تكن ولم توجد تراه. وعلى هذا فجملة (فإن لم تكن) شرط وقوله (تراه) جزاء للشرط. قال الشيخ عبد الحق المحدّث الدهلوی فی اللّمعات شرح المشكاة ما نصّه: اعلم أنّه قد لاح على باطن بعض العارفين من الصوفية أنّه قد وقف على تراه الثانية بإرادة معنى أنّك إذا فنيت عن نفسك فلم تكن شيئاً ولم ترَ نفسك شاهدت ربّك لأنّها الحجاب بينك وبين شهود الربّ تعالى. (لمعات التنقيح: ١/٦٩ مطبوع باكستان)

رقم البيت (٢١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد حان لی الآن أن أشرح فی البيت الّذی يلی وهو قوله رضی الله تعالى عنه:

كم حسّنت لذّة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أنّ السمّ فى الدسم

وهو كما ترى بمنزلة الاستدلال لما سبق له من المقال والخطاب للشخص المجرّد الّذى استعطفه واسترشده إلى منع النفس عن الهوى وضبطها فأجاب الطلب من السائل وأشار عليه بأن يراعى النفس حالة كونها سائمة فى مرعى الأعمال ومنعه من الإسامة إن هى استحلت المرعى وأراد أن يبيّن هذا ويؤكّده بالدليل فقال. وهو بصدد الاستدلال لما ادّعى:

كم حسّنت لذّة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أنّ السمّ فى الدسم

وكم ههنا خبرية تتطلّب مميّزاً ومميّزها فى الغالب يأتى مجروراً كما ورد فى التنزيل "كم من فئة". وكم الاستفهامية الجملة بعدها تكون إنشائية كما أنّ الجملة بعد كم الخبرية تكون خبريّة ومميّز كم الاستفهامية يأتى منصوباً فى الغالب. كم حسّنت أى كم مرّة فهو فى قوّة قوله كثيراً مّا. حسّنت لذّة للمرء قاتلة من حيث لم يدرِ أنّ السمّ فى الدسم. والمعنى كثيراً مّا حسّنت أى زيّنت وجعلت عملاً من الأعمال المندوبة. قيّدنا الأعمال بالمندوبة لأنّه كما سبق أنّ الواجبات لا تُترك لو استحلتها النفس. فالمراد بالأعمال النوافل والمندوبات. والمعنى حسّنت أى زيّنت وجعلت فى عين المرء عملاً مندوباً من الأعمال لذّة وهو مصدر بمعنى الإدراك الملائم. وقد يأتى بمعنى اسم المفعول. وههنا لذّة بمعنى اسم المفعول أى مستلذّاً. وبما قرّرنا يستبين لك أنّ لذّة بالنصب مفعول حسّنت وهو مفعول ثان وحسّنت بمعنى جعلت والجعل يتعدّى إلى مفعولين فالمفعول الأوّل سبق تقديره أى جعلت عملاً والثانى لذّة أى مستلذّا. وللمرء جار ومجرور متعلّق بقاتلة قدّم لضرورة الشعر. وجىء باللّام فى قوله للمرء للتقوية وتأكيد الفعل. والمرء على ما قال العاصم فى ترجمة القاموس المسمّى بأوقيانوس بالحركات الثلاث الإنسان ذكراً كان أو أنثى. وعلى قول مختصّ بالرجل لكنّ المرء هنا أعمّ ولا جمع له من لفظه وإنّما جمعه على رجال. وعلى قول جاء جمعه مرء ون وفى مؤنّثه يقال مرأة بالتاء. وقد سمع مرة بترك الهمز وفتح الراء. وقد تدخل على أوّلها همزة الوصل وكذا لام التعريف وكذلك تدخل همزة الوصل على أوّل المرء فحينئذ إذا كان منكّراً جاءت فيه لغات ثلاث فتح الراء دائماً فالرفع والنصب والجر. والثانية ضمّها دائماً فى الحالات الثلاث. والثالثة إعرابها تبعاً للحرف الأخير فى الإعراب. فإن كان آخره مرفوعاً تكون الراء أيضاً مرفوعة. وإن منصوباً كانت الراء منصوبة. وإن مجرورة كانت الراء مجروراً. فى التنزيل (وإن امرؤٌ هلك). وكما تقول إمرأً وشأنه فتنصب الراء فى حالة النصب. وكما تقول مررت بامرءٍ فتجرّ الرّاء تبعاً لآخر الحرف فى حالة الجرّ. وإن كان مقروناً بحرف التعريف كانت الراء ساكنة البتّة.

وقاتلة منصوب على أنّه حال من اللذّة أوصفة له. والمراد من القتل ههنا الإهلاك من قبيل ذكر الملزوم وإرادة اللّازم. ومن حيث جار ومجرور متعلّق بقاتلة. وقيد الحيثية يأتى لمعان ثلاثة الإطلاق والتقييد والتعليل كقولك الإنسان من حيث الإنسان. وكقولك لإفادة التقييد فى حدّ علم الطبّ: الطبّ علم يبحث فيه عن بدن الإنسان من حيث أنّه مريض. ومن حيث أنّه صحيح به يبحث فيه عن بدن الإنسان من حيث الصحّة والمرض

لا مطلقاً. وكقولك لإفادة التعليل الماء يبرّد وجود الإنسان من حيث أنّه بارد. ومن حيث ههنا للتقييد أو للتعليل وحيث للمكان فى الأصل واستعير ههنا لمعنى الجهة. وقال الأخفش تجيء للزمان ويلزمها الإضافة إلى الجملة اسمية كانت أو فعلية. وإضافتها إلى الفعل أكثر. وإضافتها إلى المفرد نادرة. ولذلك أضيف ههنا حيث إلى الجملة لم يدر. ولم يدر بالبناء للفاعل أو للمفعول أى لم يُدْرَ بمعنى لم يعلم. والسمّ مثلثة دواء يقتل الإنسان بسرعة. وهنا يراد به المعصية على سبيل المجاز والاستعارة شبّه العجب والرياء بالسمّ بجامع الإهلاك فى كلّ فكما أنّ السمّ يهلك الإنسان كذلك العجب والرياء. وكلّ عمل سيّء يؤدّى إلى هلاك الأعمال وفسادها وبالتالى يهلك صاحبها كما ورد فى الحديث أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: "إنّ أخوف ما أخاف على أمّتى الإشراك بالله أما أنّى لست أقول تعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكنّ أعمالاً لغير الله الحديث".

وقوله: فى الدسم ظرف مستقرّ خبر أنّ. والجملة نائب فاعل لقوله لم يدر أو مفعوله. والدسم طعام فيه كثير دسومة و أريد به الأعمال والطاعات مجازاً واستعارة شُبِّه الأعمال والطاعات بطعام دسم بجامع الالتذاذ والاشتهاء بحيث لا يُدرَى أنّ فيه سمّاً. واستعير الطعام الدسم لمفهوم الطاعات والأعمال. فذُكِر الدسم الدالّ على الطعام. وأريد به الأعمال والطاعات. ثمّ اعلم أنّ فى قوله أنّ السمّ فى الدسم إيهاماً حسناً لتجانس اللّفظين فى اللّفظ والمعنى. ففى الدسم والسمّ جناس لفظاً أى من حيث اللّفظ. وفيه جناس من حيث المعنى أيضاً كما لا يخفى. وهذا كما قيل فى قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم "إنّ السفر قطعة من السقر". وقال الشاعر:

النار آخر دينار نطقت به
والهمّ آخر هذا الدرهم الجارى

والحاصل أنّ النفس أمّارة مكّارة كثيرة الخداع كثيراً مّا تخدع المرء وتُحَسِّن من ظاهره ما يفسد باطنه. لأنّها كالأعداء. والأعداء يدسّون السمّ فى المستلذّ من الطعام و يهلكون المرء. كذلك النفس تُدْخِل على المرء فى عبادته العجب والرياء وتهلك صاحبها ولا يعلم المرء الخفى من شرّ النفس من أجل لذّة العجب والرياء. والعجب مضرّ فى كلّ الأحوال ولو كان فى غير العبادة وصالح الأعمال. رُوى أنّ بعض الصحابة نظر إلى كثرة العسكر والعُدّة فى غزوة الحنين. فأعجبته الكثرة والعدّة. فقال لا انهزام لنا بعد ذلك. وبلغت المقالة النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فكره تلك المقالة. فرفع الله النصرة عنهم فى أوّل الأمر تأديباً لهم وإنذاراً بأنّ النصرة ليست بالكثرة وإنّما هى من الله سبحانه وتعالى. قال الله تعالى (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) الآية.

وحُكى أنّ حكيماً فيمن كان قبلنا صنّف ثلاثمائة وستّين كتاباً. فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أن قل له قد ملأت الأرض نفاقاً. ولم تُرِدْنى بشيء من ذلك ولا أقبل منه شيئاً. فندم وترك وخالط العامّة وتواضع. فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبى أن قل له الآن قد وافقت رضائى.

وأيضاً ورد عن النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّه قال: إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء. يقول الله تعالى يوم القيامة: أنا أجازى العباد بأعمالهم. اذهبوا إلى الّذين كنتم تراؤون لهم فى الدنيا. وفى حديث آخر طويل أنّ الله يقول للملائكة: إنّ هذا لم يُرِدْنى بعمله فاجعلوه فى سجّين.

رقم البيت (٢٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. الآن حان لنا أن نشرح البيت الذي يلي وهو قول الناظم الفاهم:

واخش الدسائس من جوع
ومن شبع فربّ مخمصة شرّ من التخم

وهذا البيت العاشر من الفصل الثاني من قصيدة البردة نأخذ في شرحه بعون الله سبحانه وتعالى. إذ قد فرغ الناظم الفاهم من بيان ملازمة النفس بالصيانة والترقّب والتعهّد لها حين اشتغالها في نوافل العبادات والطاعات رأى أن يؤكّد هذا المعنى بمزيد من التأكيد مع إفادة التأسيس. وأشار على الشخص المجرّد بأنّه يلزمه الحذر من الحيل الخفيّة الّتي يدسّها الشيطان والنفس عليه في المباحات فقال:

واخش الدسائس من جوع
ومن شبع فربّ مخمصة شرّ من التخم

واخش الدسائس فعل أمر من خشي يخشى خشية أي احذر. الدسائس جمع دسيسة مفعول به لقوله اخش وهي الحيل الخفيّة. من جوع ومن شبع جار ومجرور في محلّ النصب صفة الدسائس أو حال. والصفة لا بدّ أن تَتْبَعَ الموصوف في التعريف والتنكير. والدسائس موصوف معرّف. ومن جوع على تقدير كونه صفة للدسائس لا بدّ أن تكون معرّفة. والمعرفة إمّا حقيقة أو تقديراً وههنا من جوع ومن شبع التعريفُ في هذه الصفة مقدّر وتقدير المعرفة لا يضرّ بعد تبيّن المراد كما أفاده الشيخ زاده. ومن جوع ومن شبع متعلّق بالصادرة أو ناشئة أي حال كونها ناشئة على التقديرين: على تقدير كون الجارّ والمجرور صفة للدسائس أو حالاً من الدسائس. والأمر ههنا للتأديب أو للإرشاد. والأمر يجيء لستة عشر معنى كما قال الخرپوتي. الأول: الإيجاب كما في قوله تعالى (أقيموا الصلاة). والثاني الندب كما في قوله تعالى (فكاتبوهم). والثالث التأديب كما في قوله عليه الصلاة والسلام (كل ممّا يليك). والرابع الإرشاد كقوله تعالى (واستشهدوا). والخامس الإباحة كقوله تعالى (وإذا حللتم فاصطادوا) أي إذا فرغتم من الحجّ أمكنكم الصيد أو أبيح لكم الصيد. فالأمر ههنا في قوله تعالى (فاصطادوا) للإباحة. والسادس التهديد نحو (اعملوا ما شئتم). ونحو قوله عليه الصلاة والسلام (اعمل ما شئت). والسابع الامتنان نحو قوله تعالى (كلوا ممّا رزقكم الله). والثامن الإكرام نحو قوله تعالى (ادخلوها بسلام). والتاسع التعجيز كما في قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله). والعاشر التسخير نحو قوله تعالى (كونوا قردة خاسئين). والحادي عشر الإهانة نحو قوله تعالى (ذق إنّك أنت العزيز الكريم). والثاني عشر التسوية نحو (اصبروا أو لا تصبروا). والثالث عشر الدعاء نحو (اللّهم اغفرلي). والرابع عشر التمنّي كقول امرء القيس ع (ألا أيّها اللّيل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل). والخامس عشر الاحتقار نحو قوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام عن قوله للسحرة

(ألقوا ما أنتم ملقون). والسادس عشر التكوين نحو قوله تعالى (كن فيكون).

والدسائس جمع دسيسه كالكتائب جمع كتيبه. والدسيسة الكيد والحيلة الخفيّة والألف واللّام فى الدسائس عوض عن المضاف إليه والمعنى دسائس النفس. وقوله من جوع ظرف مستقرّ إمّا حال من دسائس أو صفة لها كما قلنا أى احذر الدسائس حال كونها صادرة وناشئة من الجوع ومن الشبع. أو الدسائس الناشئة المتولّدة من جوع ومن شبع. والجوع حالة للإنسان المعروفة يشتهى بها الإنسان الأكل. وقيل علامة جوع الإنسان أن يشمّ الذباب ريقه ولا يقع عليه كما قال الشاعر:

فى حدّ جوع الفتى قولان قيل بأن
يشتهى به الخبز فرداً حالة الأكل

وقيل إن وقعت فى الأرض ريقته
شمّ الذباب وجدّ السير من عجل

والشبع عكس الجود ونقيضه. والمراد من الدسائس الحاصلة من الأمرين الجوع والشبع الآفات المتولّدة منهما. أمّا الآفات الحاصله من الجوع فنحو الحدّة والشدّة والذبول والكلال وملال النفس وقعودها عن تحصيل الكمال والخيالات الفاسدة والأوهام الكاسدة. أمّا الآفات الحاصلة من الشبع فكثرة النوم المتقضيه للكسل وقسوة القلب وغفلته وموته أى موت القلب بطول الأمل وانطفاء نور اليقين و كثرة الشهوات وغير ذلك من البليّات. ويمكن أن يراد بالجوع الفقر على سبيل التجوّز. لأنّه ملزوم الجوع. فعلى هذا يكون المراد من الدسائس المهالك فإنّ الفقر يؤدّى الإنسان إلى المهالك ولذلك استعاذ صلّى الله تعالى عليه وسلّم منه وقال فى حديث (كاد الفقر أن يكون كفراً). وفى آخر (الفقراء سود الوجوه يوم القيامة). وآفات الفقر مثل السرقة وتغيير المذهب والملّة كما قال الشاعر:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الّذى ترك الأحلام حائرة
وصيّر العالم النحرير زنديقاً

ويمكن أن يراد بالشبع الغنى وبالدسائس مهالك الغنى وهى حبّ الدنيا وهو رأس كل خطيئة وطول الأمل والكسل عن الطاعات و تناسى الآخرة وقسوة القلب والكبر والعجب والحرص والبخل وغير ذلك. ويجوز أن يراد من الجوع الجهل ومن الشبع العلم. ويجوز أن يراد من الجوع عدم العمل ومن الشبع العمل. ويحتمل أن يراد من الجوع السكوت ومن الشبع الكلام. ويجوز أن يراد من الجوع سهر اللّيل ومن الشبع النوم باللّيل. ويجوز أن يراد من الجوع العزوبة ومن الشبع الخلطة. ويجوز أن يراد أيضاً من الجوع العزوبة ومن الشبع التزوّج و على هذه التقادير يكون فى الجوع والشبع مجازاً واستعارة ووجه الشبه فيكلّ منهما خلوّ النفس عن الغذاء وحصوله وتكون الدسائس عبارة عن مهالك كلّ ما ذُكر. وقوله فربّ مخمصة شرّ من التخم الفاء للتعليل لأنّه علّة لدعوى مضمرة

تفهم ممّا سبق وهو أنّ الخشية من دسائس الجوع لابدّ منها. وربّ للتقليل عند الأكثر. وعند البعض للتكثير حرف جرّ لا تدخل إلّا على نكرة. وفي كلمة ربّ لغات عديدة مشدّدة ومخفّفة ويلحق آخرها التاء وكلمة ما والتاء مع ما مشدّدة ومخفّفة. وبالجملة قال شيخ الإسلام أبو زكريا الأنصاري في كلمة ربّ سبعون لغة وعدّها في شرحه على القصيدة المنفرجة إن أردت التفصيل فعليك بذلك السفر الجليل. ولك أن تقول لماذا خصّ التعليل بالجوع فقال فربّ مخمصة ولم يجئ بالتعليل للشبع؛ الجواب أنّ ضرر الشبع بديهي مشتهر بين الأنام فاستغنى بشهرته عن التعليل للشبع. وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ستّ نكات في الشبع. فقال: من شبع لم يجد حلاوة العبادة. وتعذّر عليه حفظ الحكمة. وحصل له حرمان الشفقة على الخلق. وثقل عليه العبادة. وحصل لديه زيادة الشهوة. وإنّ سائر المؤمنين يسرعون إلى المساجد والشبعان يهرع إلى المزابل. وأمّا ضرر الجوع فخفي ويترتّب على الجوع منافع عديدة وفوائد كثيرة: منها صفاء النوم. ومنها رفع النوم ودوام السهر. ومنها سهولة المواظبة على العبادة. ومنها خفّة المؤونة. ومنها التمكّن بذلك من الإيثار والتصدّق وغير ذلك ممّا لا يتناهى. ولذلك علّل له. والمخمصة شدّة الجوع المفرط. والشرّ أفعل التفضيل أصله أشرر حذفت منه الهمزة طلباً للخفّة وحرّكت الشين بالفتح وأدغمت الراء في الراء. وقد لحن أبو قلابة في قراءته (سيعلمون غداً من الكذّاب الأشِر) فقرأه على صيغة التفضيل (من الكذّاب الأشرّ) ولم يوافقه أحد عليها. قال الحريري شرّ فيه معنى التفضيل لا يثنّى ولا يجمع ولا يؤنّث. ولا يقال أشر إلّا في لغة رديئة. والتخم جمع تخمة والتخمة مصدر بمعنى عدم هضم الطعام مع استثقاله على صاحبه وتعفّنه في معدته. وإنّما كانت المخمصة شرّاً من التخم. والعلماء متّفقون على كون شدّة الشبع شرّاً وكون شدّة الجوع خيراً. لأنّ المخمصة وشدّة الجوع تورث الإنسان ضعفاً حتى لا يقدر على أداء العبادة. قال صلّى الله تعالى عليه وسلّم لمعاذ (إنّ نفسك مطيّتك فارفق بها وليس من الرفق أن تجيعها وتذيبها). وقد تقرّر في الكتب الفقهية أنّ الأكل إمّا فرض وهو مقدار ما يدفع عن المرء الهلاك. قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (إنّ الله ليؤجر في لقمة يرفعها العبد إلى فمه). وإمّا مندوب وهو ما زاد على القدر المفروض حتى يتمكّن من أداء الصلاة قائماً ويسهل عليه الصوم. قال عليه الصلاة والسلام (المؤمن القوي أحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف). وإمّا مباح لا أجر ولا وزر إن زاد على ذلك لمجرّد تقوّي البدن فيحاسب حساباً يسيراً. وإمّا حرام وهو ما كان فوق الشبع لإضاعة المال والإسراف.

تتمّة:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم.

أمّا بعد فهذه تتمّة من الكلام تتعلّق بشرحنا للبيت الثاني والعشرين وهو قول الناظم الفاهم: واخش الدسائس اهـ.

وغرضنا في هذه البقيّة من الكلام أن نعلّق على ما قاله الخربوتي عمّا قرأ به أبو قلابة في قوله تعالى "سيعلمون غداً من الكذّاب الأشر" قرأ أبو قلابة "من الكذاب الأشرّ" على صيغة التفضيل من شرّ. وقال الخرفوتي ههنا ما نصّه: لحن أبو قلابة في قراءته "سيعلمون غداً من الكذّاب الأشر" على صيغة التفضيل ولم يوافقه أحد عليها. (ص٥١، ٥٢)

ولى فيه نظر أمّا قوله و قد لحن أبو قلابة فممنوع. لأنّ اللّحن كما جاء فى المصباح المنير: لحن فيكلامه لحناً من باب نفع أخطأ فى العربية. قال أبو زيد لحن فيكلامه لَحْناً بسكون الحاء ولحونا وحضرم فيه حضرمة إذا أخطأ فى الإعراب وخالف وجه الصواب.

فاللّحن الخطأ فى العربية والخطأ فى الإعراب ومخالفة وجه الصواب كما مرّ عن المصباح المنير. وهذا الّذى ادّعاه الخربوتى على أبى قلابة لم يوافقه أحد من الأعيان الّذين صنّفوا كتبهم فى التفسير وعُنُوا بحكاية القراء ات المتواترة والمشهورة و الشاذّة لم يقل أحد منهم بأنّ أبى قلابة لحن فى قراء ته. وإنّما ظاهر صنيعهم أنّهم عدّوا ما أدّاه أبو قلابة وتكلّم به قراء ة. فهذا القرطبى قائلاً ما نصّه: وقرأ أبو قلابة أشرّ بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصل. وحكى القرطبى فى هذه الكلمة قراء ات أخر فقال: وعن أبى حيوة بفتح الشين و تخفيف الراء. وعن مجاهد وسعيد بن جبير ضمّ الشين والراء والتخفيف. قال النحّاس: وهو بمعنى الأشر ومثله رجل حَذِر وحَذُر. قال فى المصباح المنير: رجل شرّ أى ذو شرّ وقوم أشرار وهذا شرّ من ذلك. والأصل أشرّ بالألف على أفعل واستعمال الأصل لغة لبنى عامر وقرء فى الشاذ "الكذاب الأشر" على هذه اللّغة. وقال الزمخشرى فى الكشاف ما نصّه: وقرء الأشُر بضمّ الشين كقولهم حدث وحدث وحذر وحذر وأخوات لها. وقرء الأشرّ وهو الأبلغ فى الشرارة والأخيَر والأشَر أصل قولهم هو خير منه وشرّ منه وهو أصل مرفوض وقد حكى ابن الأنبارى قول العرب: هو أخير وأشر وما أخيره وما أشره انتهى.

بهذه النقول يتبيّن لك أنّ قولهم هذا أشرّ من فلان لغة محفوظة وهى لغة بنى عامر وقد حكى ابن الأنبارى الأخير والأشر وما أخيره وما أشره فى محلّ التعجّب على الأصل. فقول الزمخشرى وهو أصل مرفوض فى محلّ المنع على أنّه متناقض مع ما حكاه عن ابن الأنبارى وبما ذكرنا من النقول ظهر أنّ ما قرأ به أبو قلابة عدّه جماعة من أعيان المفسّرين قراء ة. وصرّحوا بأنّها قراء ة شاذّة ولم يقل أحد منهم إنّه لحن. فقول الخرفوتى ودعواه على أبى قلابة بأنّه لم يوافقه أحد على هذه القراء ة لاينهض دليلاً على كون هذه القراء ة لحناً. لأنّ القراء ة لها أصل فى كلام العرب وهى لغة مستعملة لبعض العرب واللّحن ما كان خطأً من حيث العربيّة فلا يصدق على هذه القراء ة حدّ اللحن. وإذلم يصدق عليه حدّ اللّحن لأنّه ليس خطأً من جهة العربيّة فلا يصحّ الدعوى على أبى قلابة بأنّه لحن فى قراء ة و كون هذه القراء ة لم يوافقها عليه أحد لا ينهض دليلا على كونها لحناً على أنّ هذا يجرى فى كلّ ما قرء على وجه الشذوذ. وقد مرّت قراء ات شاذّة فى نفس هذه الكلمة أخرى كقراء ة من قرأ أشر بتخفيف الراء ومن قرأ أشر بضمّ الشين وضمّ الراء. فنسبته إلى اللّحن لا تخلو من إساء ة أدب إلى مقرئ رُوِيَت قراء ته وأثبتت فى كتب التفسير وعُدّ ما تكلّم به قراء ة. والشاذّ كما عُلِمَ فى مصطلح الحديث ما رواه الثقة مخالفاً لمن هو أوثق منه فلو كانت الموافقة شرطاً فى اعتبار ما قرأ به مقرء وعدّه قراء ة لخرجت القراء ات الشاذّة عن كونها قراء ة معتداً بها وصنيع المفسّرين فيكتبهم بإيراد القراء ات الشاذّة واحتجاجهم بها وبناء الأحكام عليها مشعر بأنّها ثابتة فى الجملة وإن لم تبلغ مبلغ القراء ة المتواترة والمشهورة والقراء ة العامّة. القراء ة الشاذّة لا أقلّ أنّها مظنونة قرآنيّتها و للإمام جلال الدين السيوطيكلام نفيس ذكره فى الإتقان فى مبحث القراء ات يتعيّن مطالعته. ولا يسعنى فى هذه الجلسة القصيرة أن آتى بما ذكره

برمّته فإنّه كلام طويل ولكن أوافيك بأحرف قليلة حكاه الإمام جلال الدين السيوطي عن أحد الأعيان من المقرئين فقال ما نصّه: ما روى من القرآن على ثلاثة أقسام: قسم يقرأ به ويكفر جاحده وهو ما نقله الثقات ووافق العربيّة وخطّ المصحف. وقسم صحّ نقله عن الآحاد وصحّ فى العربيّة وخالف لفظه الخطّ فيقبل ولايقرأ به لأمرين: مخالفته لما أُجمِعَ عليه وأنّه لم يؤخذ بإجماع بل بخبر الآحاد ولايثبت به قرآن ولايكفر جاحده ولبئس ما صنع إذ جحده. وقسم نقله ولا حجّة له فى العربيّة نقله غير ثقة فلا يقبل وإن وافق الخطّ.

أقول: وجليّ أنّ ما نقل عن أبي قلابة من القسم الثانى لأنّه نقل عن ثقة ووافق العربيّة. فهو وإن لم يبلغ مبلغ القسم الأوّل من الثبوت فهو ثابت فى الجملة. ومظنون به أنّه من القرآن ولذلك قال ولبئس ما صنع إذ جحد فالحكم عليه بأنّه لحن ليس طعناً فى أبي قلابة فقط بل يشمّ منه رائحة الإنكار للقراءة الثابتة فى الجملة. هذا ما قصدت إيراده فى هذا المقام تنبيهاً للعوام وانتصاراً لهذا الإمام ودفعاً للأوهام والحمد لله الملك المنعام.

رقم البيت (٢٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم سيّدنا محمد شفيع المذنبين وعلى آله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إذ قد فرغ الناظم الفاهم فى الأبيات السابقة من بيان مراعاة النفس بأساليب مختلفة وإرشاد الشخص المجرّد إلى ترقّب النفس وحفظها، رأى أنّ الشخص المجرّد يحتاج إلى أن يتدارك ما سبق منه من التفريط فى جنب الله فأراد أن يرشده إلى سبب مغفرة وما يكفّر الذنوب حثّاً على الإنابة وتحريضاً على التوبة والأوبة فقال:

واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت من المحارم والزم حمية الندم

الواو للعطف ويجوز أن تكون الواو استينافية معانية والجملة وقعت جواباً عن سؤال مقدّر كأنّ الشخص المجرّد سأله وقال له: قد أرشدتنى إلى صيانة النفس وحفظها فى الآتى. فكيف أصنع لما فرط منّى فى الماضى. وهل من سبيل إلى العفو والمحو؟ فأرشده إلى السبيل قائلاً واستفرغ الدمع اه. واستفرغ من باب الاستفعال وخاصّيته الطلب أى اطلب الفراغ أو بمعنى فرغ الدمع وهو الماء المالح الّذى يجرى من العين. قوله من عين جار مجرور متعلّق بقوله استفرغ. قد امتلأت جملة فى محلّ الجرّ صفة لعين. والضمير المستتر فى الفعل يعود إلى العين. وامتلأت عبارة عن كثرة الذنوب. ويمكن أن يقال بطريق الاستخدام وهو أن تذكر لفظاً بمعنىً وتعيد الضمير إليه بمعنىً آخر كما وقع هنا فالعين بمعنى الجارحة الّتى بها الإبصار وفى قوله امتلأت الضمير يعود إلى العين ولكن أريد بالعين هنا القلب. وهذا هو الاستخدام. من المحارم متعلّق بقوله امتلأت والمحارم جمع محرم يقال هى ذات رحم محرم منك إذا حرم نكاحها على التأبيد. فالمحرم بمعنى الحرام. والمراد من المحارم المحرمات والمعاصى. والزم حمية الندم أى التزم الحمية مصدر بمعنى الاحتماء والتحرّز. والندم بمعنى الندامة والإضافة فيه بيانيّة أى الزم الاحتماء الّذى هو الندم أو بمعنى من أى الحمية الحاصلة من الندم أو من قبيل إضافة المشبّه من

المشبّه به كما فى قولهم لجين الماء وذهب الأصيل. قال الشاعر: وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء.

والمعنى على هذا الوجه الأخير الزم الندم الّذى يشبه الحمية ومعنى البيت يا من فى عنيه امتلاء المحرمات وفى قلبه مرض الغفلات عليك باستفراغ الدموع والبكاء لأنّه هو العلاج فى الامتلاء وتطهير القلب عمّا سواه لأنّ الخليل مأمور بتطهير بيت الله تعالى. وأنت خبير بأنّ معالجة القلوب والأرواح لا تتيسّر إلاّ بمعجون النجاح وقيل إنّ إزالة النجاسات الظاهرة بالماء وتطهير النجاسات الباطنة بالبكاء ولكن ينبغى أن يكون البكاء من الخشية والندم لأنّ البكاء من الشكاة يفسد الصلاة ومن الخشية الله و الشوق إلى لقاء ه يعدّ من المكملات و الحمد لله الموفّق الخيرات وعلى حبيبه أفضل الصلوات وأكمل التحيّات.

وإنّما أرشد الناظم الفاهم إلى هذا العلاج وهو العينان بأن البكاء من خشية الرحمن مانع من دخول النيران كما قد ورد النبى عليه الصلاة والسلام (لا يدخل النار من وقع من خشية الله تعالى حتى يلج اللّبن الضرع). وقيل إذا كان يوم القيامة تخرج من الجحيم نار مثل الجبال فتقصد أمّة محمد صلّى الله تعالى عليه وسلّم و يجتهد الرسول عليه الصلاة والسلام فى دفعها. وينادى جبرئيل ويأمره بالمجىء وبأن يلحق به فإنّ النار قد قصدت أمّتى لتحرقهم فيأتى جبرئيل بقدح فيه ماء فينادى سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم ويقول خذ هذا و رشّه عليها فيرشّه فتنطفئ فى الحال فيقول يا جبرئيل ما هذا الماء لم أر مثله فى إطفاء النار؟ فيقول جبرئيل هذه دموع أمّتك الّذين بكوا من خشية الله فى الخلوات أمرنى ربّى أن أخذه وأحفظه إلى وقت احتياجك إليه لتطفئ بها النار اللّتى قصدت أمّتك. وقوله الزم دفع سوال مقدّر كأنّه قيل هل يكون البكاء واستفراغ الدمع من العين ينفع دائماً؟ فقال لا بل ينفعك إذا كان جهة الندم. فقال والزم حمية الندم دفعاً لهذا التوهّم. ومن أحسن ما قيل فى البكاء قولهم صبّ العبرات يحطّ السيّئات ويرفع الدرجات. وفى بعض الأخبار المرويّة أنّه يوتى بعبد يوم القيامة وتشهد عليه أعضاء ه بالعصيان فيستوجب النيران. فتطاير شعرة من جفنة عينيه فتستأذن تلك الشعرة من الله تعالى بالشهادة له. فيأذن لها ويقول تكلّمى يا شعرة واحتجّى عن عبدى. فتشهد تلك الشعرة لذلك العبد بأنّه قد بكى فى الدنيا خشية من ربّه فيغفر له. وينادى منادٍ: هذا عتيق الله بشعرة. و سئل الإمام حجّة الإسلام الغزالى عن قوله تعالى (فيهما عينان تجريان) هما لمن؟ فقال: عينان تجريان لمن له اليوم عينان تجريان.

ثمّ اعلم أنّ من خواصّ هذا البيت أنّه لو عسر عليك خلال مطالعتك درس من الدروس ولم يمكنك كشفه فاقرأ هذا البيت مئة وتسع عشرة مرّة فإنّه يكشف عليك بإذن الله تعالى.

رقم البيت (٢٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ها نحن الآن نشرع فى البيت الثانى عشر من الفصل الثانى من قصيدة البردة فنقول لمّا بيّن الناظم الفاهم فى البيت السابق بلوغ النفس فى هواها و بلوغها بالهوى فى المضرّة أى مضرّة المرء منتهاها نبّه الشخص المجرّد على

المخالفة التامّة للنفس والشيطان فقال:

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محّضاك النصح فاتّهم

المخالفة أعمّ من العصيان مطلقاً لأنّ العصيان ترك امتثال الأمر والنهى والمخالفة بعدم الموافق. فكلّ عصيان مخالفة ولا ينعكس. والشيطان إمّا من شاط أى هلك ووزنه فعلان أو من شطن بمعنى بعد ووزنه فيعال. وإن هما كإن أحد أى قوله وإن هما محّضاك النصح كقوله سبحانه وتعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره). وقد تقدّم الكلام على هذا فيما سبق فلا نعيده. الأصل فى إذا استعمالها فى مقطوع الوقوع. وفى إن أن تستعمل فى المشكوك إلّا لنكتة. وإنّما أتى ههنا بإن لأنّ النصح الصافى منهما ممّا يندر فيه. أمّا لو كان النصح من الشيطان فالأمر بالنظر فيه لأنّه عدوّنا وعدوّ أبينا وسيّدنا آدم عليه الصلاة والسلام ونحن مأمورون بأن نتّخذه عدوّاً. قال الله سبحانه وتعالى (إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً). وقد طلب الإنذار من الله تعالى لإغوائنا وإضلالنا والإلقاء فى أمنيّتنا ولا يفارقنا إلى حلول منيّتنا. ولقد أكّد بالقسم ما يريد بنا من سوء فى قوله لأضلّنهم ولأمنّينهم ولآمرنّهم. وقوله فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين. وهو قد طُرِدَ من الجناب الأقدم بواسطة أبينا آدم عليه السلام ومثل هذا العدوّ لا يكون نصيحاً مصافياً ولا صديقاً صادقاً عن الشحناء متجافياً وما نجا آدم مع كمال صفوته وعلوّ درجته واستحقاق خلافته وتقرّر نبوّته من شرّ مكايد هذا اللّعين فلربّما يدعوك إلى الطاعات ويحثّك على العبادات ويزيّن عبادتك فى عينك حتّى يجعلها فى عينك معبوداً ويصيّرك عن حضرة الحق الحقيق بالعبودية له مردوداً. فتكون ممّن قيل فيهم أفرأيت من اتّخذ إلٰهه هواه وأعرض عن الله وعبد سواه. هذا حالك مع عدوّك المظهر لعداوته المريد بك بغياً وطغياناً والحاضر عندك حيناً والغائب عنك أحياناً. فكيف يكون حالك مع أعدى عدوّك نفسك الّتى بين جنبيك وهى أقرب منك إليك. فلا تعتمد على نصائحه لئلّا يوقعك فى عار فضائحه لأنّ الفوز فى مخالفة النفس ومجانبة هواها. ولأنّ السلامة فى مخالفة أهواء النفوس. قال عليه الصلاة والسلام وهو يشير إلى هذا المعنى (شاوروهنّ خالفوهنّ) ولهذا قيل إن تعصهنّ تألف. قوله فاتّهم أى فانسبهما إلى الكذب والخيانة وحسبنا الله وهو المستعان وعليه التكلان.

وإليك الإعراب وشرح المفردات: قوله وخالف الواو عاطفة هو أى العطف من قبيل عطف الإنشاء على الإنشاء وخالف أمر من المخالفة وهو كما مرّ غير مرّة للمبالغة. والنفس الألف واللّام فى النفس للعهد أى النفس الأمّارة. والنفس منصوب على أنّه منصوب لخالف. وشيطان مرّ فيه وجهان وأزيدك فى معناه وجوهاً آخر ولا بأس بإعادة ما مرّ من الوجهين عن الشيخ زاده فإنّ التكرار أعون على الحفظ وأسهل للتذكار فشيطان إمّا على وزن فيعال فالنون أصلية من شطن إذا بعد وسمّى به لأنّه يبعد عن الخير أو هو على وزن فعلان من شاط إذا هلك أو معناه أسرع إذا أسرع بسرعة سيره فى باطن الآدمى أو فى إضلال الآدمى وقد ورد فى الحديث (إنّ الشيطان يجرى فى ابن آدم مجرى الدم) أو إذا احترق لكون أصله ناراً أو لكون أوّله ناراً فعلى هذين يجوز صرفه وعدم صرفه إذا جعل علماً. قال الجعبرى الشيطان إبليس وجنوده والمراد به الجنس. وفى تفسير الخازن هو جنس مردة الشياطين. ثمّ اختلف فى

الشيطان والجنّ. هل هما موجودان أو معدومان؛ والأصح أنّهما موجودان. واختلف هل هما مجرّدان أم لا؛ وأكثر المتكلّمين على الثانى. و قيل إنّ الشيطان جسم لطيف نارىّ قادر على التشكّل بأشكال مختلفة. والجنّ جسم هوائى قادر على التشكّل كذلك. وقيل هما متحدان جنساً فما يكون منهم خيراً سعيداً جنّ وما يكون منهم شريراً شقيّاً شيطان. وهل لشيطان نسل؛ قال النسفى فى البحر الكلام: قيل إنّ الشيطان يبيض بيضات ويخرج منها الولد. وفى خبر إنّ فى أحد فخذيه فرجاً وفى الآخر ذكراً فيجامع نفسه فيخرج منه الولد وهذه رواية شاذة.

ثمّ اعلم أنّ المراد من الشيطان ههنا أعمّ من الإنس والجنّ لأنّ شيطان الإنس أيضاً يأمر بالسوء فتلزم مخالفة أمره كما تلزم مخالفة شيطان الجنّ بل لا تجوز المقارنة معه. والشيطان معطوف على النفس. وقد مرّ أنّ المراد به الجنس فاللّام فيه للجنس. وآثر العطف بالواو الّتى تفيد الجمع إشارة إلى اجتماع النفس والشيطان فى الأمر بالسوء والفحشاء. قال الله تبارك وتعالى (إنّ النفس لأمّارة بالسوء). وقال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء). وقوله واعصهما عطف على خالف وهو من عطف الخاص على الأعمّ. قوله إن هما إن شرطيّة وضمير التثنية راجع إلى النفس والشيطان. محّضاك من التمحيض أى أخلصاك. والنصح منصوب على أنّه مفعول ثان لمحّضاك. والنصح إراءة الخير للغير. وقوله فاتّهم الفاء للجزاء. فقوله فاتّهم جزاء للشرط. واتّهم أمر من التهمة وقد مرّ معنى التهمة عن الشيخ زاده. فإن قلت هل تكون للنفس والشيطان نصيحة حتّى تحمل على الكذب؛ قلت: نعم. أمّا نصيحة النفس فكما نقل الخادمى عن المنهاج أنّه روى عن بعض يقال له أحمد ابن أرقم البلخى أنّه قال نازعتنى نفسى بالخروج إلى الغزو. فقلت سبحان الله! إنّ الله تعالى يقول (إنّ النفس لأمّارة بالسوء) وهذه تأمرنى بالخير. فقلت مرادها الخلاص عن حبس الوحدة والوصول إلى الخلطة والاستراحة بالألفة وإكرام الخلق. فقلت لها: إذا كان مرامك ذلك لا أنزل بك العمران أبداً. ولا أدلّك على معرفة أحد إلى آخر ما أورده الخربوتى فى شرحه على البردة. (ص ٥٦)

وأمّا نصيحة الشيطان فما حكاه المولوى فى كتابه المثنوى أنّ سيّدنا معاوية كان ذات يوم نائماً عند الصباح فجاء الشيطان وقال حىّ على الفلاح ففطن معاوية رضى الله عنه لمكره و غدره فى ظهره وأمره. فقال: يا شيطان أنت لا تأمر إلّا بالمعصية. فكيف تأمرنى بالطاعة؛ وما سبب هذا الأمر العجيب؛ فإنّه من مثلك لاغريب. فقال سببه أنّه قد فاتك فى يوم من الأيّام صلاة الفجر بالجماعة خلف سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام فندمت على ما فات وتحسّرت عليه فى الأوقات. فكتب لك أضعاف ما كنت تفعله من الطاعات. فخفت أن تنام عن الصلاة مرّة أخرى فيحصل لك زيادة المثوبة فى الأخرى. فالزم الحذر من شرّهما لا سيّما فى وقت كانا اختصما.

رقم البيت (٢٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

شرحنا فيما سبق البيت الثانى عشر من الفصل الثانى من قصيدة البردة. والآن نأخذ فى شرح البيت

الثالث عشر.

لمّا توقع الناظم الفاهم الإنكار من الشخص المجرّد الّذى هو المخاطب فى قوله: وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضّاك النصح فاتّهم. وظنّ أنّ المخاطب قد ينكر هذا أحبّ أن يؤكّد ما سبق بمزيد من التأكيد ويقويه بنوع من الاستدلال على ما قال لأنّه أمر مهمّ واجب الامتثال فقال:

و لا تطع منهما خصماً و لا حكماً

و أنت تعرف كيد الخصم والحكم

الواو ههنا للعطف وهو عطف النهى على أمر وعطف الإنشاء على الإنشاء. ولا تطع نهى مجزوم بحرف النهى أى لا. وهو من الإطاعة والإطاعة الامتثال والانقياد طوعاً. وقوله منهما جار ومجرور فى محلّ النصب على الحال حال من خصماً ولاحكماً متعلّق بمحذوف أى لاتطع خصماً ولاحكماً كائناً منهما. والضمير للنفس والشيطان. ويجوز أن تكون من ههنا بيانيّة وقدّم لضرورة الشعر. والخصم معناه من يخاصم بما يوافق النفس والشيطان. والحكم من يحكم عليك بمقتضى مرادهما أى مراد النفس والشيطان. وقوله فأنت تعرف كيد الخصم والحكم الفاء ههنا للتعليل والكيد المكر والألف واللّام فى الخصم والحكم كما فى قوله تعالى (و أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول) أى للعهد. وإذ قد أمر بمخالفة النفس والشيطان نبّه الناظم الفاهم بهذا الأسلوب على أنّ لكلّ من النفس والشيطان من يكفى الآخر ويعينه على ما يقصده من تهييج الفتن وإيقاع المرء فى الضلال وتعديته إلى النكال كما روى جابر رضى الله عنه عن النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّ إبليس يضع عرشه على الماء ثمّ يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجىء أحدهم فيقول فعلت كذا و كذا. فيقول ما صنعت شيئاً. ثمّ يجىء أحدهم فيقول ما تركته أى المرء حتّى فرّقت بينه وبين امرأته. فيدنيه ويحضرنى أنّ فى رواية ويلتزمه ويقول: نعم أنت أو أنت أنت أو كما قال النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. و الحديث فى المشكاة وغيره. وقد يكون حزب الشيطان وجنوده من البشر الموصوفين بسجاياه. ولقد جاء فى أمثال هؤلاء فى القرآن (أولئك حزب الشيطان). وأورد بعض المفسّرين فى قوله تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمٰن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين) إنّ فى الآية إشارة إلى كلّ من يكون سبباً للإعراض عن ذكر الرحمٰن فهو للمرء بمنزلة الشيطان. وقس حال حزب النفس وجنوده ولاتظنن انحصار الأمر بمخالفتهما بنفسهما. و كما قلنا قوله منهما ظرف. مستقرّ متعلّق بكائناً منصوب على أنّه حال قدّم لضرورة الشعر. أعدناهذا الّذى قلناه لإفادتك بما يجوز فى الشعر قال الشاعر:

و قد جاء فى التركيب بعض التصرّف

كفصل وتقديم ومثل زيادة

قد مرّ بعض الشرح لخصم و الحكم ولكن لم يستبين بعدُ ما الخصم وما الحكم؟ ولذلك قال الشارح الزركشى من أصعب أبيات القصيدة من جهة معرفة أنّ خصم النفس وحكمها ما هو؟ وقال الشرّاح ههنا كلمات لا تسمن و لا تغنى وادّعى أنّ كلّها من قبيل ما لايعنى. قال: وأمّا أنا فقد تحيّرت فيه برهة من الزمان. ثمّ رأيت فى المكاشفة الناظم الفاهم يعنى الإمام محمّد البوصيرى. يقول فقلت له: ما مرادك من هذا البيت يا إمام؟ فقال: لو تأمّلت

دواعی الإنسان لعرفت المرام. يقول: فرجوت منه التفصيل. قال: إنّ الدواعی فی الإنسان ثلاثة: القلب والنفس والشيطان. فإذا أراد القلب أن يعمل خيراً كانت النفس له مانعة فطلبت تركه ومنعه فيختصمان ويريدان أن يحتكما فينصبان الشيطان حكما وهو يأمر بالسوء فعلى هذا كان الشيطان حكماً والنفس خصماً. ولو أراد الشيطان أن يعمل الشرّ يقول القلب له لا تفعل فإنّه شرّ. ويقول الشيطان لا بل هو خير فاختصما. ويحتاجان إلى الحكم فيتحاكمان إلى النفس وهی تأمر بالسوء. فعلى هذا كانت النفس حكماً والشيطان خصماً. فكلّ واحد منهما خصم من جهة وحكم من جهة أخرى.

و ههنا سؤال وهو عن كيفيّة الوسوسة ما هی؛ مع أنّنا لانرى الشيطان ولا نشعر به بمشاعرنا فكيف يكون مدّعياً وحكماً وموسوساً؛

قلنا: نقل فی الإحياء عن كيفية الوسوسة أنّ القلب مثل القبّة لها أبواب تنصب إليها الأحوال من كلّ باب ومثل هدف ترمى إليه سهام من كلّ جانب فكلّما أراد شيئاً من الحواسّ الخمس الظاهرة ومن الباطنة كالخيال ونحوه حدث فيه أی القلب أثر وكذا عند هيجان شیء من نحو الشهوة والغضب وهذه الخواطر وهی محرّكات للإرادة الّتی تحرّك الأعضاء فإن محمودة فإلهام وإن مذمومة فوساوس وفی حديث أنس أنّ الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم. فإن ذكر الله خنس وإن نسی التقم قلبه.

فإن قلت: بأی شیء يخلص من وسوسته؛ قلت قالوا سلاح المؤمن على الشيطان ستّة الاستعاذة وكلمة الشهادة والبسملة و ترك الطمع وترك الأمل وترك الدنيا. وحكى أنّ قوماً شكوا إلى الحسن البصری من الشيطان، قال إنّه خرج من عندی الآن ويشكو منكم. ويقول قل للناس: يدعوا دنیای حتّى أدع لهم دينهم. والنافع الكبير فی دفع الوسوسة من الشيطان الاشتكاء إلى الله تعالى و الرجاء منه تعالى بحبسه وعدم إخراجه عليه لأنّه كلب مبين. والكلب يلتجأ من شرّه إلى صاحبه.

فإن قلت: لا يخلو فعل الله تعالى عن حكمة. فما الحكمة فی خلق النفس والشيطان وتسليطهم على الإنسان؛

الجواب: أمّا الحكمة فی خلق النفس فی الإنسان وعدم جعله مجرّداً كملائكة الرحمن. فتفضيله بها على عامّة الملائكة لأنّ النفس فيها عوائق وموانع كالشهوات والغضب وسنوح الحاجات الشاغلة عن اكتساب الكمالات. ولا شكّ أنّ العبادة و كسب الكمال مع الشواغل والصوارف أشقّ وأدخل فی الإخلاص وكلّ شیء شأنه كذا فهو أفضل. وأمّا الحكمة فی خلق الشيطان فإنّ الحكمة فی خلقه اختيار أولياء الله تعالى من غيرهم إذ من يتبع عدوّه يعنی الشيطان ليس وليّاً لله.

وقال بعضهم: الحكمة فی خلقه عدم اغترار العابدين بعبادتهم وبعضهم قال: الاتّعاظ والاعتبار بما صار إليه حاله بسبب العصيان والانزجار بالاعتبار والطغيان وإعلام ضرر الكبر والعدوان على أهل الإيمان. وخاصّية هذين البيتين أنّ المرء إذا كان مصرّا على معصيته ونزعت النفس إلى عدم التوبة. فليكتب هذين البيتين فی صحيفة بعد صلاة الجمعة وليمحها بماء الورد وليشربه ويستمرّ جالساً مستقبل القبلة حتى يصلّی العصر والمغرب والعشاء وهو مستمرّ فی الابتهال والتضرّع إلى الله ذی الجلال والصلاة على النبی بدر الكمال صلّی الله تعالى عليه

وسلّم. ويسأل الله التوبة فإنّه لايقوم من مقامه حتّى يغلب على نفسه ويلهمه الله التوبة. يا أخى نصحى لك الاجتناب فى العبادات عن ملل والملازمة على مداومتها بلا زلل.

رقم البيت (٢٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الرابع عشر من الفصل الثانى من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

أستغفر الله من قول بلا عمل
لقد نسبت به نسلا لذى عقم

لمّا حذّر من غوائل النفس وأمر بصرف هواها عنها ومخالفتها ومخالفة الشيطان، ونهى عن إطاعة خصمهما وحكمهما. خاف على نفسه الرياء فأخذ يستقصرها. ويغضّ منها. فقال:

أستغفر الله من قول بلا عمل   لقد نسبت به نسلا لذى عقم

أستغفر الله أى أطلب مغفرته. من أجل قول صدر عنّى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. بلا أى بغير. عمل بمقتضاه حيث تركت ما أمرتُ به. وارتكبت ما نهيت عنه. وبلا عمل صفة لقول. لقد اللّام لتوطئة القسم. ونسبت من النسبة وهى الإضافة. والباء فى به للسببية وضميره راجع إلى قول بلا عمل. نسلاً أى قولاً شبيهاً بالنسل وهو مفعول نسبت. لذى عقم أى لشخص شبيه بالرجل العقيم الّذى لا يأتى منه ولد لأنّ القول كالنسل لقائله. فإذا لم يعمل به لم يعمل به سامعه غالباً فكأنّه لم يقله فنسبته إليه والحالة هذه كنسبة نسل إلى شخصٍ عقيم وهو كذب يجب الاستغفار منه. وقاف عقم ساكنة وضمّها مبالغة مأخوذة ممّا نقل الجوهرى فى عسر أنّ كلّ اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم وأوسطه ساكن من العرب من يثقّله أى بضمّ ساكنه مثل عسر وزحم وحلم.

وحاصل معنى البيت أستغفر الله تعالى من قولى آمراً وناهياً بلا عمل لأنّ الظاهر أنّ الآمر بالخير والناهى عن الشرّ مؤتمر به ومنتهٍ عنه فلمّا لم يكن مؤتمراً به ومنتهياً عنه فى نفس الأمر كان ذلك كنسبة الفضل إلى غير أهله. وكنسبة الولد إلى رجل ذى عقم وهم معصية وعصيان. لأنّه زور وبهتان مع أنّ مثل هذا الكلام الّذى لايعمل به صاحبه لايفضى إلى إتيان المرام كما قيل أنّ القول الّذى يخرج عن اللّسان لا يبلغ الآذان والّذى يخرج عن الجنان وقع على الجنان. وفى حديث روى عن أسامة بن زيد أنّه قال سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم يقول مررت ليلة أسرى بى إلى السماء بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من النار. فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال خطباء أمّتك الّذين يقولون ما لايفعلون. وههنا حكاية لطيفة أوردها إسماعيل الحقّى فى تفسيره وهى ما روى أنّه كان عالم من العلماء مؤثّر الكلام قوىّ التصرّف فى القلوب وكان كثيراً مّا يموت من أهل مجلسه واحداً واثنان من شدّة تأثير وعظه. وكان فى بلدة العالم عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحذّره وتمنعه عن

حضور مجلس الواعظ فحضره يوماً على حين غفلة منها فوقع من أمر الله ما وقع. ثمّ إنّ العجوز لقيت الواعظ يوماً في الطريق فقالت:

أتهدي الأنام ولا تهتدي
ألا إنّ ذلك لا ينفع

فيا حجر الشحذ حتى متى
تحدّ الحديد ولا تقطع

فلمّا سمعه الواعظ شهق شهقة فخرّ عن فرسه مغشيّاً عليه فحملوه إلى بيته فمات فيلزم لك العمل بكلام تكلّمت به.

رقم البيت :(٢٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الخامس عشر من الفصل الثاني من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به
و ما استقمت فما قولي لك استقم

لما أورد الناظم هذا المعنى أوّلاً في عبارة خفيّة خطاباً للأذكياء، أورد ثانياً بعبارة جليّة خطاباً للأغبياء، قال:

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به
و ما استقمت فما قولي لك استقم

إنّما ترك العاطف بين قوله أمرتك وبين قوله لقد نسبت لأنّ بينهما كمال الاتصال لأنّه تفسيره وبيانه. قوله أمرتك الخير أي طلبت منك الخير وهو من الأفعال الّتي تتعدّى إلى مفعولين، أوّلهما بنفسها والآخر تارة كذلك وتارة بواسطة حرف وقد اجتمعا في قول الشاعر:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا حسب ولمّا كان قوله أمرتك الخير موهماً أنّه عمل به استدرك وقال لكن ما ائتمرت به. ائتمرت من الائتمار وهو قبول الأمر. به أي بذلك الخير الّذي تقدّم في قوله "فلا ترم بالمعاصيكسر شهوتها" إلى قوله "أستغفر الله من قول بلا عمل". ويحتمل أن يراد من الخير جنسه الشامل لما ذكره وغيره. وما استقمت عطف على ما ائتمرت من الاستقامة. والاستقامة لفظ جامع لجميع أنواع الخير يقتضي المداومة على مقتضيات الأوامر والنواهي الّتي جاء بها الشرع القويم والنبي الكريم صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ومن ثَمّ لمّا نزل قوله سبحانه وتعالى خطاباً لنبيّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم (فاستقم كما أمرت)، شمّر صلّى الله تعالى عليه وسلّم عن ساعد الجدّ وقام بأعباء العبادة ولم يُرَ ضاحكاً بعد نزول هذه الآية وتوالت عليه الأحزان وتتابعت عليه الهموم.

وقال ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما: ما نزل على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم من هذه الآية حتى قال ما قال.

ومن ثمّ كانت الاستقامة عند أرباب السلوك أعلى الدّرجات وأرفع المقامات بها كمال الأمور وتمامها. وبوجودها حصول الخيرات ونظامها. فمن لم يكن مستقيماً فى أحواله خاب سعيه فى أعماله.

قال أبو على الجرجانى: كن صاحب استقامة لا طالب كرامة. وقال غيره: ذرّة استقامة خير من ألف كرامة. وقال آخر: ما الكرامة إلّا الاستقامة.

قوله: فما قولى لك استقم. أى لأنّ القول لا يعتبره السامع ويعمل بمقتضاه غالباً إلّا إذا عمل به المتكلّم. وجاء أنّ الله تعالى أوحى إلى عيسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام: يا ابن مريم. عظ نفسك. فإن اتّعظت فعظ الناس، وإلّا فاستحِ منّى.

وذمّ الله سبحانه وتعالى أحبار اليهود حيث لم يعملوا بعلمهم فى قوله عزّ وجلّ من قائل: (أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون).

حكى أنّ رجلاً من كبار المشائخ قُدّم للإمامة. فقال: استووا واستقيموا رحمكم الله تعالى فغشى عليه. فلمّا أفاق قال: أوّه. ما لى آمر غيرى بالاستقامة وأنسى نفسى منها؟ (العمدة ص١٨٩ إلى ١٩٥)

رقم البيت (٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الآن نشرع فى شرح البيت الّذى يلى وهو السادس عشر من الفصل الثانى، وهذا البيت الّذى نحن بصدد الشرح له هو قول الناظم الفاهم:

ولا تزوّدت قبل الموت نافلة

ولم أصلّ سوى فرض ولم أصم

المراد بالتزوّد هنا العمل على وجه التشبيه وإنّما عبّر بالتزوّد وأراد العمل شبّهه بالزاد ثمّ أجرى الاستعارة فى الفعل حيث شبّه قوله عملت بقوله تزوّدت واستعار تزوّدت وأراد به المشبّه وهو قوله عملت ففيه استعارة تبعيّة تخييليّة وإنّما عبّر بالتزوّد من حيث أنّه نظر إلى أنّ الموت سفر طويل مشتمل على الأهوال والشدائد والمشاق والسفر المذكور يناسبه التزوّد أى أخذ الزاد ففى قوله الموت تشبيه واستعارة مكنية شبّه الموت بالسفر فالسفر هو المشبّه به و طوى ذكر المشبّه به ورمز له بشىء من لوزمه وهو التزوّد أى أخذ الزاد ففيه استعارة بالكناية وتزوّدت تخييل كما سبق و إنّما شبّه الموت بالسفر وندم على أن لا يكون أخذ الزاد لهذا السفر الطويل نظراً إلى قوله تعالى (وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى)، والّذى عليه المحقّقون من المفسّرين أنّ المراد بالتزوّد هو أخذ الزاد الّذى يوصل الناس إلى مطلوبهم. والمراد بالتقوى فى هذه الآية ما يُتّقى به ذلّ السؤال. أى ما يستطيع به المرء أن

يحفظ نفسه من ذلّ السؤال وهذا بالنسبة إلى المورد. وأنت خبير بأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص المورد والسبب. كون الآية وردت فى مورد خاصّ وبسبب مخصوص لايمنع أن يكون المراد من التقوى ما يتّقى به ذلّ السؤال نظراً إلى خصوص المورد وأن يراد بالتقوى ما هو أعمّ من ذلك أى امتثال الأوامر واجتناب النواهى على وجهى التشبيه كما قد سبق تقريره.

وقوله نافلة أى لم أصلّ سوى فرض أى ولا تزوّدت قبل الموت نافلة أى مستقلّة. فالمراد النافلة المستقلّة وليس المراد النافلة الّتى تحصل فى ضمن الفرائض حتّى يقال إنّ النوافل تحصل فى ضمن الفرض. فكيف يتأتّى قوله "ولا تزوّدت قبل الموت نافلة". إذ ليس المراد النوافل الضمنيّة وإنّما أراد لنوافل المستقلّة واشتهر أنّ النافلة تجبر ما نقص من الفرائض. ورد فى التذكرة للقرطبى عن الشافعى أنّها تجبر من الفرائض ما وقع فيه من النقص سهواً وأمّا ما حصل فيه على وجه العمد فلا تجبره النافلة وإن كثر. وإنّما خصّ الصلاة والصوم بالذكر فى قوله "ولم أصلّ سوى فرض ولم أصم". لأنّ كلّا منهما محض عبادة بدنيّة وسكت عن الإيمان لأنّه ليس ممّا يتنفّل به. وههنا الحذف من الثانى لدلالة الأوّل عليه أى حذف من قوله ولم أصم ولم يصرّح بالنفل فلم يقل ولم أصم سوى فرض أو لم أصم نفلاً لدلالة الأوّل على الثانى ففيه اكتفاء. وإنّما نفى الناظم الفاهم هذا الّذى نفى وادّعى أنّه لم يصلّ سوى فرض ولم يصم نزّل ما صنعه منزلة العدم لاتّهامه نفسه فيما فعل وفراراً من العجب. وما قيل من أنّه إذا صلّى نافلة نذرها وإذا صام نفلاً نذره فهو بعيد. وخاصّية هذا البيت والّذين قبله أنّ من دخله عجب أو رياء فى علم أو عمل كتب هذه الأبيات مطلع الفجر و كرّرها إحدى وسبعين مرّة. ثمّ علّق ذلك الّذى كتب على عضده الأيسر مائلاً به إلى جهة جنبه فإنّه حينئذ يحصل له التواضع والأمن من العجب والرياء.

الفصل الثالث

فی مدح النبی (صلّی اللہ تعالیٰ علیہ وسلّم)

رقم البيت (٢٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع في الفصل الثالث المشتمل على مدح النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم ومطلعه قول الناظم الفاهم:

ظلمت سنّة من أحيي الظلام إلى
أن اشتكت قدماه الضرّ من ورم

لمّا فرغ الناظم الفاهم من الفصل الثاني الّذي احتوى على بيان معرفة النفس وأنّها أمّارة بالسوء وأنّها تعدّ من الأعمال الصالحة قرىً لضيف المشيب الّذي نزل برأسه غير محتشم وأنّها اشتغلت بالمساوي وقبائح الأعمال وامتلأت من المحارم واحتوى كذلك آخر الفصل الثاني على الاستغفار والندم والاتّعاظ. تخلّص الناظم الفاهم إلى مدح النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّذي هو أقرب طريق وأعظم وسيلة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى إلى الوصول إلى حضرته تعالى وتقدّس وقد ورد (من عرف نفسه فقد عرف ربّه). لمّا فرغ من كلّ هذا استشعر تأهّله بعض الشيء لمدح النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم بعد ما قدّم ما ذكر توطئةً وتمهيداً لامتداحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقال:

ظلمت سنّة من أحيي الظلام إلى
أن اشتكت قدماه الضرّ من ورم

والظلم وضع الشيء في غير محلّه وله معنى آخر وهو النقص كما في قوله تعالى (ولا تظلمون فتيلاً) أي ولا تنقصون فتيلاً والسنّة الطريقة المسلوكة في الدين مطلقاً وله معنى آخر وهو ما ورد عن النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم من قول أو فعل من غير افتراض أو وجوب. والمعنى ظلمت سنّة من أحيي الظلام أي وضعت سنّة النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم في غير محلّها. وقد كان اللائق بي أن أتأسّى بسنّة النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأن أتوخّاها وأن أعمل بها لكنّي لم أعمل بها فكأنّي لعدم العمل بالسنّة وضعتها في غير محلّها وعلى المعنى الثاني وهو النقص المراد نقصت من أعمال السنّة أي لم أصلّ سوى فرض ولم أصم كما تقدّم فتأكيداً للمعنى المتقدّم قال: ظلمت سنّة من أحيي الظلام إلى إن اشتكت قدماه الضرّ من ورم ومن أحيي الظلام إلى أن تورّمت قدماه هو سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّذي خوطب من الله سبحانه وتعالى على وجه التلطف والمحبّة فقيل له (يأيّها المزّمّل قم الّيل إلّا قليلا) فأحيي الظلام أي أحيي اللّيل بالقيام إلى أن تورّمت قدماه الشريفتان وهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم وإن لم يزد على اثنتي عشرة ركعة كما ورد في صحيح البخاري وغيره ولكنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أطال القيام حتّى اشتكت قدماه الضرّ من ورم وقوله أحيي. المراد به ترك النوم والسحر والقيام وإضاءة اللّيل المظلم بالعبادة لأنّ العبادة كما تؤثر النور في وجه العابد كما ورد (من كثرت صلاته باللّيل حسن وجهه بالنهار). كذلك العبادة

تؤثر النور فى الزمن الّذى يؤتى بالعبادة فيه. والظلام المراد منه اللّيل من إطلاق اللّازم وإرادة الملزوم. فالظلام المراد به اللّيل المظلم. وههنا استعارة تصريحيّة تبعيّة واستعارة مكنيّة. أمّا الاستعارة التصريحيّة التبعيّة ففى قوله أحيى وذلك لأنّه شبّه السهر وترك النوم والقيام والإنارة بالعبادة. والضرّ شدّة الحال. والورم الانتفاخ المفرط الّذى يخرج من الحدّ الطبيعي. وقد مضت وجوه الإعراب فى قوله من ورم ولا بأس بإعادتها تذ كيراً فمن ورم إمّا ظرف لغو متعلّق بقوله اشتكت أو هو بدل من الضرّ فهو فى موضع نصب بدل من الضرّ. فالضرّ مبدل منه ومن ورم فى موضع نصب بدل منه. أو صفة للضرّ متعلّق بالكائن أوحال من الضرّ متعلّق بكائناً المحذوف. ومن ورم حرف الجرّ أى مِنْ يجوز أن تكون سببية متعلّقة بقوله اشتكت أى اشتكت قدماه الضرّ بسبب الورم. والضرّ قد تقدّم أنّه منصوب على نزع الخافض. والتقدير اشتكت من الضرّ. ومن أحيي الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضرّ من ورم هو سيّدنا ونبيّنا محمد صلّى الله تعالى عليه وسلّم حبيب الله الّذى قام طول اللّيل فى عبادة مولاه حتّى تورّمت قدماه. عند ذلك قال الله سبحانه وتعالى لحبيبه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. (طٰهٰ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ومعنى طه ضع القدمين. ضع قدميك على الأرض وضع قدميك الكريمتين على الأرض وقد كان صلّى الله تعالى عليه وسلّم قبل ذلك يقوم على إحدى رجليه ويطيل القيام حتّى تورّمت قدماه الشريفتان فخاطبه الله تعالى بقوله (طه) وأخبره بأنّا ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى أى لتتعب نفسك وتذيقها المشقّة الفادحة وقد غفرنا ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر والحبيب صلّى الله تعالى عليه وسلّم يزداد تضرّعاً وتوجّهاً إلى مولاه والصحابة يكلّمونه فى ذلك فيقول "أفلا أكون عبداً شكوراً". وذلك ليُرى الناظرين كيف يقومون بحق العبودية ويرشدهم إلى طريق العبادة كى لا يكونو قوماً بوراً ولا يطيعوا من الغاوين آثماً أو كفوراً.

رقم البيت (٣٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثانى من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وشدّ من سغب أحشاء ه وطوى
تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

قوله وشدّ الواو للعطف وشدّ أى ربط وعقد ومن للسببية أى بسبب. والسغب بفتحتين الجوع. وقوله أحشاء ه الأحشاء جمع حشاء وهو ما انطوت عليه البطن من كبد وطحال وأمعاء وغيرها. والضمير راجع إلى الموصول.

قال الخرفوتى: وإنّما جمع مع أنّه ما جعل الله لرجل قلبين فى جوفه للتعظيم والتفخيم كما فى قوله تعالى (فنعم الماهدون). فيكون مجازاً واستعارة بأن شبّه قلبه عليه الصلاة والسلام بالقلوب الكثيرة فى العظم والخطر. ثمّ استعير القلوب لقلبه عليه الصلاة والسلام وذكر القلوب وأريد منها قلبه عليه الصلاة والسلام.

وقوله وطوى الواو للعطف وطوى من الطيّ ضدّ النشر. تحت الحجارة ظرف لطوى بتضمين معنى الوضع والحجارة أى الّتى ربطها على بطنه. وكشحاً بالنصب مفعول طوى وهو ما بين الخاصرة وأقصر ضلع من الجنب. ومترف حال من الكشح وهو اسم مفعول من الإتراف بمعنى النعومة. والأدم بفتحتين جمع أديم وهو بمعنى الجلد وإضافة المترف إليه من إضافة الصفة إلى موصوفها أى الجلد الناعم.

قال العلّامة الباجورى: فائدة هذا الشدّ انضمام الأحشاء على المعدة فتخمد الحرارة بعض خمود لأنّ المعدة إذا امتلأت بالطعام اشتغلت الحرارة بهضمه وإذا خلت عن الطعام طلبت الحرارة رطوبة الجسم فتألّم الإنسان فبالشدّ تضعف تلك الحرارة. وقد روى الشدّ مسلم عن أنس قال جئت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم يوماً فوجدته جالساً مع أصحابه يحدّثهم وقد عصب بطنه بعصابة. فقالوا: من الجوع. وفائدة هذا الطيّ أنّ برودة هذا الحجر تخفّف حرارة الباطن.

وقد روى البخارى الطيّ عن جابر رضى الله تعالى عنه أنّه قال: إنّا يوم الخندق نحفر. فعرضت كدية شديدة. فجاءوا النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق. فقال: أنا نازل. ثمّ قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيّام لا نذوق ذواقاً. فأخذ النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم المعول. فضرب. فعاد كثيباً أهيل أو أهيم. فقلت يا رسول الله ائذن لى إلى البيت. فقلت لامرأتى رأيت بالنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم شيئاً. ما كان فى ذلك صبر. فعندك شىء. قالت عندى شعير وعناق. فذبحت العناق وطحنت الشعير. حتّى جعلنا اللّحم فى البرمة. ثمّ جئت النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم والعجين قد انكسر. والبرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج. فقلت: طعيم لى فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له. قال: كثير طيّب. قال: قل لها لا تنزع البرمة. ولا الخبز من التنّور حتّى آتى. فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار. فلمّا دخل على امرأته. قال: ويحك. جاء النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا. فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللّحم. ويخمّر البرمة والتنّور إذا أخذ منه. ويقرّب إلى أصحابه ثمّ ينزع. فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتّى شبعوا وبقى بقيّة. قال كلى هذا وأهدى. فإنّ الناس أصابتهم مجاعة. (رقم الحديث ٤١٠١).

قال الباجورى: واستشكل ما ذكر من الشدّ والطيّ بقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم أبيت عند ربّى يطعمنى ويسقينى لأنّ من هذا حاله لا يعصب أحشاءه ويطوى كشحه تحت الحجارة من الجوع. وأجيب بأنّ معنى الحديث أبيت مستحضراً جلال ربّى فيعطينى قوّة الطاعم والشارب. والمراد بذلك أنّه ضمن له قوّة بدنه ونضارة جسمه حتّى إنّ من رآه لا يظنّ به جوعاً ولا عطشاً كما أشار إلى ذلك الناظم بقوله مترف الأدم فهو من قبيل الاحتراس وحينئذ فحصول الجوع له صلّى الله تعالى عليه وسلّم لا ينافيه الإطعام فى الحديث. (ص٢٠،١٩)

من خلال القصّة الّتى أوردناها من صحيح البخارى كاملاً تتمكّن أيّها السامع الكريم من معرفة ما عليه الصلاة والسلام قد امتاز به على سائر البشر من القوّة اختصّه الله تعالى بها دون سائر الناس. ويتبيّن لك صدق ما أفاده العلّامة الباجورى ونقلناه فيما سبق عنه رضى الله تعالى عنه من أنّه سبحانه وتعالى ضمن له قوّة جسمه ونضارة بدنه

حتّى أنّ من رآه لا يظنّ به جوعاً ولا عطشاً وقد مرّ أنّه محمول على الغالب من الأحيان. وعلى أنّه يخفى حاله على أكثر الناس. فلا ينافى أن يطلع عليه بعض الأعيان فى بعض الأحيان. وعلى ذلك فإنّه يقدر على ما يعجز عنه سائر البشر. وهو بالظاهر بشر. وفى الحقيقة ملك بل فوق الملك قدراً ومقدرة وفضلاً ومنزلة. وفيه إيثار منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم للصحابة على نفسه ببدايتهم بالإطعام. وتواضع على جلالة منزلته بالقيام بأمرهم ومعاونته لهم وللخابزة وتقديم الطعام لهم وتشريع للتوسّل والتبرّك بآثار الصالحين. حيث بصق صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى البرمة والعجين. روى أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم إذا توضّأ كان الصحابة يبتدرون إلى وضوءه ويأخذون ما يتقاطر منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ويمسحون به وجوههم ومن لم يُصبه ماء أخذ بلل يد صاحبه. وروى أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: تربة أرضنا بريقة بعضنا تشفى سقيمنا بإذن ربّنا. وفيه أنّ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا يعتقدونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم دافعاً لبلاءهم وملجأ فى عناءهم ومنجاً من الأحوال ومعتصما فى شدّة الأحوال وهذا ما توارثة أهل السنّة والجماعة من الصحابة إلى يومنا هذا من اعتقاد فيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقد صنّف إمامنا الفذّ جدّنا الشيخ أحمد رضا فى هذا رسالة مستقلّة سمّاها "الأمن والعلى لناعتى المصطفى بدافع البلاء". وكما أنّ فى هذه القصّة دلالة على باهر قوّته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وعظيم معجزته عليه الصلاة والسلام بإزاحة الكدية الّتى عرضت فى الخندق وتكثير الطعام. كذلك فيها دلالة على حسن بلاء الصحابة وثباتهم فى هذه الشدّة واستقامتهم فى هذه المحنة. والاستقامة فوق الكرامة. وهى كرامة ما دونها كرامة. وكلّ ذلك حصل لهم بفضل الصحبة فى ضعف مضاعف وقلّة عدد وعدّة.

(رقم البيت ٣١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثالث من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وراودته الجبال الشمّ من ذهب
عن نفسه فأراها أيّما شمم

لمّا كان قوله وشدّ من سغب" مظنة أن يتوهّم متوهّم أنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان فقيراً من المال. دفع الناظم الفاهم ما عسى أن يتوهّم من البيت السابق بقوله:

وراودته الجبال الشمّ من ذهب
عن نفسه فأراها أيّما شمم

والمراودة المطالبة بقول راودته أى طلبت منه أن يكون على مرادى وإسناد المراوده إلى الجبال مجاز والفاعل حقيقة هو سبحانه وتعالى وهو الّذى خيّره صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى ذلك ويجوز أن يكون الاسناد حقيقة إذلا

مانع من أن يخلق الله فيها إدراكاً فتراوده حقيقة والألف واللّام في الجبال للعهد والمعهود ههنا هو جبال مكّة۔

ويدلّ عليه الحديث الصحيح فقد روى أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال عرض عليّ ربّي بطحاء مكّة ذهباً فقلت لا يا ربّ ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا شبعت حمدتك وإذا جعت تضرّعت إليك ودعوتك وقد تقدّم نحو هذا قبل ذلك۔ ويُروى أنّ جبريل عليه السلام نزل عليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقال إنّ الله يُقرِءُكَ السلام ويقول لك أتحبّ أن تكون لك هذه الجبال ذهباً وفضّة تكون معك حيثما كنت فأطرق ساعة. ثمّ قال يا جبريل إنّ الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له يجمعها من لا عقل له۔ فقال له جبريل: ثبّتك الله بالقول الثابت۔

قوله الشمّ معناه المرتفعة من الشمم وهو الارتفاع والعلو جمع أشمّ. وقوله من ذهب معناه راودته الجبال أن تكون من ذهب فقوله من ذهب خبر لتكون المحذوفة وليس حالاً خلافاً لبعضهم لأنّها لم تكن من ذهب حين المراودة وإنّما طلبت منه أن تكون كذلك. كذا قال العلّامة الباجوري. قوله عن نفسه أي من أجل نفسه فعن لإفادة التعليل. وقوله فأراها شمماً أيّما شمم أي أظهر لها إعراضاً أي إعراضاً شديداً علماً منه بأنّ ما عند الله خير وأبقى۔

واختار الشيخ زاده في إعراب قوله من ذهب وجهين سوى ما اختاره العلّامة الباجوري. وأفاد في قوله أيّما شمم ما لم يتعرّض له العلّامة الباجوري ولا بأس بإيراده إتماماً للنفع قال رضي الله تعالى عنه:

ومن ذهب حال أو صفة أي كائنة أو الكائنة منه. وما في أيّما صلة للتأكيد وأي صفة لموصوف هو ثاني مفعولي أراها أي شمماً أي شمم أي ترفّعاً لا يكتنه كنهه ولا يقدر قدره:

رأى زينة الدنيا الّتي هي للفنا
وأمسى إلى دار البقا يتجهّز

زخارف دنيانا لأحمد لم ترق
ولا كان من شيء بها يتحيّز

زهادته فيها وقد عرضت له
دليل بأنّ القلب للحق مبرّز

زيوفاً رأى كلّ النقود الّتي بها
ومن مثله في نقد دنيا مميّز

قلت: ولعلّ ما دفعه العلّامة الباجوري من وجه في الإعراب هو الأوجه ولا مانع من أن تكون الجبال مثلت له صلّى الله تعالى عليه وسلّم ذهباً وخُيّر إن أحبّ في أن تجعل له ذهباً في الواقع ويؤيّده ما ورد في حديث آخر أنّه عرض له بطحاء مكّة ذهباً۔ ولا يصار إلى القول بحذف الفعل مع ضميره إذا استقام الكلام۔

(حلّ لغات ما ورد من الألفاظ الغريبة فيما تقدّم من الشيخ زاده: يتجهّز من تجهّز الأمر: تهيّأ له۔ زخارف: الزخرف: الذهب والزينة وكمال حسن الشيء. وزخرف الأرض: ألوان نباتها۔ والبيت: متاعه۔ والقول: حسّنه بتزيين الكذب (ج) زخارف۔ لم ترق: راق، روقاً: صفا۔ عليه: زاد عليه فضلاً۔ والشيء فلاناً روقاً. وروقاناً: أعجبه۔

يتحيّز: الرجل: أراد القيام فأبطأ ذلك عليه. وإليهم: انضمّ ووافقهم في الرأي. زهادة: في الشيء: خلاف الرغبة فيه. وأخذ أقلّ الكفاية. والرضا باليسير ممّا يتيقّن حلّه. وترك الزائد على ذلك الله تعالى. مبرز من أبرز: عزم على السفر. والشيئ: أظهره وبيّنه. والكتابَ: نشره فهو مبرز ومبروز. زيوفا جمع زيف وهو مصدر. ويوصف به. فيقال درهم زيف والطنف الّذي يقي الحائط من المطر وغيره. والشرف في القصور ونحوها والشرف في القصور ونحوها والدرج من المراقي (ج) زيوف وأزياف وزياف. وزافت النقود زيفاً وزيوفاً وزيوفة: ظهر فيها غشّ ورداءة.)

هذا وقول الشاعر" زهادته فيها وقد عرضت له" يتطلّب شرحاً فمن الجدير أن نأتي بشرح يسير بعون القدير فنقول: زهادته فيها أي عدم رغبته في الدنيا وإقلاله من الدنيا والرضا باليسير من متاعها دليل على أنّ قلبه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ليس مشتغلاً بالدنيا ولا متعلّقاً بها ولا أنّ قلبه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ليس مشتغلاً بالدنيا ولا متعلّقاً بها ولا مغترّاً بظاهر زينتها لأنّ قلبه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مطّلع على الحقيقة ومشتغل بشهود الحقّ وقلبه صلّى الله تعالى عليه وسلّم يبرز له حقائق الأشياء وما يؤول إليه من الفنا فلا يغفل بها عن شهود الحق. وشهوده للحق متقدّم دائم على شهود الخلق فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم ينادي بلسان الحال ما رأيت شيئا إلّا ورأيت الله قبله. ومن دونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم من أهل الكمال يتدرّجون بالوسائل إلى المقصود فهم دونه في الشهود وينادون وهم عن منصبهم ينبئون إذ يقولون ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله بعده.

رقم البيت (٣٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الرابع من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم:

وأكّدت زهده فيها ضرورته

إنّ الضرورة لا تعدو على العصم

جاء بهذا المعنى في هذا البيت دفعاً لما عسى أن يتوهّم متوهّم أنّ زهادته ورياضته الّتي تصدّيت لبيانها أمر مدخول فيه. ولربّما يعترض عليك معترض بأنّ ضرورته واحتياجه مانع ممّا ذكرت فدفعاً لهذا التوهّم جاء بهذا المعنى وقال: وأكّدت زهده اه.

وأكّدت فعل ماض من التأكيد. والتأكيد والتوكيد هو التقرير والتثبيت. والزهد والزهادة شيء واحد وقد مرّ معناه فيما مضى ويؤول ماذكر في معناه إلى أمر واحد وهو ترك الشيء وقلّة الرغبة. وضمير فيها للجبال أو للدّنيا لدلالة المقام عليها. والأولى إرجاع الضمير إلى الجبال. والمراد من الضرورة شدّة الحاجة. وضرورته فاعل أكّدت. وزهده منصوب على أنّه مفعول أكّدت. وقوله إنّ الضرورة جملة مستأنفة استينافاً بيانياً كأنّ سائلاً يقول إذا اشتدّت فيه الحاجة والضرورة فكيف يرّغَبُ عنها؟ فردّ عليه قائلاً إنّ الضرورة لا تعدو على العصم أي تتعدّى يقال عدا عليه إذا ظلمه وغلب عليه. والعصم جمع عصمة وهي قوّة أودعها الله فيمن اصطفاه لرسالته تمنعه عن التعرّض

للمنهيّات والمكروهات والمنفّرات وأخسّ الأشياء من المباحات. والعصم جمع عصمة والعصمة مصدر يجوز أن يراد به اسم المفعول فعلى هذا يكون المراد من العصم المعصومون أى الأنبياء والمرسلون. وادّعى العلّامة الباجورى ههنا حذف مضاف حيث قال: وهذا إن قرئ العصم بكسر العين وفتح الصاد كما هو المشهور على أنّه جمع عصمة. فإن قرئ العصم بفتح العين و كسر الصاد كما استصوبه ابن مرزوق على أنّ أصله عصيم بمعنى معصوم حذفت ياءه للضرورة فلا حذف فيكلامه. (باجورى ص٢١).

وما قدّمناه من الوجه أفاده الشيخ زاده والخرفوتى وهو أوجه. ويمكن أن يقال بحمل المصدر وإطلاقه على وجه المبالغة كما فى قولهم زيد عدل. وعلى هذا فلا حذف ولا ارتكاب تأويل فى المصدر ولا ادّعاء كلمةٍ غريبة "عصيم" مع ارتكاب حذف الياء للضرورة. فالمعنى أنّ النبىّ الّذى فضّله الله على جميع البشر بل شرّفه على كلّ الورى. ورقّاه فى الدرجات العلى بحيث لا يبلغ مبلغه كلّ ذى شرف مهما علا. شرح صدره. ووضع وزره الّذى أنقض ظهره. وقرن اسمه فيكلّ موضع باسمه فجعل ذكر النبى ذكره. وعصمه من حيث الاعتصام بحبل عناية. وحفظه الله وهو خير حافظ بكمال هدايته. فلم يكن ما يرى به من الحاجة ليّعدوَ على عصمته العليّه. بل أكّد ماتراه بحسب الظاهر من الضرورة زهده فى الدنيا الدنيّة. فما زاغ بصر تهمة لزخارف الدنيا ولا طغى عين همّته أى لم يجاوز مقصوده الأسنى فى العقبى. قال الشيخ زاده روى أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم عرض عليه عشار من النوق وهى الحوامل منها. فأعرض عنها وغضّ بصره مع أنّها من أحبّ الأموال إليهم وأنفسها عندهم لأنّها كانت تجمع الظهر واللّحم واللّبن ولعظمتها فى قلوبهم. قال الله تعالى (وإذا العشار عطّلت). فلمّا لم يلتفت إليها قيل يا رسول الله هذه أنفس أموالنا فلم لا تنظر إليها قال قد نهانى الله تعالى عن ذلك ثمّ تلا قوله تعالى (ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به) الآية. هذه معاملته مع الدنيا وفى التوجّه إلى الآخرة ما كان يريد إلّا الرفيق الأعلى.

قال العلّامة الباجورى: وعلم من ذلك الفرق بين ضرورة من عصمه الله تعالى وضرورة غيره لأنّ ضرورة من عصمه الله تعالى لا تدعوه إلى أحسن الأشياء فضلاً عن أخسّها وضرورة غيره تدعوه إلى أخسّ الأشياء حتى إنّها تبيح له تناول مالا ينبغى تناوله. ولو كان محرّم الأصل كالميتة. وفيكلام المصنّف إشارة إلى جواز وصفه بالزهد وهو الحق خلافاً لّمن منعه معلّلا بأنّ الزهد فى الشيء فرع عن التعلّق به لكن قد عيب على هذا البيت والّذى بعده فى إثبات الضرورة له مع أنّه لم يثبت له أصل الحاجة فضلاً عن الضرورة. (ص٢١).

وقد أشرنا فيما تقدّم آنفا إلى الجواب وهو أنّ ما تراه إنّما هو بحسب الظاهر. وختم العلّامة الباجورى كلامه بقوله: وما أحسن قوله فى الهمزية: مستقلّ دنياك أن ينسب الإمساك منها إليه والإعطاء. (ص٢١).

وحرىّ بنا أن نشرح هذا البيت بحول الله سبحانه وتعالى فنقول: مستقلّ دنياك أى هو صلّى الله تعالى عليه وسلّم محتقر ومستصغر أيّها المخاطب لدنياك أن ينسب إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم الادّخار لشيء من الدنيا وحبّ أن يعطى منها وعلى هذا فالإعطاء مصدر مضاف إلى المفعول.

هذا وقد عن لى وجه فى الجواب مرتبط بما تقدّم وهو أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أظهر من الاحتياج مواساة لفقراء أمّته وتعليماً لهم كيف يصنعون إذا طرتهم حاجة و كيف يَسْمُون بأنفسهم فى شدّة الحاجة ويترفّعون عن

الدناءة و يتزكّون بأحسن الحالات. ويحضرنى بهذه المناسبة حديث يمثّل لنا هديه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى تعجيل الصدقة. فقد روى الإمام البخارى رحمه الله تعالى بسنده عن عقبة بن الحارث: باب من أحبّ تعجيل الصدقة من يومها۔ حدّثنا أبو عاصم عن عمر بن سعيد عن ابن أبي مليكة أنّ عقبة بن الحارث حدّثه قال صلّى صلّى الله تعالى عليه وسلّم العصر. فأسرع. ثمّ دخل البيت فلم يلبث أن خرج. فقلت أوقيل له. فقال: كنت خلّفت فى البيت تبراً من الصدقة فكرهت أن أبيّته فقسمته۔ (بخارى: كتاب الزكاة ١/١٩٢)۔

رقم البيت (٣٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين۔

وبعد فهذا البيت الخامس من الفصل الثالث من قصيدة البردة نأخذ فى شرح هذا البيت بحول الله سبحانه وتعالى.

لمّا فرغ الناظم الفاهم من بيان رياضته الشديدة ومجاهدته المديدة أخذ فى بيان فضله وشرفه بأسلوب أنيق وترتيب رشيق وإفادة ربط بين هذا والّذى قبله وتأكيد مقترن بتأسيس لمعنىً جديد فقال:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من

لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

الواو عاطفة على مقدّر أى أنّه عليه الصلاة والسلام مائل إلى الله تعالى فقط وكيف تدعوه الدنيا ونعيمها والجنّة ونعيمها. وفيه إشارة إلى حديث قدسى (الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا وكلاهما حرامان على أهل الله تعالى). وإلى أن الدنيا والآخرة لا تجتمعان على وجه الكمال. ولذا قيل إنّهما ضرّتان أو مثل كفّتى الميزان. وقال صلّى الله تعالى عليه وسلّم (من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى)۔ وكيف على ما فى المعجم الوسيط اسم مبنى على الفتح. والغالب فيه أن يكون استفهاماً إمّا حقيقيّاً نحو كيف زيد؛ أو غيره نحو قوله سبحانه (كيف تكفرون بالله) فإنّه أُخرج مخرج التعجّب. وإن كان بعد كيف اسم فهى فى محلّ رفع على الخبرية عنه. مثل: كيف زيد. وإن كان بعده فعل فهى فى محلّ نصب على الحالية أو المفعولية المطلقة. مثل كيف جاء زيد؛ وترد للشرط فتقتضى فعلين متّفقى اللّفظ والمعنى غير مجزومين. كقولك: كيف تصنع أصنع. أو كيفما انتهى۔ وههنا الاستفهام للاستبعاد على ما قاله الشيخ زاده وجعله العلّامة الباجورى للإنكار والمآل واحد وهو بيان لكمال زهده. وكيف منصوب على الحالية أو المفعولية المطلقة كما تقدّم عن المعجم الوسيط أو على الظرفية كما أفاده الشيخ زاده. والدعاء الطلب والميل والحمل على الشيء والاحتياج. والدنيا تأنيث الأدنى من الدنوّ وهى صفة فى الأصل ثمّ نقلت إلى الاسمية فجعلت اسماً لهذه الدار الّتى نحن فيها وقد تطلق على أعراضها وزخارفها من المال والجاه وما أشبههما وهو المراد هنا. أو من الدناءة وهى الخسّة وقيل الدنيا ما يشغلك عن التقرّب إلى المولى. وقال الخرفوتى: والأصل فى الدنيا دنوى بدلالة قولهم دنوت إلى الشيء دنوّاً

فقلبت الواو ياء ولم تقلب مثل ذلك في القصوى لأنّه ذهب بالدنيا مذهب الاسم في قولهم الدنيا والآخرة وإن كان أصلها صفة فخفّفت لأنّ الاسم أحقّ بالتخفيف. ثمّ إنّ المسموع من العرب في النسبة إلى الدنيا دنيي ودنيوي، ومنهم من شبّه ألفها بألف بيضاء في كونهما علامتي التأنيث فقال فيها دنياوي. ثمّ إنّ الدنيا نصبها بالتنوين غلط لأنّ دنيا وما هو على وزنها لا ينوّن. فإن قيل لم سمّي الدنيا؛ قلت إمّا لدنوّها أي لقربها إلى الآخرة أو لقرب مشتهياتها إلى القلب أو لدناءتها وخساستها ولذا من اتّبع الدنيا يكون خسيساً.

ولو لا حرف يدلّ على امتناع شيء لوجود غيره وتأتي على ثلاثة أوجه: الأوّل: أن تدخل على جملتين: اسميّة ففعلية، لربط امتناع الثانية بوجود الأولى، نحو: لو لا العلاج لهلك، أي لولا العلاج موجود. وإذا ولي لولا مضمرٌ فحقّه أن يكون ضمير رفع، نحو (لولا أنتم لكنّا مؤمنين)، وسمع قليلاً: لولاي، ولولاك، ولولاه. الثاني: أن تكون للتحضيض والعرض، فتختصّ بالمضارع أو ما في تأويله، نحو (لولا تستغفرون الله)، و(لولا أخّرتني إلى أجل قريب). فالفعل الماضي ههنا في تأويل المضارع أي لولا تؤخّرني. الثالث: أن تكون للتوبيخ والتنديم فتختصّ بالماضي نحو (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء). وأصل لولا: لو رُكّبت مع لا. ولابدّ لها من جواب مذكور. أو جواب مقدّر إذا دلّ عليه دليل، نحو (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأنّ الله توّاب حكيم). الجواب هنا محذوف دلّ عليه سياق الكلام أي لعوجلتم بالعذاب. وتكثر اللّام في جوابها إلّا إذا كان منفيّاً بلم أي تدخل اللّام في جوابها كثيراً إلّا إذا كان منفياً فيمتنع دخولها عليه أو بما أي إلّا إذا كان منفياً بما فيقلّ دخول اللّام عليه). كذا في المعجم الوسيط بتصرّف يسير.

وخبر لولا واجب الحذف إن كان من الأمور العامّة مثل موجود أو ثابت وإلّا فلا يجوز حذفه إلّا عند قيام قرينة. وقوله لولاه بحذف المضاف الّذي هو المبتدأ أي لولا وجوده ثابت لم تخرج الدنيا من العدم إلى الوجود. ولم تخرج ببناء الفعل المضارع وهو تخرج للمفعول أو الفاعل أي لولا وجوده لاستمرّت الدنيا على عدمها ولم توجد فوجوده صلّى الله تعالى عليه وسلّم علّة في وجودها فلو كانت ضرورته تدعو إلى الدنيا لكان وجوده معلولاً لوجودها وهو خلف والأصل في ذلك ما رواه الحاكم والبيهقي من قول الله تعالى لآدم لمّا سأله بحقّ محمّد أن يغفر له ما اقترفه من صورة الخطيئة وكان رأى على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلّا الله محمّد رسول الله (صلّى الله تعالى عليه وسلّم)، قال الله لآدم: سألتني بحقّه أن أغفر لك ولولاه ما خلقتك فوجود آدم عليه الصلاة والسلام متوقّف على وجوده صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وآدم أبو البشر وقد خلق الله لهم ما في الأرض وسخّر لهم الشمس والقمر واللّيل والنهار وغير ذلك كما هو نصّ القرآن. قال تعالى (خلق لكم ما في الأرض جميعاً وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم اللّيل والنهار). وإذا كانت هذه الأمور إنّما خلقت لأجل البشر. وأبو البشر إنّما خلق لأجله صلّى الله تعالى عليه وسلّم كانت الدنيا إنّما خلقت لأجله فيكون صلّى الله تعالى عليه وسلّم هو السبب في وجود كلّ شيء. (باجوري ص٢١،٢٢)

وجاء الشيخ زاده بما هو نصّ في الباب حيث قال عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال أوحى الله تعالى إلى عيسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام أن صدّق بمحمّد وأمر أمّتك من أدركه منهم أن

يؤمنوا به فلولا محمّد ما خلقت آدم ولولا محمد ما خلقت الجنّة والنار ولقد خلقت العرش فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلاّ الله محمد رسول الله فسكن. فمن كانت الدنيا رشحة من فيض ديمه وقطرة من زواخر بحار نعمه فكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة فاقته و كيف تفتُّ حاجته فيعضد اصطباره وطاقته والصبر عند الحاجة مع الوجدان من خواصّ من عصم بعصمة الرحمن. (ص١٠)

قال الخرفوتي: وفي هذا البيت تلميح إلى ما نقل في الحديث القدسي (لولاك لما خلقت الأفلاك)، والمراد من الأفلاك جميع المكوّنات إطلاقاً لاسم الجزء على الكلّ. (ص١٠)

(رقم البيت ٣٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إذ قد فرغنا من شرح البيت الخامس آن لنا أن نأخذ في شرح البيت السادس وهو قول الناظم الفاهم:

محمد سيّد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم

بعد ما بيّن الناظم الفاهم رياضته الشديدة وعمله الديمة في المجاهدة المديدة على وجه الإبهام تفخيماً وأكّد استغناءه عن الدنيا و عصمته عليه الصلاة والسلام بتأسيس ما يقتضي فضله على الأنام استطرد في تفنّن في وصفه فذكر اسمه الشريف تيمّناً بذكر اسمه ولأنّ التصريح بعد الإبهام أوقع في النفوس فقال:

محمد سيّد الكونين والثقلين
والفريقين من عرب ومن عجم

قوله محمّد يجوز فيه الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف أي هو محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. والنصب بتقدير أمدح والجرّ على أنه بدل ممّن الواقع في محلّ الجرّ في قوله و كيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من اهـ. ومحمّد اسم مفعول من حمّد إذا حُمِدَ مرّة بعد أخرى، فهو مبالغة. ثمّ نقل إلى الاسميّة فسمّيّ به النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم لأنّه محمود في خَلْقه وفي خُلُقه. قال القاضي عياض في الشفا حُمِي اسم محمد ولم يسمّ به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده وميلاده صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّ نبيّاً يبعث اسمه محمّد فسمّى قوم أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو. والله يعلم حيث يجعل رسالته. ومصدر محمّد التحميد من باب التفعيل وخاصّيته التكثير. وهو يقتضي كونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم محموداً على كلّ لسان من الإنس والملك والجانّ بل يقتضي أن يحمده كلّ من يسبّح ويحمد الرحمن من جماد ونبات وحيوان. قال جلّ من قائل: "وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم". لأنّ التكثير جرير يقود الإطلاق وحبل يجرّ التكثير. وهذا بعموم رسالته جدير. فجاءت التسمية على وفاق مقتضى الرسالة الّتي أحاطت بالآفاق فملأ ذكره الطباق. ولذلك قال صلّى الله تعالى عليه وسلّم: "ما من شيء إلّا ويعلم أنّي رسول الله إلّا مردة الجنّ والإنس". وهو محمود الكلّ على الدوام بمقتضى تسميته وعموم رسالته إلى الأنام. وهذا يقتضي أن لا يكتنه

كنهه ولا يعرفه حقّ المعرفة إلّا مَن خلقه. ولذلك قال الشاعر وصدق فيما قال:

وعلى تفنّن واصفيه بوصفه
يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

وقال جلّ من قائل: "قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولوجئنا بمثله مددا". في هذه الآية تنويه من الله سبحانه وتعالى بعظيم قدرة. وإنذار بأنّ الخلق عن آخرهم يعجزون مهما وصفوه أن يبلغوا إلى ما بلغ من ذُروة الكمال. وهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم المراد بقوله سبحانه وتعالى "كلمات ربّي". وغير سائغ أن يكون المراد به صفاته جلّ وعلا لأنّها متعالية عن النفاد والفنا. والجمع فيه لإفادة التعظيم. وسُمّي كلمةً لكونه دليلاً ووسيلة إلى الله سبحانه وتعالى كما أنّ الكلمة تدلّ على مدلولها ويتوصّل بها إلى مرادها. وإطلاق الجمع على المفرد كثير. منه قوله سبحانه وتعالى: "فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم". وقوله جلّ مجده فيما يناسب المقام: "أم يحسدون الناس على ما آتاهم". المراد بقوله (الناس) سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. قال قتادة: المراد بالنّاس العرب حسدهم اليهود على النبوّة وما أكرمهم الله تعالى بمحمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقيل أراد محمّداً صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأصحابه. وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وجماعة: المراد بالنّاس رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم وحده. (البغوى ۳۳۲)

ومآل هذا والّذى قبله واحد فإنّ الإكرام بالنبوة للعرب ولصحابته خاصّة. لم يحصل لهم إلاّ بالنبى محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم فهو السبب وهو المراد ووصفه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى التنزيل بكلمات ربّي يفيد أنّه مظهر أتمّ لذاته سبحانه وتعالى وصفاته فى كل ما وصف به صلّى الله تعالى عليه وسلّم فعلى سبيل المثال "ربّنا نور" ونبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم سمّاه ربّه نوراً. و"ربّنا مالك". وفى عباد الله كثير من اسمه مالك فنبيّنا بالأولى كَمِن بتسمية المالك. و"ربّنا مَلِك" ونبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم بحكم أنّه مظهر مَلِك. و"ربّنا مولى". وسيّدنا وحبيبنا ونبيّنا بإذن ربّنا مولى وعلى هذا القياس المتولّي والمفترَض طاعته. فقد قال الله تعالى: "ومن يطع الرسول فقد أطاع الله" الآية. ويجمع كلّ هذه المعانيمن مالك وغيره السيّد. ولذا قال سيّد الكونين ولا داعى إلى القول بحذف مضاف وهو الأهل فى الكونين فإنّه سيّد الكونين وسيّد أهل الكونين لما ذكر. والمراد بالكونين الدنيا والأخرى أو عالم الشهادة والغيب. والمراد بالثقلين الجنّ والإنس لإثقالهما الأرض أو لثقلهما بالذنوب. وهو تخصيص بعد تعميم إفادةً لأنّه رسول إلى الجنّ كما أنّه رسول إلى الإنس. وعُرب كقفل بمعنى العرب وهو خلاف العجم. والمراد بالعجم كلّ من سوى العرب. تخصيص بعد تعميم أيضاً لإفادة أنّه رسول الله إلى النّاس جميعاً. قال الخرفوتى: والعُرب كقفل بمعنى العرب وهو خلاف العجم والعرب مؤنّث بتأويل الطائفة يقال العرب العاربة والعرب العرباء وبعضهم خصّص العرب بمن سكن فى بلادهم وبعضهم جعله شاملاً للبلدى والبدوى وهو المراد هنا. قال فى البصائر إنّ الأعراب ليس جمع عرب كما توهّم لأنّه لم يكن لها مفرد لكن قال الراغب فى مفرداته إنّه جمع عرب. وفى مصباح اللّغة أنّ عرب يجمع على أعرب كزَمَنٍ وأزْمُنٍ وعلى عرب كأسد وأسد انتهى. والمراد من العجم ما سوى العرب فيشمَل الترك والكرد والفرس والروم والهند وغيرذلك. وإعادة حرف الجرّ

لضرورة الوزن. وبيّن الخرفوتي سيادته في الدارين بأبين وجه فقال: أمّا سيادته في الدنيا فلأنّه عليه الصلاة والسلام كان خاتم جميع الأنبياء والمرسلين، وكان المعراج مخصوصاً به دون سائر الأنبياء، ولأنّه عليه الصلاة والسلام أرسل إلى كافّة الثقلين دون سائر الأنبياء، وأرسل إلى الجنّ والملك، وبعث رحمة للعالمين حتّى الكفّار بتأخير العذاب، وبلده أفضل البلاد، ومسجده أفضل المساجد، والبقعة الّتي دفن فيها أفضل من الكعبة بل ومن العرش. وكذا سيادته عليه الصلاة والسلام بحسب نوره الروحي فهو مفضّل على الجميع ثابت بالآثار وتكاثر الأخبار بل نوره اللّطيف أصل أنوار جميع الأنبياء. قال في المواهب قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاء كم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري. قالوا أقررنا) الآية. عن علي وابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما ما بعث الله تعالى نبيّاً من الأنبياء إلّا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمّد عليه الصلاة والسلام وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه. وفي المواهب أيضاً عن عبد الرزاق عن جابر ما إجماله: اعلم أنّ الله تعالى خلق نور نبيّنا عليه الصلاة والسلام قبل كلّ شيء فخلق منه القلم واللّوح والعرش وحملته والكرسي وسائر الملائكة والسماوات والأرض والجنّة والنار وأيضاً نور أبصار المؤمنين ونور قلوبهم ونور أنفسهم. وأمّا سيادته في الآخرة فلما ذكره القرطبي: أنّ الزبانية يأتون بجهنّم يوم القيامة وهي تمشي على أربع قوائم وتقاد بسبعين ألف زمام في كلّ زمام سبعون ألف حلقة على كلّ حلقة سبعون ألف ملك فإذا انفلتت من أيديهم لم يقدروا على إمساكها لعظم شأنهم فيجثو كلّ من في الموقف على الرُكَب حتّى المرسلين ويتعلّق إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام بقوائم العرش وهذا قد نسي الذبيح وهذا قد نسي هارون وهذا قد نسي مريم عليهم الصلاة والسلام قائلين نفسي نفسي لا أسألك اليوم غيرها ومحمّد عليه الصلاة والسلام يقول أمّتي أمّتي سلّمها ونجّها يا ربّ فيقوم عليه الصلاة والسلام ويأخذ بخطامها ويقول ارجعي مدحورة إلى خلفك فتقول خلّ سبيلي فإنّك يا محمّد حرام عليّ. فينادي من سرادقات العرش اسمعي وأطيعي له ثمّ تجذب وتجعل شمال العرش فيخفّ وجل أهل الموقف انتهى كلام الخرفوتي مع تصرّف يسير منّا.

وقوله فينادي كذا في النسخة التي بأيدينا ولعلّ الأصوب فتنادى. قال الشيخ زاده: الدليل على أنّه سيّدهما قوله عليه الصلاة والسلام أنا سيّد ولد آدم ولا فخر. وكنتم خير أمّة أخرجت للنّاس. وفضله على الثقلين يستفاد من قوله (لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل) وفضله على الكونين يعرف ممّا أشير به إلى تحقّقه صلّى الله تعالى عليه وسلّم في مقام الوحدة وبروزه برفع الاثنينية والانسلاخ عن البشريّة بخلعة الملكيّة في الحضرة العندية الأحدية وهو قوله عزّ اسمه وشأنه وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى. وإنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله. وفي أمثال هذه المعاني قيل من لسان حقيقته:

وإنّي وإن كنت ابن آدم صورة
فلي فيه معنى شاهد بأبوّتي

ولولاي لم يوجد ولولاي لم يكن
شهود ولم يعهد عهود بذمّتي

(ص٤٢)

رقم البيت(٣٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد فرغنا من شرح البيت السادس بحمد الله وهذا أوان الشروع في شرح البيت الّذي يليه وهو البيت السابع من الفصل الثالث من البردة وهو قول الناظم الفاهم:

"نبيّنا الآمر الناهي فلا أحد أبرّ في قول لا منه ولا نعم"

وهذا البيت مرتبط بالبيت الّذي قبله وهو تفصيل لبعض المعاني الّتي شملها لفظ "السيّد" جملة كالمولى والملك والمفترض طاعته. والمولى من يقوم بمصالح من يرعاهم ويحفظهم ويُصلحهم وهذا يقتضي معرفة المولى بما يصلحهم في المبدأ والمعاد وإخبارهم بما يغيب عنهم ممّا يحتاجون إليه في صلاحهم. ويأمرهم وينهاهم ويأخذهم بمتابعته ممّا يؤدّي إلى نجاحهم. فقال تفصيلاً للإجمال "نبيّنا الآمر الناهي فلا أحد" اهـ.

يأتي في قوله "نبيّنا" الوجوه الثلاثة من الإعراب الّتي تقدّمت في قوله "محمّد" والإضافة في قوله "نبيّنا" لتشريف المضاف إليه قاله الباجوري.

أقول والإضافة فيه أيضاً لإفادة انجذابنا إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالكلّيّه والتسليم له في محبّة وتعظيم واستعطافه صلّى الله تعالى عليه وسلّم واستدامة فضله العظيم. وقوله الآمر الناهي أي عن الله تعالى. والآمر الناهي عن الله تعالى هو الرّسول. فوصفه هذا وصف له بالرّسول وبهذا ظهر أنّ الناظم الفاهم جمع في مدح النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم الوصفين أعني النبي والرسول. وعلى هذا فلا مثار لسؤال استنهضه الخرفوتي بقوله "فإن قلت لم آثر النبي على الرسول مع عدم الضرورة لوزن النظم فيه أيضاً اهـ. وقدّم النبي للوزن ولما فيه من معنى الرفعة الّتي تضمّنه لفظ "السيّد". والنبي على ما في المفردات للراغب بغير همز فقد قال النحويون: أصله الهمز فترك همزه واستدلّوا بقولهم: مسيلمة نُبَيِّئ سوء. وقال بعض العلماء: هو من النبوة أي الرفعة وسمّي نبيّاً لرفعة محلّه عن سائر الناس المدلول عليه بقوله (ورفعناه مكان عليّا). فالنبي بغير الهمز أبلغ من النبيء بالهمز لأنّه ليس كلّ منبّأ رفيع القدر والمحلّ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال يا نبيء الله. فقال أنا لست بنبيء الله ولكن نبي الله الحديث لمّا رأى أنّ الرجل خاطبه بالهمز لبغض منه.

والنبوّة سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة علّتهم في أمر معادهم ومعاشهم والنبي لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الذكيّة. وهو يصحّ أن يكون فعيلاً بمعنى فاعل لقوله تعالى: (نبّئ عبادي. وقل أؤنبّئكم) وأن يكون بمعنى المفعول لقوله: (نبّأني العليم الخبير).

وهذا كلّه يفيد أنّ النبيّ عبد اصطفاه الله سبحانه وتعالى من البشر فأظهره على غيبه. وجعله مستبدًا بمعرفته دون سائر البشر وأقامه سفيراً بينه وبين عباده لإزاحة عللهم في معاشهم ومعادهم. ولذلك قال في المواهب: النبوّة هي الاطّلاع على الغيب. وقال في المنجد: النبي هو المخبر عن الغيب أو المستقبل بإلهام من الله تعالى.

وبهذا ظهر أنّ من أنكر كونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم يعلم الغيب أضرّ بإيمانه وألقى بيده إلى الخسران حيث نفى بذلك النبوّة وأنكر الرسالة. والإيمان بها شطر الإيمان الّذى يحقّق الإيمان بالله فمن نفى عنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم علم الغيب مطلقاً لم يؤمن به ولم يؤمن بربّه. والنبى مرادف للرّسول على ما حكى ابن الهمام عن المحقّقين وهو أحد الأقوال الثلاثة الّتى ذكرها فى المسامرة شرح المسايرة ونصّه كما يلي: وقد تحصل فى معنى النبى والرسول ثلاثة أقوال الفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه وهو الأوّل المشهور. والفرق بأنّ الرسول من له شريعة و كتاب أو نسخ لبعض شريعة متقدّمة على بعثته و كونهما بمعنى واحد وهو الّذى عزاه للمحقّقين. (ص١٩٣)

هذا وذكر فى المسايرة أموراً تشترط فى النبوّة يحسن إيرادها قال فى المسايرة ما نصّه: شرط النبوّة الذكورة و كونه أكمل أهل زمانه عقلاً وخلقاً وفطنة وقوّة رأى والسلامة من دناءة الآباء وغمز الأمّهات والقسوة والعيوب المنفّرة كالبرص والجذام وقلّة المروءة كالأكل على الطريق ودناءة الصناعة كالحجامة والعصمة من الكفر. وأمّا من غيره ممّا سنذكره فمن موجبات النبوّة متأخّر عنها. (ص١٩١)

قال فى المسامرة تحت قول المسايرة (فمن موجبات النبوّة متأخر عنها) ما نصّه: فمن أى فهو من موجبات النبوّة بفتح الجيم أى الأمور الّتى يقتضيها منصب النبوّة متأخّر عنها كما هو شأن الموجب فلا يتأتّى اشتراطه فيها وهذا ما عليه الجمهور أمّا على القول بعصمتهم من الصغائر والكبائر قبل النبوّة وبعدها فلا يمتنع الاشتراط. (ص١٩١)

قال الأزهرى: والنبى والرسول وإن كان بينهما نوع مغايرة بالعموم والخصوص بحسب المفهوم ولكنّه شيء واحد بحسب المصداق بالنسبة إلى نبينا صلّى الله تعالى عليه وسلّم ولذلك وصفه الله سبحانه و تعالى فى سورة الأعراف فقال (الّذين يتّبعون الرسول النبى الأمّى) الآية. وبهذا ظهر الجواب بوجه آخر عن السؤال الّذى تقدّم ذكره.

وبما ذكرنا من معنى النبوّة تبيّن أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم هو المستخلف من الله سبحانه وتعالى فى دفع البلاء والسبب فيكشف الضرّاء و بذل النعماء وإنجاح المهموم بالسرّاء وتفريج الهموم فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم بحكم نبوّته دافع للبلاء كما بيّنه بأحسن بيان جدّنا الهمام شيخ الإسلام الإمام أحمد رضا قدّس سرّه فى رسالته (الأمن والعلى لناعتى المصطفى بدافع البلاء).

وتحصّل أيضاً ممّا نقلنا عن المفردات أنّه لا يقال نبيء بالهمز لمكان الإيهام فى غير قراءة. وقولنا "فى غير قراءة" احتراز عن قراءة نافع النبيء بالهمز. حكاها فى المسامرة حيث قال: بالهمز وبه قرأ نافع من النبأ وبلا همز وبه قرأ الجمهور. (ص١٩٣)

وقوله نبيّنا إمّا صفة محمّد و كذا الآمر الناهى أو خبر مبتدأ محذوف والآمر الناهى صفة له أو خبران بعد خبر. ولم يذكر متعلّق الأمر والنهى للتعميم أى الآمر بكلّ معروف والناهى عن كلّ منكر.

وههنا فائدة نحوية مهمّة ذكرها الشيخ زاده فقال: وفرّقوا بين قولنا لا رجل فى الدار بالتنوين وبين قولنا لا رجل بغير التنوين فإنّ الثانى قطعى فى الاستغراق لتضمّنها مِنَ الاستغراقية. قال الأزهرى: وذلك لوقوعها فى حيّز

النفي فتعمّ. وهذا هو السبب للبناء. والأوّل غير قطعي حتّى يجوز في الأوّل بل رجلان لا في الثاني بخلاف لفظ أحد فإنّه في الصورتين قطعي في الاستغراق بخلاف لا واحد فإنّه مثل لا رجل. (شيخ زاده ص٣٠،٥٥)

والفاء في قوله فلا أحد للجزاء أي إذا كان محمّد سيّد الكونين ونبيّنا الآمر الناهي فلا أحد. والأحد كما قال الخرفوتي: اتّفق النحاة وأهل اللّغة على أنّه مشترك بين معنيين أحدهما بمعنى الواحد نصف الاثنين والثاني جنس العقلاء من الأقل إلى غير النهاية والأوّل فاءه همزة مبدلة من الواو والثاني همزته أصلية غير مبدلة منها وهذا ممّا شاع وذاع إلاّ أنّه أشكل عليهم بأنّ اللّفظين صورتهما ومادّتهما واحدة ولفظ الوحدة يتناولهما والواو فيهما أصلية فيلزم قطعاً انقلاب الألف عنها وأن يكونا مشتقين من الوحدة. أمّا جعل أحدهما مشتقاً منها دون الآخر فترجيح من غير مرجّح. وأجيب بأنّ الفرق المذكور أشار إليه سيبويه في الكتاب وغيره. وأمّا قولكم لفظهما واحد مادّة وصورة فمسلّم ولكن لا نسلّم أنّ اتّحاد لفظيهما يدلّ على اتّحاد معنيهما لم لا يجوز أن يكون معناهما متغايرين. وله نظائر كثيرة كقلي فهو قال بمعنى أبغض وقلا فهو قال بمعنى شوى ونضج. وأيضاً أنّ الّذي بمعنى الواحد ليس بعامّ ويكون في النفي والإثبات ويطلق على العقلاء وغيرهم ولايكون بمعنى الجماعة والثاني يختصّ بالنفي خلافاً للمبرّد ويختصّ بالعقلاء ويجيء بمعنى الجماعة ويعمّ والأوّل لا يعمّ. (خرفوتي ص٥٥).

أقول وأنت خبير بأنّه لم يحصل الجواب عن الفرق الّذي سأل عنه السائل وقال: أمّا جعل أحدهما مشتقاً منها دون الآخر فترجيح من غير مرجّح. وقوله في الجواب: لا نسلّم أنّ اتّحاد لفظيهما يدلّ على اتّحاد معنييهما. في غير محلّه. لأنّ السائل لم يدّع اتّحاد معنييهما وإنّما ادّعى اتّحاد اللّفظين مادّة وصورة.

وأمّا قوله إنّ الفرق المذكور أشار إليه سيبويه في الكتاب وغيره. فلا يجدي نفعاً في رفع الإشكال. فالإشكال كما هو. والفارق مطالب بإبداء الدليل. هذا وفي المفردات للراغب ما يخالفه في بعض الأمور وفيما ادّعى من كون الهمزة مبدلةً في صورة وأصليّةً في أخرى حيث صرّح بالإبدال مطلقاً ولم يقيّده بموضع دون آخر. وهذا نصّ الراغب في المفردات: أحد يستعمل على ضربين: أحدهما في النفي فقط. والثاني في الإثبات. فأمّا المختص بالنفي فلاستغراق جنس الناطقين ويتناول القليل والكثير على طريق الاجتماع والافتراق نحو ما في الدار أحد أي واحد ولا اثنان فصاعداً لا مجتمعين ولا مفترقين ولهذا المعنى لم يصحّ استعماله في الإثبات لأنّ نفي المتضادّين يصحّ ولايصحّ إثباتهما فلو قيل في الدار واحد لكان فيه إثبات واحد منفرد مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومفترقين وذلك ظاهر لا محالة ولتناول ذلك ما فوق الواحد يصحّ أن يقال ما من أحد فاضلين كقوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين).

وأمّا المستعمل في الإثبات فعلى ثلاثة أوجه: الأوّل في الواحد المضموم إلى العشرات نحو أحد عشر وأحد وعشرين.

والثاني أن يستعمل مضافاً أو مضافاً إليه بمعنى الأوّل كقوله تعالى (أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمرا). وقولهم: يوم الأحد أي يوم الأوّل ويوم الاثنين.

والثالث أن يستعمل مطلقاً وصفاً وليس ذلك إلاّ في وصف الله تعالى بقوله (قل هو الله أحد). وأصله وحد ولكن

وحد يستعمل فى غيره كقول النابغة:

كأنّ رجلى وقد زال النهار بنا
بذى الجليل على مستأنس وحد

قوله: أبرّ اسم تفضيل من البرّ بمعنى الصدق فى الكلام كما يفيد هذا المعنى سياقه. وبمعنى التوسّع كما فى المفردات للراغب وقد يجيء بمعنى القبول كما فى قولهم حجّ مبرور. وقبول الحكم ينبئ عن السمع والطاعة والنفوذ. فالمعنى لا أصدق قولاً ولا أوسع تشريعاً ولا أنفذ كلمةً ولا أحقّ بالقبول ولا أكثر استحقاقاً بأن يسمع ويطاع منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

وفى قوله فى قول لا متعلّق بأبرّ أى فى قوله لا. ولا كناية عن النفى. وقوله ولا نعم عطف على لا أبرّ أى أصدق منه أيضاً فى قوله نعم. وهو كناية عن الإثبات. ولم يكن لا ونعم كناية عن عدم إعطاءه عليه الصلاة والسلام وإعطاءه لأنّه عليه الصلاة والسلام ما سئل عن شيء قطّ إلاّ قال نعم. قال بعض الكمّل فى شأنه عليه الصلاة والسلام:

ما قال لا قطّ إلاّ فى تشهّده
ولا نعم قطّ إلّا جاء ت النعم

وورد من أنه لم يقل لا قطّ. وهو محمول على أنّه لم يقل لا فى شيء سئل عنه من حوائج الدنيا بل إن كان عنده شيء أعطاه للسائل وإن لم يكن عنده شيء سكت أو وعده وقال بعضهم:

ما قال لا قطّ إلّا فى تشهّده
لولا التشهّد كانت لاء ه نعم

وهذا بأعتبار الغالب وإلّا ففى صحيح البخارى أنّ الأشعريين جاء وا إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وطلبوا منه أن يحملهم فقال والله لا أحملكم (الحديث).

وهذا البيت والّذى بعده خاصّيتهما التخلّص من الوقوع فى الشدائد. فمن واظب على قراء تهما خلص من الوقوع فى الشدائد. ومن وقع فى شدّة قبل قراء تهما و كرّر قراء تهما فى جوف اللّيل وتوسّل بالنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم رفعت عنه تلك الشدائد. كذا قال الباجورى.

رقم البيت (٣٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا البيت الثامن من الفصل الثالث من بردة المديح ولنأخذ فى شرح هذا البيت بعون الله سبحانه وتعالى وهو قول الناظم الفاهم:

هو الحبيب الّذى ترجى شفاعته
لكلّ هول من الأهوال مقتحم

فنقول هذا البيت أنشده الناظم الفاهم في محلّ التعليل وإبداء دليل تلو دليل على ما سبق منه من الدعوى بأنّ محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم سيّد الكونين فأراد أن يجلّيه بأحسن وجوه ويبيّنه ببيان مزيد لمن ألقى السمع وهو شهيد. فقال هو الحبيب اه صلّى الله تعالى على الحبيب المشفّع. والضمير راجع لمحمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو لنبيّنا والجملة صفة بعد صفة لمحمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وجاء بضمير الفصل لإفادة الدلالة على الحصر. والحصر حقيقيّ لا كما في قولك زيد هو المنطلق. وهو مبتدأ والحبيب خبره وعرّف الخبر لإفادة قصر صفة الحبيب على الموصوف الّذي هو المبتدأ. و كونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حبيباً ثابت بدلالة الكتاب في مواضع كثيرة وعبارة الحديث. أمّا الكتاب فقوله سبحانه تعالى: "ماودّعك ربّك وما قلى" استفيد من دلالة الخطاب لهذا الحبيب المجيب المجاب. كونه حظيّاً لمحبّته سبحانه وتعالى له على وجه الكمال وذلك لأنّ لكلّ أحد ثلاثة أحوال مع من يعرفه إمّا أن يودّعه وإمّا أن يقلوه ويبغضه وإمّا أن يحبّه. فلمّا نفى التوديع والقلَى دلّ على أنّه سبحانه وتعالى لم يودّعه ولا قلاه بل اتّخذه حبيباً صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقوله سبحانه وتعالى: "يأيّها النبي" و "يأيّها الرّسول"، ويأيّها المزّمّل" و "يأيّها المدّثّر" حيث لم يناده باسمه ونادى سائر الأنبياء بأسماء هم. وقوله سبحانه وتعالى "عفا الله عنك" حيث قدّم التبشير بالعفو على المعاتبة. وقوله (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر) حيث بشّره بإبداء غفران من غير أن يكون هناك عصيان بل عصمه عن المعصية وأخبر عن عصمته بهذا الوجه من البيان وأقامه في منصب الشفاعة وجعله صلّى الله تعالى عليه وسلّم سبباً للعفو عمّن كان قبله و من يأتي بعده فعمّم به لمن سواه الغفران. وأدلّ دليل على كونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حبيباً قوله تعالى "قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله". وذلك لأنّه لمّا بلغ من اتّبعه بشرف متابعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم مرتبة المحبوبية للإله فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم أحرى بأن يكون حبيب الله وذلك يقتضي كون الحبيب أفضل من الخليل والآية جليّة في ميزته صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّتي امتاز بها عن غيره وتقدّم على الجميع حتّى الخليل.

قال في لطائف الإشارات: وهذا فرق بين الحبيب والخليل. قال الخليل: "فمن تبعني فإنّه منّي". وقال الحبيب: "فاتّبعوني يحببكم الله". فإن كان متّبع الخليل منه إفضالاً فإنّ متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه.

واستدلّ على كونه خير الأنبياء والرسل وهو يستلزم كونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم الحبيب بأكمل وجه بقوله (كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس).

وأمّا الحديث فهو ما روى عن ابن عبّاس رضى الله عنهما أنّه قال جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلّم. فخرج عليهم وهم يتذاكرون. قال بعضهم إنّ الله تعالى اتّخذ إبراهيم خليلاً. وقال آخر موسى كلّمه الله تكليماً. وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقال سمعت كلامكم و عجبكم. إنّ إبراهيم خليل الله وهو كذلك. وموسى كليم الله وهو كذلك. وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك. وآدم اصطفاه الله وهو كذلك. ألا وأنا حبيب الله ولا فخر. وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم ومن دونه ولا فخر. وأنا أوّل شافع وأنا أوّل مشفّع يوم القيامة ولا فخر. وأنا أوّل من يحرّك حلق الجنة فيفتح الله تعالى فيدخلنيها مع فقراء المؤمنين ولا فخر. وأنا أكرم الأوّلين والآخرين على الله تعالى ولا فخر.

ولمّا كان فى هذا الحديث ذكر كونه حبيب الله مشفوعا بكونه شافعاً مشفّعاً نظم الناظم رحمه الله كونه شفيعاً فى سلك كونه حبيباً ۔(شيخ زاده:٧٧)

وإذ قد أدّى بنا ذكر محبوبيّته صلّى الله تعالى عليه وسلّم إلى حديث الشفاعة وقد تقدّم ذكرها فى الحديث المتقدّم فمن الحريّ بنا أن نذكر معنى الشفاعة ونسرد بعض ما ورد فيها ونذكر مراتبها الّتى يحصل بها التطبيق والجمع فى مختلف الأحاديث فنقول قال العلّامة سيف الله المسلول فضل الرسول فى المعتقد المنتقد ما نصّه:

منها أن يعتقد أنّ يوم القيامة لا يستغنى أحد من أمّة بل جميع الأنبياء عن جاهه ومنزلته. ومتى لم يفتح الشفاعة لا يستطيع أحد شفاعة ۔ (ص١٥١)

قال جدّنا الإمام أحمد رضا فى المستند المعتمد عند قوله: متى لم يفتح الشفاعة لا يستطيع أحد شفاعة ۔

وهذا أحد معانى قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم "أنا صاحب شفاعتهم" والمعنى الآخر الألطف الأشرف أن لا شفاعة لأحد بلا واسطة عند ذي العرش جلّ جلاله إلّا للقرآن العظيم ولهذا الحبيب المرتجى الكريم صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأمّا سائر الشفعاء من الملائكة. والأنبياء. والأولياء. والعلماء. والحفّاظ. والشهداء. والحجّاج. والصلحاء. فعند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فينتهون إليه و يشفعون لديه وهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم يشفع لمن ذكروه ولمن لم يذكروا عند ربّه عزّ وجلّ وقد تأكّد عندنا هذا المعنى بأحاديث. والله الحمد ١٢ ۔ (ص١٥١)

ومضى العلّامة فضل الرسول قائلا ما نصّه:

فالشفاعة فى الآخرة بهذا المعنى. ووجوبها بالكتاب والسنّة. أمّا الأوّل: فقوله تعالى: (عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً). (ولسوف يعطيك ربّك فترضى). (من ذا الّذى يشفع عنده إلّا بإذنه). (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلّا من أذن له). وقال فى حق الكفرة: (فما تنفعهم شفاعة الشافعين). فلولم يكن للمؤمنين لما كان لتخصيصهم فائدة. وقال: "فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات" ۔

وأما السنّة: فقال صلّى الله تعالى عليه وسلّم: إنّ لكل نبى دعوة مستجابة فمنهم من دعابها على قومه. ومنهم من اتّخذها دنيا. وإنّى أخرت دعوتى شفاعتى لأمّتى يوم القيامة لمن قال لا إله إلّا الله. وقال: خيّرت بين أن يدخل نصف أمّتى الجنّة وبين الشفاعة. فاخترت الشفاعة. لأنّها أعمّ. أتُرَوْنَهَا للمتقين ولكنّها للمذنبين الخطّائين. وقال: لأشفعنّ يوم القيامة لأكثر ممّا فى الأرض من حجر وشجر. وقال: شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى. وقد روى عنه فى الصحاح والحسان أخبار بألفاظ مختلفة بحيث لو جمعت آحادها لبلغت حدّ التواتر فى إثبات الشفاعة ۔

وله صلّى الله تعالى عليه وسلّم أقسام من الشفاعة: منها الشفاعة لإراحة الخلائق من هول الموقف. وهى ثابتة باتفاق المسلمين حتّى المعتزلة وهى من خصائصه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ومنها إدخال ناس الجنّة بغير حساب ۔ ومنها عدم دخول النار بعد الحساب وثبوت الاستحقاق لدخول النار. ومنها إخراج بعض الموحّدين من النار. ومنها زيادة الدرجات. ومنها التجاوز عن التقصير فى الطاعات. ومنها تخفيف العذاب لمن استحق خلود النار فى بعض الأماكن والأوقات كأبى طالب. ومنها دخول أطفال المشركين الجنّة. ومنها لمن مات بالمدينة. ولمن

صبر على لأواءها. ولمن زاره بعد موته. ولمن أجاب المؤذن ودعا له صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالوسيلة. ولمن يصلّي عليه ليلة الجمعة ويومها. ولمن حفظ أربعين حديثاً في الدين وعمل بها ولمن صام شعبان لحبّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم صيامه. ولمن مدح أهل البيت وأثنى عليهم. إلى غير ذلك ممّا ورد في السنّة. (ص١٥٣،١٥٢)

عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: "أنا أوّل الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم إذا حُبِسُوا، وأنا مبشّرهم إذا أيسوا الكرامة، والمفاتيح يومئذ بيدي. ولواء الحمد يومئذ بيدي. وأنا أكرم ولد آدم على ربي. يطوف على ألف خادم كأنّهم بيض مكنون. أولؤلؤ منثور" رواه الترمذي والدارمي وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم: قال إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر. رواه الترمذي

قال الأزهري: وأيّد هذا الحديث مامرّ التصريح به عن جدّنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه في المستند المعتمد من أن لا شفاعة لأحد بلا واسطة عند ذي العرش جل جلاله إلّا للقرآن العظيم ولهذا الحبيب المرتجى الكريم صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

عن أمّ حبيبة قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: أريت ما تلقّي أمّتي بعدي. وسفك بعضهم دماء بعض. وسبق لهم من الله ماسبق للأمم قبلهم فسألت الله أن يؤتيني (فيهم) شفاعة يوم القيامة ففعل.

عن أبي هريرة قلت: يا رسول الله ماذا ورد عليك في الشفاعة؟ فقال: شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلّا الله مخلصاً يصدّق لسانه قلبه.

وفي حديث النضر بن أنس عن أبيه حدثني نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: إنّي لقائم أنتظر أمّتي عند الصراط إذ جاء عيسى فقال: يا محمّد هذه الأنبياء قدجاءتك يسألونك لتدعوالله أن يفرّق جمع الأمم إلى حيث شاء لعظم ماهم فيه.

وقد أطال في المواهب والشفا في سرد الأحاديث وفيما ذكرنا كفاية. ١٢

قال الباجوري: منها شفاعته في جماعة دخلوا النار أن يخرجوا منها وهذه غير مختصّة به بل تكون لغيره أيضاً من العلماء والأولياء. ومنها شفاعته في رفع درجات أناس في الجنّة وهذه لم يثبت اختصاصها به صلّى الله تعالى عليه وسلّم. أقول: الظاهر المستفاد من قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (أنا صاحب شفاعتهم) وبما مرّ من المواهب اختصاص الشفاعة عند الله تعالى بلا واسطة به صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما بيّنه جدّنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه وقد نقلنا كلامه فيما تقدّم ومرّ ما يؤيّده من الحديث فتذكّر. ولذلك لم يتعرّض لذكر الخلاف في المواهب والشفاء.

هذا وقد وافق الباجوري غيره في ذكر شفاعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم في بعض الكافرين بتخفيف العذاب عنهم ومثّل له بعمّه أبي طالب. ولكنّه تفرّد عن غيره في هذا حيث أوهم أنّ فيه خلافاً معتدّاً به. وهذا نصّه في شرح البردة: ومنها شفاعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم في تخفيف العذاب عن بعض الكافرين كعمّه أبي طالب على القول

بأنّ الله لم يحيه فآمن به صلّى الله تعالى عليه وسلّم هو المشهور. والّذى يحبّ أهل البيت يقول بأنّ الله أحياه وآمن به صلّى الله تعالى عليه وسلّم والله قادر على كل شيء ولا ينافى شفاعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى تخفيف العذاب عن بعض الكافرين قوله تعالى (لا يخفّف) لأنّ المنفى إنّما هو تخفيف عذاب الكفر. فلا ينافى أنّه يخفّف عنهم عذاب غير الكفر على أحد الأجوبة فى ذلك. (حاشية الباجورى على متن البردة ص٢٣).

وهذا كما ترى تصريح منه بأنّ جمهور أهل العلم والفقه والسواد الأعظم على موت أبى طالب على الكفر والباجورى منهم قطعاً. حيث أقرّ بأنّه هو المشهور ونفى فى ضمن إقراره حكاية إحياء أبى طالب حتّى آمن به صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ومحبّة أهل البيت إنّما هى بنسبتهم إلى المصطفى صلّى الله تعالى عليه وسلّم وشرط الإيمان حبّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وحبّه أن يصير هوى الرجل تابعاً لما جاء به صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما ورد عنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّه قال (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). وأهل البيت أنفسهم منخرطون فى سلك من أجمع على كفر أبى طالب. فمحبّة أهل البيت فى اتّباع الشرع واتّباع هديهم وليس محبّتهم فى ترك هديهم بمخالفة إجماع المسلمين ولو كان الأمر بمجرّد المحبّة مهما كانت لأدّى ذلك إلى الاعتقاد بتفضيل سيّدنا على على الشيخين وغير ذلك ممّا جرت عليه الشيعة من دعوى المحبّة لأهل البيت. وأظنّ ما حكاه مدسوساً عليه من بعض المبتلين. وههنا مناقضة فى كلام الباجورى صريحة فى الموضعين حيث وافق الجمهور فيما أقرّ بأنّه هو المشهور أوّلاً، وذهب يؤيّده ويجيب عمّا أشكل على ذلك آخراً.

ولجدّنا الإمام الهمام أحمد رضا قدّس سرّه رسالة مستقلّة حافلة فى هذا الموضوع سمّاها "شرح المطالب فى كفر أبى طالب" ولخطورة المقام يجدر بنا أن نتلو عليك بعض ما يؤيّد المرام حيث قال رضى الله تعالى عنه: صرّح العلماء بأنّ الإجماع على كفر أبى طالب.

ثمّ ذهب يسرد بعض النصوص فقال: جاء فى شرح المقاصد وشرح التحرير وفى باب المرتدّين من ردّ المحتار على الدرّ المختار: المصرّ على عدم الإقرار مع مطالبة به كافر وفاقاً لكون ذلك من أمارات عدم التصديق.

وقال مولانا على القارى فى شرح الشفاء: إذا أمر بها وامتنع وأبى عنها كأبى طالب فهو كافر بالإجماع.

وقال فى المرقاة شرح المشكاة بعد نقله خلاف العلماء فيمن صدّق بقلبه ولم يتفق له الإقرار من غير عذر ولا مانع. هل هذا الاعتقاد بدون الإقرار ينفعه فى الآخرة أم لا؛ قال ما نصّه: قلت لكن بشرط عدم طلب الإقرار منه فإن أبى بعد ذلك فكافر إجماعاً لقضيّة أبى طالب.

وصرّح فى باب أشراط الساعة من الفصل الثانى من نفس الكتاب: أبو طالب لم يؤمن عند أهل السنّة.

وقال الشيخ المحقّق مولانا عبد الحق المحدث الدهلوى فى شرح سفر السعادة: المشائخ من أهل الحديث وعلماء السنّة على أنّ إيمان أبى طالب لم يثبت. وورد فى الصحاح أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم جاء فى وفاته وعرض عليه الإسلام فلم يقبل.

وقال الإمام ابن حجر المكّى بعد ما أثر عنه البيت المروى فى صحيح البخارى (وهو قوله وأبيض يستسقى الغمام بوجهه):

هذا البيت من جملة قصيدة له فيها مدح عجيب له صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أخذ الشيعة منها القول بإسلامه.

وذكر من أهل البيت من صرح بكفر أبي طالب فقال رضي الله تعالى عنه: هذا سيد أهل البيت على كرم الله تعالى وجهه الكريم كان يقول لأبي طالب مشرك. ويتأمل في غسله وكفنه بعد الأمر به صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقره سيد السادات وسيد الكائنات عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وامتنع عن تشييع جنازته. ولم يرث الكفار سيدنا جعفر وسيدنا على رضي الله تعالى عنهما لإسلامهما وعلل عدم الإرث سيدنا الإمام زين العابدين رضي الله تعالى عنه بكفر أبي طالب. واستدل ختن أهل البيت أمير المؤمنين عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه بذلك على أن المسلم لا يرث الكافر. وهذا سيدنا العباس يسأله عن حال أبي طالب فيجاب بالجواب الذي تقدم أي يشير إلى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم هو في ضحضاح. وقال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما إن آية "وإن يهلكون إلا أنفسهم" نزلت في أبي طالب. إلى آخر ما أفادوأجاد.

ولا يفوتني أن أنبهك على ما انطوى عليه قول الباجوري "الذي يحب أهل البيت" من تهمة لمن قال بموت أبي طالب على الكفر وهم الجمهور بعدم المحبة لأهل البيت وهو كما ترى قول عظيم. يؤدي إليه المفهوم المخالف. ومفاهيم الكتب حجة. وهذا مما يقوي الظن بأن هذا القول إلحاق لا يصدر عن مثل هذا الفاضل الجليل.

هذا وقد وقع في النعمة الكبرى للعلامة ابن حجر المكي نحوما وقع في شرح البردة للعلامة الباجوري. فقد ذكر حكاية إحياء أبي طالب مع أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم وعزاه للقرطبي حيث قال: "وفي الخبر أن الله تعالى أحيى له أبويه وعمه أبا طالب فآمنا به صلى الله تعالى عليه وسلم. ذكره القرطبي في التذكرة". ويرده ما قال ابن حجر نفسه في "أفضل القرى لقراء أم القرى" ويناقضه ما صرح به القرطبي في المفهم وقد مر نصه فيما تقدم عن شرح المطالب. ويرده أيضاً ما صرح به القرطبي في مواضع عدة من تفسيره فها هو ذا قائلاً ما نصه عند قوله تعالى (وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم): هو عام في جميع الكفار أي ينهون عن اتباع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وينأون عنه. عن ابن عباس والحسن. وقيل هو خاص بأبي طالب ينهى الكفار عن إيذاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ويتباعد عن الإيمان به. عن ابن عباس أيضاً. وروى أهل السير قال: كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرج إلى الكعبة يوماً وأراد أن يصلي. فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل لعنه الله: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته. فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثاً ودماً فلطخ به وجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانفتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صلاته. ثم أتى أبا طالب عمه. فقال (يا عم ألا ترى إلى ما فُعِل بي)؟ فقال أبو طالب: من فعل هذا بك؟ فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: عبد الله ابن الزبعرى. فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم. فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون. فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل جللته بسيفي. فقعدوا حتى دنا إليهم. فقال: يا بني من الفاعل بك هذا؟ فقال: عبد الله ابن الزبعرى. فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً. فلطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول. فنزلت هذه الآية (وهم ينهون عنه وينأون عنه). فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (يا عم نزلت فيك آية)، قال: وما هي؟ قال: (تمنع قريشاً

أن تؤذيني وتأبي أن تؤمن بي)، فقال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتّى أوسّد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وأبشر بذاك وقرّ منك عيوناً

ودعوت وزعمت أنّك ناصحي
فلقد صدقت وكنت قبل أميناً

وعرضت ديناً قد عرفت بأنّه
من خير أديان البريّة ديناً

لو لا الملامة أو حذار مسبّة
لوجدتني سمحاً بذاك يقيناً

فقالوا: يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته؟ قال: (نعم دُفِع عنه بذاك الغلّ ولم يقرن مع الشياطين ولم يدخل في جبّ الحيّات والعقارب إنّما عذابه في نعلين من نار (في رجليه) يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذاباً. وأنزل الله على رسوله (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. (الأحقاف: ٣٥)). وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم لعمّه: (قل لا إله إلّا الله أشهد لك بها يوم القيامة). قال: لو لا تعيّرني قريش يقولون: إنّما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك. فأنزل الله تعالى (إنّك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء (القصص: ٥٦)). كذا الرواية المشهورة (الجزع) بالجيم والزاى ومعناه الخوف. وقال أبو عبيد: (الخرع) بالخاء المنقوطة والراء المهملة. قال يعني الضعف والخور. وفي صحيح مسلم أيضاً عن ابن عبّاس قال قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: (أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه). (٦/٣٠٥،٣٠٦)

وقال عند قوله تعالى "إنّك لا تهدى من أحببت": قال الزجاج أجمع المسلمون على أنّها نزلت في أبي طالب اهـ. (١٣/٢٩٩)

وهذا نصّه عند قوله سبحانه وتعالى: (ما كان للنّبي والّذين آمنوا) الآية: روي مسلم عن سعيد ابن المسيّب عن أبيه قال: لمّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أميّة ابن المغيرة. فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: يا عمّ. قل لا إله إلّا الله كلمة أشهد لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أميّة: يا أبا طالب! أترغب عن ملّة عبد المطّلب. فلم يزل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم يُعْرِضُها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملّة عبد المطّلب. وأبي أن يقول لا إله إلّا الله. فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك. فأنزل الله عزّ وجلّ: (ما كان للنّبي والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبيّن لهم أنّهم

أصحاب الجحيم). وأنزل الله فى أبي طالب فقال لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: إنّك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين). (٨/٢٤٢،٢٤٣)



وقال عند قوله تعالى "إنّك لا تهدى من أحببت": قال الزجاج أجمع المسلمون على أنّها نزلت فى أبي طالب اهـ. (١٣/٢٩٩)

وهذا نصّه عند قوله سبحانه وتعالى: (ما كان للنّبى والّذين آمنوا) الآية: روى مسلم عن سعيد ابن المسيّب عن أبيه قال: لمّا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أميّة ابن المغيرة. فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: يا عمّ. قل لا إله إلّا الله كلمة أشهد لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أميّة: يا أبا طالب! أترغب عن ملّة عبد المطّلب. فلم يزل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم يُعْرِضُها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملّة عبد المطّلب. وأبى أن يقول لا إله إلّا الله. فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك. فأنزل الله عزّ وجلّ: (ما كان للنّبى والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبيّن لهم أنّهم أصحاب الجحيم). وأنزل الله فى أبي طالب فقال لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: إنّك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين). (٨/٢٤٢،٢٤٣)

هذا ورواية نطق أبي طالب بكلمة الشهادة ضعيفة صرّح بضعفها ابن حجر المكى فى أفضل القرى والعسقلانى فى

الإصابة وفى نفس الرواية ما يردّها وهو قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم لعمّه العباس لم أسمع.

وقوله الّذى ترجى أى الّذى تتوقّع شفاعته وهى طلب الخير للغير من الغير (عند كلّ هولٍ) فاللّام فى لكلّ هول بمعنى فيكما فى قوله تعالى (ياليتنى قدّمت لحياتى) أو للتوقيت كما فى قوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أوهو على حذف مضاف أى لدفع كلّ هول وهو متعلّق بترجى أو بشفاعته. والتنوين فيه للتعظيم أى هول عظيم. ومن الأهوال صفة هول وجاء بالجمع ليعمّ الأحوال كلّها الدنيوية والأخروية. وأفاد الباجورى أنّ قوله من الأهوال فى محلّ النصب على الحال حيث قال حال كون ذلك الهول بعض الأهوال المفزعة. وقوله مقتحم بنصب الحاء المهملة من الاقتحام وهو الوقوع فى الشيء كرهاً. يقال اقتحم زيد الأمر إذا وقع فيه كرهاً أى واقع فيه الناس فهو من باب الحذف والإيصال فحذف الجار واتّصل الضمير. أو بالجرّ على صيغة اسم الفاعل أى شدّة داخلة على الناس فجأة. وعبّر بالرجاء مع أنّ شفاعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم مقطوع بها إشارة إلى أنّه لا ينبغى للمرء أن ينهمك فى المعاصى ويغرّ ر بنفسه متكلا عليها ولأنّ التيقّن بحصول الشفاعة بالنسبة لكلّ فرد مشروط بكونه قد استأهل لها وهو أمر ليس بمتيقّن لكلّ فرد فرد ولذلك عبّر بالرجاء على أنّ الرجاء قد يستعمل فى محلّ القطع كما فى قوله تعالى: "فمن كان يرجو لقاء ربّه". وهو نظير الظنّ فى استعماله فى محلّ اليقين كما فى قوله تعالى: الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم". قال فى لطائف الإشارات: الظنّ يذكر ويقال المراد به اليقين. (١/٤٣). وعلى هذا فلا مانع من أن يعبّر بالرجاء ويراد به اليقين. فالمعنى هو الّذى يستيقن شفاعته.

رقم البيت (٣٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا البيت التاسع من الفصل الثالث من القصيدة الفردة فى مدح النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم المسمّاة بالبردة. قد أتينا على شرح هذا البيت وهو قول الناظم الفاهم:

دعا إلى الله فالمستمسكون به
مستمسكون بحبل غير منفصم

لمّا أفاد عن طريق الحصر فى البيت المتقدّم انفراده صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالمحبوبيّة وتفرّده عليه الصلاة والسلام بالشفاعة أراد أن يؤكّد هذا المعنى مع إفادة أن تفرّده عليه الصلاة والسلام ليس بالنسبة إلى ما ذكر فحسب بل استأثره الله سبحانه وتعالى بما هو أهمّ من كلّ ذلك. والّذى يقتضى تفرّده بما ذكر وتفرّده بمعرفة الله سبحانه وتعالى بلا واسطة. وتقدّمه على الكلّ. وداعياً كلّ ماسواه إلى معرفته وموصلاً إلى حضرته ومُنَعِّماً بنعمته ممّا يقتضيكونه الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى لكلّ الورى إلى حضرته سبحانه وتعالى فأفاد التأكيد فى تأسيس لمعنى مزيد وهو تفرّده بالدعوة وانفراده بالإرشاد وإيصال الخير إلى العباد وإنجاحهم بالمراد. فهو الداعى الوحيد بكلّ معنى الكلمة وذلك لأنّ الدعاء فيه معنى الطلب والإحضار والحثّ على قصد الشيء ونداء الناس إلى

المأدبة فهو داعى العامّة إلى التوحيد والطالب للقصد الوحيد وموصل السالكين إلى الملك المجيد والمُحْضِر لمن يستجيب له إلى مائدة الإكرام فى حضرة التقريب. ولهذا المعنى لم يصرّح بمفعول دعا. ولم يصرّح بالمضاف المقدّر. ولم يعيّن المضاف إلى اسم الجلالة كأن يقول دين الله. وترك العاطف فلم يقل ودعا إشعاراً بأنّ كلّ صفة تصلح أن يوصف بها على الاستقلال. وقوله دعا خبر مبتدأ محذوف أى هو أو جملة فعليّة مستأنفة.

قال ابن علّان الصديقى المكّى فى الذخر والعدّة فى شرح البردة: دعا كلّ من بعث إليه من إنس وجنّ. كما يؤذن به حذف المعمول. إلى الله: إلى توحيده وطاعته والإقرار برسالته صلّى الله تعالى عليه وسلّم. (ص٥٣)

وقال الباجورى فى حاشيته على متن البردة : دعا إلى دين الله كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربّك) وهو الإسلام ففىكلام المصنّف حذف مضاف والمفعول محذوف أى عباده وهو شامل للملائكة فقد دعاهم صلّى الله تعالى عليه وسلّم تشريفاً لهم و تعريفاً لما لم يكونوا يعرفونه لأنّهم إذا عرفوا من آدم عليه الصلاة والسلام ما لم يكونوا يعرفونه فليعرفوا منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مالم يكونوا يعرفونه بالطريق الأولى. (ص٢٢)

قلت وقد تقدّمت منّا الإشارة فى التمهيد إلى أنّ رسالته صلّى الله تعالى عليه وسلّم أعمّ ممّا ذكر. فإنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم رسول إلى الإنس والجنّ والملائكة وكل ما سوى الله من العالمين وفى الخبر عن مسلم "كان النبى يبعث إلى قومه خاصّة وأرسلت إلى الخلق كافّة". وتصديقه فى التنزيل حيث قال جلّ من قائل "تبارك الّذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً". ونصّ على عموم الرسالة فى موضع آخر مع الإشارة إلى تضمّن الرسالة معنى آخر سوى النذارة وشمول ذلك المعنى لكلّ ما سوى الله. وقد رأيتنى كتبت فيما كتبت على الأمن والعلى لناعتى المصطفى بدافع البلاء لجدّنا الإمام أحمد رضا ما نصّه: وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين: دلّت الآية على عموم رسالته صلّى الله تعالى عليه وسلّم لكلّ ما سوى الله. فهو مرسل إلى الجنّ والإنس والملائكة بل وإلى الخلق كافّة. ولذلك ورد فى صحيح مسلم عنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّه قال: كان النبىّ يبعث فى قومه خاصّة وأرسلت إلى الخلق كافّة. وقال صلّى الله تعالى عليه وسلّم: ما من شىء إلّا ويعلم أنّى رسول الله إلّا مردة الجنّ والإنس. والآية فى إفادة هذا المعنى نظيرة قوله تعالى: تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا. (الفرقان:١). وأفادت معنى زائداً هو أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ليس رسولاً بالنذارة فقط بل هو صلّى الله تعالى عليه وسلّم رسول الرحمة. ومفيض الوجود على كلّ موجود. وهو عين الرحمة. وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم عمّ برحمته سائر أنحاء الكون. فالكلّ مستند إليه فى الإيجاد والإمداد ومفتقر إليه فى المبدأ والمعاد وفى هذا المعنى أقول: عمّ الكون برحمته كلّ الرحمى رحماه

قد نيط حياة الكون به فالكلّ عديم لولاه

وبهذا ظهر أنّ إرساله رحمة للعالمين. يقتضى تقدّمه على العالم و كونه سبباً لجميع الكائنات فهو إنسان عين الوجود والسبب فى كلّ موجود وهو كما قال فى المواهب: الجنس العالى على جميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس. هذا وقد عثرت فى مطالع المسرّات شرح دلائل الخيرات على كلام نفيس تحت اسمه رحمة ونصّه ما يلى: قال الشيخ سيّدى أبو العبّاس المرسى رضى الله تعالى عنه: جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة. ونبيّنا

هو عين الرحمة. قال تعالى وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين (الأنبياء ١٠٧).وقال الشيخ سيّدى عبد الجليل القصرى على هذه الآية: فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم المرحوم به العالم بنصّ هذه الآية. وإنّ كلّ خير ونور وبركة شاعت وظهرت فى الوجود أو تظهر من أوّل الإيجاد إلى آخره. إنّما ذلك بسببه صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

وقال الإمام أبو عبد الله الترمذى فى نوادر الأصول: جعل الله تعالى للجنّة باباً زائداً وهو باب محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهو باب الرحمة وباب التوبة فهو منذ خلقه الله مفتوح لايغلق. فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق فلم يفتح إلى يوم القيامة. وسائر أبواب الأعمال مقسومة على أعمال البرّ. ثمّ قال فأمّا باب التوبة من الجنّة الزائد على الأبواب فليس هو باب عمل إنّما هو باب الرحمة العظمى. إليه تدخل توبة العباد إلى الله تعالى. ولذلك قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: أنا نبىّ التوبة وأنا رحمة مهداة. فنفس محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم رحمة للعالمين. وسائر الأنبياء مبعثهم رحمة. فلذلك سعد من أجاب ما بعثوا به من الهدى. وعوجل بالعذاب من أعرض عنهم. ومحمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم مولده ونفسه رحمة وأمان وكذا مدفنه إلى نفخ الصور فحرمة تلك الرحمة وأمانه قائم انتهى. (الأمن والعلى ص٣٦،٣٥).

والفاء فى قوله فالمستمسكون للنتيجة وإفادة التفريع أى أنّ الاستمساك بحبله والاعتصام به تفرّع على كونه داعياً إلى الله سبحانه وتعالى. وعبّر بالاسمية لإفادة الثبوت والاستمرار. والثبوت والاستمرار فى الفرع يقتضى الاستمرار والدوام فى الأصل. فدعا وإن كان فعلاً ماضياً فهو لإفادة الثبوت والدوام وهو نظير قوله تعالى "وكان الله عليماً حكيماً" "وكان فضل الله عليك عظيماً" إلى غير ذلك ممّا عبّر عنه بالماضى وأريد الدوام والاستمرار: وأدلّ دليل على هذا كلمة الشهادة "لا إله إلّا الله محمّد رسول الله" قال ابن فورك: إنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حىّ فى قبره. رسول الله أبداً لآباد أى فى جميع الأزمنة الصادقة بما بعد موته إلى قيام الساعة على الحقيقة لا المجاز. حياته فى قبره يصلّى فيه بأذان وإقامة. قال ابن عقيل الحنبلى ويضاجع أزواجه و يستمتع بهنّ أكمل من الدنيا وحلف على ذلك وهو ظاهر ولا مانع منه.

وبمناسبة ما جرى فى معنى الداعى من ذكر المأدبة يجدر بنا أن نورد حديثاً خرّجه البخارى وأورده فى المشكاة عن جابر قال: جاءت ملائكة إلى النبى وهو نائم. فقالوا: إنّ لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً. قال بعضهم: إنّه نائم. وقال بعضهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً. فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل معه من المأدبة. ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا أوّلوها يَفْقَهها. قال بعضهم إنّه نائم. وقال بعضهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: الدار الجنّة والداعى محمّد فمن أطاع محمّداً فقد أطاع الله ومن عصى محمّداً فقد عصى الله ومحمّد فرق بين الناس. (رقم الحديث ١٤٤)

وقال الطيبى: وتحريره أنّ الملائكة مثلوا سبق رحمة الله تعالى على العالمين بإرساله الرحمة المهداة إلى الخلق. كما قال تعالى: وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين. ثمّ إعداده الجنّة للخلق. ودعوته صلوات الله عليه إيّاهم إلى الجنّة ونعيمها وبهجتها. ثمّ إرشاده الخلق بسلوك الطريق إليها واتباعهم إيّاه بالاعتصام بالكتاب

والسنّة المدليان إلى العالم السفلي. وكأنّ الناس واقعون في هواة طبيعتهم ومشتغلين بشهواتها. وأنّ الله يريد بلطفه رفعهم. فأدلى حبل القرآن والسنّة إليهم ليخلصهم من تلك الورطة. فمن تمسّك بهما نجا وحصل في الفردوس الأعلى والجناب الأقدس عند مليك مقتدر. ومن أخلد إلى الأرض هلك وأضاع نصيبه من رحمة الله بحال مضيف كريم بنى داراً وجعل فيها من ألوان الأطعمة المستلذّة والأشربة المستعذبة ما لا يحصى ولا يوصف. ثمّ بعث داعياً إلى الناس يدعوهم إلى الضيافة إكراماً لهم. فمن اتّبع الداعي نال من تلك الكرامة. ومن لم يتّبع حرم منها. (شرح الطيبي: ١/٣٠٠)

ولم يقل والمجيبون وعدل عنه إلى قوله فالمستمسكون إشارة إلى أنّ الاستمساك بحبله مقتضى إجابته صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقضية الإجابة له صلّى الله تعالى عليه وسلّم أن يستشعر من نفسه الاحتياج إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وأن لا يستغني عنه طرفة عين بل يستديم اعتقاد التوسّل به صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فمجرّد الإجابة بالقول مع نفي التوسّل به صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما جرى عليه من حرم الإيمان لا تجدي نفعاً.

قال العلّامة الباجوري: وإنّما لم يقل فالمجيبون له اه وإن كان هو المناسب للدعاء تنبيهاً على أنّ مجرّد الإجابة بالقول ونحوه لا يكفي في النجاة من المهالك بل لا بدّ من الاستمساك به صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما يفعل من يصعد من مهوى في تعلّقه بالحبل والتزامه به وإن قصّر في الاستمساك ولو لحظة هوى انتهى. (ص ٢٣)

قلت وهذا صريح في احتياج الناس إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم في دينهم ودنياهم. وقد أبطلنا ما زعم بعض المحرومين من أنّ الدّين لا يحتاج إلى أحد حتّى إلى الرّسول صلّى الله تعالى عليه وسلّم في رسالة مستقلّة سمّيناها "سدّ المشارع بأنّ الدّين لا يستغني عن الشارع". وفيه ردّ بليغ على من زعم أنّ الدّين لا يحتاج إلى أحد حتّى إلى الرّسول صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

والمستمسكون المتمسّكون من استمسك أي تمسّك. والمراد بالحبل الرّسول صلّى الله تعالى عليه وسلّم لأنّه الواسطة في وصول الخيرات والرابطة في الوصول إلى الكمالات أو القرآن كما جاء في الحديث عن ابن مسعود عن النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: إنّ هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، والشفاء النافع، وعصمة الله لمن تمسّك به، ونجاة لمن تبعه.

وفيه تلميح إلى قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله). قال الإمام القشيري في لطائف الإشارات: الاعتصام بحبله سبحانه التمسّك بآثار الواسطة العزيز صلوات الله تعالى عليه وذلك بالتحقّق والتعلّق بالكتاب والسنّة. (١/١٦٥)

ومعنى البيت مقتبس من قوله تعالى (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها).

الفصم بالفاء القطع من غير فصل والقصم بالقاف القطع بالإبانة. وعبّر بقوله غير منفصم ليدلّ بالاستلزام بنفي الأضعف على نفي الأقوى وهو المنقصم. ومطاوعهما انفعل منهما. وقوله فالمستمسكون به مستمسكون بحبل تشبيه بليغ حيث شبّه المطيعين بالمستمسكين. وقوله حبل فيه استعارة مصرّحة. وقوله المستمسكون

ترشيح للإستعارة المصرّحة وفيه استعارة تبعيّة. و كذا قوله غير منفصم ترشيح على الترشيح وهو ممّا يزيد فى حسن الاستعارة۔

والبيت استيناف مسرود على نمط التعديد كما فى قوله تعالىٰ "الرحمٰن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان"۔ ولهذا ترك العاطف فى قوله: فاق النبيين فى خلق وفيخلق ولم يدانوه فى علم ولا كرم۔

وفائدة هذا البيت حفظ الإيمان والأمان من سلبه بأن يقال بعد كلّ صلاة عشر مرّات مفتتحة بالصلاة والسلام على النبى بصيغة مخصوصة وهى اللّهمّ صلّ وسلّم على نبيّك البشير الداعى إليك بإذنك السراج المنير۔ (حاشية الباجورى ٢٣)

تذييل: هذا وقد استلزم كونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم داعياً كونه شاهداً واستصحب العموم كما اقتضاه الداعى واقتضى الأمر بتعزيره وتوقيره. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى (إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه) إلى قوله (وتعزّروه وتوقّروه). وقد عثرنا على تفصيل جميل فى كلام الإمام العلّامة إسماعيل الحقى مشتمل على فوائد مهمّة فأحببنا أن نذكره بالمناسبة للمقام قال رضى الله تعالى عنه فى روح البيان تفسيراً لقوله تعالى وتعزّروه الآية: معنى تعظيم رسول الله (صلّى الله تعالى عليه وسلّم) وتوقيره حقيقة اتّباع سنّته فى الظاهر والباطن والعلم بأنّه زبدة الموجودات وخلاصتها وهو المحبوب الأزلى وما سواه تبع له ولذا أرسله تعالى شاهداً فإنّه لمّا كان أوّل مخلوق خلقه الله كان شاهداً بوحدانية الحق وربوبيّته وشاهداً بما أخرج من العدم إلى الوجود من الأرواح والنفوس والأجرام والأركان والأجسام والأجساد والمعادن والنبات والحيوان والملك والجنّ والشيطان والإنسان وغير ذلك لئلّا يشذّ عنه ما يمكن للمخلوق دركه من أسرار أفعاله وعجائب صنعه وغرائب قدرته بحيث لا يشاركه فيه غيره. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام علمت ما كان وما سيكون لأنّه شاهد الكلّ وما غاب لحظة وشاهد خلق آدم عليه الصلاة والسلام. ولأجله قال كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين أى كنت مخلوقاً وعالماً بأنّى نبىّ وحكم لى بالنبوّة وآدم بين أن يخلق له جسد وروح ولم يخلق بعد واحد منهما فشاهد خلقه وما جرى عليه من الإكرام والإخراج من الجنّة بسبب المخالفة وما تاب الله عليه إلى آخر ما جرى عليه وشاهد خلق إبليس من امتناع السجود لآدم والطرد واللّعن بعد طول عبادته ووفور علمه بمخالفة أمر واحد فحصل له بكلّ حادث جرى على الأنبياء والرسل والأمم فهوم وعلوم. ثمّ أنزل روحه فى قالبه ليزداد له نور على نور فوجود كلّ موجود من وجوده وعلوم كلّ نبىّ وولى من علومه حتّى صحف آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم من الكتب الإلهية۔ وقال بعض الكبار أنّ مع كلّ سعيد رقيبه من روح النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم هى الرقيب العتيد عليه فإعراضه عنها بعدم إقباله عليها سبب لانتهاكه. ولمّا قبض الروح المحمّدى عن آدم الّذى كان به دائماً لا يضلّ ولا ينسى جرى عليه ما جرى من النسيان وما يتبعه. وإليه الإشارة بقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم إذا أراد الله إنفاذ قضاءه وقدره سلب ذوى العقول عقولهم وإليه ينظر قوله عليه الصلاة والسلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن أى ينزع منه الإيمان ثمّ يزنى۔

واعلم أنّ كلّ نبىّ له الولاية والنبوّة فإن كان رسولاً فله الولاية والنبوّة والرسالة فعالم رسالته هو كونه

واسطة بين الله وخلقه و كذلك إن كان رسولاً إلى نفسه أو أهله أو قومه أو إلى الكافّة فليس مع الرسول من عالم الرسالة إلّا قدر ما يحتاج إليه المرسل إليهم وما عدا ذلك فهو عالم ولايته فيما بينه وبين الله.

ولمّا تفاضلت الأمم تفاضلت الرسل. ويأتي النبيّ يوم القيامة ومعه أمّته وآخر معه قومه وآخر معه رهطه وهو ما دون العشرة وآخر معه ابنه وآخر معه رجل وآخر استتبع فلم يتبع ودعا فلم يجب لإتيانه في الوقت الشديد الظلمة. ولمّا جاء نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم نوراً من الله نور العالم ظواهرها وبواطنها فكانت أمّته أسعد الأمم وأكثرها. ولذا تجيء في ثمانين صفّاً وباقي الأمم من لدن آدم عليه الصلاة والسلام في أربعين صفّاً. وقد قال الله تعالى في حقّه مبشّراً فإنّه لمّا أرسله إلى الأحمر والأسود بشّرهم بأنّ لهم في متابعته الرتبة المحبوبيّة الّتي هي مخصوصة به من سائر الأنبياء والمرسلين فقد قال تعالى ونذيراً لئلّا ينقطعوا عنه تعالى بشيء من الدارين كما انقطع أكثر الأمم ولم يكونوا على شيء. (٩/١٨،١٩)

رقم البيت (٣٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسول الكريم وآله وصحبه هداة الدين القويم والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين صلاة دائمة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

وبعد فهذا البيت العاشر من الفصل الثالث من قصيدة البردة حان لنا أن نأخذ في شرحه وهو قول الناظم الفاهم:

فاق النبيّين في خلق وفي خلق
ولم يدانوه في علم ولا كرم

هذا تأكيد لجملة المعاني المتقدّمة في الأبيات السابقة وتصريح بما استلزمه التفرّد بالسيادة والمحبوبية والشفاعة وعموم الدعوة من تفوّقه على النبيّين في المزايا الظاهرة والميزات الباطنه وأنّهم لم يقاربوه واختصاصه لمزيد علم وفضل كرم و تقدّمه عليهم في المكان والمكانة وسبقهم في البداية والنهاية. وأصالته في كلّ كمال. فالكلّ منه وإليه. فأنّى لهم أن يدانوه في علم أو كرم. وصرّح الناظم الفاهم بهذا المعنى في همزيّته فقال:

كيف ترقى رقيّك الأنبياء
يا سماء ماطاولتها السماء

لم يدانوك في العلاء وقد
حال سنا منك دونهم وثناء

وفاق الشيء فوقاً فواقاً: علاه. ويقال فاق أصحابه: فضلهم وصار خيراً منهم. وقوله النبيّين الألف واللّام فيه للاستغراق أي والمرسلين فيعمّ النبي والرسول إمّا على عموم النبي مطلقاً أو على ترادف النبي والرسول.

والخلق لغة التقدير والإيجاد والمصدر بمعنى المفعول والمراد به حسن الصورة وتناسب الأعضاء والشكل واللّون واعتدال الأطراف إلى غير ذلك من الكمالات الظاهرة. والخُلُق حال للنفس راسخة تصدر عنه الأفعال من خير أوشرّ من غير حاجة إلى فكر ورويّة كذا في المعجم الوسيط. وفي المصباح المنير الخلق بضتمين السجيّة. وقال في القاموس: الخلق بالضمّ وبضمّتين: السجيّة والطبع والمروءة والدين. وفي حاشيته: منه قوله تعالى (إنّك لعلى خلق عظيم). وجمعه أخلاق. ولا يكثر على غير ذلك. وفي الحديث (ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق).

قال الأزهري: معنى قوله ولا يكثر أي لا يجمع الخلق جمع تكثير إلا على وزن أفعال ويقال أخلاق ولا غير ذلك. وقال الخرفوتي: الخلق بضمّ الخاء واللّام جمع خلق بمعنى الطبيعة الحسنة وهو كما ترى مخالف للنقول الّتي أسلفنا من معاجيم اللّغة وتقييده الطبيعة بالحسنة اقتصار على معنى واحد وهو المروءة والأمر فيه سهل. ولا علم لنا بالمصدر الّذي أثر عنه الخربوتي. وقوله في خلق وفي خلق متعلّق بقوله فاق النبيّين وهو في قوّة التمييز جاء به رفعاً للإبهام في نسبة الفوقية وبياناً لما حصلت الفوقية له صلّى الله تعالى عليه وسلّم فيه والتنوين عوض عن المضاف إليه وهو الضمير الراجع إلى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم والمعنى فاق النبيين في خلقه وحسن صورته وباهر كمالاته وفي سجيّته الكريمة ومروءته العظيمة ودينه وشرعه الّذي نسخ شرع غيره وعلى هذا فقوله في خلق وفي خلق وإن كان نكرة فهو في قوّة المعرفة أو نكرة معيّنة تخصّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وأمّا خلق سائر النبيّين وخلقهم فمقدّر يقتضيه المقام والمعنى علا خَلْقُه صلّى الله تعالى عليه وسلّم خَلْقَ غيره من النبيّين وفضل خُلُقُه خُلُقَ سائر الأنبياء.

وبما قرّرنا اندفع ما حكاه الباجوري من الاعتراض بقوله: واعترض على الناظم بأنّ مقتضى كلامه أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فاق النبيّين في بعض الخلق بفتح الخاء وسكون اللّام وبعض الخلق بضمّهما لأنّ كلاًّ منهما نكرة وهي في سياق الإثبات لا تعمّ وهذا ليس بمدح تامّ لأنّه يحتمل بعد ذلك أن يساويهم في البعض الآخر، ويحتمل أن يفوقوه فيه وعلى هذا فإن كان ما فاقوه فيه مثل ما فاقهم فيه حصلت المعادلة وإن كان أكثر انعكس ما قصده المصنف من المدح. وأجيب بأن المراد في خلقهم وفي خلقهم فهما مضافان في المعنى فيعمّان على أنّ النكرة في سياق الإثبات قد تعمّ. (ص٢٢)

وتبيّن أنّه ليس مقتضى كلام الناظم الفاهم ما ادّعاه المعترض. وما ذكر من لزوم المعادلة أو المفاضلة مدفوع بنفس المقتضى الّذي قدّرنا. كما أنّه مدفوع في الصدر بقوله فاق النبيين وبقوله في العجز ولم يدانوه. وقوله ولم يدانوه ترقٍّ في إفادة الفوقية وإشعار بأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بلغ من الرفعة بحيث لا يدانيه أحد من النبيين عليهم الصلاة والسلام لا في علم ولا في كرم.

قال الشيخ زاده: بيان خلقه و خلقه و علمه و كرمه قد أشير إليه في بعض الآيات وورد في الأخبار الثابتة من الثقات والأصل في جميع ذلك قوله تعالى (وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً). وتوضيحه أنّ الله تعالى فضّل الأنبياء بعضهم على بعض فأعطى لكلّ نبي فضلاً ثمّ جمع الفضل كلّه وزاد عليه حتّى صار فضلاً عظيماً ثمّ أومأ إلى حسن خلقه وجمال طلعته بقوله (والضحى واللّيل إذا سجى) حيث استعار الضحى من وجهه البهي واللّيل

من صدغه الذكى وأقسم بهما على ما نصّ عليه بعض أهل التفسير. وكفاك شاهداً قوله عليه السلام (أنا أملح)، وحسبك فى عظمة خلقه (وإنّك لعلى خلق عظيم). ودليل على أنّه من الجميع أعلم قوله تعالى (وعلّمك مالم تكن تعلم) وزيادة شرفه (ألم نشرح لك صدرك) وناهيك فى كونه أكرم من أرباب الجود والكرم قوله (أنا أكرم ولد آدم) صلوات الله وسلامه عليه فى كلّ وقت وحين. (ص٨٠، ٨١)

هذا وقد أورد الإمام البغوى فى معالمه عند تفسيره قوله سبحانه وتعالى (إنّك لعلى خلق عظيم) بعض الأحاديث الّتى تتعلّق بحسن خلقه وخلقه فنحبّ أن نوردها ههنا. قال رضى الله تعالى عنه ما نصّه: عن أبى إسحاق قال سمعت البراء يقول: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير.

عن أنس بن مالك قال: خدمت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم عشر سنين فما قال لى أفّ قطّ. وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته. وكان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم من أحسن الناس خلقاً وما مسست خزّاً قطّ ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كفّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

عن عبد الله بن عمرو قال: إنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً وكان يقول: "خياركم أحاسنكم أخلاقاً".

عن أنس أنّ امرأة عرضت لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى طريق من طرق المدينة فقالت: يارسول الله إنّ لى إليك حاجة. فقال: يا أمّ فلان اجلسى فى أىّ سكك المدينة شئت أجلس إليك. قال: ففعلت. فقعد إليها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. حتّى قضت حاجتها.

عن أنس بن مالك قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فتنطلق به حيث شاءت.

عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هوالّذى ينزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه حتّى يكون هوالّذى يصرف وجهه عن وجهه ولم ير مقدّماً ركبتيه بين يدى جليس له صلاة الله وسلامه عليه.

هذا ولجدّنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه كلام فى غاية الحسن يُلْقِى ضوءاً على ما بلغ صلّى الله تعالى عليه وسلّم من علوّ المكانة وشرف المنزلة فى العلم. فها هوذا يصدع بعقيدة أهل الحق ويقول فى رسالته الدولة المكّية بالمادّة الغيبيّة ما نصّه: أمّا نحن معاشر أهل الحق فقد علمنا والله الحمد أنّ هذا الّذى ذكرنا من تفاصيل كلّ ما كان من أوّل يوم وما يكون إلى آخر الأيّام ليس بجنب علوم نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم إلّا شيئاً قليلاً. والدليل عليه قوله عزّ وجل: "وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً". (النساء: ١١٣)

أقول امتنّ الله سبحانه تعالى فى هذه الآية على حبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم بتعليمه مالم يعلم وختم الامتنان بما دلّ على عظم تلك المنّة العظمى، وفخامة هذه النعمة الكبرى. فقال: "وكان فضل الله عليك

عظيما". (النساء: ۱۱۳)

ومعلوم أنّ ما كان وما يكون بالمعنى المذكور المثبت كلّه فرداً فرداً تفصيلاً تامّاً فى اللّوح المحفوظ ليس إلّا الدنيا. فإنّ الآخرة بعد اليوم الآخر. ووراء هما ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته الّتى لا يسعها لوح ولا قلم. وقد قال الله تعالى فى الدنيا: "قل متاع الدنيا قليل". (النساء: ٧٧). فأنّى يقع ما استقلّه الله سبحانه و تعالى ممّا استعظمه و كبر شأنه مع أنّ علمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم قد تعدّى إلى ما بعد اليوم الأخر من الحشر والنشر والحساب والكتاب وتفاصيل ما هنالك من الثواب والعقاب إلى نزول الناس منازلهم من الجنّة والنّار إلى ما بعد ذلك ممّا شاء الله تعالى إعلامه.

وقد علم صلّى الله تعالى عليه وسلّم من ذاته عزّ وجلّ وصفاته ما لا يُحْصِى قدره إلّا الله المانح تلك العطايا لمصطفاه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فإذن ليس علم ما كان وما يكون المثبت فى اللّوح المحفوظ إلّا بعضاً من علوم حبيبنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم فضلاً أن يتكثّر عليه. فلا يحصل لديه. ولهذا قال الإمام الأجل البوصيرى نفعنا الله تعالى ببركاته:

فإنّ من جودك الدنيا وضرّتها ومن علومك علم اللّوح والقلم

فأتى بمن للتبعيض. وألقى جبال الغيظ والغنظ على كلّ قلب مريض "قل موتوا بغيظكم إنّ الله عليم بذات الصدور". (آل عمران: ۱۱۹)

قال العلاّمة على القارى فى الزبدة شرح البردة تحت البيت المذكور: توضيحه أنّ المراد بعلم اللّوح ما أثبت فيه من النقوش القدسيّة والصور الغيبيّة. وبعلم القلم ما أثبت فيه كما شاء. والإضافة لأدنى ملابسة. و كون علمهما من علومه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّ علومه تتنوّع إلى الكليّات والجزئيّات وحقائق ودقائق وعوارف ومعارف تتعلّق بالذات والصفات. وعلمهما إنّما يكون سطراً من سطور علمه ونهراً من بحور علمه ثمّ مع هذا هو من بركة وجوده صلّى الله تعالى عليه وسلّم. انتهى

وقال الإمام أحمد رضا قدّس سرّه فى خطبة الكتاب المذكور: بسم الله الرحمن الرحيم. نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم.

الحمد لله علاّم الغيوب. غفّار الذنوب. ستّارا لعيوب. المُظهِر من ارتضى من رسول على السرّ المحجوب. وأفضل الصلاة وأكمل السلام على أرضى من ارتضى. وأحبّ محبوب. سيّد المطّلعين على الغيوب. الّذى علّمه ربّه تعليماً. وكان فضل الله عليه عظيماً. فهو على كلّ غائب أمين. وما هو على الغيب بضنين. ولا هو بنعمة ربّه بمجنون. ولا مستورعنه ما كان أويكون. فهو شاهد الملك والملكوت. ومشاهد الجبّار والجبروت. ما زاغ البصر وماطغى. أفتمارونه على ما يرى. نزل عليه القرآن تبياناً لكلّ شىء. فأحاط بعلوم الأوّلين والآخرين. وبعلوم لا تنحصر بحدّ وينحسر دونها العدّ. ولا يعلمها أحد من العالمين. فعلوم آدم وعلوم العالم وعلوم اللّوح وعلوم القلم كلّها قطرة من بحار علوم حبيبنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم. لأنّ علومه وما يدريك ما علومه عليه صلوات الله تعالى وتسليمه هى أعظم رشحة وأكبر غرفة من ذلك البحر الغير المتناهى أعنى العلم الأزلى الإلهى. فهو يستمدّ من ربّه

والخلق يستمدّون منه. فما عندهم من العلوم إنّما هي له وبه ومنه وعنه:

وكلّهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

ووافقون لديه عند حدّهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

صلّى الله تعالى عليه وسلّم وعلى آله وصحبه وبارك وكرّم آمين. انتهى

قال الخرفوتى: هذا ثانى الأبيات الّتى تمايل فيها النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم عند قراءة الناظم الفاهم فى رؤياه عليه الصلاة والسلام. فينبغى لقارئ هذه القصيدة أن يكرّره عند قراءته لكن يلزم أن يكرّره وتراً. (ص٨١)

رقم البيت (٣٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا البيت الحادى عشر من الفصل الثالث من البردة فى مدح خير البشر صلّى الله تعالى عليه وسلّم أتينا على شرحه وهو قول الناظم الفاهم:

وكلّهم من رسول الله ملتمس
غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

ما زال الناظم الفاهم ينتقل من أسلوب إلى أسلوب ويتفنّن فى وصف الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى عليه وسلّم ويراعى التأكيد مع تفنّن فى تأسيس معنى جديد. فتأكيداً للمعنى المتقدّم. ودفعاً لتوهّم المجاز كما قد قيل فى قوله تعالى فسجد الملائكة كلّهم أجمعون. ودلالةً على الإحاطة لكلّ فرد أتى بلفظ كلّ فقال كلّهم ليدلّ على العموم بحيث لا يشذّ عنه فرد. وإفادة للأصالة فى العلم والكرم والنبالة الّتى يقتضيها عموم الرسالة. قال وكلّهم من رسول الله اهـ. ولهذا المعنى آثر من أوصافه وصف الرسول الّذى يدلّ على الشمول للكلّ بالإفاضة وتفرّده بالإمداد ورجوع الخلق إليه بالاستمداد فقال: وكلّهم من رسول الله اهـ. وأبهمه لم يصدح بأسمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم لأنّه المراد بالرسول حيث أُطلِقَ. والضمير المجرور فى كلّهم راجع إلى المذكور فى البيت المتقدّم أى النبيّين أو المفهوم من عموم الدعوة والرسالة وهم سائر الخلق وهذا ألطف وأوجه كما لا يخفى وقد تقدّمت الإشارة إليه فيما نقلنا من الخطبة الّتى قدّمها جدّنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه بين يدى رسالته الدولة المكّيّة.

وقوله من رسول الله متعلّق بملتمس قدّمه للوزن وللحصر أى ملتمس منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم لا من غيره. "وكلّهم" مبتدأ. والواو فيه عاطفة أو ابتدائية وملتمس خبر المبتدأ أفرده مراعاة للفظة الكلّ والكلّ كما قال الخرپوتى مأخوذ من الإكليل الّذى هو المحيط بجوانب الرأس فلذلك توجب الإحاطة وهو من الأسماء اللّازمة الإضافة إلّا على الأسماء إذ الإضافة من خصائص الاسم. قال الأصوليّون إنّ لفظ كلّ إذا أضيف إلى معرفة يوجب إحاطة الأجزاء وإذا أضيف إلى نكرة يوجب إحاطة الأفراد فيصحّ قول الرجل كلّ التفّاح حامض أى جميع أجزاءه

ولايصحّ كلّ تفّاح حامض لحلوّ البعض منه. (ص٨١،٨٢)

وما ذكرناه من أنّ "كلّهم" مبتدأ فهو من وجه الإعراب أمّا من حيث المعنى فكلّ النبيّين خبر مقدّم عن نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهو المبتدأ المؤخّر الّذى هو أصلهم وأصل الخلق أجمع كالبذرة أصل الشجرة فالشجرة بأفنانها وأغصانها وأزهارها وأنوارها وما يقوم عليها من الساق خبر عن البذرة. والبذرة فى الطلعة تخبر عن نفسها أنّها هى الأصل والمبتدأ المؤخّر الّذى فى الظهور تأخّر وعنها ظهر كلّ ما ظهر فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم شجرة الكون. ولسيّدنا ابن العربى رسالة حقّق فيها هذا المعنى وسمّاها شجرة الكون.

وبما قرّرنا يعلم أنّ كلّهم بمعنى كلّ أحدهم يفيد أنّ الكلّ لإحاطة كلّ فرد فرد بحسب حقيقته وبقرينة ضمير الجمع أوهو على حذف مضاف كما قدّرنا وملتمس من الالتماس وهو السؤال والطلب إلّا أنّ فيه رعاية الأدب ولذلك عبّر بقوله ملتمس مراعاة للأدب مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقوله ملتمس مضمّن معنى الأخذ أى طالب وفى نفس الوقت آخذ يدل عليه قوله غرفاً وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أى غارفين فهو منصوب على أنّه حال. أو بمعنى اسم المفعول أى مغروفاً. وكذلك القول فى رشفاً وعلى هذا فهو منصوب على أنّه مفعول لملتمس. وغرفاً مصدر غرف الماء بيده واغترف منه أى أخذ منه ملأ الكفّ. رشفاً مصدر من رشف الماء ونحوه رشفاً ورشيفاً: مصّه بشفتيه. والبحر خلاف البرّ سمّى به لعمقه واتّساعه والديم جمع ديمة وهى المطر الدائم بغير رعد وبغير برق. وفيكلّ منهما استعارة تصريحيّة شبّه معارفه بالبحر و كرمه بالديم وغرفاً ترشيح ورشفاً كذلك شبّه الأخذ بالغرف والرشف. ففيكلّ منهما أيضا استعارة. والمعنى أنّ علوم الأنبياء ومعارفهم غرفة من بحر علومه صلّى الله تعالى عليه وسلّم و كرمهم قطرة من ديم كرمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

وحاصل المعنى أنّ علمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كالبحر فى الاتّساع ونبع كلّ الجداول والأنهار منه و كرمه كالديم فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم المفيض والكلّ منه مستفيض. وعلّل ذلك الخرفوتى بقوله: لأنّه تعالى خلق ابتداء روحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ووضع علوم الأنبياء وعلم ماكان وما يكون فيه. ثمّ خلقهم فأخذوا علومهم منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو المراد أنّه تعالى لمّا خلق نور محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم قبل الأشياء خلق اللّوح والقلم والسماوات والأرضين والعرش والكرسى والملائكة والجنّة والنّار وأرواح الأنبياء والمؤمنين ونور قلوبهم ونور أنفسهم من نوره صلّى الله تعالى عليه وسلّم فعلم الأنبياء كان كنقطة بالنسبة إلى ما فى اللّوح والقلم مخلوقان من نوره صلّى الله تعالى عليه وسلّم فيكون علمهم نقطة من علمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما لايخفى. ثمّ اعلم أنّ هذا البيت ثالث الأبيات الّتى تمايل فيها النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم فيلزم لقارئه أن يكرّره بشرط كونه وتراً. (ص٨٣)

وفى قوله غرفاً ورشفاً إيماء لطيف إلى استعلاءه صلّى الله تعالى عليه وسلّم على الجميع وإحاطته للعالم العلوى والسفلى بجوده المنيع و كرمه الرفيع.

رقم البيت (٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الثاني عشر من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وواقفون لديه عند حدّهم
من نقطة العلم أومن شكلة الحكم

لمّا بيّن الناظم الفاهم أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم سيّد الكونين وتدرّج في بيان التأكيد وإقامة البرهان عليه بمعنى مزيد منضمّ إلى آخر جديد حتّى انتهى إلى نهاية التبيين بقوله فاق النبيين أراد أن يخرج المعنى المعقول إلى محسوس كأنّه ملموس مبصر للناظرين فقال وكلّهم من رسول الله ملتمس اه و كونهم ملتمسين يقتضي أنّهم واقفون. فصوّر هذا المعنى للعيون وخيّل إليهم كأنّهم ينظرون فقال:

وواقفون لديه عند حدّهم
من نقطة العلم أومن شكلة الحكم

قوله واقفون من الوقوف يستعمل لازماً ومتعدّياً لمعانٍ عدّة. يقال وقف يقف وقوفاً: قام من الجلوس، وسكن بعد المشي. وعلى الشيء: عاينه. وفلان على ما عند فلان: فهمه وتبيّنه. والماشيَ والجالسَ وقْفاً: جعله يقف، وفلاناً عن الشيء: منعه عنه. وفلاناً على الأمر: أطلعه عليه كذا في المعجم الوسيط ملتقطاً.

ومعنى وقوفهم لديه عندحدّهم أنّهم ثابتون عنده صلّى الله تعالى عليه وسلّم في العلم والحكم عندالحدّ الّذي حُدّلهم من ذلك فلايتجاوزونه وأمّا هو صلّى الله تعالى عليه وسلّم فلم يزل يترقّى بعد ذلك فنهاية مراتبهم في العلم والحكم مبدأ ما أوتيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم منهما فوقوفهم لديه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وقوف ذي الغاية عندمبدأ غيره. (حاشية الباجوري: ص٢٥)

وقوله لدى ظرف مكان بمعنى عند. وقدتستعمل في الزمان. نحو جئتك لدى طلوع الشمس. وإذا أضيفت إلى مضمر قلبت ألفها ياء. فتقول لديك ولديه. وتكون عمدة (وهي في اصطلاح النحاة: مالا يصحّ حذفه من الكلام وهو خلاف الفضلة) فتكون خبراً للمبتدأ وما شاكل ذلك. وفي التنزيل العزيز: "ولدينا كتاب ينطق بالحق". ويقال في الإغراء: لديك فلاناً. كقولك: عليك فلاناً.

ولَدُن بمعناه وفيه لغات منها لَدُنْ ولَدْنْ ولُدْن ولَدْ ولُدْ ولَدُ وقوله عند: ظرف مكان للشيء الحاضر وللشيء القريب وللشيء الغائب. ومن هنا استعمل "عند" في المعاني فقيل عنده أخبار وعنده خير أوشرّ. ويكون "عند" ظرف زمان إذا أضيف إلى الزمان نحو: نهضت عند الفجر. ويكون بمعنى الحكم أوالظنّ. فتقول: هذا عندي أفضل من هذا. أي في حكمي أوظنّي وهو معرب منصوب على الظرفية. وقد يُجَرّ "بِمِنْ" وحدها فتقول: سأخرج من عندك

ظهراً. ولا يقال: ذهبت إلى عنده ولا لعنده. (المعجم الوسيط ملخصاً)

قوله نقطة من نقط الحرفَ وعليه نقطاً: وضع عليه نقطة أو أكثر لتمييزه. والكتاب: شكله. وشكل الكتاب: ضبطه بالشكل و تطلق على إحدى الحركات الّتي تضبط بها الحروف.

والإضافة فيكلّ من نقطة العلم وفي شكلة الحكم من قبيل إضافة المشبّه به إلى المشبّه.

والمراد من العلم إمّا علمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو علم الله تعالى سبحانه. والمعنى على الأوّل أنّ ما أوتيه النبيّون من العلم والحكم بمنزلة النقطة أو الشكلة من علمه وحكمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأو للتنويع والتقسيم فلا مانع من أن تكون بمعنى الواو. ومعنى البيت على التقدير الثاني أنّ علمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالنسبة إلى علمه وحكمه سبحانه وتعالى كالنقطة أو الشكلة في القلّة وهذا لتقريب معنى القلّة إلى الأفهام وإلّا فلا نسبة لعلوم الخلق وحكمهم إلى علمه سبحانه وتعالى لأنّ علمه صفة قديمة له سبحانه و تعالى محيط تفصيلي غير متناهٍ بالفعل منزّه عن التجزّي والانتقال منه تعالى إلى أحد وعلوم الخلق كلّها وإن كثرت مهما كثرت فهي قليلة في نفسها وهي حصلت لهم بعطاء من الله سبحانه وتعالى وقال الله تعالى وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا الآية. أفاد هذا المعنى جدّنا الإمام أحمد رضا قدس سرّه في الدولة المكّية.

وهذا ناظر أيضا إلى قول الخضر لموسى على نبينا و عليهما الصلاة والسلام "لما رأى عصفوراً يأخذ الماء من البحر" ما علمك وعلمي وعلم الخلائق إلّا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر بالنسبه إلى علم الله تعالى".

والعلم الإدراك المطابق للواقع ويجيء بمعنى المعلوم.

والحكم جمع حكمة وهي علم. وقيل إحكام الرأي والتدبير. وقيل إتقان العلم والعمل. قال مولانا علي القاري في الزبدة: وخصّ النقطة بالعلم والشكلة بالحكم لأنّ الشكل يحصل به مزيد بيان لا يحصل بالنقطة كذا قيل. والأظهر أنّ النقطة أولى بمزيّة الظهور ولذا أضيفت إلى العلم. والشكلة أمر زائد خارج عن ماهية المفهوم المتوقّف على النقطة الّتي مدار البيّنة عليها ولذا نسب إلى الحكم وهي علوم دقيقة عقليّة متفرّعة على العلوم الشرعية.

وبما نبّهناك عليه من المعنى الّذي أفاده جدّنا الإمام أحمد رضا وما حكينا. وبما عزونا إلى العلّامة علي القاري يظهر لك براءة أهل السنّة والجماعة من تسوية النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالله في العلم. حاشاهم عن ذلك.

رقم البيت (٢١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد انتهينا إلى البيت الثالث عشر من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

فهو الّذي تمّ معناه وصورته

ثمّ اصطفاه حبيباً بارئ النسم

نستعين بملك الحق المبين فى شرح هذا البيت فنقول وباللّٰه التوفيق، وهو حسبنا ونعم المعين: قد بيّن الناظم الفاهم فى الأبيات المتقدّمة ما بلغه صلّى اللّٰه تعالى عليه وسلّم من علوّ القدر ورفعة الشأن وما حظى به من تفوّقه صلّى اللّٰه تعالى عليه وسلّم فى خَلق وخُلق وتمكّنه من ذروة السّنام فى العلم والكرم وما أقامه اللّٰه تعالى فيه بحكم عموم الرسالة من منصب التكميل لأولى الكمال ووقفهِ كلَّ أحد من العلم والحكم على الحدّ الّذى ينتهى إليه ويقف لديه وكان مقتضى هذا أن يكون صلّى اللّٰه تعالى عليه وسلّم أتمّ وأكمل فى كلّ طور. وقد دلّ الناظم الفاهم على هذا فى ضمن قوله فاق النبيّين فى خلق وفى خلق. لكنّه أحبّ أن يقرّر هذا المعنى بمزيد من التأكيد. فصدع به على وجه النتيجة الّتى أدّت إليها الأبيات المتقدّمة فكانت لها كالمقدّمة فقال: فهو الّذى تمّ معناه اهـ دلالة منه على أنه مسبّب ترتّب على ما ذكر من السبب وهو أحد الوجهين لاستعمال الفاء فهى مقحمة هنا على المسبّب وقد تُقحَم على السبب كما فى قولك: إذا جاء الشتاء فتأهّب. وبما قرّرنا ظهر لك أنّ ما ذكر من تفرّده صلّى اللّٰه تعالى عليه وسلّم بالسيادة وعموم النبوّة وشمول الدعوة وقيامه بالتكميل لكلّ أحد وعمومه بالإفاضة النبيّين أنّ اصطفاءه صلّى اللّٰه تعالى عليه وسلّم مقرون بما ذُكِر من خصاله عليه الصلاة والسلام بالتلازم وأنّه حاصل له عليه الصلاة والسلام فى كلّ طور وفى كلّ حين. وهذا مايعطيه قول الناظم الفاهم: فهو الّذى تمّ معناه وصورته. حيث قدّم المعنى وهو الروح على الصورة وهو الجسد. وأثبت له التمام. والروح مقدّم على الجسد وهذا يقتضى بقرينة المقام أنّ له الحظّ الأوفر من التمام. وهو حاصل له على الدوام فى معناه وصورته من بداية أمره فى عالم الأرواح إلى أن ظهر بحسن طلعته فى عالم الأشباح ولم يزل الاصطفاء له صلّى اللّٰه تعالى عليه وسلّم مقرونا بمعناه وبصورته فى كلّ طور. ومن هنا نعلم صحّة ما قرّره العلّامة الباجورى بقوله: "إنّ ثمّ ليست للترتيب فى الصفات كما قاله بعضهم بل الترتيب فى الذكر والإخبار" (ص ٢٥). وأشار إلى تصحيح ما قاله ذلك البعض بقوله "ويمكن حمل كلام بعضهم على ذلك بأن يجعل على تقدير مضاف. والأصل للترتيب فى ذكر الصفات" (ص ٢٥، ٢٦). واختار هذا الوجه مع إفادة التوجيه له العلّامة على القارى فى الزبدة حيث قال: وقيل إنّها على بابها من التراخى يعنى قرّرت له مرتبة النبوّة بعد تمام الصورة والسيرة وإن كان إعطاء هذه المرتبة المعنوية غير متوقّفة على وجود الكمالات الصورية فإنّ اللّٰه قادر على كلّ شىء بالسويّة وإنّما الاختلاف مبنى على الأمور العادية وفيه إيماء إلى وجه انتظار إلى المدّة الأربعينية وترجيحه على عيسى ويحيى ممّن أعطى النبوّة فى حال الطفوليّة. (الزبدة ص٥٥)

وكذلك ظهر بذلك اندفاع ماجاء فى الخربوتى وغيره أنّ كلمة ثمّ إمّا على أصلها أعنى للتراخى الزمانى بناء على أنّ المراد من اصطفاءه حبيباً بعد بعثه ولا شكّ أنّ بعثه متراخٍ عن بلوغه إلى مرتبة الكمال وبناء على أنّ اصطفاءه حبيباً كان فى المعراج حيث حكى أنّ اللّٰه تعالى قال له فى تلك اللّيلة يا محمّد إنّ الملوك إذا آثروا عبداً بإيتاء الملك إيّاه وجعله ملكاً ذا اعتبار بادروا بإظهار شرفه فأىّ شىء تريد أن يجعل لك. فقال عليه الصلاة والسلام أضفنى إليك يا ربّ بالعبودية فأرسل إليه (سبحان الّذى أسرى بعبده) الآية. وقال هذا ما طلبت ولك أحسن من هذا وهو إضافتك إلينا بالحبيبية. فأنت حبيب اللّٰه ولا شكّ أنّ المعراج كان بعد البعثة والكمال. (ص ٨٥، ٨٦)

ويردّه سياق النظم كما أشرنا إليه فيما قرّرنا. و كذلك يردّه بصراحة قوله: منزّه عن شريك فى محاسنه الّذى يقتضى تفرّده فى جميع محاسنه الروحانيّة والجسمانيّة ويردّه دلالة قواطع الآيات والثوابت من الروايات على تقدّمه وتقدّم نبوّته و كونه خُلِقَ قبل الأشياء وأنّه خُلِقَ كلّ شىء من نوره ولا يعارض غير المعروف من المأثور المعروف المشهور. على أنّه يجوز أن يقال تأخّر إعلامه بمزيد من الاصطفاء إلى ليلة الإسراء.

قال العلّامة مولانا على القارى: ويُقرأ البيت بسكون الهاء فى "فهو" وبإشباعها فى معناه وهما لغتان مشهورتان وقراءتان متواترتان فأخطأ من قال إنّهما من ضرورة الشعر وتمّ بمعنى كمل من تمام الشىء بمعنى كماله والمعنى اسم مكان أو مصدر ميمى بمعنى المفعول من عنيت بكلاميكذا أى قصدته فمعنى الشىء هو المقصود منه ومعنى الرجل كماله أى الّذى تمّ به والصورة بمعنى الشكل والهيئة وإنّما قدّم المعنى على الصورة لكون المعنى أصل المقصود والمراد من المعنى والصورة ههنا كماله الباطنى و كماله الظاهرى أعنى حسن خلقه وعظم خلقه أوالوحى الباطنى والبعث الظاهرى أو طريقته وشريعته أو روحانيّته وجسمانيّته أوعلمه وعمله أوعبادته للحق ومعاملته للخلق.

ثمّ اصطفاه من الاصطفاء وهو الاختيار والانتخاب وحبيباً حال من ضمير اصطفاه أومفعول ثانٍ له بتضمين معنى الجعل والبارء بمعنى الخالق. والنسم بفتحتين جمع نسمة وهى النفس أو كلّ ذى روح وقيل هى الآدمى.

قال الخرفوتى: فيه تلويح إلى قوله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلاً) الآية. وتلميح إلى حديث روى عن واثلة ابن الأسقع أنّه قال قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم رواه مسلم. وفى رواية أنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل رواه الترمذى. وقال صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر. وبيدى لواء الحمد ولا فخر. وما من نبىّ يومئذ آدم فمن سواه إلّا تحت لوائى. وأنا أوّل من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر. وأنا أوّل شافع ولا فخر. رواه أحمد والترمذى وابن ماجه رضى الله تعالى عنهم كذا فى الزبدة. (خرفوتى ص٨٦ والزبدة ص٥٨،٥٧).

وقول الناظم الفاهم : فهو الّذى تمّ معناه وصورته. تضمّن ذكر مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم، والاحتفال به كما لا يخفى وهذا منه جرى على سنن الكتاب والسنّة ففى الكتاب والسنّة آيات وأحاديث دلّت على ذكر مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم وحسن الاحتفال به كقوله سبحانه وتعالى لقد جاء كم رسول من أنفسكم الآية. وقوله تعالى قد جاء كم من الله نور الآية. وقوله تعالى لقد منّ الله على المؤمنين الآية. وقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنا أوّل الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً. ومن جملة ما دلّ على ذلك من الحديث ما ذكره مولانا على القارى عنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم من حديث الاصطفاء المتقدّم. وقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة. وهذا يعطيك أنّ ذكر المولد بأصله سنّة إلهية و سنّة نبويّة وطريقة جرى عليها الصحابه والتابعون فمن بعدهم إلى يومنا هذا.

وهذا يفيدك طهارة نسبه صلّى الله تعالى عليه وسلّم من دنس الشرك. وهو أمر مكرّر تكرّر عند المحصّلين،

فالقول بأنّ الاحتفال بمولده بدعة وإحداث منابذة للكتاب والسنّة وخرق لإجماع المسلمين. وهذا القول هو الحرى بأن يسمّى بدعة وإحداثاً.

هذا و كونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم اصطفاه ربّه حبيباً يشعر بأنّ الله سبحانه وتعالى اتّخذ سيّدنا محمّداً صلّى الله تعالى عليه وسلّم خليلاً كما اتّخذ سيدنا إبراهيم خليلاً بل اختصّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالمزيّة على سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى الوصفين. وذلك لما بين الوصفين من الاتّحاد ولما تقرّر أنّ سيّدنا محمّداً صلّى الله تعالى عليه وسلّم اجتمع فيه ما تفرّق فى سائر النبيّين. فجمع فضائلهم إلى ما اختُصَّ به من المزايا ولذلك فضّلهم أجمعين وههنا كلام للإمام القاضى عياض فى الشفاء حسن أحببنا إيراده قال رضى الله تعالى عنه ما نصّه: فصل فى تفضيله بالمحبّة والخلّة (أى على جميع النبيّين حتّى على سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما سيظهر) جاء ت بذلك الآثار الصحيحة واختصّ على ألسنة المسلمين بحبيب الله. وروى القاضى بسنده عن أبي سعيد الخدرى عن النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّه قال لو كنت متخذاً خليلاً غير ربّي لاتّخذت أبابكر. وفى حديث آخر وإنّ صاحبكم خليل الله. ومن طريق عبد الله بن مسعود وقد اتّخذ الله صاحبكم خليلاً. وعن ابن عبّاس قال جلس ناس من أصحاب النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ينتظرونه قال فخرج حتّى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجباً إنّ الله اتّخذ إبراهيم من خلقه خليلاً. وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كلّمه الله تكليما. وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر آدم اصطفاه الله. فخرج عليهم فسلّم وقال قد سمعت كلامكم وعجبكم إنّ الله تعالى اتّخذ إبراهيم خليلاً وهو كذلك وموسى نجيّ الله وهو كذلك و عيسى روح الله وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أوّل شافع وأوّل مشفّع ولا فخر. وأنا أوّل من يحرّك حلق الجنّة فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأوّلين والآخرين ولا فخر. وفى حديث أبي هريرة رضى الله تعالى عنه من قول الله تعالى لنبيّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم إنّى اتّخذتك خليلاً فهو مكتوب فى التوراة اسمه حبيب الرّحمن. قال القاضى اختلف فى تفسير الخلّة وأصل اشتقاقها فقيل الخليل المنقطع إلى الله الّذى ليس فى انقطاعه إليه ومحبّته له اختلال. وقيل الخليل المختصّ واختار هذا القول غير واحد. وقال بعضهم أصل الخلّة الاستصفاء. وسمّى إبراهيم خليل الله لأنّه يوالى فيه ويعادى فيه. وخلّة الله له نصره وجعله إماماً لمن بعده. وقيل الخليل أصله الفقير المحتاج المنقطع مأخوذ من الخَلّة وهى الحاجة فسمّى بها إبراهيم لأنّه قصر حاجته على ربّه وانقطع إليه بهمّه ولم يجعله قِبَل غيره إذ جاء ه جبريل وهو فى المنجنيق ليرمى به فى النّار. فقال ألك حاجة؟ قال أمّا إليك فلا. وقال أبوبكر ابن فورك: الخلّة صفاء المودّة الّتى توجب الاختصاص بتخلّل الأسرار. وقال بعضهم: أصل الخلّة المحبّة ومعناها الإسعاف والإلطاف والترفيع والتشفيع. وقد بيّن ذلك فى كتابه تعالى بقوله (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبّاء ه. قل فلم يعذّبكم بذنوبكم. المائدة:١٨) فأوجب للمحبوب أن لا يؤاخذ بذنوبه (بشرط أن يكون هناك ذنب للمحبوب وإلّا فالمحبّة لمن خصّه الله تعالى بالنبوّة وألقى عليه المحبّة وجعله محبوباً تقتضى عصمته من الذنوب) قال هذا والخلّة أقوى من النبوّة لأنّ البنوّة قد تكون فيها العداوة كما قال تعالى (إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم.

التغابن:١٣) الآية. ولايصحّ أن تكون عداوة مع خلّة فإذاً تسمية إبراهيم ومحمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالخلّة إمّا لانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه والانقطاع عمّن دونه والإضراب عن الوسائط والأسباب. أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما وخفيّ إلطافه عندهما وما خالل بواطنهما من أسرار إلهيّته ومكنون غيوبه ومعرفته. أو لاستصفائه لهما واستصفاء قلوبهما عمّن سواه حتّى لميخاللهما حبّ لغيره ولهذا قال بعضهم: الخليل من لايتّسع قلبه لسواه. وهو عندهم معنى قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: ولو كنت متّخذاً خليلاً لا تّخذت أبابكر خليلاً لكن أخوّة الإسلام. واختلف العلماء أرباب القلوب أيّهما أرفع: درجة الخلّة أو درجة المحبّة؛ فجعلهما بعضهم سواء. فلا يكون الحبيب إلّا خليلاً ولا الخليل إلّا حبيباً. لكنّه خصّ إبراهيم بالخلّة ومحمّداً بالمحبّة. وبعضهم قال: درجة الخلّة أرفع. واحتجّ بقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: لو كنت متّخذاً خليلاً غير ربّي عزّ وجلّ. فلم يتّخذه وقد أطلق المحبّة لفاطمة وابنيها وأسامة وغيرهم. وأكثرهم جعل المحبّة أرفع من الخلّة لأنّ درجة الحبيب نبيّنا أرفع من درجة الخليل إبراهيم. وأصل المحبّة الميل إلى ما يوافق المحبّ ولكن هذا في حقّ من يصحّ الميل منه والانتفاع بالوفق وهي درجة المخلوق. فأمّا الخالق جلّ جلاله فمنزّه عن الأغراض فمحبّته لعبده تمكينه من سعادته وعصمته وتوفيقه وتهيئة أسباب القرب وإفاضة رحمته عليه وقصواها كشف الحجب عن قلبه حتّى يراه بقلبه وينظر إليه ببصيرته فيكون كما قال في الحديث: فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به وبصره الّذي يبصر به لسانه الّذي ينطق به. ولاينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرّد لله والانقطاع إلى الله والإعراض عن غير الله وصفاء القلب لله وإخلاص الحركات لله كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كان خلقه القرآن برضاه يرضى وبسخطه يسخط. ومن هذا عبّر بعضهم عن الخلّة بقوله:

قد تخلّلت مسلك الروح منّي
وبذا سُمّي الخليل خليلا

فإذا ما نطقتُ كنت حديثي
وإذا ما سكتُّ كنت الغليلا

فإذاً مزيّة الخلّة وخصوصية المحبّة حاصلة لنبيّنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم بما دلّت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة المتلقّاة بالقبول من الأمّة وكفى بقوله تعالى (قل إن كنتم تحبّون الله الآية. آل عمران: ٣١) حكى أهل التفسير أنّ هذه الآية لمّا نزلت قال الكفّار إنّما يريد محمّد أن نتّخذه حناناً كما اتّخذت النصارى عيسى ابن مريم. فأنزل الله غيظاً لهم ورغماً على مقالتهم هذه الآية (قل أطيعو الله والرسول. آل عمران: ٣٢) فزاده شرفاً بأمرهم بطاعته وقرنها بطاعته ثمّ توعّدهم على التولّي عنه بقوله تعالى (فإن تولّوا فإنّ الله لايحبّ الكافرين. آل عمران:٣٢). وقد نقل الإمام أبو بكر ابن فورك عن بعض المتكلّمين كلاماً في الفرق بين المحبّة والخلّة يطول جملة إشاراته إلى تفضيل مقام المحبّة على الخلّة ونحن نذكر منه طرفاً يهدي إلى ما بعده. فمن ذلك قولهم: الخليل يصل بالواسطة من قوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض. الأنعام: ٧٥). والحبيب يصل إليه به من قوله (فكان قاب قوسين أو أدنى. النجم:٩) وقيل الخليل الّذي تكون مغفرته في حدّ الطمع من قوله (والّذي أطمع أن

يغفر لى خطيئتى. الشعراء: ٨٢) والحبيب الّذى مغفرته فى حدّ اليقين من قوله (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر الآية. الفتح: ٢). (تقدّم منّا فى تفسير هذه الآية عن الإمام أبى منصور الماتريدى كلام حسن فتذكّر. الأزهرى غفر له) والخليل قال (ولا تخزنى يوم يبعثون. الشعراء: ٨٧) والحبيب قيل له (يوم لا يخزى الله النبىّ. التحريم: ٨) فابتُدِئ بالبشارة قبل السؤال. والخليل قال فى المحنة حسبى الله. والحبيب قيل له (يا أيّها النبىّ حسبك الله. الأنفال: ٦٤) والخليل قال (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين. الشعراء: ٨٤) والحبيب قيل له (ورفعنا لك ذكرك. الم نشرح: ٤) أعطى بلا سؤال. والخليل قال (واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام.) والحبيب قيل له (إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت. الأحزاب: ٣٣) وفيما ذكرناه تنبيه على مقصد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات والأحوال و(قل كلّ يعمل على شاكلته فربّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا. الإسراء: ٨٤) انتهى كلام القاضى عياض بتصرّف يسير منّا ملتقطاً (الشفا: ص ١٥١، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٨).

تنبيه نبيه: يجب أن تتنبّه لمعنى الطمع الّذى مرّ ذكره آنفاً فاعلم أنّ الطمع من النبى صلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى سائر النبيّين لا ينحطّ عن مرتبة اليقين. فإنّ الترجّى منهم بمثابة التحقّق. والأمر الثانى الّذى يجب أن يكون منك على بال أنّ سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فالخطيئة مصروفة عن ظاهرها والأمر محمول على التواضع أو المراد خطيئة ذويه وخاصّته كما قيل فى قوله "فاستغفر لذنبك وللمؤمنين". فالمعنى أنّ سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أخبر عن نفسه بأنّه مستيقن بمغفرة تخصّ النبى وتفارق مغفرة غير النبيّين أو متثبّت من حصول مرتبة الشفاعة لمن أُذن له بواسطة سيّد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وفارق سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأنّ الله تعالى تولّى تبشيره بقوله "ليغفر لك" ولم يَكِل ذلك إليه بخلاف الخليل على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام.

رقم البيت (٣٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الرابع عشر فى الفصل الثالث من البردة وهو قول الناظم الفاهم:

منزّه عن شريك فى محاسنه
فجوهر الحسن فيه غير منقسم

لمّا ذكر الناظم الفاهم بعض خصاله صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّتى تفرّد بها مفصّلاً. انتقل من التفصيل إلى الإجمال. وحسّن مقاله بمدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فجاء ببيت عديم المثال فقال: منزّه أى هو منزّه خبر بعد خبر لِهُوَ المذكور فى البيت المتقدّم أو لمحذوف وهو من التنزيه ومعناه التبرئه والتبعيد أى هو مُبرّأ ومُبعَد عن شريك أى عن كلّ شريك وهو متعلّق بقوله منزّه. وشريك نكرة وقعت فى سياق النفى معنىً فتعمّ. وقوله فى محاسنه تنازعه كلّ من منزّه وشريك. فهو متعلّق بشريك أو متعلّق بمنزّه. والإضافة تفيد الاختصاص. فهى قرينة

على أنّ المراد بها محاسنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم المختصّة به دون المشتركة بينه وبين سائر الأنبياء صلّى الله عليه وعليهم أجمعين. فلا مساغ فى الاعتراض الّذى ذكره العلّامة الباجورى والعلّامة الخرفوتى. وهذا لفظ الخرپوتى: فإن قيل لم يكن فى هذا المقام نفى حتّى يفيد العموم. قلنا وإن لم يكن فى الظاهر لكنّه فى معنى التنزيه لأنّه فى معنى لم يكن له شريك وهو فعيل بمعنى فاعل أى معادل. والمحاسن جمع حسن على خلاف القياس وهو متعلّق بشريك. وإنّما لم يقل فى شمائله ليعمّ الحسن والجمال ولايخصّ الخلق والخصال. ولقائل أن يقول إنّ هذا الحكم أى كونه عليه السلام منزّها عن شريك فى كلّ محاسنه فاسد. لأنّه قد كان سائر الأنبياء شريكاً له فى محاسن النبوّة والرسالة وعدم العبادة لغير الله اللّهم إلّا أن يقال إنّه ادّعائى فليتأمّل. (الخرفوتى: ٨٦)

والمحاسن جمع حسن على خلاف القياس. وقد مرّ تفصيل ما له من المحاسن فى الأبيات السابقة وجامع محاسنه أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم الفاتح لِبَاب النبوّة وبه ختمت النبوّة. المفتتح لِبَاب الجود. والسبب فى كل موجود. المُفيض على الكلّ من بحر علمه وديم كرمه. الواقف للجميع عند الحدّ الّذى هو غاية ذى الغاية. ومبدأه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى الترقّى إلى غير النهاية فهو الفاتح لما أغلق وهو الخاتم لما سبق وكلّ ذلك مقرّر معلوم. وقوله فى الجواب "إنّه ادّعائى" ليس كما ينبغى. وقوله فجوهر الحسن فيه غير منقسم الفاء للنتيجة أى هى مُفْصِحَة عن الشرط الّذى ترتّب عليه الجزاء أى إذا كان صلّى الله تعالى عليه وسلّم منزّهاً عن شريك فى محاسنه استلزم ذلك أن يكون جوهر الحسن فيه غير منقسم. والجوهر قال بعضهم معرب گوهر. وقال بعضهم إنّه مشتق من الجهر أو من الجهارة وهو يجىء بمعنى الحجر المستخرج من البحر المنتفع به كالياقوت والزبرجد والزمرّد. وبمعنى أصل الشىء وجبلّته الّذى طبع عليه. والجوهر عند الفلاسفه الهيولى أى مادّة الشىء ليس لها شكل ولا صورة معيّنه قابلة للتشكّل والتصوّر فى شتّى الصور. والصورة والجسم والعقل والنفس. وعند المتكلّمين الجوهر الفرد أى الجزء الّذى لا يتجزّأ والنفس. والمراد ههنا ذاته وحقيقته. ومفاده إثبات الحسن له أصالة و كونه أصلاً لحسن غيره كما يفيده قوله عليه الصلاة والسلام فى سيّدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أعطى شطر الحسن. فحسنه عليه الصلاة والسلام ليس فيه نصيب من حسن غيره. وقوله فيه بإشباع الضمير ظرف مستقرّ صفة للحسن أى حسن كائن فيه أو حال وفى إضافة الجوهر إلى الحسن الّذى هو عرض والحكم عليه بأنّه غير منقسم من اللّطافة ما لايخفى.

رقم البيت (٢٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا البيت الخامس عشر فى الفصل الثالث من قصيدة البردة نأخذ فى شرحه بحول الله سبحانه وتعالى وتوفيقه وهو قول الناظم الفاهم:

دع ما ادّعته النصارى فى نبيّهم
واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

لمّا أشعرت الأبيات السابقة أنّ ترقّيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى الكمالات لا ينتهى إلى حدّ بخلاف سائر النبيّين صلّى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين خشى أن لا يؤدّى ذلك بالقاصرين إلى تجاوز الحدّ الفاصل بين مدح الخلق وبين الثناء على الملك الحقّ المبين. فأراد أن يبيّن أنّ لذلك حدّاً لا يجوز أن يتعدّى. وأنّ لمدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ضابطاً يجب أن يُراعى وهو أن لا يُطريه صلّى الله تعالى عليه وسلّم المرء كما أطرت النصارى المسيح. ولا يُفرِط حتّى يتجاوز إلى حدّ الألوهية. ولا يُفرّط بترك الأدب فى وصفه فيصفه بما لا ينبغى بل يجب أن يمدحه بما ينبئ عن رفعة مكانه وعلوّ شأنه متمسّكاً بعروة الحيطة وممسكاً لعنان الإتقان.

قوله دع أمر من ودعه تركه وماضيه غير مستعمل كوذر. كذا قال الشيخ زاده. قلت وكذلك مصدره. صرّحوا بأنّهم أماتوا ماضيه ومصدره. وهو محمول على أنّه لا يستعمل غالباً. فلا ينافى ما ورد من استعمال مصدره على قلّة. وهو قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم "لينتهينّ أقوام عن ودعهم الجماعات أولَيُختَمَنَّ على قلوبهم". وما حُكِى من استعمال الماضى فى قول الشاعر:

ليت شعرى عن خليلى ما الّذى
غاله فى الحبّ حتّى ودعه

وعن عروة ومجاهد أنّهما قرآ ما ودعك بالتخفيف ذكره الخرفوتى معزياً إلى حاشية المطوّل لحسن چلبى (ص٨٧).
وقول الشاعر غاله يغوله غولاً: أهلكه. وأخذه من حيث لا يدرى فأهلكه. ويقال غالته الخمر: إذا شربها فذهبت بعقله أو بصحّة بدنه. وغالته الأرض: هلك فيها. وغالته الغول: أضلّته عن المحجّة. وغال فلاناً كذا وكذا: إذا وصل إليه منه شرّ كذا فى المعجم الوسيط ملتقطاً. والمعنى ما الّذى غاله أى ما الّذى أفسد عقله أو ما الّذى أضلّه أو ما الّذى أوصل إليه الشرّ فى الحبّ.

والخطاب يعمّ كلّ من يصلح أن يكون مخاطباً ممّن آمن به صلّى الله تعالى عليه وسلّم وما موصولة. والنصارى جمع نصران كسكران وسكارى وندمان وندامى. والياء فى نصرانى للمبالغة كما فى أحمرىّ. وهم قوم عيسى سمّوا أنفسهم بذلك لادّعائهم أنّهم نصروا عيسى عليه السلام. أو لأنّهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسمّوا باسمها أو من اسمها. والمراد دع أى ذر ما ادّعته النصارى ممّا يفضى إلى التوليد والحلول والاتّحاد أو الانقسام والنزول فى حق واجب الوجود تعالى وتقدّس.

قال الخرفوتى نقلاً عن الملل والنحل: إنّ النصارى تفرّقوا بعد عيسى عليه الصلاة والسلام اثنتين وسبعين فرقة. وكبار فرقهم ثلاث: الملكانيّة والنسطوريّة واليعقوبيّة. فالملكانيّة أصحاب ملكان الّذى ظهر بالروم واستولى عليهم. ومعظم الروم الملكانيّة. وهم قالوا إنّ الكلمة اتّحدت بجسد المسيح وتدرّعت بناسوتيته. ويعنون بالكلمة أقنوم العلم. وقالوا إنّ المسيح قديم أزلى وقد ولدت مريم إلهاً أزليّاً. وأطلقوا لفظ الأبوّة والبنوّة على الله تعالى الله عن ذلك. وعلى المسيح الابن لمّا وجدوا (على حسب زعمهم) فى الإنجيل حيث قال إنّك أنت الابن الوحيد. والنسطوريّة أصحاب نسطور الحكيم الّذى ظهر فى زمان المأمون وتصرّف فى الإنجيل وقال إنّ الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة. وهذه الأقانيم ليست بزائدة على الذات. وحلّت هذه

الصفات فی بدن عیسی علیه السلام ولذا یُحیی الموتی ویبرئ الأکمه والأبرص. والیعقوبیّة أصحاب یعقوب رجل من النصاری. قالوا بالأقانیم الثلاثة کما ذکرنا. وإنّهم قالوا تقلّبت الکلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسیح وهو الظاهر بجسده. وبیانهم علی الوجه المفصّل فی کتاب الملل والنحل. انتهی ما قاله الخرفوتی بتصرّف یسیر منّا (خرفوتی: ص۸۸).

قوله واحتکم إمّا بمعنی احکم فیکون تأکیدًا للأوّل أو من احتکم القوم إلی الحاکم تحاکموا إلیه والحکم إیقاع النسبة المفیدة إثباتاً أو نفیاً (شیخ زاده: ص۸۸).

والمراد ههنا أن احکم بما شئت بشرط أن یکون مدحاً له صلّی الله تعالی علیه وسلّم. واعرض ذلك علی الشرع وارجع إلیه وخاصم نفسك فی متابعة الهوی. وارجع إلی الحاکم الّذی هو الشرّ. أوهو بمعنی طلب الحکمة واستعمالها. وإتقان الحکم أی راع الحکمة فی مدحك له صلّی الله تعالی علیه وسلّم بأن تأتی بالمدح اللّائق بجنابه الشریف وقدره المنیف دون غیر اللّائق بذلك الجناب لأنّ الحکم ههنا بمعنی المدح. وقوله مدحاً إمّا مفعول مطلق من المعنی الّذی یشعر به الحکم فإنّ الحکم ههنا مدح له صلّی الله تعالی علیه وسلّم أوحال بمعنی مادحاً من الضمیر المستکن فی احکم. وهو حال ممّا شئت. ویحتمل أن یکون تمییزاً. وفیه متعلّق باحکم أو بشئت أو بمدحاً. قال الشیخ زاده: فالحاصل امدحه بأی مدح تقدر علیه بعد ترك مالا یجوز فإنّ المجاهدة بمدحه قربة من القرب کما أنّ ترك الأدب فی حقه کفر. (شیخ زاده: ص۸۸)

ویجوز فی "النبیّ" التشدید والهمز علی ما قاله علی القاری فی الزبدة. لکن یستفاد من المفردات للإمام الراغب أنّهم ترکوا همزه ولم یعرفوا أصله إلا عن طریق الاستدلال بقولهم مسیلمة نُبیءسوء. وأورد الإمام ابن حجر المکی فی أفضل القِرَی قوله صلّی الله تعالی علیه وسلّم: لا تقولوا نبیء الله. فیُجتَنَب الهمز للتوارث ولمکان الإیهام ویقتصر بالقراءة بالهمز علی التلاوة فلا یطلق النبیء بالهمز إلاّ فی القرآن. وکون القراءة قد تواترت مع أنّها جاءت علی خلاف الجمهور محلّ نظر. ولایصحّ الاستدلال بها علی نسخ النهی لعدم العلم بالإذن بعد النهی ولمکان الاحتمال. وبهذا حصل الجواب عمّا قاله الإمام ابن حجر المکی فی أفضل القری ونصّه: ونهیه صلّی الله تعالی علیه وسلّم عن المهموز بقوله (لاتقولوا یانبیء الله) بالهمز (بل قولوا یا نبیّ الله) بلا همز. لأنّه قد یرد بمعنی الطرید. فخشی صلّی الله تعالی علیه وسلّم فی الابتداء سبق هذا المعنی إلی بعض الأذهان فنهاهم عنه. فلمّا قوی إسلامهم وتواترت به القراءة نسخ النهی عنه لزوال سببه. (شرح الهمزیة ص۶)

وأفاد مولانا علی القاری فی الزبدة أن یقرأ قوله نبیّهم بإشباع میم الجمع ولو وقفاً تنزیلاً للوقف بمنزلة الوصل للوزن. (الزبدة ص۵۸)

رقم البیت (۳۲)

بسم الله الرحمن الرحیم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الکریم وآله وصحبه الکرام أجمعین ومن تبعهم بإحسان إلی یوم الدین.

انتهينا إلى البيت السادس عشر من الفصل الثالث من البردة وهو قول الناظم الفاهم:

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف   وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

أراد الناظم الفاهم أن يزيل الخفاء في مراده في البيت السابق، وأن يبيّن أنّ مفهوم الحكم أعمّ وأشمل للحكم بصحّة المدح الصادر من غيرك ولمباشرة المدح من المخاطب، وأنّه في أمن من الغلو والإغراق في المدح والثناء بعد ما تجنّب الإطراء الّذي جرى عليه النصارى وأصحاب الدعاوى الكاذبة والغُلَوَاء. وعلى هذا فالفاء للعطف والتفسير. وفي نسخة "وانسب" ومفادهما واحد وهو العطف التفسيري وبناء على هذا فهو عطف على قوله واحكم وهو الأقرب الأنسب. أوهو عطف على قوله دع كذا قال الشيخ زاده. أوالفاء كما قال الملّا على القاري للفصاحة عن الشرط التقديري أي إذا تركت مثل دعوى النصارى فلك السعة بالجولة في دائرة النسبة إلى ذاته المعظّمة فتنسب إليه ماشئت من الأوصاف المكرمة من جمال الخَلق و كمال الخُلق وطيب العرق وزكاء اللبّ وصفاء الجنان وبلاغة الكلام وفصاحة اللسان وسائر كمالات الإنسان. فإنّه منبع الإحسان ومُبْدَع الرحمن، وأيضاً لك الرخصة في النسبة الدائرة على إحاطة كمال قدره ومرتبته وجمال ظهوره وعظمة فانسب إليه ما أردت من أنواع العظمة وفنون الكرامة وأجناس المعجزات الّتي لا يستقصى حدّها ولا يحصى عدّها.

والذات أصلها مؤنّث ذو المقتضية لموصوف. واللّازمة للإضافة غالباً كرجل ذي مال. ثمّ استعملوها للأسماء المستقلّة بمعنىً فقالوا ذات قديمة. ونسبوا للفظها فقالوا ذاتيّ. وقد تستعمل بمعنى نفس الشيء وحقيقته كما هنا و كما في قول خبيب رضي الله تعالى عنه (وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزّع). (شرح الهمزية ص٥٥)

وكلام الزمخشري في الكشّاف يشير إلى خلاف ذلك حيث قال إنّ التاء في الذات ليست كالتاء في بنت بل جرت مجرى التاء في نحو لات. ولهذا جوّزوا إطلاقه على الله تعالى مع تحاشيهم عن إطلاق علامة التأنيث.

والقدر المقدار والمساوي للشيء والحرمة والوقار والمراد هنا المعنيان الأخيران والشرف العلوّ والعظم مصدر عظم الشيء عظماً وعظامة: كبر. والرجل فخم.

وقوله ماشئت من شرف أي الّذي شئته. فما موصولة. والنسبة الإضافة فالمعنى أضف إلى ذاته ما شئت من صفات الشرف كتناسب الأعضاء والبياض المشرب بحمرة ونظافة الجسم وغير ذلك. وقوله وانسب إلى قدره أي انسب إلى كماله الّذي شئته من صفات العظم كالكرم والعفو الصفح والحلم والعلم وأمثال ذلك. ومن في الموضعين لبيان الجنس. والتنوين للتعظيم والتكثير وخصّ الذات بالشرف لأنّه يناسبها في العلوّ وخصّ القدر بالعظم لأنّه يناسبه في عدم النهاية.

والبيت كما هو تفسير للبيت المتقدّم كذلك هو تأكيد لما مضى وتأييد لما وصفه بأنّه منزّه عن شريك في محاسنه وأنّ جوهر الحسن فيه غير منقسم وسيأتي لذلك مزيد بيان في كلام الإمام ابن حجر المكّي في أفضل القرى. وإذا أمعنت النظر فيما خصّ به من نعوت الجمال وخصال الكمال وجدت كلّ وصف له بدأت به في مدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وصوّر لك الابتداء به في فهمك الحجج على جميع فضله واستوعبت العبارة بالصراحة والإشارة

أخبار الكمال فی جميع الخصال ومع ذلك يكلّ اللّسان عن استقصاء البيان ويعجز الجنان عن درك الغاية فی وصف من أوصافه الحسان. وما أحسن قوله فی الهمزيّة:

كلّ وصف له ابتدأتَ به

استوعب أخبارَ الفضل منه ابتداء

قال الإمام ابن حجر فی شرحه علی الهمزية: كلّ وصف له من صفاته الذاتية والمعنوية ابتدأت أنت أو أنا به فی الذكر أو ابتدأت بذكره لتحيط بغايته استوعب جميع أخبار الفضائل والكمال منه ابتداء أی كلّما ابتدأت بوصف له صلّی الله تعالی عليه وسلّم وتأمّلت ما اشتمل عليه صريحاً وإيماء. وجدت ذلك الوصف المبتدأ به جمع أنواع الفضل وغايات الكمال. ولايستبعد ذلك. فإنّ كلّ وصف من أوصافه صلّی الله تعالی عليه وسلّم آخذ بحجز تلك الأوصاف. إذ لا يتحقّق كمال وصف من صفات الإنسان كالحلم مثلاً إلّا إن كمل فيه بقيّة أوصافه كالعلم والكرم والشجاعة والخلق الحسن وغيرها. وحينئذ فكلّ من صفاته صلّی الله تعالی عليه وسلّم يدلّ علی ما وضع له مطابقة وعلی ما عداه منها إيماء واستلزاماً كما لايخفی علی من سبر ذلك وتأمّله. وبهذا التحقيق الّذی تنبّه له الناظم يعلم أنّه سقی الله عهده ثاقب النظر كامل المعرفة متضلّع من العلوم والمعارف. وبما قرّرته فی شرح هذا البيت يعلم أنّه من غرر أبيات هذه القصيدة. وأنّه يجب عليك أن تعتقد أيضاً أنّ من تمام الإيمان به صلّی الله تعالی عليه وسلّم الإيمان بأنّ الله تعالی أوجد خلق بدنه الشريف علی وجه لم يظهر قبله ولا بعده فی آدمیّ مثله. وسرّ ذلك أنّ محاسن الذوات دليل علی ما بطن فيها من بدائع الأخلاق وجلائل الصفات ونبيّنا محمّد صلّی الله تعالی عليه وسلّم قد بلغ الغاية الّتی لم يصل إليها غيره فی كلّ من ذينك. ومن ثمّ قال الناظم فی بردة المديح (فهو الّذی تمّ معناه وصورته...) البيتين. فبيّن أنّ حقيقة الحسن الكامل كملت فيه وحده. ولم تنقسم بينه وبين غيره لأنّه الّذی تمّ معناه دون غيره. ولوشورك.. لم يتمّ معناه.

وما أحسن قول بعضهم (لم يظهر لنا تمام حسنه وإلّا لما أطاقت أعيننا النظر إليه.) (شرح الهمزية ص۲۶۰،۲۶۱).

قال الأزهری: وبهذا يتأيّد أنّ قول الناظم الفاهم منزّه إلی آخر البيت ليس ادّعائيّا كما أشرت إليه فيما سبق.

هذا ونری من المناسب أن نذكر ههنا ما يدلّ علی تمام حسنه وجمال طلعته من شرح الهمزيّة لابن حجر. قال رضی الله تعالی عنه يذكر بعض شمائله: أمّا وجهه الشريف فصحّ عن البراء أنّه صلّی الله تعالی عليه وسلّم كان أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً. وعن أبی هريرة رضی الله تعالی عنه ما رأيت شيئاً أحسن منه صلّی الله تعالی عليه وسلّم كأنّ الشمس تجری فی وجهه صلّی الله تعالی عليه وسلّم. وعن البراء أنّه قيل له أكان وجه رسول الله صلّی الله تعالی عليه وسلّم كالسيف؟ قال لا. بل كالقمر. أی لم يكن كالسيف فی الطول ولا فی اللّمعان. بل كالقمر فی التدوير وفوق لمعان السيف. وصحّ عن جابر ابن سمرة: لم يكن كالسيف بل كالشمس والقمر وكان مستديراً. فنبّه بهذا أنّه جمع بين الحسن والإشراق والملاحة والاستدارة. وجاء عن علیّ كرّم الله تعالی وجهه: لم يكن بالمكلثم أی

شديد استدارة الوجه بل فيه تدوير قليل وهو أحلى عند العرب. وهو معنى قول أبي هريرة كان أسيل الخدّين. أى فيهما طول وسلامة من ارتفاع الوجنة. وتشبيه غير واحد لوجهه بشقّة القمر أى عند التفاته. وقيل احتراز عمّا في القمر من السواد. ويردّه تشبيه أبي بكر رضى الله تعالى عنه وغيره له بدارة القمر. وفى النهاية: أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان إذا سرّ... صار وجهه كالمرآة. فيرى خيال الجدر فيه. وفى رواية: يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر. وإنّما كان الأكثر تشبيهه بالقمر دون الشمس. لأنّ من شاهده... ينظره كمال النظر ويتأنّس به ولا يتأذّى منه. بخلاف الشمس فى الكلّ. ولذا كان من أسماءه صلّى الله تعالى عليه وسلّم البدر. ومن ثمّ قال الخارجون لملاقاته مرجعه من تبوك:

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع

ثمّ هذه التشبيهات جرت على عادة العرب. وإلّا فلا محدث يعادل صفاته الخلقيّة والخلقيّة.

وأمّا بصره صلّى الله تعالى عليه وسلّم فيكفيك (ما زاغ البصر وما طغى).

وصحّ عن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما: كان يرى باللّيل فى الظلمة كما يرى بالنّهار فى الضوء. وصحّ أنّه كان يرى فى الصلاة من خلفه كما يرى من أمامه أى رؤية إدراك كهى بالبصر إذ الرؤية الواقعة على جهة الكرامة لاتتوقّف عليه ولا على شعاع ولا على مقابلة عند أهل السنّة. وما قيل: كان له عينان بين كتفيه كسمّ الخياط يرى بهما ولا تحجبهما الثياب. لم يثبت ما يدلّ عليه. والأصل عدمه كزعم أنّ صورهم كانت تنطبع فى قبلته صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو أنّها رؤية قلب أو أنّ المراد بها العلم بوحى أو إلهام. وحديث (إنّى لا أعلم ما وراء جدارى) لم يعرف له سند. وإنّما ذكره ابن الجوزى فى بعض كتبه بلا إسناد. وبفرض وروده فهذا غير ما نحن فيه لأنّ المنفيّ علم الغيب بما وراء الجدار حيث لم يعلم به بوحى أو إلهام. ومن ثمّ لمّا ضلّت ناقته وقال بعض المنافقين: هو يزعم علم الغيب. قال: والله إنّى لا أعلم إلّا ما علّمنى ربّى. وقد دلّنى ربّى عليها. وهى فى موضع كذا. احتبستها شجرة بخطامها. فذهبوا فوجدوها كما قال صلّى الله تعالى عليه وسلّم وبفرض التعارض فما مرّ فى حالة الصلاة وهذا خارجها.

وجاء أنّه كان إذا التفت التفت جميعاً. أى لا يسارق النظر ولا يلوى عنقه يمنة ولا يسرة كالطائش الخفيف. وأنّ جلّ نظره النظر بلحاظه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وهو جانب عينه الّذى يلى الصدغ. وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم عظيم العينين أهدب الأشفار مشرب العينين بحمرة.

وروى مسلم: أشكل العينين. والشكلة: الحمرة فى بياض العين. وهى محمودة. والشهلة: حمرة فى سوادها. وفى رواية: أدعج العينين أى شديد سوادهما. أهدب الأشفار أى طويلهما.

وأمّا سمعه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فحسبك فيه خبر الترمذى (إنّى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت السماء وحقّ لها أن تئطّ ليس فيها موضع أربع أصابع إلّا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى). وفى رواية لأبى نعيم: أو قائم.

وأمّا شعره صلّى الله تعالى عليه وسلّم فصحّ أنّه كان بين شعرين. لا رجل. أى بفتح فكسر وهو ما يتكسر قليلاً. ولا سبط ولا جعد قطط كان بين أذنيه وعاتقيه. وأنّه رجل ليس بالسبط ولا الجعد ولا تخالف لأنّ فيه رجولة قليلة.

فالأولى لنفى كثيرها وأنّه إلى شحمة أذنيه وأنّه إلى أسفلها وأنّه إلى الكتفين ولا تخالف أيضاً لأنّه ربّما ترك تقصيره فيطول وربما تداركه فيقصر وكان إذا انفرق انفرق بنفسه وإلّا تركه معقوصاً.

ولعلّ هذا كان أوّلاً وإلّا فالّذى صحّ أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان يسدله أى يرسله ثمّ فرق.

ثمّ رأيت أنّ العلماء قالوا إنّ الفرق سنّة لأنّه الّذى رجع إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

وكان فى عنفقته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وصدغيه شعرات بيض دون العشرين. وإنّما لم يكثر فيه مع أنّه نور ووقار لرواية ما شانه الله بالشيب أى لأنّ النساء يكرهنه غالباً ومن كره منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم شيئاً كفر.

واختلفت الروايات فى تغييره صلّى الله تعالى عليه وسلّم لشيبه بنحو الحناء. ولا تخالف لأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فعله كثيراً وتركه أكثر ومن ثمّ كان سنّة عندنا.

وصحّ أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان كثّ اللّحية. وجاء أنّه كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. وكان صلّى الله تعالى عليه وسلّم أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر. ولم يرو أنّه حلق رأسه فى غير حجّ أو عمرة. ورواية (أنّه كان يأخذ من عرض لحيته وطولها) لم تثبت وهى غريبة. بخلاف رواية (أعفوا اللّحى). فمن ثمّ أخذ بها أئمّتنا رضى الله تعالى عنهم.

قال الأزهرى: وأنت خبير بأنّ الإمام ابن حجر المكّى من ساداتنا الأئمّة الشافعيّة وقد صرّح ههنا بما سمعت وهو قوله: (ومن ثمّ أخذ بها أئمّتنا) ومن هذا يعلم أنّ إعفاء اللّحية سنّة عند الشافعيّة كما هى سنّة عند الحنفيّة بل هى سنّة عند الأئمّة الأربعة. والسنّة فيها القبضة. أمّا الأخذ منها وهى دون ذلك فلم يُبِحْه أحد وأخذ كلّها فعل اليهود ومجوس الأعاجم كما صرّح به فى الدرّ المختار انتهى كلام الأزهرى.

وورد أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان ينظر فى المرآة إذا سرّح لحيته. وأنّه كانت له مكحلة يكتحل منها بالإثمد فى كلّ عين ثلاثة قبل النوم.

وأمّا جبينه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وحاجباه وأنفه ورأسه فقد جاء أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم واضح الجبين مقرون الحاجبين أى شعرهما متّصل وأنّه غير متصلهما ورجّحه ابن الأثير وقد يجمع بأنّهما كانا كثيرى الشعر كما فى رواية. وفى رواية سابغين. كما فى أخرى دقيقين. كما فى أخرى فهما مع كثرة شعرهما فيهما سبوغ إلى آخر العين ودقّة فى طرفيهما فلكثرة شعرهما يريان من بعيد كأنّهما متصلان وليسا فى الحقيقة كذلك.

وصحّ أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ضخم الرأس ضخم الكراديس أى رؤوس العظام.

وجاء أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أقنى الأنف أى طويلة مع دقّة أرنبته وحدب فى وسطه. وعبّر بعضهم بأنّه سائل مرتفع وسطه. وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم دقيق العرنين أى أعلى الأنف وأنّ من لم يتأمّله يحسبه أشمّ أى طويل قصبة الأنف.

وأمّا فمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقد صحّ أنّه واسعه يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه أى لسعة فمه. والعرب تمدحه وتذمّ ضدّه. وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أشنب أى لأسنانه غاية البريق واللّمعان. وأنّه إذا تكلّم رئى كالنور يخرج من ثناياه. وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مفلج الأسنان أى متفرّقها وفى رواية مفلج الثنيتين أى

أكثر من البقيّة.

وأمّا ريقه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقد صحّ أنّه يوم خيبر تفل فى عين علىّ رضى الله تعالى عنه و كرّم وجهه، وكان به رمد، فبرء منه لوقته، وأعطاه الراية ففتح الله على يديه.

وجاء أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مجّ فى بئر ففاح منها رائحة المسك، وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بزق فى أخرى فلم يكن بالمدينة أطيب ماء منها. وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان فى يوم عاشوراء يبصق فى فم رضعائه ورضعاء فاطمة وينهى عن رضاعهم فيجزيهم ريقه إلى اللّيل، وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مضغ قطعة لحم وأعطاها لخمس نسوة فمضغتها كلّ منهنّ كفتهنّ ولم يوجد لأفواههنّ ريح خلوف (وهى الرائحة الكريهة من الفم).

وأمّا فصاحة لسانه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وجوامع كلمه وبديع بيانه وحكمه فأمر أظهر من أن يذكر وأشهر من أن ينشر، كيف وقد ارتقى فى كلّ ذلك الغاية القصوى الّتى لم يدركها مخلوق حتّى قال بعض العلماء: إنّ كلامه معجز كالقرآن.

وأمّا صوته صلّى الله تعالى عليه وسلّم فروى ابن عساكر خبر (ما بعث الله نبيّا قطّ إلّا بعثه حسن الوجه حسن الصوت حتّى بعث الله نبيّكم صلّى الله تعالى عليه وسلّم فبعثه حسن الوجه حسن الصوت)، والبيهقى (خطبنا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم حتّى أَسْمَعَ العواتق فى خدورهنّ)، وأبو نعيم (أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال للنّاس يوم الجمعة على المنبر اجلسوا فسمعه عبد الله ابن رواحة وهو فى بنى تميم فجلس مكانه)، وابن سعد (أنّه خطب بمنى، ففتح الله أسماعهم، فسمعوه وهم بمنازلهم). (أفضل القرى ص٢٤٠ إلى ٢٤٤)

رقم البيت (٢٥)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا البيت السابع عشر فى الفصل الثالث من البردة نأخذ فى شرحه وهو قول الناظم الفاهم:

فإنّ فضل رسول الله ليس له
حدّ فيعرب عنه ناطق بفم

جاء به الناظم الفاهم دفعاً لزعم المشبّهة الّذين يشبّهون الله سبحانه و تعالى بالمخلوق، فلا يتحاشون عن إثبات الجهة والمكان والصعود والنزول والقعود للمعبود، ويقيسون الأنبياء بمقياسهم، فيرون أن يُمْتَدَح النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما يُمْتَدَح عامّة البشر، بل يرون أن يُقصر حتّى فى مثل هذا المدح، ويَحُدُّون له حدّاً بالهوى، ويبغون أن يورّطوا غيرهم فيما هَوَوْا، وساقه مساق التعليل لما مضى فالفاء للتعليل فكأنّه قال لأنّ فضل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم ليس له حدّ أى غاية يقف عندها، لأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم دائماً يترقّى فى مدارج الكمال، وإليه الإشارة فى قوله تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى) أى وللحظة متأخرة خير لك من لحظة متقدّمة، لأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم يترقّى فى المتأخّرة إلى كمالات زائدة عمّا ترقّى إليه فى المتقدّمة ولهذا

قال صلّى الله تعالى عليه وسلّم إنّه ليغان على قلبي فأستغفر الله أي إنّه لتترا كم الأنوار على قلبي فأستغفر الله مما قبل ذلك. أي تتلألأ أحوال على قلبه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مترا كمة يعلو بعضها بعضاً. وتغشى حال أضوأ وألمع حالاً أخرى. وتتعاقب الأنوار فتزيّنه وتكون حجبا عمّا يَشِينه وهذه هى المغفرة اللّائقة برفيع شأنه وله الحظّ الوافر منها. وفضل سائر النبيين بالأصالة فيها. فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم يسأله سبحانه وتعالى استدامة هذه الحالة فيستغفره ويسأله دوام هذه الحال. والترقّى فى الكمال بالمغفرة الحاجبة للزوال. قال الإمام الباجورى:

ولهذا قال صلّى الله تعالى عليه وسلّم لأبي الحسن الشاذلى لما رآه فى النوم وسأله عن معنى هذا الحديث إنّه غين أنوار لا غين أغيار يا مبارك. (حاشية الباجوريص ٢٧). أوالغين كيفية هو صلّى الله تعالى عليه وسلّم أعلم بها تظهر على قلبه عند ما يُعرَض عمل الأمّة عليه ويشاهد فيه ما يكره فيستغفر الله تعالى لهم. امتثالاً للأمر فى قوله تعالى "واستغفر لذنبك وللمؤمنين". فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم يخبر عنها بقوله "وإنّه ليغان على قلبي فأستغفر الله". ولا تنافى بين هذا وذاك. فلا مانع من الجمع. وبالجملة فهو من المتشابه الّذى يجب أن ينزّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم عن ظاهره ويفوّض المراد به إلى الله جلّ وعلا و رسوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقوله الفضل الإحسان ابتداء بلا علّة والزيادة والتفوّق وهو مصدر مضاف إلى فاعله. والحدّ الغاية والنهاية أو بمعنى الوصف المحيط بجميع كمال الموصوف من الواصف. والفاء فى فيعرب جواب للنفى ويعرب منصوب بأن المقدرة وهو من الإعراب وهو الإفصاح والبيان. وعنه متعلّق بيعرب والضمير راجع إلى الحدّ وهوالأقرب أو إلى الفضل. والناطق بمعنى المتكلّم والباء فى بفم للاستعانة متعلّق بناطق والنطق لا يكون إلّا باللّسان فهو إمّا تأكيد والمراد بالفم اللّسان إطلاقاً للمحل على الحال فهو مجاز مرسل. وإمّا تعميم فى كلّ ناطق من عربي وعجمي وإنس وجنّ وملك ونظيره فى التأكيد والتعميم قوله تعالى (وما من دابّة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلّا أمم أمثالكم) الآية.

وإنّما عبّر بقوله فيعرب عنه ناطق بفم إيماء إلى عجز اللّسان أم بيان الحدّ الّذى ينتهى إليه كماله صلّى الله تعالى عليه وسلّم ولا يعلمه إلّا الله سبحانه وتعالى ودفعاً لإيهام أنّ كماله غير متناهٍ بالفعل.

وإن كان لا يقف عند حدّ فعدم تناهى فضله صلّى الله تعالى عليه وسلّم بهذا المعنى. وأنت خبير بأنّ الحدّ فى قوله ليس له حدّ وقع فى سياق النفى فيعمّ. وإذ قد عمّت النكرة فى سياق النفى فلا قيد يستفاد فى مفهوم الحدّ. وقول الناظم فيعرب عنه لايراد به التقييد. وإنّما ورد التعبير به مورد البيان لأنّ الإعراب والإفصاح لايكون إلّا باللّسان على أنّ البيان فرع الإدراك بالجنان. فأراد بنفيه أن يعلم الإنسان حدّه بالجنان. وبهذا اندفع ما أورده العلّامة الشيخ زاده قائلاً:

اعلم أن المستفاد من البيت هو انتفاء الحدّ المقيد كما ترى وهو لا يستلزم انتفاء الحدّ مطلقاً لأنّ انتفاء الخاصّ لا يستلزم انتفاء العام. فهذا على قول من يقول بتناهى كمال الإنسان الكامل. وأمّا على قول من يقول إنّه غير متناهٍ فالبيت لا يساعده إلّا إذا أريد بنفى الخاص نفى العام على سبيل المجاز. والحق أنّ من اطّلع على الحقيقة المحمّدية وعلم تدرّجه بانسلاخه عن العوارض البشريّة فى مدارج المعارج الأحدية اعترف بعدم تناهى فضله على الإطلاق كما يعترف باستحالة تناهى كمالات الملك الخلّاق. (شيخ زادة: ص ٩٠).

ثمّ إنّ عدم تناهي الفضل في المخلوق ليس إلّا على سبيل المجاز. ولا سبيل إلى القول بعدم التناهي بالفعل، فإنّ حقيقته مختصّة بمن استأثر بالحقيقة وهو الخلّاق العليم وقوله "أنّ من اطّلع على الحقيقة المحمّدية" (إلى أن قال) "اعترف بعدم تناهي فضله على الإطلاق كما يعترف بأستحالة تناهي كمالات الملك الخلّاق" ليس كما ينبغي وفيه إيهام لفساد المرام ومن الله العصمة وبه الاعتصام.

رقم البيت (٢٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد أتينا بحمد الله تعالى على شرح البيت الثامن عشر من الفصل الثالث من قصيدة البردة فلنأخذ في شرحه وحسبنا الله وبه نستعين. أراد الناظم الفاهم أنّه إذ أثنى عليه وبيّن أوصافه لم يؤدّ حقّ الثناء عليه. وأنّه لا قبل لأحد أن يوفّيه حقّه ويحيط بجميع كماله. وكيف الظنّ بذلك مع أنّ ما أعطيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم من الآيات لا تناسب قدره في العظامة ولا تشارك فضله في الفخامة. فأنشأ الناظم الفاهم يقول:

لو ناسبت قدره آياته عظماً

أحي اسمه حين يدعى دارس الرمم

لو حرف شرط يدلّ على انتفاء الثاني لانتفاء الأوّل. والمناسبة الشركة في شيء أو أكثر. وقدر الشيء مقداره في الزيادة والنقصان. وغلب استعماله في الكمال لاسيّما عند الإطلاق وهو المراد هنا. وقَدْرَه مفعول لناسبت قدّمه للاهتمام به. وآياته فاعل لناسبت. وعظماً منصوب على التمييز. والعظم العظمة. والتمييز لرفع الإبهام في إسناد ناسبت وهو الأولى أو منصوب على نزع الخافض والنصب على نزع الخافض سماعي، وقد كثر في كلام المؤلفين والشعر والحديث والكتاب ومرّ نظيره من الكتاب من قبل وهو قوله (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) الآية. وقد كثر هذا حتى جرى مجرى القياس. وجاء المصنّف بهذا البيت استدلالا على دعوى مضمرة كأنّه ادّعى أنّ آياته صلّى الله تعالى عليه وسلّم لم تناسب قدره في العظم. وأشار إلى قياس استثنائي نظمه هكذا لو ناسبت قدره في العظم لكان من جملة آياته أن يحيى اسمه دارس الرمم حين يدعى به لكن لم يكن من آياته أن يُحيِي اسمُه دارس الرمم حين يدعى به فلم تناسب آياتهم قدره في العظم وهو المطلوب لأنّ الواقع أنّ قدره صلّى الله تعالى عليه وسلّم أعظم من آياته حتّى من القرآن المتلوّ بخلاف القرآن غير المتلوّ قاله الباجوري. وتوقّف العلّامة ابن عابدين في أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أفضل من القرآن. وقال الشيخ الإمام أحمد رضا في ذلك نحو ما قاله العلّامة الباجوري. قال العلّامة الباجوري: وقد ذكر المصنّف الشرطيّة وحذف الاستثنائية والنتيجة ووجه الملازمة في الشرطيّة أنّ الإحياء المذكور أعظم آية وبه تكون الآيات مناسبة لقدره صلّى الله تعالى عليه وسلّم أي يكون مجموعها بواسطة كون الإحياء المذكور منه مناسباً لقدره الشريف لا كلّ فرد منها لأنّه لا يلزم من جعل الإحياء المذكور منها أن

يكون كلّ فرد منها مناسباً لقدره صلّى الله تعالى عليه وسلّم. لا يقال كيف لم يجعل الإحياء من آياته صلّى الله تعالى عليه وسلّم مع جعله من آيات عيسى عليه السلام لأنّا نقول الكلام فى إحياء اسمه دارس الرمم حين يدعى به وهذا كما لم يجعل من آياته صلّى الله تعالى عليه وسلّم لم يجعل من آيات عيسى عليه الصلاة ولسلام. وأمّا الّذى جعل من آيات عيسى إحياءه الموتى بإذن الله. كذا قال العلّامة الباجورى رحمه الله تعالى. (ص٢٨)

والمراد بآياته أعلام نبوت كالمعجزات، والإحياء إحداث الحياة وهى صفة تقتضى الحسّ والحركة الإرادية. والاسم مرادف العلم أو هو بمعنى التسمية أى ذكر الاسم. ودعاه طلبه و دعاه بزيد سمّاه به ودعا الله سأله. و درس بلى. والرمم جمع الرمّة وهى القطعه البالية من العظم.

قال العلّامة الخرفوتى: وحاصل معنى البيت أنّه لو كانت آياته العظام مناسبة لمقدار كماله لأحيى الله تعالى بعد وفاته ببركة اسمه العظام البالية والأجساد الفانية لكن ما أحيى الله تعالى بعد وفاته تلك العظام لستر غايات كمالاته بين الأنام. (ص٩١)

وقد يشير إليه كلام العلامة الباجورى حيث قال: ودعاءه باسمه كأن يقال يا ميّت إحى باسم محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. (ص٢٨)

وساق العلّامة الخرفوتى حكاية تؤيّد ما أفاده سابقاً عن دلائل النبوّة حيث قال: مات فى زمانه عليه الصلاة والسلام فتى من الأنصار. فزمّله من فى أطرافه. فجاءت أمّه الضعيفة العمياء. فأخبروها بموته. فقالت اللّهم إن كنت تعلم أنّى هاجرت إليك وإلى نبيّك رجاء أن تغيثنى فى كلّ شدّة فلا تحمل علىّ هذه المصيبة بحرمة نبيّك. فبعد هذا الدعاء كان ابنها الميّت حيّاً. فكشف وجهه. فقام وأكل الطعام مع الحاضرين. وروى أنّ سيّدنا جابر ابن عبد الله رضى الله تعالى عنه دعا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم دعوة. فذبح له غنمة فجاء ابنه الكبير. فسأل من أخيه الصغير قائلاً كيف ذبح أبونا الغنم. فقال الغلام الصغير له جئ حتى أريك. فأطاعه الغلام الكبير فشدّ يديه ورجليه. فأخذ السكّين وذبحه فذهب برأسه إلى أمّه فبكت أمّه فخاف الغلام منها ففرّ وصعد السطح فمرّت أمّه من خلفه فرمى الغلام بنفسه من السطح فمات فصبرت أمّهما على هذه المصيبة فلفّتهما فى خرقة وحفظتهما فى البيت وشرعت فى طبخ الطعام. فلمّا جاء الرسول صلّى الله تعالى عليه وسلّم أحضروا الطعام فنزل جبرائيل فقال له عليه الصلاة والسلام أمر الله تعالى لك أن تأكل هذا الطعام مع ابنى جابر. فأعلم رسول الله جابراً. فجاء جابر إلى زوجته فسألها فقالت ليسا بحاضرين هنا فجاء جابر إليه عليه الصلاة والسلام فقال إنّهما ليسا بحاضرين يا رسول الله. فأمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم و كرّر الأمر بالإتيان بهما. فجاء جابر فأقدم على زوجته فاضطرّت وأخبرت بالسرّ. فجاء جابر إليه عليه الصلاة والسلام باكياً فأخبره بالقضيّة. فتفكّر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فنزل جبريل فقال إنّ الله تعالى يأمرك أن تدعو لهما ويقول منك الدعاء ومنّا الإجابة. فدعا رسول الله لهما بالحياة فأحياهما الله تعالى فقاما وأكلا معه صلّى الله تعالى عليه وسلّم انتهى ملتقطاً بتصرّف منّا يسير. (ص٩٢)

هذا وقد اشتملت الزبدة لمولانا على القارى على زبدة زكيّه ونبذةٍ لفوائد بهيّة جديرة بأن تذكر للمناسبة قال رحمه الله تعالى: والمعنى أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ظهرت له الآيات البيّنات الدالّة على رسالته ونبوّته

صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم وتبیّن له الکرامات والمعجزات المشعرة علی علوّ مرتبته ورفعة عظمه بقدر ما اقتضی من قضاء الله تعالی وقدره وحکمته وإرادته ومن جملة معجزاته صلّی الله تعالی علیه وسلّم إحیاء الموتی حتی علی أیدی بعض أمّته ومع هذا لو أراد الله تعالی المناسبة التامّة السنیّة بین ذاته العلیّة وآیاته البهیّة لأحیی الله تعالی باسمه فضلاً عن رسمه إذا دُعی أو ذکر اسم من أسمائه أو وصف من أوصاف صفاته العظام البالیة والأجسام الفانیة من الأموات الحقیقیة والمجازیة حیث جعل خاصّیة اسمه المحمّدی أو وصفه الأحمدی أنّه إذا ذکر علی میت حقیقی صار حیّاً حاضراً وإذا ذکر علی کافر أو غافل جعل مؤمناً وحوّل ذاکراً لکنّ الله تعالی ستر جمال هذا الدرّ المکنون وکمال هذا الجوهر المصون لحکمة بالغة ونکتة سابقة ولعلّها لیکون الإیمان غیبیّاً والأمر تکلیفیّاً لا لشهود عینیّاً والعیان بدیهیّاً أو لئلّا یصیر مزلقة لأقدام العوام۔

وقال: ولا شبهة أنّ فی مقام المبالغة عود ضمیر یدعی إلی اسمه صلّی الله تعالی علیه وسلّم أولی من أن یقال یدعی الله تعالی بأسماءه الحسنی. ثمّ قال: ولا یرد أنّ القرآن لشرف شأنه لا یمکنه البیان فإنّ الکلام فی عظمة الدلالة لا فی شرف مقدار المقالة. فإنّه لو کان دلالة القرآن ظهرت علی قدر عظمة نبیّنا العظیم الشأن لما أنکر نبوّته ورسالته صلّی الله تعالی علیه وسلّم أحد وأظهر الله تعالی فی الدنیا عظمته. ولذا قال تعالی (ولو أنّ قرآناً سُیّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو کلّم به الموتی بل لله الأمر جمیعاً) أی لکان هذا القرآن لکنّه صرف عمّا ذکر لما کان هناك مانع منیع۔ (الزبدة: ص٦٠،٦١)

رقم البیت (٢٧)

بسم الله الرحمن الرحیم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الکریم وآله وصحبه الکرام أجمعین ومن تبعهم بإحسان إلی یوم الدین.

وبعد فقد أخذنا فی شرح البیت التاسع عشر من الفصل الثالث من البردة بحول الله سبحانه وتعالی فنقول أراد الناظم الفاهم فی هذا البیت أن یبیّن مدی حرصه صلّی الله تعالی علیه وسلّم علی إیصال الخیر لأمّته وتعهّده لهم وإشفاقه علیهم وأنّه علی ما بلغ من السموّ الّذی لا یدانی وتمکّن من المکانة الّتی لا تسامی. لا یشبه ملوك الدنیا الّذین لا یبالون برعیتهم ویکلّفونهم ما لیس فی وسعتهم فقال:

لم یمتحنّا بما تعی العقول به

حرصاً علینا فلم نرتب ولم نهم

الامتحان والاختبار الابتلاء والإیقاع فی المحنة. یقال امتحن فلاناً: اختبره وابتلاه. والشیء :نظر فیه ودبّره. والفضّة: محنها. ویقال:اُمتُحِن فلان: وقع فی محنة کذا فی المعجم الوسیط۔ تعیی من عیی بالأمر : عجز عنه ولم یهتد لوجه الصواب. یستعمل متعدّیاً ولازماً یقال عیّ فی منطقه یعیی عِیّا بکسر العین وعیاء: عجز عنه فلم یستطع بیان مراده منه. وعیّ بأمره وعیّ عن حجّته. والأمر. وبالأمر : جهله. وأعیا الرجل أوالبعیر فی سیره: تعب تعباً شدیداً. ویقال: أعیاه السیر. وعلیه الأمر : أعجزه فلم یهتد لوجهه. ویقال:أعیا الداء الطبیب. ومن هنا یعلم أن الإعیاء

يستعمل غالباً فيما يحصل من عجز عن حركة والعيّ ما حصل من عجز فی رأی وبيان وههنا حكاية جرت للكسائی ذكرها العلّامة الخرپوتی وهی: أنّ الكسائی تعلّم النحو فی كبر سنّه وكان سبب تعلّمه أنّه مشی يوماً حتّی أعی فجلس عند قوم ليستريح فقال عيّيت بالتشديد بغير همزة. فقالوا له لا تجالسنا وأنت تلحن. قال الكسائی: فكيف أقول؛ قالوا إن أردت من التعب والمشقّة فقل أعييت. وإن أردت من التحيّر فی الأمر والرأی فقل عييت مخفّفاً. فقام الكسائی من فوره وسأل عمّن يُعَلِّمُ النحو. فأرشدوه إلی معاذ. فجاء وقرأ عليه حتّی نفد ما عنده ثمّ خرج إلی البصرة إلی الخليل ابن أحمد كذا ذكره المحقّق فی تعريفاته. (الخرفوتی ص ۹۳)

أقول: من هنا تتمكّن أن تستفيد مدی المتقدّمين من العرب فی حفاظهم علی اللّغة والتحفّظ عن اللّحن.

والعقول جمع العقل وهو فی الأصل الحبس والمنع والشدّ والربط والحصانة ومنه المعقلة وهی الدية والمعقل بمعنی الحصن وبه سمّی الحصن. ويقال علی قوّة مهيّأة لإدراك الكلّيات بالذّات والجزئيات بالآلات. وملكة تعقل المرء عن الفضائح وتمنعه عن القبائح.

ثمّ اعلم أنّ العقل له معان منها جوهر مجرّد متعلّق بالبدن تعلّق التدبير والتصرّف. قال التفتازانی هذا ما قيل جوهر ليس بجسم ولا جسمانی. ومنها قوّة للنفس الإنسانية بها يتمكّن من إدراك الحقائق. ولعلّ هذا ما قالوا قوّة للنفس بها تستعدّ للعلوم والإدراكات. ومنها القوّة الغريزيّة الّتی يلزمها العلم بالضروريّات ونفس العلم بذلك. ومنها قوّة مميّزة بين الأمور الحسنة والقبيحة. ومنها هيئة محمودة للإنسان. ومنها قوّة للنفس بها تنتقل من الضروريّات إلی النظريّات. ومنها جوهر مجرّد عن المادّة فی ذاته مقارن لها فی فعله وهی النفس الناطقة الّتی يشير إليها كلّ أحد بقوله أنا. ثمّ اختلف فی محلّ العقل فقيل نور فی بدن الآدمی. وقيل فی الرأس ونوره فی القلب. وقيل فی القلب وإشراقه فی الدماغ. (الخرفوتی ص ۹۲، ۹۳)

وقوله الحرص شدّة الرغبة فی الشیء. ونرتب من الارتياب وهو الشكّ والتردّد. ونهم من الوهم أو من الهُيام ويقال وهم بالفتح إذا رجّح جانبَ الباطل وهام إذا تحيّر فی أمره العاقل. والإدراك الجازم المطابق هو العلم والراجح الظنّ والمرجوح الوهم والمساوی الشكّ.

والمعنی كما قال مولانا علی القاری أنّه صلّی الله تعالی عليه وسلّم من غاية رأفته ونهاية رحمته لم يأتنا بشیء من عقائد الإسلام ولم يكلّفنا بشیء من تكاليف الأحكام لم يهتد العقل لإدراكه ويعجز صاحبه عن إدراكه بل أتانا بالدين الحنيفيّة النوداء والملّة السمحة البيضاء لأجل حرصه علينا وكمال التفاته إلينا فلم نشكّ فی رسالته ولم نتحيّر فی متابعته ولم نختر طريقاً علی طريقته الجامعة من شريعته وحقيقته صلّی الله تعالی عليه وسلّم. (الزبدة ص ۶۱)

قوله النوداء كذا فی النسخة الّتی فی أيدينا وهو تصحيف ولعلّ الصواب النوضاء بالضاد أی المتلألأة من ناض ينوض نوضاً إذا تلألأ. كذا فی المعجم والقاموس ولسان العرب وغيره. (الأزهری غفر له)

وفی هذا البيت تلميح إلی قوله تعالی لقد جاء كم رسول من أنفسكم عزيز عليه الآية. وإيماء إلی قوله تعالی وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين. وإشارة إلی قوله تعالی ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتی كانت عليهم. وتلويح إلی

قوله عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفيّة السهلة السمحاء، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة.

قال العلّامة الباجوري: فإن قيل كيف يصحّ قول المصنّف لم يمتحنّا بما تعيا العقول به مع أنّ فى القرآن المتشابه الّذى لايعلم تأويله إلّا الله. أجيب بأنّ المراد لم يمتحنّا فيما كلّفنا به بما تعيا العقول به وحينئذ فلا يرد المتشابه لأنّه لايتعلّق به تكليف لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها على أنّ التحقيق أنّ الوقف على قوله تعالى والراسخون فى العلم. فهم يعلمون تأويله ويعلّمونه لغيرهم. (حاشية الباجوري ص٢٨)

هذا والّذى يجب التنبّه له هوالإيهام الّذى وقع فيكلام الباجوري. ويجب التحرّز عنه بحمل كلامه فى المتشابه على أنّ المكلّفون بالإيمان بمبناه والتنزيه عن ظاهر معناه وتفويض المراد إلى ربّ العباد وعدم القطع على التعيين بوجه من الوجوه وهذا شىء لا تعيى عنه الأفهام فلم يمتحنّا خير الانام عليه الصلاة والسلام بما تعجز منه الأحلام فى درك المرام.

رقم البيت (٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا البيت العشرون فى الفصل الثالث من البردة فى مدح من أعيى عن وصفه الواصفون وهو قول الناظم الفاهم:

أعيى الورى فهم معناه فليس يُرَى

للقرب والبعد منه غير منفحم

مضى من المصنّف أنّه أخبر بعجز اللّسان عن الإحاطة بفضائل سيّد الإنس والجانّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم وترقّى فى هذا البيت فأبان أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فوق ما وصفه بحيث لايقدر قدره من السموّ. ولا تقدر العقول على إدراك مبلغه من العلوّ فقال:

أعيى الورى فهم معناه فليس يُرَى

للقرب والبعد منه غير منفحم

أعيى أعجز. الورى الخلق. معنى الشىء مقصوده وكمال المرء والضمير فى معناه عائد على النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ويقرأ بالإشباع. والفاء فصيحة تفصح عن شرط مقدّر أى إذا أعجز الخلق فهم معناه فليس يرى. و"ليس" إذا دخلت على الفعل قدّر فيه ضمير الشأن يفسره ما بعده. ويرى بالبناء للمفعول خبر ليس. للقرب وفى نسخة فى القرب فاللّام بمعنى فى. والقرب والبعد إمّا زمانيّان وإمّا مكانيّان وإمّا بمعنى المنزلة. ومنه وفى نسخة فيه بإشباع الضمير فيهما متعلق بيرى أو بمنفحم. وفى نسخة منهم والضمير عائد على الورى. وفيه متعلّق بمنفحم والضمير عائد على النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو بمعناه. غير مفحم نائب فاعل ليرى أومنصوب على أنّه حال

أو مفعول ثانٍ والرؤية قلبيّة أوبصريّة فإن كانت من الأولى يكون قوله الآتي مفعولها القائم مقام الفاعل وقد تقدّم بيانه وإن كانت من الثانية فالمفعول الثاني أحد الجارّين مع المجرور. ومنفحم من الانفحام وهو قبول الإلزام وأصله من الفحم. والمعنى على التشبيه أنّ وجه الخصم عند الإلزام يسودّ كالفحم. وغير يأتي على أوجه: فقد يكون اسماً بمعنى إلّا. ويعرب حينئذ إعراب الاسم الواقع بعد إلّا فينصب على الاستثناء. ويكون اسماً بمعنى سوى وبمعنى ليس نحو كلامك غير مفهوم أي ليس بمفهوم. و يعرب هنا على حسب العوامل. واسماً بمعنى لا نحو قوله تعالى: "فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ". والمعنى فمن اضطرّ جائعاً لا باغياً ولاعادياً. وهي منصوبة فيها جميعاً على الحال. وصفة نحو قوله تعالى: غير المغضوب عليهم" ويعرب حينئذ إعراب الموصوف. وهو في الآية مجرور لأنّه صفه للّذين. وهوملازم للإضافة. وقد يقطع عنها إن فهم معناه وسبقه "ليس" أولا. نحو قبضت عشرة ليس غير. أو لا غير. ويقال: فعله غير مرّة: أي أكثر من مرّة. وعندي غير كتاب: أي أكثر من كتاب. ويقال: جاء ببنات غيرٍ أي بأكاذيب كذا في المعجم الوسيط. وغير منفحم هنا بمعنى سوى منفحمٍ أو إلّا منفحماً.

والمعنى إن فهم معانيه الخفيّة البهيّة و كمالاته العلميّة السنيّة أعجز الكائنات بأسرها والمخلوقات بشراشرها فلا يبصر بل ولايعلم في القرب والبعد المكانيين أو العهد والعصر على أن يكون القرب والبعد عبارة عن الزمانيين منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حال كونه غير عاجز عن إدراك معناه وغير ساكت عن حقيقة مبناه سواء من شرف بلقاءه وطوبى لمن رآه أو تحسّر على عدم مطالعته طلعة مولاه مقولاً في حقّه واشوقاه أو القرب والبعد بحسب المرتبة والمنزلة يعني يستوي في عدم العلم بإحاطة كمالاته والتحيّر في علوّ ذاته ورفعة صفاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم من قرب إليه في الحال والمقام كأولي العزم من الرسل الكرام العظام والملائكة المقرّبين وحملة العرش الكرام ومن بعد عن همّته ومسايرته من عوامّ الأنام. (الزبدة ص٦٢).

وقال في تذكرة القرطبي لم يظهر كمال حسنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وإلّا لما أطاقت أعين الصحابة رضي الله تعالى عنهم النّظر إليه.

رقم البيت (٢٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد أتينا بحمد الله على شرح البيت الحادي والعشرين من الفصل الثالث من قصيدة البردة. فلنأخذ في شرحه بحول الله سبحانه وتعالى. أراد الناظم الفاهم أن يأتي بمزيد بيان لما أفاد فيما سبق من عجز الورى عن فهم معناه ويخرج المعقول إلى المحسوس. كأنّه مشاهد بالعيان فقال:

كالشمس تظهر للعينين من بُعُد
صغيرةً وتُكِلُّ الطرف من أمم

أي هو كالشمس فهو خبر مبتدأ محذوف. من بعد من بمعنى في. بعُد لغة في بعْد كقفل وقفل. واللّام في للعينين

للاستغراق فشمل الحكم الأولياء والأصفياء بل جميع أهل البصائر والإدراك من الأنبياء والأملاك ويشهد له قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم "يا أبابكر لم يعرفني حقيقة غير ربّي". ويحتمل أن يكون قد جاء بالتثنية في العينين إشارة إلى عين البصر وعين القلب. وتُكلّ من الإكلال وهو التعجيز. والطرف البصر. والأمم القرب أو المقابلة والمقابلة في طرف المشبّه التوجّه إليه والإقبال عليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم لمعرفة كماله وصرف الهمّة إلى الإحاطة بكنه حاله. وقوله تظهر صغيرة إفصاح عن وجه الشبه فالتشبيه بالشمس على هذا المعنى وليس على الإطلاق ولك أن تجعله من التشبيه المقلوب أي من حيث المعنى وإن كان ظاهر اللّفظ لايساعده. والمعنى الشمس تشبه نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم لامن كلّ وجه وقد جلّ عن أن يكون له مثيل وإنّما مثلت الشمس حين تتراءى للعيون صغيرة من بعد وتكلّ الطرف عند المقابلة حاله صلّى الله تعالى عليه وسلّم في البطون والظهور للعيون وكلال الطرف عند المواجهة كأنّهم ينظرون إليه وهم لا يبصرون. وعلى هذا فهو من التشبيه المقلوب من جهة المعنى كما في قول الشاعر:

وبدا الصباح كأنّ غرّته
وجه الخليفة حين يمتدح

وإنّما جاء بهذا التشبيه لتقريب الأفهام إلى ما ذكر من عجز الأنام عن إدراك غايته واكتناه كنهته وإلّا فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم فوق الشمس في الإضاءة. والشمس إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم تحتاج ومنه تستمدّ الإضاءة فنوره من نور النبوّة. وإلى انحطاط مرتبة المشبّه به عن درجه الممدوح أشار أبو نواس حيث قال:

يتيه الشمس والقمر المنير
إذا قلنا كأنّهما الأمير

لأنّ الشمس تغرب حين تمسي
وأنّ البدر ينقصه المسير

ونبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم أحق بذلك وبما فوق ذلك وله المثل الأعلى.

وحاصل معنى البيت أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم في وصفه الّذي تقدّم من أنّه عجز عن فهم مبناه وعلم معناه الورى كالشمس الّتي تظهر للعينين من جهة البعد حال كونها صغيرة وتعجز البصر والنظر من القرب وتُصَيِّرُ نفس الرائي حسيرة والحاصل أنّ الشمس على ما قيل إنّها قدر كرة الأرض مائة وبضعاً وستّين مرّة كما أنّها تظهر من المسافة البعيدة صغيرة. وإذا تقرّب الشخص لإدراك حقيقتها يرى نفسه عاجزة حقيرة كذلك عليه الصلاة والسلام يرى في بادىء النظر أنّه فرد من أفراد البشر. وإذا تأمّل المرء في جمال ذاته وكمال صفاته عجز وتحيّر. وفي هذا البيت إشارة دقيقة إلى قوله عليه الصلاة والسلام اللّهمّ اجعلني في عيني صغيراً أي لمشاهدة عظمتك وفي أعين الناس كبيراً أي لمكاشفة قدرتك. قال تعالى ورفعنا بعضهم درجات. قال المفسّرون المراد بالبعض ذاته العليّة الصفات. أو يقال إنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم يرى في نظر الأغيار من أهل الغفلة من الأسرار صغيراً وفي عين أهل البصيرة من الأعيان خلاصة الإنسان كبيراً. قال تعالى وتراهم ينظرون إليك أي ظاهراً وهم

لایبصرون أی باطناً۔

وقال فی روح البیان تحت قوله تعالى (وتراهم) الرؤیة بصریّة والخطاب لکلّ واحد من المشرکین أی وتری الأصنام أیها الرائی رأی العین (ینظرون إلیك) حال من المفعول أی یشبهون الناظرین إلیك ویخیّل إلیك أنّهم یبصرونك. إلی أن قال. وتری المشرکین یا محمّد ینظرون إلیك بأعینهم وهم لایبصرونك ببصائرهم أی کما أنت علیه فهم غائبون عنك فی الحقیقة إلّا أن یقرّوا بالتوحید وصدق الرسالة. ذکر. أنّ السطر الأوّل من خاتم سلیمان علیه الصلاة والسلام کان بسم الله الرحمن الرحیم. والسطر الثانی لا إله إلّا الله. والسطر الثالث محمّد رسول الله. فلمّا أدخله جبریل فی إصبعه لم یقدر أصحابه أن یروه فتضرّعوا. فقال قولوا لا إله إلّا الله محمّد رسول الله. فلمّا قالوه رأوه۔ وسرّه أنّه أحاطه المهابة فلمّا اشتغلوا بالتوحید حصل لهم الاستعداد والقدرة. وحکی. أنّ السلطان محمود الغازی دخل علی الشیخ الربّانی أبی الحسن الخرقانی قدّس سرّه لزیارته وجلس ساعة ثمّ قال یا شیخ ما تقول فی حقّ أبی یزید البسطامی. فقال الشیخ هو رجل من رآه اهتدی واتصل بسعادة لا تخفی. فقال محمود وکیف ذلك وأبو جهل رأی رسول الله صلّی الله تعالى علیه وسلّم ولم یتصل بالسعادة ولم یتخلّص من الشقاوة؟ فقال الشیخ فی جوابه إنّ أبا جهل ما رأی رسول الله صلّی الله تعالى علیه وسلّم وإنّما رأی محمّد بن عبد الله یتیم أبی طالب حتّی لو کان رأی رسول الله صلّی الله تعالى علیه وسلّم لخرج من الشقاوة ودخل فی السعادة. ثمّ قال الشیخ ومصداق ذلك قول الله تعالى (وتراهم ینظرون إلیك وهم لایبصرون) فالنظر بعین الرأس لایوجب هذه السعادة بل النظر بعین السرّ والقلب یورث ذلك فمن رأی أبا یزید بهذه العین فاز بالسعادة۔

قال الأزهری: وما أفاده الملّا علی القاری فی الزبدة وقد تقدّم نصّه أوجه وأملح وحاصله أنّ الخطاب لیس خاصّاً للمشرکین وإنّما الخطاب لکلّ واحد وقد یؤیّده ما ذکره فی روح البیان من الحکایة الّتی مرّ ذکرها۔ انتهی

وقول سیّدی أبی الحسن الخرقانی عن أبی جهل أنّه رأی محمّد بن عبد الله یتیم أبی طالب أی علی حسب زعمه وإطلاق یتیم أبی طالب فی محلّ الاستخفاف به ممنوع یکفر به القائل. جاء فی الشفاء ما نصّه: وأفتی فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقّه الطلیطلی وصلبه بما شهد علیه به من استخفافه بحقّ النبی صلّی الله تعالى علیه وسلّم وتسمیته إیّاه أثناء مناظرته بالیتیم وختن حیدرة۔ (الشفاء ص۲۰۵)

هذا وقد استطرد سیّدی العلّامة إسماعیل الحقی فی روح البیان فی سرد أمور مهمّة یجدر بنا ذکرها لتمام النفع وإن لم یظهر تمام مناسبتها للمقام. قال رضی الله تعالى عنه ما نصّه: وفی الحدیث (طوبی لمن رآنی ولمن رأی من رآنی ولمن رأی من رأی من رآنی ولمن رأی من رأی من رأی من رآنی) وظهر من هنا أنّ رؤیة الأولیاء أیضاً إنّما تفید إذا کانت بالبصیرة۔ ثمّ إنّ الرؤیة تتناول ما فی الیقظة وما فی المنام. قال بعضهم فی قوله علیه الصلاة والسلام (من رآنی فقد رأی الحق) من رآنی مطلقاً أی سواء کانت الرؤیة فی الیقظة أو فی المنام فقد رأی الرسول الحق. وقال بعضهم من رآنی فی المنام فقد رأی الرؤیا الصادقة لا الرؤیا الّتی یلعب بها الشیطان. قال الشیخ الأکمل فی شرح المشارق المنام الحق هو الّذی یریه الملك الموکّل علی الرؤیا. فإنّ الله تعالى قد وکّل بالرؤیا ملکاً یضرب من الحکمة والأمثال. وقد أطلعه الله علی قصص ولد آدم من اللّوح المحفوظ. فهو ینسخ منها ویضرب لکلّ قصّة مثلاً فإذا نام

يمثّل له تلك الأشياء على طريق الحكمة لتكون بشارة له أو نذارة أو معاتبة ليكونوا على بصيرة من أمرهم. واعلم أنّ جميع الأنبياء معصومون من أن يظهر شيطان بصورهم فى النوم واليقظة لئلّا يشتبه الحق بالباطل. يقول الفقير أصلحه الله القدير سمعت من حضرة شيخى المتفرّد فى زمانه بعلمه وعرفانه أنّ الشيطان لايتمثّل أيضاً بصور الكمّل من الأولياء الكرام كقطب الوجود فى كلّ عصر فإنّه مظهر تامّ للهدى سار فى سرّه سرّ النبى المصطفى صلّى الله تعالى عليه وسلّم تسليماً كثيراً. فعلى العاقل أن يترك القيل والقال ويدع الاعتراض بالمقال والحال ويستسلم لأمر الله الملك المتعال إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ويتخلّص من مكر الشيطان البعيد عن ساحة العزّ والإجلال ويكون هادياً بعد كونه مهدياً إن كان ذلك أمراً مقضياً. (روح البيان ٢٩٨،٢٩٧،٢٩٦/٣).

رقم البيت (٥٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد انتهينا إلى البيت الثانى عشر من الفصل الثالث من البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته

قوم نيام تسلّوا عنه بالحلم

لمّا بيّن الناظم الفاهم العجز عن إدراك كمالاته عليه الصلاة والسلام بالغ فيه مع الإشارة إلى علّة ذلك العجز فقال:

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته

قوم نيام تسلّوا عنه بالحلم

قوله كيف موضوعة للسؤال عن الحال، وهى هنا للاستفهام الإنكارى. قوله يدرك يتصوّر ويبلغ إلى حقيقة منه. قوله فى الدنيا الّتى هى حجاب عظيم بين الأرواح ومعارفها لانصباب الأرواح فى قوالب الأجسام المظلمة. قوله حقيقته صلّى الله تعالى عليه وسلّم من كمالاته الظاهرة والباطنة بالكنه وعلى طريق التفصيل. وقوله فى الدنيا متعلّق بيدرك.

قال فى الذخر والعدّة: وفى تقييد عدم الإدراك بالدنيا إيماء إلى إدراك ذلك فى الآخرة بالمقام المحمود والوسيلة العظمى والدرجة العليا.

وقال الخرفوتى: إنّما قيّد عدم الإدراك بالدنيا لأنّ استتار الحقيقة المحمّدية واختفاء كمالاته الأحمديّة مخصوص بالدنيا. لأنّ فى الآخرة تظهر مراتب كلّ واحد، ولذا يرى المؤمنون فى الآخرة ربّهم بغير كيف ومكان. ولذا قال صاحب الأمالى (يراه المؤمنون بغير كيف. لأنّ فى الآخرة تبدل الأعيان إلى حالة أخرى)، ولذا قال بعض العارفين (وإنّما امتنع رؤية الله تعالى فى الدنيا الفانية لأنّ الباقى لا يرى إلّا بالعين الباقية).

قوله قوم بالرفع فاعل يدرك. قوله نيام بكسر النون جمع نائم، والنوم فى أصله زوال الشعور بسبب

استرخاء أعصاب الدّماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة إليه. والمراد هنا لازمه من الغفلة مجازاً مرسلاً. قوله تسلّوا عنه أى قنعوا عن إدراك كنه معناه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. قوله بالحلم أى بالشيء اليسير الّذى أدركوه منه فى الدنيا إمّا بالعيان وإمّا بالبيان الشبيه بما يراه النائم. وأمّا فى الآخرة فيظهر لجميع الخلائق كمال معناه. وتمام حقيقته. والحلم أصلها سكون. وضمّها لغة تقدّمت فى العقم.

وحاصل معنى البيت أنّه لا يدرك فى الدنيا حقيقته قوم غافلون قنعوا بخياله وتسلّوا بما رأوا فى النوم من تمثاله فقصروا النظر على صورته البشرية ورؤية أفعاله النفسيّة وظلمات الشواغل الحسّيّة ولم يدركوا بالبصيرة انسلاخه الكلّى عن ملابس ذاته ومقادر صفاته بفناء أفعاله فى أفعال الحقّ وصفاته فى صفات الحق واستنشاق روائح روح القرب واستبشاره بالاستشراف على مشاهدة أسرار الوحدانية والعبور عن غيوب الحضرات الجبروتية فهؤلاء النيام إذا انتبهوا بالموت عن منامهم وانجلى بصرهم بانكشاف أغطية ظلامهم وتجرّدوا عن قيودهم الناسوتية وكشفوا بأيدى الغيرة أستار الغيرية عن وجه الحقيقة اللّاهوتية شمّوا روائح وحدانية الذات الأحدية من رياض الحضرة الأحدية أي لا يكشف النقاب عن وجه حقيقة الحقائق إلّا من السلخ عن ظلام الاثنينية وقيود العلائق فإنّ تعريف لذّة السماع للبليد الّذى لا يجد منه ذوقاً وطيب الرائحة للمزكوم من جملة المحالات فإنّه لا يعرف الشمس إلّا من يشاهدها.

رقم البيت (٥١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثالث والعشرين من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

فمبلغ العلم فيه أنّه بشر
وأنّه خير خلق الله كلّهم

قوله فمبلغ أى منتهى العلم أى علم الورى. والألف واللّام فيه للعهد الخارجى أى علمهم بصفاته وكمالاته. قوله فيه أى فى النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. والظرف إمّا صفة للعلم أو حال منه. قوله أنّه أى النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. قوله بشر أى إنسان. وسمّى الإنسان بشراً لبدوّ بشرته وظهور جلدته. قوله وأنّه (صلّى الله تعالى عليه وسلّم) خير خلق الله كلّهم أى أفضل جميع مخلوقاته إنساً وجنّاً وملكاً. والجملة فى محلّ الخبر عطفاً على أنّ ومدخولها فيما مرّ.

قال فى الذخر والعدّة: فى البيت إيماء إلى تساوى الناس فى البشريّة والتمايز بالمعارف والخصائص الجميلة. فالمصنّف أومأ إلى الأوّل بأنّه بشر يشارك أبناء هذا النوع فى البشرية وإلى الثانى إجمالاً بأنّه خير خلق الله كلّهم.

وحاصل معنى البيت أنّ غاية ارتقاء هؤلاء النيام ومدارج معرفة النبي عليه الصلاة والسلام أنّه أفضل

البشر وخير خلق الله ولايدرون غاية قربه من حضرة الإله. ولا يلاحظون انفراده فى مقام جمعه ورؤيته بحكم الحديث بعين الله وسماعه بسماعه.

رقم البيت (٥٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الرابع والعشرين من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

كلّ آى أتى الرسل الكرام بها
فإنّما اتّصلت من نوره بهم

قوله كلّ آى جمع آية يعنى المعجزة والكرامة. قوله أتى أى جاء. الرسل بسكون السين تخفيفاً جمع رسول والألف واللّام فيه للاستغراق. الكرام جمع كريم أى مكرّم والكرامة الدلالة على صحّة الرسالة بالمعجزة. ووصفهم بالكرامة لكرامتهم عنده تعالى وهى صفة مادحة للتأكيد. قوله بها أى بتلك الآى. قوله فإنّما هى إرادة حصر وأدخل عليها الفاء لتضمّن المبتدأ معنى الشرط. قوله اتّصلت أى بتلك الآى. وهاتيك الكرامات الّتى هى أنوار يهتدى بها إلى سائر الكمالات لسائر المخلوقات. واقتصر الناظم على معجزات الرسل لأنّها أساس كمالات أشرف الخلق. من ابتدائية. نوره أى نور النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. بهم أى وصلت منه إليهم بطريق الاستمداد. وذلك لأنّ نوره صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان مخلوقاً قبل آدم صلوات الله وسلامه عليه. بل قبل سائر المخلوقات من السماوات وما فيها. والأرض وما عليها وغير ذلك. كما دلّت عليه الأخبار الصحيحة والنصوص الصريحة. ثمّ انتقل إلى آدم وحوّاء. وهكذا إلى كلّ صلب طيّب ورحم طاهر مصفّى مهذّباً طاهراً طيّباً إلى أن وصل إلى سيّدنا عبد الله وسيّدتنا آمنة.

رقم البيت (٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الخامس والعشرين من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

فإنّه شمس فضل هم كواكبها
يُظهرن أنوارها للناس فى الظلم

قوله فإنّه أى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فالفاء سببية أو تعليل. قوله شمس فضل أى كماله كالشمس فى كمال الإضاءة وشدّة الإنارة. والإضافة من إضافة الصفة لموصوفها مبالغة فى الاختصاص وإضافة الموصوف إلى المشتق منه الوصف مبالغة فى ثبوته له. وذلك أنّ لا يضاف إليه إلّا لاختصاصه واشتهاره بذلك.

قوله هم أى الرسل الكرام. كواكبها أى كواكب شمس فضله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. يظهرن أى تلك الكواكب. أنوارها أى أنوار شمس فضله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. للناس فى الظلم أى فى أزمنة الجهل والضلالات الشبيهة بالظلم.

وحاصل المعنى أنّ نسبة أنوار الرسل الكرام إلى نوره صلّى الله تعالى عليه وسلّم كنسبة أنوار الكواكب اللّيلية. من قمر وغيره. إلى نور الشمس. بجامع أنّ الاوّل يستمدّ من الثانى. وأنّ نوره مستفاد من نوره. وذلك أنّ الكواكب اللّيلية على ما تقرّر فى الهيئة أجرام غير مضيئة فى ذواتها. لكنّها صقِلة تقبل الضوء. وجرم الشمس أكبر من جرم الأرض. فإذا غابت الشمس تحت الأرض فاضت أنوارها عن جوانب الأرض. فيطلب الصعود لكونه نورانيّة إلى جهة العلو. فيصادف أجرام الكواكب الصقليّة المقابلة. فيرتسم فيها. فتضىء فى الظلمة وتظهر أنوار الشمس للناس فى اللّيل المظلم من غير أن ينقص من نور الشمس شىء. وكما أنّ الشمس أفضل من الكواكب فنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم أفضل الرسل. وكما أنّ الشمس إذا بدت لم يبق للكواكب نور. كذلك النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم لمّا بدا لم يبق لأحد من الرسل شريعة بل نسخت شريعته جميع شرائعهم ومحا نوره لسائر أنوارهم. فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم سلطانهم الأكبر ورئيسهم الأفخر وجنسهم العالى الأظهر فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم علم الرسالة وتاج النبوّة صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم وشرّف وكرّم.

رقم البيت (٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت السادس والعشرين من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

أكرم بخَلْقٍ نبىٍّ زانه خلق
بالحسن مشتمل بالبشر متّسم

لمّا ذكر الناظم الفاهم من خلقه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأخلاقه ما ذكر. أخذ يتعجّب منهما ذاكراً فى ضمن ذلك شيئاً من صفاته الجليّة وسماته الجميلة فقال:

أكرم بخَلْقٍ نبىٍّ زانه خلق
بالحسن مشتمل بالبشر متّسم

قوله أكرم صيغة التعجّب. بخلق أى بصورة. نبىّ كرّمه الله تعالى عن سائر الخلق. وتنوينه للتعظيم. وإضافة

خلق إلى نبيّ من إضافة المصدر إلى مفعوله۔ زانه من الزين ضدّ الشين. الخلق بالرفع فاعل زان والمراد منه الأوصاف الروحانية والأعراض النفسانية بذكر الفرد وإرادة الجمع كما في قوله تعالى (وإنّك لعلى خلق عظيم)، أو إرادة الجنس كما في قوله تعالى (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها)۔ والجملة صفة إمّا لخلق أو لنبيّ. والفائدة فيها القصد إلى كمال حسن الصورة بانضمام حسن السيرة. فزاد كمالاً على كمال. قوله بالحسن متعلّق بالمشتمل المؤخر وإنّما قدّم ليفيد الحصر والألف واللّام للاستغراق يعني اشتمال جميع أنواع الحسن مقصور على نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم دون غيره۔ وقوله مشتمل بالجرّ صفة بعد صفة لنبيّ وهو على صيغة اسم الفاعل من الاشتمال بمعنى الإحاطة والاجتماع.

قال في العمدة: الظرف متعلّق بقوله مشتمل، وهو بالجرّ صفة للنبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو لخلق أي صار الحسن له كالثوب. فهو مشتمل به. وفيه إشارة إلى أنّ الحسن قد عمّه من سائر الجهات۔

قوله بالبشر أي بطلاقة الوجه وبشاشته واستنارته بالمسرّات. والظرف متعلّق بقوله متّسم وهو اسم فاعل من الاتّسام بمعنى الاتّصاف من الوسم بمعنى العلامة أي المعلم. وهو بالجرّ أيضاً صفة أخرى لنبي.

وحاصل المعنى ما أحسن صورة نبيّ حسنه خلق متّصف بالحسن متّصف بالبشاشة وطلاقة الوجه.

رقم البيت (٥٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت السابع والعشرين من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

كالزهر في ترف والبدر في شرف

والبحر فيكرم والدهر في همم

قوله كالزهر الزهر اسم جنس جمعي واحده زهرة. والظرف متعلّق بمحذوف صفة أخرى لنبي أو خبر مبتدأ محذوف أي هو كالزهر والكاف للتشبيه. قوله في ترف أي نعومة جسم ونضارته وطيب رائحته۔ والبدر أي القمر ليلة كماله. وهو معطوف على الزهر۔ وفي شرف أي علوّ القدر وحسن البهجة۔ وشرف البدر على سائر الكواكب اللّيليّة كشرف النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم على سائر الرسل۔ وهذان الوصفان يرجعان إلى الصورة والخلق المشتمل على الحسن۔

قال الخرفوتي: ثمّ اعلم أنّ البدر من أسماء ه عليه الصلاة والسلام وقد صادف تشبيهه عليه الصلاة والسلام بالبدر لأنّ التشبيه بالبدر أبلغ عند العرب من التشبيه بالقمر والشمس. أمّا الأوّل فلأنّ البدر وقت كماله دون القمر۔ وأمّا الثاني فلما سبق أنّ البدر يملأ الأرض بنوره ويؤنس كلّ من شاهده ويتمكّن من النظر إليه بخلاف الشمس الّتي تغشي البصر فتمنع من تمكّن الرؤية ولقد أحسن من قال:

كالبدر والكاف لو أنصفت زائدة
فلا تظنن فيه الكاف للشبه

وبالجملة انّهم قالوا إنّ التشبيهات الواردة فى صفاته عليه الصلاة والسلام إنّما هى على عادة شعراء العرب وإلّا فلا شيء من هذه المحدثات يعادل صفاته الخلقية والخلقية انتهى.

والبحر عطف على الزهر أو البدر. فى كرم يعنى أنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم كالبحر فى إعطاء ما ينفع لأنّه كما أنّ البحر يعطى الإنسان لؤلؤاً ومرجاناً وجواهر كثيرة. فكذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقد ثبت كرمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بأخبار كثيرة وآثار وفيرة منها حديث أنس مرفوعاً أنا أجود بنى آدم. وفى رواية لمسلم ما سئل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم شيئاً إلّا أعطاه فجاء رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه. فقال: يا قوم أسلموا فإنّ محمّداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر. وفى رواية اعطى صفوان يوم حنين وادياً مملوءاً إبلاً ونعماً. ولله درّ ابن جابر حيث قال:

هذا الّذى لا يتّقى فقراً إذا
يعطى ولو كفر الأنام وداموا

واد من الأنعام أعطى آملاً
فتحيّرت لعطاءه الأوهام

وفى رواية البخارى عن أنس أنّه عليه الصلاة والسلام أعطى العبّاس من الذهب والفضّة ما لم يطق حمله.

وقوله الدهر أى الزمان بمعنى أهله. والهمم جمع همّة. وهى قوّة العزم. والمعنى أنّ كلّ همّة من همه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كهمم أهل الدهر بل أعلى وأجلّ:

له همم لا منتهى لكبارها
وهمّته الصغرى أجلّ من الدهر

له راحة لو أنّ معشار جودها
على البرّ كان البرّ أندى من البحر

وبالجملة فهمّته صلّى الله تعالى عليه وسلّم أعلى الهمم. فمنها كفّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بغلة يوم حنين قِبَل الكفّار حين فرّ النّاس عنهم إلى أن هزم الكفّار بحصيات رماهم بها. وهو يقول:

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطّلب

كما فى مسلم.

وروى مسلم عن البراء: كنّا والله إذا احمرّ البأس نُتّقَى برسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

رقم البيت (٥٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الکریم وآله وصحبه أجمعین ومن تبعهم بإحسان إلی یوم الدین.

وبعد فهذا أوان الشروع فی شرح البیت الثامن والعشرین من الفصل الثالث من قصیدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

کأنّه وهو فرد فی جلالته
فی عسکر حین تلقاه وفی حشم

لمّا بیّن الناظم الفاهم وصفه صلّی الله تعالی علیه وسلّم من بشاشته وزیادة کرمه أشار إلی کمال هیبته فقال:

کأنّه وهو فرد فی جلالته
فی عسکر حین تلقاه وفی حشم

قوله کأنّه أی النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم. وقوله وهو فرد حال أی حالة کونه منفرداً عن الأعوان والأتباع. وقوله فی سببیة أو ظرف. وفی نسخة من وهو للتعلیل. جلالته أی مهابته وعظمته. فی عسکر أی جیش عظیم کثیر خاص به. حین تلقاه بدیهة. وفی حشم أی خدم خاص به أیضاً.

وحاصل معنی البیت کأنّه صلّی الله تعالی علیه وسلّم والحال أنّه منفرد بذاته وثابت فی عظمة صفاته وکأنّه فی کمال هیبته وجمال أبّهته قائم فی قلب عسکر کبیر وفی وسط جیش کثیر تلقاه أیّها المخاطب وتراه فی ذلك الموکب ومن کمال شجاعته ما روی أنّ أبا جهل کان وصیاً لیتیم فجاء الیتیم عریاناً یسأله من مال نفسه فطرده ولم یعطه ماله فأیس الصبی. فقال أکابر قریش قل لمحمّد لك یشفع وکان غرضهم الاستهزاء ولم یعرف الیتیم ذلك. فجاء إلی النبیصلّی الله تعالی علیه وسلّم والتمس منه ذلك وهو صلّی الله تعالی علیه وسلّم کان لا یردّ محتاجاً. فذهب معه إلی أبی جهل فقام أبو جهل ورحّب به وبذل المال للیتیم. فعیّره قریش وقالوا أصبوت؟ فقال لا والله ما صبوت. ولکن رأیت عن یمینه وعن یساره حربة. فخفت إن لم أجبه یطعننی. وکذا ما ذُکِر أنّه کان بمکّة رجل شدید القوّة یحسن الصراع یقال له رکانة وکان الناس یأتون إلیه من البلاد للمصارعة فیصرعهم. فبینما هو ذات یوم فی شعب من شعاب مکّة إذا لقیه رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم. فقال یا رکانة ألا تتقی الله وتقبل ما أدعوك إلیه؟ فقال له رکانة یا محمّد هل من شاهد علی صدقك؟ قال أرأیت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله؟ قال نعم یا محمّد. فقال له تهیّأ للمصارعة. قال تهیّأت. فدنا منه رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم فأخذه ثمّ صرعه. فتعجّب رکانة من ذلك. ثمّ سأله الإقالة والعودة. ففعل به ذلك ثانیاً وثالثاً. ووقف رکانة متعجباً وقال إنّ شأنك عجیب.

رقم البيت (٥٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد انتهينا بحمد الله سبحانه وتعالى إلى البيت التاسع والعشرين من الفصل الثالث من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

كأنّما اللؤلؤ المكنون فى صدف

من معدنى منطق منه ومبتسم

لمّا فرغ الناظم الفاهم عن بيان ما انفرد به صلّى الله تعالى عليه وسلّم من الشجاعة وامتاز به على سائر الأبطال من البسالة. أراد أن ينبّه المحبّين لهذا النبى الكريم على ما خُصّ به من استدامة البشر والبشاشة وحُسن منظره حين يتكلّم ويبتسم. وأنّه كان أبعد النّاس من الغلظة والفظاظة دائم البشر والبشاشة إلى ما حاز من الشجاعة الفذّة فأنشأ يقول:

كأنّما اللّؤلؤا المكنون فى صدف

من معدنى منطق منه ومبتسم

وهذه صفة سادسة للنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم عكس فيها الناظم الفاهم الأسلوب جرياً على التشبيه المقلوب وفى البيت الذى قبله جاء بالتشبيه على الأصل تنبيهاً على أنّ ما سلف من التشبيهات من قبيل التشبيه المقلوب معنىً كما أنّ ما جرى عليه هنا من صريح المقلوب فى اللّفظ. والتشبيه المقلوب أحسن وأبلغ من أصل التشبيه. لإفادته بأصالة الفرع فى قوّة وجه الشبه. فيكون أظهر فى الفرع فكأنّ الفرع أصل والأصل فرع. وهو كما ترى أبلغ فى الوصف وأوقع فى النفس.

كأنّ للتشبيه وما كافّة عن العمل واللّؤلؤ الدرّ الأبيض وإنّما أطلق عليه الجوهر الأبيض لتلألؤه وهو مبتدأ خبره قوله الآتى من معدنى منطق أى مستخرج وحاصل من معدنى منطق. والمكنون بالرفع صفة اللّؤلؤ بمعنى المستور والمصون. والصدف ظرف اللّؤلؤ. قال الحياتى فى شرح التحفة الصدف حيوان من حيوانات البحر يكون أكثرياً فى بحر بلاد الهند والصين. فإذا جاء شهر نيسان يخرج على وجه البحر ويكشف فمه إلى جانب السماء. فإذا سقط فى فمه قطرة واحدة من المطر. فى ذلك الوقت تكون تلك القطرة فى بطنه درّة ذات قيمة كثيرة يقال لها الدرّة اليتيمة والفريدة. وإذا سقط فى فيه منه قطرتان تكون تانك القطرتان فى بطنه درّتين يقال لهما اخوان لكن تكون قيمتهما أنقص وأقلّ من الأوّل. وإذا سقط فى فيه منه قطرات ثلاث تكون درراً ثلاثاً. وإن أربعاً فأربع وقس على هذا. لكن كلّما زادت القطرات كانت قيمة درّها أنقص. ثمّ إنّ الصدف حيوان أوّلاً وإذا سقط الدرّ فى فمه ينزل إلى قعر البحر ويتأصّل فيه كتأصّل الشجر ولا يتحرّك إلى طرف أصلاً كالحجر انتهى.

المعدن بكسر الدال وهو فصيح محلّ العدن بمعنى الإقامة وهو على صيغة التثنية حذف نونه بالإضافة.

والمنطق والمبتسم إمّا مصدران فالإضافة بمعنى اللّام. والمعدن للمنطق هو القلب لأنّه يظهر منه الكلام الدالّ على المرام. لا يقال الكلام فى اللّسان لا فى القلب. لأنّا نقول حقيقة الكلام فى القلب دون اللّسان بل هو دليل عليه ترجمان له كما أفاده قول الأخطل:

إنّ الكلام لفى الفؤاد وإنّما
جعل اللّسان على الفؤاد دليلا

ومعدن الانبساط هو الفم لأنّه يظهر منه الأسنان والثغر. وإمّا اسما مكان فعلى هذا تكون الإضافة بيانية كما لا يخفى.

اللؤلؤ المكنون مفرد لفظاً مثنّى معنىً والقرينة عليه قوله من معدنى منطق ومبتسم. وكذا القول فى صدف. وفى قوله اللؤلؤ المكنون تشبيهان أحدهما معقول وهو كلامه صلّى الله تعالى عليه وسلّم والآخر محسوس وهو ثغره صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وفيه استعارة تصريحية حيث شبّه جوامع كلمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأسنانه عليه الصلاة والسلام باللؤلؤ المكنون بجامع الحفظ والصيانة. وطوى ذكر المشبّه وأطلق المشبّه به على المشبّه. ورمز إلى المشبّه به بشىء من اللّوازم وهو كونه فى صدف وقوله فى صدف ترشيح للاستعارة.

وحاصل المعنى أنّه عليه الصلاة والسلام كان فى غاية البشاشة ونهاية اللّطافة ولم يكن غليظ القلب كما يشهد عليه شاهد صدق. وكان كلامه وثغره المصون كالدرّ المكنون. وكان فمه عليه الصلاة والسلام فى حفظ الكلام كالصدق المقبول بين الأنام. قال صاحب الزبدة حكى أنّ بعضهم رأى فى المنام الصدّيق يرثى النبى بهذا البيت والبيت الّذى قبله.

رقم البيت (٥٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد أتينا على شرح البيت الثلاثين وهو ختام الفصل الثالث من قصيدة البردة أعنى قول الناظم الفاهم:

لا طيب يعدل ترباً ضمّ أعظمه
طوبى لمنتشق منه وملتثم

سبق من الناظم الفاهم مدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بما حاز صلّى الله تعالى عليه وسلّم من المزايا فى صورته ومعناه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ومضى فى وصفه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بما يدلّ على أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلم فضل سائر الخلق فى ذاته وصفاته بأساليب مختلفة حتى انتهى إلى البيت الّذى قبل هذا البيت. أراد أن ينبّه على أنّه من الأصالة فى الفضل بحيث ما اتّصل به اكتسب فضلاً لا يجارى. وأنّ فضله بعد مفارقة الدنيا لا ينقص بل يدوم كما كان ويزداد أبداً قال سبحانه وتعالى (وللآخرة خير لك من الأولى). لا لنفى الجنس. والطيب اسم لما يتطيّب به. يعدل أي يساوي يقال فلان عديل فلان أي مساويه خبر لا واسمها الطيب. والترب بسكون

الراء لغة في التراب والتنوين فيه للتعظيم. وضمّ بمعنى التصق ومسّ. والجملة صفة. ترباً. والأعظم جمع عظم وأراد بها جميع بدنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مجازاً من قبيل ذكر الجزء وإرادة الكلّ. وطوبى من الطيب قلبوا الياء واواً. وهو إمّا مصدر بمعنى التطيّب أو اسم لشجرة في الجنّة يسير الراكب في ظلّها مائة عام ولا يقطعها. وعلى الأوّل فهو بدل من اللّفظ بفعله وهو طاب. والأصل طاب المنتشق والملتثم فحذف الفعل وأتى بالمصدر بدلاً من التلفّظ به وزيدت اللّام لتبيين الفاعل. وعلى الثاني هو مبتدأ خبره ما بعده. وعلى كلّ فيحتمل أنّه إخبار وأنّه دعاء. ومنتشق اسم فاعل من الانتشاق وهو الاشتمام يعني طوبى لمن شمّ ذلك التراب ومنه متعلّق بمنتشق ويقرأ هاء منه بالإشباع وضميره راجع إلى تربته. وملتثم عطف على منتشق وهو من الالتثام بمعنى التقبيل. ولا يبعد أن يكون المراد من المنتشق الغابر ومن الملتثم المقيم المجاور. ولمّا كان الطيب يستعمل على وجهين تارة يستعمل بالشمّ وتارة يستعمل بالتضمّخ أشار للأوّل بقوله لمنتشق وللثاني بقوله وملتثم.

وحاصل المعنى لا طيب يساوي التراب الّذي جمع الجسد الشريف وهو تراب قبره صلّى الله تعالى عليه وسلّم الطيّب أو الشجرة الّتي في الجنّة لمنتشق منه وملتثم على التفسيرين السابقين في طوبى.



الفصل الرابع
فی مولده (صلّی اللہ تعالیٰ علیہ وسلّم)

رقم البيت (٥٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى قيام الساعة وساعة القيام.

وبعد فقد فرغنا بحمد الله سبحانه وتعالى عن شرح أبيات الفصول الثلاثة من قصيدة البردة وهذا أوان الشروع بعون الله سبحانه وتعالى في شرح أبيات الفصل الرابع من القصيدة المجيدة الّتي مطلعها من هذا الفصل قول الناظم الفاهم:

أبان مولده عن طيب عنصره

يا طيب مبتدأ منه ومختتم

احتفل فيه الناظم الفاهم بمولد النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم فنبّه بصنيعه الجميل على مشروعية الاحتفال بمولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم، وأنّه سنّة جميلة توارثه المسلمون جيلاً بعد جيل فيكلّ عصر، وناهيك به إماماً وقدوة كما نبّه على شرف نسبه الزكي وطهارته عن دنس الشرك فليس في آباءه وأمّهاته من لدن آدم وحوّاء إلى عبد الله وآمنة رضي الله تعالى عنهما مشرك بل كلّهم موحّدون، وحبا الله سبحانه وتعالى نبيّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مزيد فضل على فضل بإحياء أبويه له حتّى آمنا به صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فانضمّ لهما فضل الإيمان به صلّى الله تعالى عليه وسلّم إلى فضل التوحيد، ولجدّنا الإمام الشيخ الهمام أحمد رضا قدّس سرّه رسالة مستقلّة في هذا الموضوع سمّاها "شمول الإسلام لأصول الرسول الكرام"، وفّقنا الله سبحانه و تعالى لتعريبها و تحقيقها و تقريرات مهمّة عليها والحمد لله على ذلك.

أبان فعل ماض من الإبانة وهو الإظهار والكشف ويتعدّى بنفسه وبعن. مولده مصدر ميمي بمعنى الولادة أو ظرف مكان أو زمان والضمير راجع إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم والإسناد إليه مجازي. والمعنى أظهر الله سبحانه و تعالى لولادته أوحين وُلد أوحيث ولد صلّى الله تعالى عليه وسلّم عجائب لا يحصرها العدّ وينحصر دونها الحدّ. وبما قرّرنا ظهر أنّ المفعول محذوف، وعن لإفادة السبب أي بسبب ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم. الطيب الطهارة والخلوص عمّا لاينبغي. والعنصر الأصل "يا طيب مبتدأ" منادى منصوب للإضافة للتعجّب على ماجرت به عادة العرب من أنّهم ينادون ما يستعظمون. والمقصود من حيث المعنى نداء جميع ذوي العقول. والمعنى أيّها العقلاء تعجّبوا من طيب مبتدأ منه ومختتم. وفي نسخة مبتدأ مصدر بمعنى البداية و كذا المفتتح وذكر الطرفين أعني المبتدأ والمختتم يدلّ على إحاطتهما بما بينهما ودوام الطيب والاستمرار له صلّى الله تعالى عليه وسلّم على حسب العرف كما في قوله تعالى "وسبّحوه بكرة وأصيلا" أي دائماً.

قال العلّامة علي القاري في الزبدة: فيه إيماء إلى حسن خاتمة وفاتحة وإنباء إلى علوّ سعادته في بدايته الّتي هي أساس نهايته. وقال الصدّيق الأكبر رضي الله تعالى عنه لما قبّله بعد مماته صلّى الله تعالى عليه وسلّم (طبت حيّاً

ومیّتاً) وكما قال الشاعر:

فى المهد ينطق عن سعادة جدّه
إثر النجابة ساطع البرهان

ومنه بإشباع الهاء متعلّق بمبتدأ. وحذف من الثانى أى المختتم الجار والمجرور أى منه لدلالة الأوّل عليه. والضمير فى "منه" راجع إلى عنصره على ما قال العلّامة الباجورى وهو المتعيّن عنده ويدلّ عليه قوله والمراد بالمفتتح من فوق آدم عليه السلام اهأو إلى طيب عنصره أو إلى النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

ثمّ اعلم أنّ ماروى من أنباء فضائله فى زمان ولادته وأخبار عجائبه فى زمان ابتداءه كثير لايُعدّ ولايُحصى، منها ما ذكر فى كتب الأحاديث أنّه لمّا استقرّت نطفته الزكيّة ودرّته المحمّديّة فى صدف آمنة القريشية نودى فى الملكوت ومعالم الجبروت أن عطّروا جوامع القدس الأسنى وبخّروا جهات الشرف الأعلى وافرشوا سجّادات العبادات فى صفف الصفا لصفوفية الملائكة المقرّبين أهل الصدق والصفا فقد انتقل النور المكنون إلى رحم آمنة ذات العقل الباهر والفخر المصون وقال سهل بن عبد الله التسترى لمّا أراد الله تعالى خلق محمّد عليه الصلاة والسلام فى بطن آمنة ليلة رجب وكانت ليلة جمعة أمر الله فى تلك اللّيلة خازن الجنان أن يفتح الفردوس ونادى منادٍ فى السماوات والأرض أنّ النور المخزون الّذى يكون منه نور النبى الهادى فى هذه اللّيلة يستقرّ فى بطن أمّه الّذى يتمّ فيه خلقه عليه الصلاة والسّلام وروى أنّه كانت قريش فى جدبٍ شديدٍ وضيقٍ عظيمٍ فاخضرّت الأرض وحملت الأشجار فسمّيت تلك السنة الّتى حمل فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام سنة الفتح والابتهاج وفى رواية أنّ آمنة قالت ثمّ أخذنى ما يأخذ النساء ولم يعلم بى ذكر ولا أنثى وانّى لوحيدة فى المنزل وعبد المطلب فى طوافه سمعت وجبة عظيمة وأمراً عظيماً هالنى ثمّ رأيت كأنّ جناح طير أبيض قد مسح على فؤادى فذهب عنّى الرعب وكلّ وجل أجده ثمّ التفتّ وإذا أنا بشربة بيضاء فتناولتها فأصابنى نور عال ثم قالت ورأيت رجالاً قد وقعوا فى الهواء بأيديهم أباريق من فضّة فكشف الله عن بصرى فرأيت مشارق الأرض ومغاربها ورأيت ثلاثة أعلام مضروبة علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر الكعبة فأخذنى المخاض فوضعت محمّداً عليه الصلاة والسلام فنظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع إصبعه إلى السماء كالمتضرّع المبتهل ثمّ رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء حتّى غابت عنّى فسمعت منادياً ينادى طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها وأدخلوه فى البحار ليعرفوه بنعته وصورته وهذه القصّة طويلة يتحيّر منها الأفهام حتّى إنّ بعض الفضلاء الكرام وضعوا المولد عليه السلام كتاباً مستقلّاً فى حسن النظام ومن أراده فعليه الرجوع والقيام.

رقم البيت (٦٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

وبعد فلمّا انطوى البيت السابق على الإشارة إلى ما أبان مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم من عجائب وكان

هذا مقدّراً في كلامه واقتضى المجمل أن يفصّل شرع الناظم الفاهم في تفصيل ما احتواه البيت السابق فقال:

يوم تفرّس فيه الفرس أنّهم

قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

يوم أي هو يوم فهو خبر لمبتدأ محذوف والضمير راجع إلى مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم والمراد به مطلق الزمان الصادق بما قبل مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم وما بعده ومنعه الخرفوتي وأراد باليوم يوم ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم خاصّة ولعلّ الأوّل أوجه وأشمل لما ظهر من حوادث عجيبة قبيل مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما قدمرّ فيما مضى ويأتي في ذكر ربيعة بن نصر وشقّ وسطيح.

وتفرّس أي نظر وعلم بالفِراسة بالكسر وهي قوّة يدرك بها الإنسان المعاني الباطنة من المخائل الظاهرة بخلاف الفَراسة بالفتح فإنها الحذق في ركوب الخيل والفُرْس بضمّ الفاء وسكون الراء أهل مملكة فارس وكانوا مجوساً يعبدون النار بعد رفع كتابهم حين بدّلوه. وإنّما سمّوا فرساً لأنّه ولد لأبيهم بضعة عشر رجلاً كلّ منهم شجاع فارس فسمّوا الفرس لذلك. وقدورد في مدح أهل فارس حديث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم حيث قال "إنّ الله اختار من بين خلقه من العرب قريشا ومن العجم فارسا". وفي حديث آخر "أبعد النّاس عن الإسلام الروم"، و(لوكان الإسلام معلّقا بالثريا لتناوله رجال من فارس). وفي رواية (لوكان العلم معلّقاً بالثريّا لتناوله قوم من أبناء فارس). وظهر مصداق هذا في سيّدنا أبي حنيفة النعمان ابن الثابت رضي الله تعالى عنه.

وقوله أنّهم بالإشباع. وأنّ مع اسمها وخبرها مفعول تفرّس والضمير للفرس. وقد للتحقيق. وأنذروا فعل ماض مجهول من الإنذار بمعنى التخويف مع الإبلاغ. وبحلول متعلّق بالإنذار والحلول من حلّ يحِلّ من باب ضرب يضرب وحلّ يحُلّ من باب نصر ينصر. ويجيء الفعل من كلا البابين لمعانٍ عدّة. قال في المعجم الوسيط: حلّ الشيء يحِلّ حلالاً: صار مباحاً. فهو حلّ وحلال. والمرأةُ: جاز تزوّجها. قال تعالى (فإن طلّقها فلاتحلّ له من بعد حتّى تنكح زوجاً غيره). والمحرمُ: جاز له ما كان ممنوعاً منه. وفلان: جاوز الحرم. قال تعالى (فإذا حللتم فاصطادوا). والدّينُ حلولاً: وجب أداءه. وغضب الله على النّاس: نزل. قال تعالى (فيحلّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى). والعقدة يحُلّ حلاً: فكّها ونقضها. ويقال حلّ المشكلةَ ونحوَها. والجامدَ: أذابه. والكلامَ المنظومَ: نثره. والمكان وبه حلولاً: نزل به. قال تعالى (أو تحُلّ قريباً من دارهم). ويقال حللتُ القوم. وحللتُ بهم. وحللتُ عليهم. والبيت: سكنه. فهو حالّ. (ج) حُلُول. وحُلّال. وحُلّل. (المعجم الوسيط)

ومعنى البيت أنّ زمن مولده زمن تفرّس أي نظر وعلم بالمخائل الظاهرة الفرس أنّهم قدأنذروا أي خُوّفوا وبُلّغوا وأعلموا بحلول أي بنزول البؤس والشدّة والنقم أي العقوبات بهم.

ولنذكر نبذة من خبر ربيعة بن نصر وما رأى من رؤيا هالته وفزع بها وما رآه ملك فارس وقصّة شقّ وسطيح وما أخبرا به من أمور عجيبة وما وقع لهما من التبشير بالنبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم من سيرة ابن هشام وشرحه الروض الأنف للسهيلي وغيرهما فنقول: قال ابن هشام: قال ابن اسحاق: وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة. فرأى رؤيا هالته. وفظع بها. فلم يدع كاهناً ولاساحراً ولاعائفاً ولامنجّماً من أهل

مملكته إلّا جمعه إليه. فقال لهم: إنّى قد رأيت رؤيا هالتنى. وفظعت بها. فأخبرونى بها وبتأويلها. قالوا له: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إنّى إن أخبرتكم بها لم أطمئنّ إلى خبركم عن تأويلها. فإنّه لايعرف تأويلها إلّا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشقّ. فإنّه ليس أحد أعلم منهما. فهما يخبر أنّه بما سأل عنه.

قال ابن إسحاق: فبعث إليهما فقدم عليه سطيح قبل شقّ. فقال له: إنّى رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها. فأخبرنى بها فإنّك إن أصبتها أصبت تأويلها. قال: أفعل. رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة فأكلت منها كلّ ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأت منها شيئاً ياسطيح ما عندك فى تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحرّتين من حنش. لتهبطنّ أرضكم الحبش. فليملكنّ ما بين أبين إلى جُرَش. فقال له الملك: وأبيك يا سطيح. إنّ هذا لنا لغائظ موجع. فمتى هو كائن؟ أفى زمانى هذا أم بعده؟ قال: لابعده بحين أكثر من ستّين أو سبعين يمضين من السنين. قال: أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع؟ قال: لا بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين. ثمّ يقتلون ويخرجون منها هاربين. قال: ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إرم ذى يزن. يخرج عليهم من عدن. فلا يترك أحداً منهم باليمن. قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ فقال: لا بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبىّ زكىّ. يأتيه الوحى من قبل العلى. قال: وممّن هذا النبى؟ قال: رجل من ولد غالب ابن فهر بن مالك ابن النضر. يكون الملك فى قومه إلى آخر الدّهر. قال: وهل للدّهر من آخر؟ قال: نعم. يوم يجمع فيه الأوّلون والآخرون. يسعد فيه المحسنون. ويشقى فيه المسيئون. قال: أحقّ ما تخبرنى؟ قال: نعم. والشفق والغسق. والفلق إذا اتّسق. إنّ ما أنبأتك به لحقّ.

ثمّ قدم عليه شقّ. فقال له كقوله لسطيح. وكتمه ما قال سطيح. لينظر أيتفقان أم يختلفان. فقال: نعم. رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كلّ ذات نسمة. قال: فلمّا قال له ذلك عرف أنّهما قد اتّفقا. وأنّ قولهما واحد إلّا أنّ سطيحاً قال: وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كلّ ذات جمجمة. وقال شقّ: وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كلّ ذات نسمة. فقال له الملك: ما أخطات يا شقّ منها شيئاً. فما عندك فى تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحرّتين من إنسان. لينزلنّ أرضكم السودان. فليغلبنّ على كلّ طفلة البنان. وليملكنّ ما بين أبين إلى نجران.

فقال له الملك: وأبيك يا شقّ. إنّ هذا لنا لغائظ موجع. فمتى هو كائن؟ أفى زمانى أم بعده؟ قال: لا بل بعده بزمان. ثمّ يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن. ويذيقهم أشدّ الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشأن؟ قال: غلام ليس بدنىّ. ولا مدنّ. يخرج عليهم من بيت ذى يزن. فلا يترك أحداً منهم باليمن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسل يأتى بالحقّ والعدل. بين أهل الدين والفضل. يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يوم تجزى فيه الولاة ويدعى فيه من السماء بدعوات. يسمع منها الأحياء والأموات. ويجمع فيه بين الناس للميقات. يكون فيه لمن اتّقى الفوز والخير قال أحقّ ما تقول؟ قال: إى وربّ السماء والأرض وما بينهما من رفع وخفض. إنّ ما أنبأتك به لحقّ ما فيه أمض.

قال ابن هشام: أمض يعني شكاً هذا بلغة حمير. وقال أبو عمرو: أمض أي باطل.

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالا. فجهّز بنيه، وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم. و كتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرّزاذ فأسكنهم الحيرة.

قال في الروض الأنف: وكان سطيح جسداً ملقى لا جوارح له. فيما يذكرون. ولا يقدر على الجلوس إلّا إذا غضب انتفخ فجلس. وكان شقّ شقّ إنسان. فيما يذكرون. إنّما له يد واحدة. ورجل واحدة. وعين واحدة. ويذكر عن وهب بن منبه أنّه قال: قيل لسطيح: أنّي لك هذا العلم؟ فقال: لي صاحب من الجنّ استمع أخبار السماء من طور سيناء حين كلّم الله تعالى منه موسى. عليه السلام. فهو يؤدّي إليّ من ذلك ما يؤدّيه.

وقوله في حديث الرؤيا: أكلت منها كلّ ذات جمجمة. وكلّ ذات نسمة. نصب كلّ أصحّ في الرواية وفي المعنى. لأنّ الحمم نار. فهي تأكل ولا تؤكل. على أنّ في رواية الشيخ برفع كلّ. ولها وجه. لكن في حاشية كتابه أنّ في نسخة البرق الّتي قرأها على بن هشام كلّ ذات. بنصب اللام.

وقوله: (خرجت من ظلمة) أي من ظلمة. وذلك أنّ الحممة قطعة من نار. وخروجها من ظلمة يشبه خروج عسكر الحبشة من أرض سودان. والحممة: الفحمة. وقد تكون جمرة محرقة. كما في هذا الحديث. فيكون لفظها من الحميم. ومن الحمّى أيضاً لحرارتها. وقد تكون منطفئة. فيكون لفظها من الحمة. وهي السواد. حمّمت وجهه إذا سوّدته. وكلا المعنيين حاصل في لفظ الحممة ههنا.

وقوله: بين روضة وأكمة، لأنّها وقعت بين صنعاء وأحوازها.

وقوله: في أرض تهمة: أي: منخفضة. ومنه سمّيت تهامة.

وقوله أكلت منها كلّ ذات جمجمة. ولم يقل كلّ ذات ذي جمجمة. وهو من باب قوله تعالى سبحانه {ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدعُ مثقلَة إلى حملها لا يُحمَل منه شيء} فاطر:١٨

لأنّ القصد إلى النفس والنسمة. فهو أعمّ. ويدخل فيه جميع ذوات الأرواح. ولو جاء بالتذكير. لكان إمّا خاصّاً بالإنسان. أو عامّاً في كلّ شيء حي أو جماد. ومنه قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: تنحّ عنّي فإنّ كلّ بائلة تفيخ. أي: يكون منها إفاخة. وهي الحدث. وقال النحّاس: هو تأنيث الصفة والخلقة.

وقوله: ليهبطن أرضكم الحبش. هم: بنو حبش بن كوس بن حام بن نوح. وبه سمّيت الحبشة.

وقوله: ما بين أبين إلى جرش ذكره سيبويه بكسر الهمزة على مثل إصبع. وجوّز فيه الفتح. وكذلك تقيّد في هذا الكتاب. وقال ابن ماكولا: هو أبين بن زهير بن أيمن بن الهميسع من حمير. أو من بن حمير سمّيت به البلدة. وقد تقدّم قول الطبري إنّ أبين وعدن ابنا عدن. سمّيت بهما البلدتان.

وقوله بغلام لا دني ولا مدنّ. الدني معروف. المدنّ الّذي جمع الضعف مع الدناءة. قاله صاحب العين.

وقوله: لحقّ ما فيه أمض. أي: ما فيه شكّ ولا مستراب. وقد عمر سطيح زماناً طويلاً بعد هذا الحديث. حتّى أدرك مولد النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم فرأى كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز ما رأى من ارتجاس الإيوان. وخمود النيران. ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف عام. وسقطت من قصره أربع عشرة شرفة. وأخبره المؤذبان. ومعناه:

القاضى أو المفتى بلغتهم أنّه رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً. فانتشرت فى بلادهم. وغارت بحيرة ساوة. فأرسل كسرى عبد المسيح بن عمرو بن حيّان بن نفيلة الغسّانى إلى سطيح. وكان سطيح من أخوال عبد المسيح. ولذلك أرسله كسرى فيما ذكر الطبرى إلى سطيح يستخبره علم ذلك. ويستعبره رؤيا المؤذبان. فقدم عليه. وقد أشفى على الموت. فسلّم عليه فلم يحر إليه سطيح جواباً فأنشأ عبد المسيح يقول:

أصمّ أم يسمع غطريف اليمن
أم فاد فازلمّ به شأو العنن

يا فاصل الخطّة أعيت من ومن
أتاك شيخ الحىّ من آل سنن

رسول قيل العجم يسرى للوسن
لايرهب الرعد. ولا ريب الزمن

تجوب بى الأرض علنداة شزن
ترفعنى وجناً وتهوى بى وجن

حتّى أتى عارى الجآجى والقطن
تلفّه فى الريح بوغاء الدمن
كأنّما حُثحِثَ من حضنَى ثكن

ثكن اسم جبل. فلمّا سمع سطيح شعره رفع رأسه. فقال: عبد المسيح على جمل مشيح جاء إلى سطيح. حين أوفى على الضريح. بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الإيوان. وخمود النيران. ورؤيا الموذبان. رأى إبلاً صعاباً. تقود خيلاً عراباً. قد قطعت دجلة. وانتشرت فى بلادها يا عبد المسيح: إذا كثرت التلاوة. وظهر صاحب الهراوة. وخمدت نار فارس. وغارت بحيرة ساوة. وفاض وادى السماوة فليس الشام لسطيح شاماً. يملك منهم ملوك وملكات. على عدد الشرفات. وكلّ ما هو آت آت. ثمّ قضى سطيح مكانه.

وقوله: فازلمّ به معناه: قبض. قاله ثعلب: وقوله: شأو العنن يريد: الموت. وما عنّ منه قاله الخطابى. وفاد: مات يقال منه: فاد يفود. وأمّا يفيد فمعناه: يتبختر. (ابن هشام مع الروض الأنف ١/٥٨ إلى ٦٠ ملتقطاً)

وفيما ذكرنا توالى البشارة بالبشير النذير صلّى الله تعالى عليه وسلّم وتتابع النذارة للفرس وغيرهم وتواطؤا الكاهنين فى تعبير الرؤيا وانتشار ذكره صلّى الله تعالى عليه وسلّم قبل مولده. وتكاثر الإرهاصات. وتواتر العلامات على نبوّته صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وتعريف بالكهانة وأنّها تعتمد على ما يسّمّع الجنّ إلى خبر السماء الّذى يأتى إلى الأنبياء. وتصديق ذلك فيما قاله سبحانه وتعالى حكاية عن الجنّ "وانّا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرسا شديداً وشهباً وانّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً". وأنّ الاطّلاع على المغيّبات أصالة للأنبياء عليهم أزكى الصلوات وأطيب التسليمات. قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول). وأنّ الله سبحانه وتعالى أنطق الكهنة بالبشارة بمولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم

ومدحه عليه الصلاة والسلام بظهور دينه وغلبة أصحابه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وانتشارهم في البلاد ليكون ذلك أدهى لمن يعتقد الكهنة إلى تصديقه والإيمان به والدخول في طاعته. ثمّ لمّا ظهر صلّى الله تعالى عليه وسلّم أبطل الكهانة. وذلك لأنّهم كانوا يضيفون إلى ما يسمعون مائة كذبة كما ورد في صحيح البخاري وغيره. وفي إبطاله صلّى الله تعالى عليه وسلّم للكهانة دليل أيّ دليل على نبوّته واستبداده دون سائر الناس من غير النبيّين بمعرفة الغيب فقد لا يستقلّ العقل بمعرفة الكذب في الخبر. فلا محيد في تكذيبه أي الكهانة عن الإيمان بخبره صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّذي يوحى إليه من أنباء الغيب. فيا عجبا لمن يقرّ ببطلان الكهانة تبعاً لخبره صلّى الله تعالى عليه وسلّم وينفيكونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم يعلم الغيب والله الهادي وهو الموفّق.

شرح ما ورد من الغريب في الروايات والأبيات: الوسن: الحاجة يقال: ما هو من همّي ولا من وسني (ج) أوسان. ويقال قضت الإبل أوسانها من الماء: أوطارها وحاجتها. شزن: الغليظ من الأرض. ولعسر الخلق. ومن الشيء: ناحيته وجانبه. البعد (ج) شزن وشزون عليه. وجن: الواجن: أرض صلبة ذات حجارة. الجآجي جؤجؤ: مجتمع رؤوس عظام الصدر. وصدر السفينة. وفي حديث علي: كأنّي أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة. القطن: أصل ذنب الطائر. وأسفل الظهر من الإنسان. و"قطن النار" القيّم على نار المجوس وهو قدما. بوغاء: التراب عامّة والتراب الّذي يطير من دقته إذا مسّ. ومن الناس: سفلتهم وحمقاهم. ومن الطيب ريحه. حثحث البرق: اضطرب. والشيء والأمر: حرّكه. وفلاناً على الشيء: حضّه عليه وندبه إليه. الغطريف: السيد. المشيح: المسرع.

رقم البيت (٦١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد أخذنا في شرح البيت الثالث من الفصل الرابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وبات إيوان كسرى وهو منصدع
كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

قوله وبات معطوف على تفرّس والعائد محذوف أي بات فيه أي صار في وقت البيتوتة والمراد ليلة ولد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقوله إيوان بالكسر اسم معرب لمسقّف لا يكون بجانبه المقدّم جدار. وهمزته أصليّة إذ لو كانت زائدة لانقلبت الواو ياء كما انقلبت في أيّام. فعُلِم بهذا أنّ إيوان مثل ديوان ووزنهما فيعال والأصل فيهما إووان ودووان فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها كراهة التضعيف. روى أنّ بني ساسان بنى ذلك الإيوان في تسعين سنة وطلاه بماء الذهب ونقشه بالزبرجد واللّؤلؤ وبكلّ جوهر عظيم القيمة. فلمّا كانت ليلة ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم اهتزّ وانصدع ذلك. فسقط أربع عشرة شرفة من شرفاته. وما بقي إلّا ثمان شرفات وفي سقوط الأربع عشرة شرفة إشارة إلى أنّه يملك منهم بعده ملوكاً بعدد الشرفات الباقية. (الخرفوتي ص١١٢)

قال العلّامة الإمام علي ابن برهان الدين الحلبي في كتابه (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون): وليلة

ولادته صلّی اللہ تعالی علیہ وسلّم تزلزلت الکعبة. ولم تسکن ثلاثة أیّام ولیالیهن. وکان ذلك أوّل علامة رأت قریش من مولد النبی صلّی اللہ تعالی علیہ وسلّم. وارتجس: أی اضطرب وانشق إیوان کسری أنوشیروان. وکان بناء محکماً مبنیّاً بالحجارة الکبار والجصّ بحیث لاتعمل فیه الفؤوس؛ مکث فی بناءه نیفاً وعشرین سنة (قلت ولعلّ هذا هو الأصحّ ومرّ عن الخرفوتی أنّه مکث فی بناءه تسعین سنة). وسُمِع لشقّه صوت هائل. وسقط من ذلك الإیوان أربع عشرة شرفة (بضمّ الشین المعجمة وسکون الراء) أی ولیس ذلك لخلل فی بناءه. وإنّما أراد اللہ تعالی أن یکون ذلك آیة لنبیّه صلّی اللہ تعالی علی وسلّم باقیة علی وجه الأرض. (السیرة الحلبیة: ۱/۱۱۸) (باجوری) (زبدة)

وقال العلّامة الباجوری والحلبی واللّفظ للحلبی: ذکر أنّ الرشید أمر وزیره یحیی ابن خالد البرمکّی بهدم إیوان کسری. لأنّه بلغه أنّ تحته مالاً عظیماً. قاله الباجوری ولنتابع لفظ العلّامة الحلبی. فقال له یحیی: لاتهدم بناء دلّ علی فخامة شأن بانیه. قال: بلی، ثمّ أمر بنقضه. فقدّر له نفقة علی هدمه. فاستکثرها الرشید. فقال له یحیی: لیس یحسن بك أن تعجز عن هدم شیء بناه غیرك. فمضی لما عزم علیه وحاول هدمه وعجز عنه کما ذکره الباجوری.

وقال العلّامة الحلبی بعد ذلك: هذا والّذی رأیته فی بعض المجامیع أنّ المنصور لمّا بنی بغداد أحبّ أن ینقض إیوان کسری. فإنّ بینه وبینها مرحلة. فاستشار خالد ابن برمك فنهاه. وقال: هو آیة الإسلام ومن رآه علم أنّ من هذا بناءه لایزول أمره. وهو مصلّی علی ابن أبی طالب کرّم اللہ تعالی وجهه. والمئونة فی نقضه أکثر من الإنفاق علیه. ولا مانع من تکرّر طلب نقضه من المنصور ومن ولد ولده الرشید. (السیرة الحلبیة: ۱/۱۱۷) (الباجوری: ص۳۵).

قال العلّامة علی القاری فی الزبدة: والمراد بالکسری الثانی غیر الأوّل ولیس من باب الإظهار فی موضع الإضمار فإنّ الأوّل نوشیروان بن قباذ العادل وحدیث (ولدت فی زمان الملك العادل) لا أصل له کما قال البخاری. وأمّا الثانی فهو برویز بن هرمز بن یزدجرد بن نوشیروان. وفی شرح المنظومة أنّ هذا الثانی عمّ والد الإمام الأعظم أبی حنیفة نعمان بن ثابت بن طاؤوس بن هرمز وتلمیذه الإمام محمّد یصل إلیه فی طاؤوس وهو محمّد بن حسن بن عبد اللہ بن طاؤوس.

وکسری اسم جنس لمن یملك الفرس ویجمع علی أکاسرة علی خلاف القیاس کما أنّ قیصر اسم لمن یملك الروم والنجاشی لمن یملك الحبشة وخاقان لمن یملك الترك وفرعون لملك مصر وتبع لمن یملك الیمن. وقوله وهو منصدع خبر بات والواو فیه زائدة لتأکید لصوق الخبر بالاسم کما تکون لتأکید لصوق الصفة بالموصوف فعلی تقدیر أن یجعل وهو منصدع خبر بات یحمل الواو علی واو التأکید للصوق الخبر بالاسم ویکون کشمل حالا أفاده شیخ زاده. ثمّ قال: ولك أن تجعل کشمل خبر بات وقوله وهو منصدع حالًا انتهی. (شیخ زاده ص۱۱۵)

وقوله کشمل أصحاب کسری والشمل مجتمع القوم وما تشتّت من أمرهم فهو ضدّ یقال فرّق اللہ شملهم أی ما اجتمع من أمرهم. ویقال جمع اللہ شملهم أی ما تفرّق من أمرهم فهو من الأضداد. ویحتمل أن یکون کشمل صفة لمصدر محذوف أی انصداعاً کشمل. وقوله کشمل أصحاب کسری احتراس علی ما قال الخرپوتی وهو أن یؤتی فی کلام یوهم خلاف المقصود بما یدفعه. وعلی هذا فالمعنی أنّ انصداع إیوان کسری یشبه شمل أصحاب کسری فی دوام التفرّق وعدم الالتیام فکسره لایجبر کشملهم لایجمع.

وأنت خبير بما مرّ فى معنى الشمل من أنّه من الأضداد أنّ إيهام خلاف المقصود فى قوله كشمل فيما إذا كان الشمل بمعنى المجتمع. و كذلك إذا كان بمعنى المتفرّق والّذى يدفعه هو قوله غير ملتئم فعلى هذا محلّ الاحتراس فى قوله غير ملتئم دون قوله كشمل۔

ومن المناسب أن نقصّ عليك خبر كسرى ونسوق الخبر من الشيخ زاده والخرفوتى. قال الشيخ زادہ: روى أنّ كسرى وهو يزدجرد بن شهريار وهو آخر الأكاسرة وقد ملك الفرس واستقام له الأمر وجعل رستم ابن فرخ زاد صاحب الجيش وقال له هذه الخزائن بين يديك فاحمل منها من السلاح والذهب والفضّة ما شئت وا كفنى أمر العرب الّذين دخلوا فى بلادنا فذهب رستم من خراسان فى مأتى ألف رجل إلى وادى العراق ونقضت الدهاقنة أهل الذمّة عهودهم ووثبوا على المسلمين من كلّ جانب. فوجّه عمر رضى الله تعالى عنه العساكر المنصورة وجعل سعد بن أبى وقاص صاحب الجيش وأمر جرير بن عبد الله والمثنّى بن حارثة بمتابعة سعد والانقياد وهما كانا فى العراق مع الجيش الكثير فلمّا لحق بهما سعد وأقبلوا على رستم للمحاربة كان رستم كاهناً منجّماً وكان يكره الخروج إلى قتال العرب ورأى فى المنام كان ملكاً يجمع سلاح أهل فارس ويعطيها النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ويعطيها النبى عمر. فازداد غمّه وجبن إلّا أنّه ما وجد بدّاً من طواعية يزدجرد. وكان فى عسكر رستم خمسة آلاف شريف مطبوع شاكى السلاح يدور عليهم رحى الحرب وبعث يزدجرد معه عشرين ألفاً ومائة ألف وقيل مأتى ألف. فلمّا اصطفّ الفريقان رأى هلال ابن علقمة الهيتمى رستماً. فتوجّه إليه فرماه رستم بنشابه فسكّ بها ركابه وحمل عليه هلال فضربه فقتله. فأعطاه سعد سلبه فبلغ سلبه سبعين ألفاً سوى قلنسوته فإنّها بلغت مائة ألف وانهزم الفرس وسار سعد بن أبى وقاص خلفهم يفرّق شملهم ويقتل حزبهم ولمّا رجعت الفرس منهزمة إلى يزدجرد وأتاه خبر رستم ومقتله حمل من الخزائن ما أمكنه يريد نهاوند وأرض الجبال ولم يجتمع بعد ذلك شمله وشمل أصحابه۔

ولنتابع بقيّة القصّة قال الخرفوتى: فوصل إلى المسلمين مغانم كثيرة روى أنّهم أخذوا علم الكفّار وذهبوا به مع المغانم إلى عمر رضى الله تعالى عنه فقسمه بين المسلمين فبلغ سهم على كرّم الله تعالى وجهه شبراً منه فباعه بعشرة آلاف دينار. (شيخ زاده ص۱۱۶،۱۱۵) (خرفوتى ص۱۱۵)

ولنأت بموجز القصّة تسهيلاً للتذكرة فنسوقه من الزبدة للعلّامة على القارى رضى الله تعالى عنه وهذا نصّه: روى أنّه لمّا ارتجّ وارتعد إيوانه خاف هو وأعوانه إذ سقط أربع عشر شرفة فوجّه قاصداً إلى النعمان بن منذر أحد ملوك العرب ويستفسر عن سرّ ما بدا فرفع الخبر إلى سطيح. وقد أشرف على الضريح وهو أحد كهنة العرب ما كان له عظم سوى رأسه أصلا. فقال يكون أسباب أشتات ويموت ملوكه بعدد شرفات قيل قال بينما يعيش أربعة عشر ملكا ويموتون يدبّر الله تعالى فيما سيكون فمات عشرة منهم فى أربع سنين وانقرض أربعتهم إلى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضى الله تعالى عنه وعن كلّ الصحابة أجمعين. (الزبدة ص۶۰)

قد مرّت فيما تقدّم الإشارة إلى فائدة فشوّ الكهانة فى الفترة وأنّ النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم أبطلها لمّا ظهر وأزيدك بياناً للحكمة فى إبطالها عند ظهور النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهى والله تعالى أعلم أن يتمحّض خبر السماء ويمنع من شوب الكذب وأن يظهر أنّ الاطلاع على الغيب إنّما هو للنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم

أصالة وأنّه هو المرجع إليه وموضع نفوذ الأمر والمصدر الوحيد فالكلّ ينتهي إليه وعنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم يصدر. وإعلاء بإذن الله لقدر الإنسان وإجلالٌ له وهو أشرف المخلوقات عن التواضع لمن دونه من الجنّ فى المرتبة وحفظهم عن دناءة التملّك للجنّ وانقطاعهم بالكلّية إلى خير البريّة صلّى الله تعالى عليه وسلّم وإقبالهم بشراشرهم عليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالتوسّل به والتعويل عليه فيما يُصلحهم فى مبدأهم ومعادهم.

ولنختتم الكلام بذكر بعض العجائب الّتى ظهرت فى عام ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وما ظهر فى ليلة مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم وما أخبر صلّى الله تعالى عليه وسلّم عن نفسه وبداية أمره. قال العلّامة الحلبى فى إنسان العيون: وكانت تلك السنة الّتى ولد فيها برسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم يقال لها سنة الفتح والابتهاج فإنّ القريش كانت قبل ذلك فى جدب وضيق عظيم فاخضرّت الأرض وحملت الأشجار فأتاهم الرغد من كلّ جانب فى تلك السنة وفى حديث قد أذن الله تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكوراً كرامة لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وذكر أنّ نفراً من قريش منهم ورقاء ابن نوفل وزيد ابن عمرو ابن نفيل وعبد الله ابن جحش كانوا يجتمعون إلى صنم. فدخلوا عليه ليلة ولد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فرأوه منكّساً على وجهه. فأنكروا ذلك. فأخذوه فردّوه إلى حاله فانقلب انقلاباً عنيفاً فردّوه فانقلب كذلك الثالثة فقالوا: إنّ هذا الأمر حدث. ثمّ أنشد بعضهم أبياتاً يخاطب بها الصنم ويتعجّب من أمره ويسأله فيها عن سبب تنكّسه فسمع هاتفاً من جوف الصنم بصوت جهير أى مرتفع يقول:

تردّى لمولود أضاءت بنوره
جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب

(الأبيات)

وأخرج الحلبى عن شدّاد ابن أوس قال بينا نحن جلوس مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم إذ أقبل شيخ كبير من بنى عامر وهو مدرة قومه أى المقدّم فيهم يتوكّأ على عصاً فمثل بين يدى النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ونسبه إلى جدّه فقال: يا ابن عبد المطلب إنّى أنبئت أنّك تزعم أنّك رسول الله إلى الناس أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلّا أنّك فُهْتَ بعظيم وإنّما كانت الأنبياء والخلفاء أى معظمهم فى بيتين من بنى إسرائيل وأنت ممّن يعبد هذه الحجارة والأوثان فما لك وللنبوّة؛ ولكن لكلّ حقّ حقيقة فأنبئنى بحقيقة قولك وبدأ شأنك. فأعجب النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم لمسألته. ثمّ قال يا أخا بنى عامر إنّ لهذا الحديث الّذى سألتنى عنه نبأً ومجلساً فاجلس فثنى رجليه ثمّ برك كما يبرك البعير فاستقبله النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالحديث فقال يا بنى عامر إنّ حقيقة قولى وبدأ شأنى أنّى دعوة أبى إبراهيم عليه الصلاة والسلام أى حيث قال (ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم). أى وعند ذلك قيل له قد استجيب لك وهو كائن فى آخر الزمان. نقل الحلبى عن ينبوع الحياة أجمعوا على أنّ الرسول المذكور ههنا هو محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. (السيرة الحلبية)

رقم البيت (٦٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الرابع من الفصل الرابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

والنار خامدة الأنفاس من أسف

عليه والنهر ساهي العين من سدم

مضى الناظم الفاهم في سرد آيات ظهرت عند ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وما أحدثته من تغيّر في العالم عجيب وخرق للمعتاد فها هو ذا قائلاً:

والنار خامدة الأنفاس من أسف

عليه والنهر ساهي العين من سدم

قوله والنار خامدة الأنفاس مرفوع على الابتداء والخبر والجملة معطوفة على الجملة السابقة. فهو من عطف الجمل. ويجوز رفع النار على أنّه معطوف على إيوان ونصب الثاني وهو خامدة على أنّه حال. و كذا القول في ساهي العين على لغة من أعرب المنقوص نصباً كإعرابه رفعاً وجرّاً. والعطف حينئذ من عطف المفردات. والمراد نار الفرس فإنّهم كانوا يعبدونها وكان لهم خَدَمَة يوقدونها. وظلّت موقدة ألف عام ولم تخمد إلّا في اللّيلة الّتي ولد فيها صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وكانت نيران للفرس عظيمة. وانطفأت تلك الليلة في ساعة واحدة. وهالهم ذلك وعلموا أنّ ذلك لأمر عظيم حدث في العالم وكان كذلك. وكان هذا سبباً لإزالة ملكهم وتمزيقهم كلّ ممزّق. وخامدة اسم فاعل من خمدت النار تخمد خمداً. وخموداً: إذا سكن لهبها ولم يُطفأ جمرُها. وأمّا الهمود فانطفاء لهبها مع جمرها. وعلى هذا فالمراد بانطفاء النار فيما مرّ سكون لهبها. وفي الزبدة للعلّامة على القاري ما يشعر بأنّ الخمود والهمود واحد حيث قال: خمدت وهمدت عند ظهور نور ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ولك أن تجعل جملة "والنار خامدة" حالية كما في قولك لقيتك والجيش قادم. وقوله أنفاس جمع نفس بفتح الفاء والمراد بها اللّهب. وفيه استعارة مصرّحة. شبّه اللّهب بأنفاس وطوى ذكر المشبّه وأطلق المشبّه به وأراد المشبّه وهو اللّهب ورمز للمشبّه بشيء من لوازمه وهو خامدة. ولك أن تجعل الأنفاس تخييلاً وتدّعي في النار استعارة بالكناية و كذلك القول في العين والنهر فالعين تخييل وفي النهر استعارة بالكناية. وقوله من أسف أي من أجل أسف فمن للتعليل ومن أسف متعلّقة بخامدة. والأسف شدّة الحزن. وقوله عليه متعلّق بأسف والضمير راجع إلى الإيوان على الأظهر. وجوّز البعض أن يكون مرجعه إلى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ووجّه بأنّ ولادته سبب في ترك عبادة النيران وهذا من حسن التعليل وهو أن يدّعي لحكم علّة مناسبة كما في قوله:

وما أنزل الغيث إلّا لكي يقبّل بين يديك الثرى

وجعل الشيخ زاده مرجع الضمير للفرس أو للكفر لدلالة المقام عليه كما في قوله ولأبويه مرجع الضمير فيه

المولود والنهر أى ماء ةعطف على النار. ساهى العين أى غافل العين. من سدم أى ندم أى ضلّ الطريق من التحيّر لأنّ النادم لايخلو عن حيرة مّا والحيرة لظهور العجائب. وإلى ماذكر فى هذا البيت والّذى قبله أشار فى الهمزيّة حيث يقول:

وغدا كلّ بيت نار وفيه
كربة من خمودها وبلاء

وعيون للفرس غارت فهل
كان لنيرانهم بها إطفاء

ومعنى البيت بعد شرح الكلمات ظاهر وهو أنّ نار الفرس خمدت أنفاسها وسكن لهبها. وعيونهم غارت فلم يجر ماءها وهذا على إرادة الجنس من النهر. وإليه ينظر قول الناظم الفاهم فى الهمزيّة:

وعيون للفرس غارت فهل
كان لنيرانهم بها إطفاء

ونودّ أن نوافيك بتفصيل القصّة وماجاء فى مساحة بحيرة طبريّة من أفضل القرى لابن الحجر ونختصر لك ما أورده الحلبى فى إنسان العيون ولابأس بإعادة بعض ما مضى للمناسبة ولأنّ التكرار أعون على التذكار.

ونبدأ بنسخ العلّامة ابن حجر فى أفضل القرى قال تحت البيت المذكور فى الهمزيّة: غارت فى الأرض حتّى لم يبق منها قطرة. ومنها بحيرة طبريّة الّتى كان فيها من كثرة المياه وسعتها ما تحيل العادة غيضها. ولذا قيل: طولها ستّة أميال وعرضها مثل ذلك. وتسمّى عين ساوة لبلد معروف بينها وبين الرىّ اثنان وعشرون فرسخاً وقيل موضع بالشام. (شرح الهمزيّة ص١٢١).

قال العلّامة الحلبى: ومن ذلك أى من العجائب الّتى ظهرت تلك اللّيلة الّتى ولد فيها النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم غور ماء عيون الفرس فى الأرض حتّى لم يبق منها قطرة. وحينئذ يستفهم أى الناظم الفاهم توبيخاً وتقريعاً لهم. فيقول هل تلك المياه الّتى غارت كان بها إطفاء لتلك النيران؟ ويقال فى جوابه لا بل إطفاءها إنّما هو لوجود هذا النبى العظيم وظهوره.

ورأى الموبذان أى القاضى الكبير. وخادم النار الكبير ورئيس حكّامهم وعنه يأخذون مسائل شرائعهم رأى فى نومه إبلاً صعاباً تقود خيلاً عِراباً وهى خلاف البراذين قد قطعت دجلة وهى نهر بغداد وانتشرت فى بلادها. والإبل كناية عن الناس ورأى كسرى ما هاله وأفزعه وهو ارتجاس الإيوان وسقوط شرافاته فلمّا أصبح تصبّر أى لم يظهر الانزعاج لهذا الأمر الّذى رآه تشجّعاً ثمّ رأى أنّه لايدّخر ذلك أى هذا الأمر الّذى هاله وأفزعه عن مرازبته أى فرسانه وشجعانه فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره. ثمّ بعث إليهم. فلمّا اجتمعوا عنده قال أتدرون فيما بعثت إليكم؟ قالوا: لا. إلّا أن يخبرنا الملك. فبينما هم كذلك إذ أورد عليهم كتاب بخمود النيران. وورد عليه كتاب من صاحب إيليا يخبره أنّ بحيرة ساوة غاضت تلك اللّيلة. وورد عليه كتاب صاحب الشام يخبره أنّ وادى السماوة انقطع تلك اللّيلة. وورد عليه كتاب صاحب طبريّة يخبره أنّ الماء لم يجرِ فى بحيرة طبرية. فازداد غمّاً

إلى عمّه. ثمّ أخبرهم بما رأى وبما هاله وهو ارتجاس الإيوان وسقوط شرافاته. فقال الموبذان. فأنا أصلح الله الملك. قد رأيت فى هذه اللّيلة رؤيا ثمّ قصّ عليه رؤياه فى الإبل. فقال أى شىء يكون هذا يا موبذان؟ قال حدث يكون فى ناحية العرب. فابعث إلى عاملك بالحيرة يوجّه إليك رجلاً من علماءهم فإنّهم أصحاب علم بالحدثان.

فكتب كسرى عند ذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر. أمّا بعد! فوجّه إلىّ برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه. فوجّه إليه بعبد المسيح الغسّانى وهو معدود من المعمّرين عاش مائة وخمسين سنة. فلمّا ورد عليه قال: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه. قال ليسألنى الملك عمّا أحبّ فإن كان عندى علم منه وإلّا أخبرته بمن يعلمه. فأخبره بالّذى وجّه إليه فيه. قال علم ذلك عندى خالى يسكن مشارف الشام أى أعاليها وهى الجابية المدينة المعروفة. يقال له سطيح. قال فأته فاسأله عمّا سألتك عنه. ثمّ ائتنى بتفسيره. فخرج عبد المسيح حتّى انتهى إلى سطيح وقد أشفى أى أشرف على الضريح أى الموت وعمره إذ ذاك ثلاث مائة سنة وقيل سبع مائة سنة. وكان جسداً ملقىً لم يكن له عظم سوى عظم رأسه. وفى لفظ لم يكن له عظم ولا عصب إلّا الجمجمة والكفّين. ولم يتحرّك منه إلّا اللّسان. وكان لسطيح سرير من الجريد والخوص إذا أريد نقله إلى مكان يطوى من رجليه إلى ترقوته. وفى لفظ إلى جمجمته كما يطوى الثوب. فيوضع على ذلك السرير فيذهب إلى حيث يشاء. وإذا أريد استخباره ليخبر عن المغيبات يحرّك كما يحرّك وطب المخيض أى سقاء اللّبن. فينتفخ ويمتلئ ويعلوه النفس. فيسأل فيخبر عمّا يسأل عنه. فسلّم عبد المسيح على سطيح وكلّمه. فلم يردّ عليه سطيح جواباً. فأنشأ عبد المسيح يقول: أصمّ أم يسمع غطريف اليمن. أى سيّدهم إلى آخر الأبيات ذكرها. فلمّا سمع سطيح شعر عبد المسيح رفع رأسه. وعند رفع رأسه قال عبد المسيح على جمل مشيح أى سريع إلى سطيح وقد وافى على الضريح أى القبر إلى آخر القصّة الّتى مضت. (السيرة الحلبية ١/١١٩،١٢٠،١٢١،١٢٢)

وللعلّامة على القارى كلام نفيس فى شرح هذا البيت يجدر بناء إيراده ههنا. قال رضى الله تعالى عنه ما نصّه: وفيه إشارة إلى أنّ الحادث والفانى غير مستحقّ للعبودية بل الحىّ الّذى لا يموت يستحقّ الربوبية قوله والنهر أى صار فى تلك اللّيلة المعظّمة والساعة المكرّمة نهر الفرات غافلاً ينبوعه عن مجراه من حيرة الفراق. ووقع فى ساوة وهى بادية بين دمشق والعراق. والمراد بالعين الباهرة. فالمعنى سها عين الفرات لتحيّره من مفاجأة البلوى وضلّ الطريق بطرء العمى كذا قيل. (الزبدة ص٤٠،٤١)

أقول: قوله كذا قيل فيه إشارة إلى غموض ما قيل.

قال على القارى: وقيل أى نهر كسرى الّذى جعل فوقه سدّاً عظيماً ومقاماً كريماً وصرف فيه خراج العالم ولم ير مثله بنو آدم يبس فى تلك اللّيلة عينه مثل قلب قاس لم تدمع عينه من الحيرة فى القدرة الإلهية والخشية من العظمة السلطانية. وفيه إشارة إلى أنّ الجمادات لها تغيّرات بتغيير المغيّر الربّانى وتأثيرات بتأثير المؤثّر الصمدانى. قال تعالى (من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإنّ منها لمّا يشقّق فيخرج منه الماء وإنّ منها لما يهبط من خشية الله). وقال تعالى (قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم). وقال عزّ وجلّ (تدمّر كلّ شىء بأمر ربّها). وقال تعالى (فخسفنا به وبداره الأرض). وفى كلّه ردّ على الطبيعة الّتى يخالف الأصول الشرعيّة. وفيه إشعار إلى أنّ كلّ نهر

من العلوم العقلية المتضمّنة للدقائق الفلسفية ليس لها وجود عند بحر علوم الشريعة وينبوع معارف الحقيقة.

رقم البيت (٦٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد أخذنا بحمد الله في شرح البيت الخامس من الفصل الرابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
ورُدَّ واردُها بالغيظ حين ظمي

قوله وساء أي حزن فهو لازم أي حزن أهل ساوة أو أحزنهم أن غيض ماء بحيرتها. وعلى هذا فساء متعدّ وساوة فاعل ساء على الأوّل. وأن غاضت بحيرتها في محلّ الجرّ بتقدير الباء أي بأن غاضت بحيرتها. وعلى الثاني ساوة مفعول ساء وأن غاضت بحيرتها في محلّ الرفع فاعله. والمراد بساوة أهل ساوة كما في قوله تعالى "واسئل القرية" أي أهل القرية فهو مجاز مرسل من قبيل إطلاق المحلّ وإرادة الحال. أو هو مجاز بحذف المضاف. وغاضت يجيء لازماً ومتعدّياً ومنه قوله تعالى "وغيض الماء". ومعناه غارت وقيل غاصت أي غار ماءُ ها ونزل عن مستواها المعتاد وقيل غاظت. قال الباجوري: وقوله أن غاضت بحيرتها أي غار ماء ها وذهب بالمرّة حتى إنّ لهب النار ينبع من قعرها كأنّما طبخت أرضها. وكانت هذه البحيرة بركة عظيمة تسير فيها السفن للبلاد التي على ساحلها. وكان طولها ستّة أميال في مثلها عرضاً (كما مرّ عن الإمام ابن حجر في أفضل القرى) وقيل ستّة فراسخ في مثلها عرضاً. وقال البكري: كان طولها عشرة أميال وعرضها ستّة. وكان حولها بيع وكنائس فخربت. ومن ذلك يعلم أنّ التصغير فيها ليس للتحقير. (حاشية الباجوري ص٣٦)

ورُدّ واردها معطوف على غاضت والجملة في تأويل المصدر لأنّها معطوفة على مدخول أن أي وأن رُدّ واردُها، أو معطوف على ساء. والأوّل أقرب وإن جاز العطف على ساء. وزعم أنّه لايجوز عطفها على ساء ليس كما ينبغي. والاستدلال على منعه بأنّه يلزم أن يكون قوله ورُدّ بياناً لعلامة مستقلّة لوقت مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ولايكون من تتمّة الأولى وهو باطل كما قال الخرپوتي في محلّ المنع. ويجوز أن تكون الواو للحال فالجملة في محلّ النصب حال. وبالغيظ متعلّق برُدّ. والباء إمّا للملابسة أو للمصاحبة أي متلبّسا بالغيظ أو مصاحباً له. وقوله حين ظرف لواردها وظَمِئ مهموز آخره من باب فرح يظمأ ظمأً وظماء وظماءة عطِش أو اشتدّ عطشه. أبدلت الهمزة ياء لاستثقالها وقفاً وإبدال الهمزة بالياء في الوقف شائع فلا حاجة إلى ادّعاء ضرورة الشعر.

وقوله واردها أي المشرف على الماء ليستقي أو السابق والثاني أبلغ في إفادة انقطاع الماء وغيظه بالكلّية.

قال الباجوري: وحاصل المعنى وأحزن أهل المدينة المسمّاة بساوة أمران أحدهما غيض ماءها والثاني ردّ الذي يردها ليستقي منها بالغيظ حين عطش. (الباجوري ص٣٦)

وفی ذلك منقبة عظيمة للنبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم وعلامة باهرة علی نبوّته صلّی الله تعالی علیه وسلّم ظهرت لیلة میلاده علیه الصلاة والسلام. وأحدثت تغیّراً عظیماً فی أقصی البلاد. ودلالة باهرة علی أنّه بُعِث بمحك الکفر. ولذلك حدث ما حدث من خمود النیران وغیظ الماء وردّ الوارد علی الماء ظمآن وعلی نفسه غضبان وآیةً علی أنّ الله تعالی یحکم ما یرید ویفعل ما یشاء ولا یرضی لعباده الکفر والفحشاء. ولذلك قدّر الله تعالی أن خرّت الأوثان وخمدت النیران. قال العلّامة علی القاری فی الزبدة: وفیه إیماء إلی أنّ بحر أهل العذاب إنّما هو کسراب بقیعة یحسبه الظمآن ماء. بخلاف الکوثر الّذی أعطی خیر البشر صلّی الله تعالی علیه وسلّم. فإنّه من شرب منه شربة لا یظمأ أبداً. وفی نسخة غارت بدل غاضت وهو أظهر فی المعنی وأدلّ علی المدّعی ویندفع وهم النقصان بقوله ردّ الوارد وهو السابق فکیف باللّاحق. وأکّد دفعه أیضاً بقوله:

کأنّ بالنّار ما بالماء من بلل
حزناً وّبالماء ما بالنّار من ضرم

(البیت).

رقم البیت (٦٣)

بسم الله الرحمن الرحیم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الکریم وآله وصحبه الکرام أجمعین ومن یتبعهم بإحسان إلی یوم الدین.

فهذا شروع فی شرح البیت السادس من الفصل الرابع من قصیدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

کأنّ بالنّار ما بالماء من بلل
حزناً وّبالماء ما بالنّار من ضرم

قول الناظم الفاهم (کأنّ بالنار ما بالماء من بلل حزناً) ناظر إلی الشطر الأخیر فی البیت السابق وهو قوله (ورُدّ واردُها بالغیظ حین ظمی). وقوله (وبالماء ما بالنّار من ضرم) ینظر إلی الشطر الأوّل من البیت السابق وهو قوله (وساء ساوة أن غاظت بحیرتها). ولم یقل من برد وإنّما قال من بلل لیکون أدلّ علی فناء النار مبالغة فی خمودها. ولو قال من بردٍ لم تتمّ دلالته علی هذا المعنی ولم تحصل المبالغة. قال تعالی "یا نار کونی برداً وسلاماً علی إبراهیم". وقال فی الشطر الأخیر من ضرم إشعاراً بانقلاب الماء وتحوّله نیراناً تلتهب وتضطرم. ولذلك آثر قوله من ضرم ولم یقل من حرارة لأنّ الحرارة لا تستدعی فناء الماء. وقوله کأنّ من الحروف المشبّه بالفعل وفیه معنی الظنّ. وبالنّار ظرف مستقرّ فی محلّ الرفع خبر مقدّم. وما بالماء اسم موصول مع صلته فی محلّ النصب اسم کأنّ مؤخّراً. والقول فی قوله بالماء کما مضی فی قوله بالنّار. ومن بلل بیان لما. وحزناً أی من أجل حزن منصوب والعامل فیه مقدّر وهو الظنّ الّذی دلّ علیه کأنّ أو حصل الّذی تعلّق به الجار والمجرور. والمعنی "ساء أهل ساوة أن غیض بحیرتها وأن رُدّ واردُها حتی ظنّوا کأنّ بالنّار ما بالماء من بلل حزناً أو کأنّ بالنّار ما حصل بالماء من أجل الحزن. وبالماء معطوف فی محلّ رفع خبر مقدّم. وما بالنّار معطوف علی اسم کأنّ فی محلّ نصب. ومن ضرم بیان لما. وقوله وبالماء

الواو عاطفة والماء معطوف على بالنار عطف على بالماء وهو من قبيل عطف شيئين بحرف واحد على معمولى عامل واحد وهو كأنّ.

فائدة ذكرها الخرفوتى: قال فى تفسير روح البيان إنّ أوّل من عبد النّار قابيل حيث قتل أخاه هابيل ونفاه آدم عليه الصلاة والسلام بأمر الله إلى أرض اليمن. فخرج مع أخته إليها. فجاء الشيطان. فقال إنّما أكلت النّار قربان هابيل لأنّه كان يعبد النّار فاصطنع أنت أيضاً ناراً واعبدها. فاصطنع النار وعبدها فتبعه بعض الأنام من أولاده وأولاد أولاده إلى يوم القيام. (الخرفوتى ص۱۱۸)

رقم البيت (٦٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

بحمد الله انتهينا إلى البيت السابع من الفصل الرابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

والجنّ تهتف والأنوار ساطعة

والحق يظهر من معنى ومن كلم

لايزال الناظم الفاهم يذكر العجائب الّتى ظهرت عند ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم فها هو ذا فى هذا البيت يذكر السادسة بقوله: والجنّ تهتف اهـ ويتبعه السابعة بقوله: والأنوار ساطعة اهـ أى وصارت الجنّ تهتف وتصيح بحيث يسمع الصوت ولايرى الشبح (فالكلام على تقدير الفعل وهو من عطف الجملة الفعلية على مثلها وهى بأت اهـ حال. فعلى هذا فالجنّ بالرفع فاعل لفعل محذوف وتهتف فى محلّ النصب حال أو الجملة حال فى محلّ النصب) بالبشارات. والأنوار منتشرة مرتفعة. ملأت الأماكن. وعمّت الجهات وإلى ذلك أشار الناظم الفاهم فى الهمزيّة بقوله:

وتوالت بشرى الهواتف أن قد

ولد المصطفى وحق الهناء

وفصّل بعض الشيء ما أجمله من سطوع نوره صلّى الله تعالى عليه وسلّم فأشار إلى بعض التفصيل فى قوله فى الهمزيّة:

وتراء ت قصور قيصر بالروم

يراها من داره البطحاء

قوله: والجنّ يأتى على أوجه: أحدها أنّه اسم جمع خلاف الإنس والواحد جنّى ولأنثى بالتاء. ومن كلّ شيء: أوّله ونشاطه وشدّته. وجنّ الشباب: عنفوانه. وجنّ النبات: ظهره ونوره. شرحاً لأبيات يتجلّى أنّ الصوفية الكرام يستمدّون من المنهل الصافى منهل الصحابة المستمدّين من الكتاب والسنّة. وأنّ أهل السنّة والجماعة جروا على ماجرت عليه الصحابة الكرام فى الإيمان بالله وبرسوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

وسرد الإمام الحلبى ثلاث روايات فى بعضها رؤية أمّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم النور عند ابتداء الحمل وقبيل الولادة وجمع بينها بما يطول ذكره فى بعضها وعند الوضع وفيها: أنّ نوره صلّى الله تعالى عليه وسلّم سبق إلى سائر بلاد الشام وأنّ نوره كان بها أتمّ حتى إنّ امرأة رأت أعناق الإبل.

هذا وقد ظفرنا بالخبر الّذى تحدّث فيه سيّدنا سواد بن قارب عن بدء إسلامه. وما جرى عليه من القصّة مع رئيّته. وما أنشده رئيّه من الأبيات. وما امتدح به سواد بن قارب النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وفيه زيادة أبيات على ما ذكرنا فها نحن نسوق القصّة من "إنسان العيون" للإمام الحلبى قال ما نصّه: قال (أى سيّدنا عمر رضى الله تعالى عنه): يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتانى رئيى. فضربنى برجله وقال: قم يا سواد بن قارب. فاسمع مقالتى. واعقل إن كنت تعقل إنّه قد بعث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم من لؤى بن غالب يدعو إلى الله عزّوجلّ وإلى عبادته. ثمّ أنشأ يقول:

عجبت للجنّ وتطلابها
وشدّها العيس بأقتابها

تهوى إلى مكّة تبغى الهدى
ما صادق الجنّ ككذّابها

فارحل إلى الصفوة من هاشم
ليس قدماها كأذنابها

فقلت: دعنى أنام فإنّى أمسيت ناعساً. فلمّا كانت اللّيلة الثانية أتانى فضربنى برجله وقال: قم يا سواد بن قارب. فاسمع مقالتى. واعقل إن كنت تعقل. إنّه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله عزّوجلّ وإلى عبادته. ثمّ أنشأ يقول:

عجبت للجنّ و تخبارها
وشدّها العيس بأكوارها

تهوى إلى مكّة تبغى الهدى
ما مؤمن الجنّ ككفّارها

فارحل إلى الصفوة من هاشم
بين روابيها وأحجارها

فقلت: دعنى أنام فإنّى أمسيت ناعساً فلمّا كانت اللّيلة الثالثة أتانى فضربنى برجله. وقال: قم يا سواد بن قارب. فاسمع مقالتى. واعقل إن كنت تعقل. إنّه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله عزّوجلّ وإلى عبادته. ثمّ أنشا يقول:

عجبت للجنّ وتحساسها
وشدّها العيس بأحلاسها

تهوى إلى مكّة تبغي الهدى
ما خير الجنّ كأنجاسها

فارحل إلى الصفوة من هاشم
وارم بعينيك إلى رأسها

فقمت فقلت: قد امتحن الله قلبي، فرحلت ناقتي، ثمّ أتيت المدينة. وفي رواية: حتّى أتيت مكّة. وهي كما قال البيهقي أقرب إلى الصحّة من الأوّل: أي لأنّ الجنّ إنّما جاءت إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم للإيمان به في مكة. فإذا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأصحابه حوله. وفي لفظ: والناس حوله. وفي لفظ: والناس عليه كعرف الفرس. فلمّا رآني قال: مرحباً بك يا سواد بن قارب. قد علمنا ما جاء بك. قلت: يا رسول. قد قلت شعراً. فاسمع مقالتي يا رسول الله. فقال: هات. فأنشأت: أي ابتدأت أقول:

أتاني نجيّي بعد هدء ورقدة.

وفي لفظ:

أتاني رئيّي بعد ليل وهجعة
ولم يك فيما قد تلوت بكاذب

ثلاث ليال قوله كلّ ليلة
أتاك رسول من لؤي بن غالب

فشمّرت من ذيل الإزار
وفي لفظ: عن ساقي الإزار

ووسطت بي الذعلب الوجناء بين السباسب

فأشهد أنّ الله لا ربّ غيره
وأنّك مأمون على كلّ غائب

وأنّك أدنى المرسلين وسيلة
إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

وكن لي شفيعاً يوم لا ذوشفاعة
سواك بمغنٍ عن سواد بن قارب

وفي رواية:

وكن لي شفيعاً يوم لا ذوقرابة بمغنٍ فتيلاً عن سواد بن قارب

قال: فرح النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً حتّى رؤي الفرح في وجوههم. أي وضحك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم حتّى بدت نواجذه. وقال: أفلحت يا سواد. فرأيت عمر رضي الله تعالى عنه التزمه. وقال: لقد كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك. فهل يأتيك رئيّك اليوم؟ قال: منذ قرأت القرآن

فلا. ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن. أى وهذا السياق يدلّ على أنّ سيّدنا عمر لم يكن حاضراً عند النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم لمّا أخبره سواد.

رقم البيت (٦٧، ٦٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثامن والتاسع من الفصل الرابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

عموا وصمّوا فإعلان البشائر لم

تُسمَع وبارقة الإنذار لم تشم

وقوله:

من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم

بأنّ دينهم المعوجّ لم يقم

استشعر الناظم الفاهم سؤالاً قد ينتهض على ما أسلف من قوله (والجنّ تهتف والأنوار ساطعة والحق يظهر من معنى ومن كلم) كأنّ رجلاً يسائل: فما بال النّاس بادروا إلى الإنكار وجحدوا بعد استماع البشائر وإبصار البصائر؛ فقام الناظم الفاهم يردّ على السائل بما يصرّح بلجاج الكفار فى عنادهم وأنّهم لم يُعمِلوا أبصارهم ولا آذانهم. فكأنّهم أصبحوا عُمياً وصُمّاً. وأخذ يفصّل هذا المعنى فأنشأ يقول:

عموا وصمّوا فإعلان البشائر لم

تُسمَع وبارقة الإنذار لم تشم

من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم

بأنّ دينهم المعوجّ لم يقم

قوله عموا وصمّوا جملة مستأنفة جواب لسؤال مقدّر مرّ تقريره. وفيه استعارة تصريحيّة تبعيّة جرت فى المصدر ثمّ اشتق منه الفعل وأطلق المشبّه به وأريد به المشبّه وهو عدم التفاتهم وإعراضهم عن الانتفاع بالأنوار والأخبار أواستعارة تمثيليّة وقد مرّ بيانها مراراً. والإعلان الإظهار مصدر مضاف إلى المفعول به. والبشائر جمع بشير وهو المبشّر أى المخبر بما يسرّ وقد يوصف به الخبر مجازاً. وقيل جمع البشيرة وهى المسرّة. وقيل جمع البشارة وهى الخبر المورث لسرور البشرة. والمعنى كأنّهم أصبحوا عُمياً وصمّاً فاعلان المخبرين بالأخبار السارّة بقدوم سيّدنا لم يسمع ولم يقبل كما فى (سمع الله لمن حمده) أى قبل. أولأنّهم لمّا لم يعملوا بمقتضاه فكأنّهم لم يسمعوا. ويجوز فتح الهمزة من كلمة إعلان على أنّه جمع عَلَن بمعنى علانية كذا يستفاد من الزبدة. ويمكن أن يجعل إعلان صفة أضيفت إلى البشائر. والمعنى البشارات الظاهرة لم تسمع وبارقة الإنذار لم تشم.

وقوله بارقة أي لامعة وهو مصدر بمعنى البرق كالكاذبة في قوله تعالى "ليس لوقعتها كاذبة". ويشهد له قول النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم "كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة". ويجيء البارقة بمعنى بريق السلاح. وقوله الإنذار إعلام فيه تخويف. ولم تشم من شام البرق نظر إليه. من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم متعلّق بصمّوا أو لم تسمع أو متعلّق بعموا وصمّوا معاً فقد تنازع فيه الفعلان المتقدّمان. والمعوجّ من الاعوجاج وهو عدم الاستقامة في المحسوس وكون الشيء على مالاينبغي في المعقول صفة لدينهم. والدين الطريقة الّتي كانوا يدينون بها. ولم يقم أي لم يعتدل ولم يدم من قام يقوم قوماً. وقيامة. وقومة: انتصب واقفاً اهـ. وقامت السوق إذا نفقت.

وكاهنهم بالرفع فاعل أخبر وهو الّذي يخبر بما يُلْقِي إليه الجنّ كما مضت الإشارة إليه أو من يخبر عن تأثيرات الكواكب. وعرّف بأنّ الكاهن من يبتدع القول ويخبر عمّا سيكون من غير وحي أي لايسند خبره بالمغيّبات إلى الرسول صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وفي المفردات الكاهن الّذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظنّ كالعرّاف الّذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك. ولكون هاتين الصناعتين مبنيّتين على الظنّ الّذي يخطئ ويصيب. قال عليه الصلاة والسلام "من أتى عرّافاً وكاهناً فصدّقه بما قال فقد كفر بما أنزل الله على محمّد". قالوا هذا في حق من اعتقد صدق العرّاف والكاهن. وأمّا من سألهم للاستهزاء بهم أولتكذيبهم فلا يلحقه ماذكر في الحديث.

قلت أو لغرض آخر ولم يعتمد على خبر الكاهن ولا اعتقده حقّاً ولا صدّق به يقيناً لا يحتمل الخلاف بقرينة حديث آخر (من صدّق كاهناً لم تقبل منه صلاة أربعين يوماً وليلة). قال ابن ملك: اللّائح لي في التوفيق أن يقال مصدّق الكاهن يكون كافراً إذا اعتقد أنّه عالم بالغيب (أي كالنبي أصالة أو استقلالا من غير إعلام من الله والقرينة عليه قوله فيما بعد). وأمّا إذا اعتقد أنّه مُلْهَم من الله أوأنّ الجنّ يقولون فيما يسمعون من الملائكة فصدّقه فلايكون كافراً انتهى. كذا في الخرپوتي بتصرّف منّا يسير في خلال كلمه. (الخرفوتي ص١٢١)

رقم البيت (٦٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

قد فرغنا بحول الله سبحانه وتعالى من شرح البيت الثامن والتاسع في الفصل الرابع من قصيدة البردة وهذا أوان الشروع في شرح البيت العاشر من هذا الفصل وهو قول الناظم الفاهم:

وبعد ما عاينوا في الأفق من شهب
منقضّة وفق ما في الأرض من صنم

قوله وبعد ما عاينوا بالعطف على بعد ما المجرور بمن. ومن نصب عطفاً على من بعد ما أخبر الأقوام اهـ. ومحلّ المعطوف عليه النصب. وقوله ما موصولة وعاينوا من المعاينة وهي المكاشفة التامّة والإطلاع على الشيء عياناً.

ومفعوله الضمير المحذوف والتقدير بعد ما عاينوه. وقوله فى الأفق متعلّق بعاينوا. والأفق بسكون الفاء لغة فى الأفق والمراد بها أطراف السماء بناء على استغراق الجنس. وقال الباجورى: المراد به هنا السماء لا حقيقته الّتى هى أطراف السماء المماسّة للأرض لعدم وجود الشهب فى ذلك. (ص٣٨). وقوله من شهب بيان لما الموصولة. والشُهُب بضمّتين جمع شهاب الكواكب المضيئة وشعلة نار ساطعة. والأصحّ أنّها نار الكواكب وليست نفس الكواكب لكونها قارّة فى الفلك على حالها وما ذلك إلّا قبس من النار لأنّها لا تنقضّ ولا تسقط بل هى قارّة فى الفلك. ووفق بفتح الواو وسكون الفاء من وفق الشىء: لاءمه. والقدرُ. واسم جمع بمعنى المتوافقين ومنصوب على نزع الخافض أى على وفق أوهو منصوب على أنّه صفة لمصدر محذوف أى انقضاضاً مثل انقضاض أوعلى التمييز. ومنقضّه أى ساقطة بالوجوه الثلاثة من الإعراب. فيجوز فيه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف والنصب على أنّه حال والجرّ على أنّه صفة لشهب. وفى الأرض ظرف مستقرّ أى مثل ما كان فى الأرض من صنم. ومن صنم بيان لما والصنم الوثن فهما مترادفان أو الصنم الصورة بلا جثّة والوثن ما كان له جثّة من الخشب أوالحجر أوغير ذلك.

ويؤيّد ذلك بالجملة ما قاله الإمام الرازى فى تفسيره: عن أبى بن كعب: لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتّى بعث رسول الله فرمى بها. فرأت قريش أمراً ما رأوه قبل ذلك. (إلى أن قال) والأقرب إلى الصواب أنّ هذه الشهب كانت موجودة قبل المبعث إلّا أنّها زيدت بعد المبعث وجعلت أكمل وأقوى. وهذا هو الّذى يدلّ عليه لفظ القرآن. لأنّه قال: (فوجدناها ملئت). وهذا يدلّ على أنّ الحادث هو الملء والكثرة. وكذلك قوله (نقعد منها مقاعد) أيكنّا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب. والآن ملئت المقاعد كلّها. فعلى هذا. الّذى حمل الجنّ على الضرب فى البلاد وطلب السبب. إنّما هو كثرة الرجم ومنع الاستراق بالكلّية. (تفسير الرازى ١٥٨/٣٠)

ويؤيّده ما جاء فى السيرة الحلبيّة فقد قال العلّامة الحلبى: لا يقال رجمت الشياطين بالنجوم قبل ذلك وذلك عند مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم. لأنّا نقول: المراد رجمت الآن بأكثر ممّا كان قبل ذلك. (١/٣٣٦)

وأيضاً قال فى الحلبيّة: عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: أنّ الشياطين كانوا لا يحجبون عن السمٰوٰت. وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها ممّا سيقع فى الأرض فيلقونها على الكهنة. فلمّا ولد عيسى عليه الصلاة والسلام حجبوا عن ثلاث سماوات. وعن وهب عن أربع سماوات. ولمّا ولد رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم حجبوا عن الكلّ. وحرست بالشهب فما يريد أحد منهم استراق السمع إلّا رمى بشهاب. (السيرة الحلبية ١١٢/١)

قلت ومفاد الّذى ذكره العلّامة الباجورى تعدّد الرمى بالشهب فمرّة رمى بها ليلة ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأخرى عند مبعثه عليه الصلاة والسلام واقتصر على هذا الأخير الإمام الرازى فى تفسيره.

رقم البيت (٦٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين. والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد الصادق الوعد الأمين وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا البيت الحادي عشر من الفصل الرابع من قصيدة البردة أخذنا في شرحه وهو قول الناظم الفاهم:

حتّى غدا عن طريق الوحي منهزم
من الشياطين يقفو إثر منهزم

أخذنا في شرحه فنقول البيت بيان لما ترتّب على انقضاض الشهب المذكور في البيت السابق من فائدة وهي انهزام الشياطين وهبوطها على الأرض عند ما رُجمت بالشهب وإبعادها عن طريق الوحي أي أبواب السماء الّتي يأتي منها الوحي. والوحي الكتاب والإشارة والرسالة والإعلام الخفي وكلّ ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه وما يوحيه الله إلى أنبياءه والصوت يكون في الناس وغيرهم والمكتوب والكتاب والخطّ. والمراد ما يأتي من الله إلى النّبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم. حتّى عاطفة أو ابتدائية أو بمعنى إلى فهي جارّة وعلى الأوّل فغدا معطوف على منقضّة على حدّ قوله تعالى فالق الإصباح وجعل اللّيل سكناً أي وجاعل اللّيل سكناً. والمعنى بعدما عاينوا من شهب منقضّة وذاهب من الشياطين هارب. فحتّى غدا في محلّ الجرّ و كذا محلّه الجرّ على الوجه الثالث. وأمّا إذا كانت حتّى ابتدائية فالجملة مستأنفة. وغدا بمعنى ذهب وانطلق وبمعنى بكّر وبمعنى صار. ويحتمل أن يكون هنا بمعنى ذهب أو انطلق أو صار. ومنهزم فاعل غدا على المعنى الأوّل أو اسم على المعنى الثاني ويقفو حال أو خبر غدا على ما مرّ من التفسير. وعن طريق الوحي إمّا متعلّق بغدا أو بمنهزم أو بيقفو بتضمينه معنى يُعرِض والأظهر أنّه متعلّق بمنهزم. والمنهزم الهارب. ومن الشياطين صفة وبيان لمنهزم مشوب بالتبعيض. ويقفو من قفا يقفو إذا تبعه وهو حال أو خبر والضمير المستتر فيه راجع إلى المنهزم. وإثر بمعنى عقب مفعول ليقفو.

والحاصل أنّ تتابع الشهب مع كثرة ظهر أيّام ظهور النبي ووقت ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ولم يكن للكفّار عهد بمثل ذلك وإن كان لهم في الجملة عهد بانقضاضها رجوماً لأولئك كما قال الله تعالى (ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) فإنّه يدلّ على كون النجوم رجوماً وأنّ الرمي بالشهب حصل قبل مبعثه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. والزمن قبل المبعث يشمل وقت ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم أيضاً. وأمّا قوله تعالى حكاية عنهم أي عن الجنّ (وانّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وانّا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا) فالمراد به بعد بعثه عليه الصلاة والسلام. كذا قال القاري نقلاً عن المحلّي وتصرّفنا فيه بزيادة شيء يسير خلال عبارة القاري.

رقم البيت (٧٠،٧١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا أوان الشروع في شرح البيت الثاني عشر والثالث عشر من الفصل الرابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

كأنّهم هرباً أبطال أبرهة　　أو عسكر بالحصى من راحتيه رُمي

وقوله: نبذاً به بعد تسبيح ببطنهما نبذ المسبّح من أحشاء ملتقم

كأنّ حرف مشبّه بالفعل. والضمير فيه اسم كأنّ راجع إلى الشياطين. هرباً بالنصب حال أو تمييز لرفع الإبهام وإبداء لوجه التشبيه. أبطال جمع بطل وهو الشجاع القوى سمّى بطلاً لأنّ همم الشجعان تبطل بين يديه وأبطال خبر كأنّ. وأبرهة اسم لملك اليمن غير منصرف للعلميّة والعجمة وصُرف بالجرّ والتنوين لضرورة الشعر. أو حرف عطف للترديد. عسكر معطوف على أبطال. والحصى حجارة صغيرة صلبة والراحة بطن الكفّ. وكلّ من الجارّ والمجرور فى قوله بالحصى ومن راحتيه متعلّق برُمى. وثنّى الراحة لأنّ الرمى بالحصى على يده صلّى الله تعالى عليه وسلّم وقع مرّتين: مرّة فى بدر وأخرى فى حنين. وعبّر بالفعل الّذى لم يسمّ فاعله فقال رُمى إشارة إلى أنّ الرامى حقيقة هو الله سبحانه وتعالى وإسناد الرمى إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم على المجاز. قال تعالى (وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى). ولمّا رماه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى وجوه الأعداء لم يبق منهم أحد إلّا دخل التراب فى عينيه وانهزموا جميعاً فتبعهم المسلمون يأسرونهم ويقتلونهم.

وحاصل قصّة أصحاب الفيل أنّ أبرهة رأى النّاس يتجهّزون أيّام الموسم للحجّ. فقال أين يذهبون؟ فقيل يحجّون بيت الله بمكّة. قال وما هو؟ قيل من الحجارة. قال والمسيح لأبنينّ لكم بيتاً خيراً منه. فبنى لهم كنيسة من الرخام الأسود والأحمر والأصفر وحلّاها بالذهب والفضّة وأنواع الجواهر. وأراد صرف الحجّ إليها ومنع النّاس من الذهاب إلى مكّة. فلمّا اشتهر الخبر عند العرب خرج رجل من كنانة مغضباً وتغوّط فيها ولطخ قبلتها بالعذرة ولحق بأرضه. فأغضب ذلك أبرهة وحلف لينقضنّ الكعبة حجراً حجراً وكتب إلى النجاشى يخبره بذلك وسأله أن يبعث إليه فيله. فلمّا قدم إليه الفيل خرج فى ستّين ألفاً. فلمّا بلغ المغمّس بضمّ الميم الأولى وفتح الغين المعجمة وتشديد الميم الثانية مفتوحة أو مكسورة أمر أبرهة رجلاً بالغارة على مكّة. فمضى إليها واستاق إبل قريش وغنمهم فهمّوا بقتاله ثمّ عرفوا أنّهم لايطيقون قتاله فتركوه. ثمّ لمّا تهيّأ أبرهة لدخول مكّة برك الفيل. فضربوه فى رأسه ليقوم. فأبى فوجّهوه إلى غير مكّة فقام يهرول. ثمّ وجّهوه إلى مكّة فبرك. ثمّ أرسل الله عليهم الطيور الأبابيل مع كلّ طائر ثلاثة أحجار حجر فى منقاره والآخران فى رجليه. فذهبوا هاربين يتساقطون بكلّ طريق. وكان الحجر يصيب رأس الرجل فيخرج من دبره ومن أسفل مركوبه. وإلى هذه القصّة أشار سبحانه وتعالى بقوله (ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل إلى آخر السورة. (حاشية الباجورى ص٣٩)

قوله نبذاً منصوب على أنّه مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير نبذه صلّى الله تعالى عليه وسلّم نبذاً. أو برُمى فالعامل فيه رُمى موافق له فى المعنى كما فى قوله قعدت جلوساً. والباء فى به زائدة لتقوية عمل المصدر. والضمير فيه راجع إلى الحصى والتذكير لأنّه اسم جنس. وضمير ببطنهما لراحتيه والباء بمعنى فى. ونبذ المسبّح صفة نبذاً بتقدير مضاف أى نبذاً مثل نبذ المسبّح أو بدل منه وهو مضاف إلى المفعول أى نبذ الله تعالى المسبّح وهو يونس عليه الصلاة والسلام. والأحشاء جمع حشا وهو ما فى البطن. والملتقم الحوت.

وأشار الناظم الفاهم فى الشطر الأوّل إلى قصّة أصحاب الفيل وألمّ بها فى همزيّته حيث يقول:

كم رأينا ما ليس يعقل
قد ألهم ما ليس يلهم العقلاء

إذ أبى الفيل ما أتى صاحب
الفيل ولم ينفع الحجا والذكاء

فى هذه الأبيات جرى الناظم الفاهم على الاستتباع وهو من محسّنات الكلام. وحقيقة الاستتباع أن يتضمّن معنىً سيق لأجله كلام آخر. فقد ضمّن تسبيح الحصى بكفّيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم معنىً آخر فى الشطر الثانى جعله تبعاً للمعنى الّذى ساق الكلام لأجله وهو تسبيح الحصى استتبع نبذ المسبّح وهو يونس عليه الصلاة والسلام من أحشاء ملتقم وهو حوت. كما أتى بتذ كير للقصص المنبئ عن جليل قدره وعظيم شرفه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى حسن تصوير بحيث جعل القصةّ كأنّها بمرأى من العيون. قال العلّامة ابن حجر وهو بصدد بيان الحكمة فى قصّة الفيل: ذكر الله تعالى هذه القصّة فى سورة الفيل وافتتحها بـ (ألم تر) مع أنّها قبل مبعثه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بل قبل ولادته إشارة إلى أنّ المراد من الرؤية العلم والتذكّر وأنّ الخبر بذلك متواتر فكان العلم بذلك ضروريّاً مساوياً للعلم الحاصل بالرؤية البصريّة.

وقد دلّت هذه القصّة على غاية شرف نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم فإنّها كانت إرهاصاً وتأسيساً لنبوّته. ويجوز تقديم المعجزة على زمن النبوّة تأسيساً كما مرّ فى تظليل الغمام والشجر والملكين بل جاء أنّ الشجر والحجارة قريب مبعثه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان لا يمرّ منها بشيء إلّا سلّم عليه سلاماً يسمعه بأذنيه. وعلى شرف قومه وحماية الله لهم. ولذا دانت العرب لشرفهم لعلمهم بأنّ أبرهة لا قدرة للعرب بأسرهم على قتاله فإذا تولّى الله نصرتهم عليه دلّ ذلك على عظيم اعتناء الله بهم. (شرح الهمزيّة ص١٨٧)

هذا ولا يذهبنّ عنك أنّ ما وقع فى الآيات من وصف الله تعالى سبحانه له بأنّه مليم وإخبار سيّدنا يونس عن نفسه بأنّه كان من الظالمين من المتشابه الّذى يجب تنزيه النبيصلّى الله تعالى عليه وسلّم عن ظاهره لأنّه قد تقرّر أنّ النبىّ معصوم عن الكبائر والصغائر قبل النبوّة وبعدها فلا يوصف حقيقة بأنّه مليم أو أنّه من الظالمين.

الفصل الخامس
فی معجزاتہ (صلّی اللہ تعالٰی علیہ وسلّم)

رقم البيت (٧٣، ٧٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الأوّل والثاني من الفصل الخامس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة
تمشي إليه على ساق بلا قدم

وقوله:

كأنّما سطّرت سطراً لما كتبت
فروعها من بديع الخطّ في اللّقم

إذ قد أشعر حديث تسبيح الحصى بكفّيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بخضوع الجماد له صلّى الله تعالى عليه وسلّم. أحبّ الناظم الفاهم أن يأتي ببعض تفصيل لهذا المعنى فيما يشابهه. ولم يعهد له جنان ولا عرف له لسان ولا عقل ولا تمييز. فأتبعه بذكر مجيء الأشجار إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وانقيادها له والتسليم لأمره والقيام بخدمته صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقال في بداية الفصل الخامس من قصيدة البردة:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة
تمشي إليه على ساق بلا قدم

كأنّما سطّرت سطراً لما كتبت
فروعها من بديع الخطّ في اللّقم

وعبّر عن هذا المعنى في همزيّته حيث يقول:

والجمادات أفصحت بالّذي
أخرس عنه لأحمد الفصحاء

ونودّ قبل شرح الغريب وبيان وجوه الإعراب أن نبدأ بشرح هذا البيت البديع من همزيّته بحيث يكون بياناً لما أشار إليه الناظم الفاهم في البردة وتفصيلاً لما تضمّنه البيت من قصّة الأشجار وذكراً في نفس الوقت لغيرها من شواهد لرسالته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأعلام نبوّته. ونودّ أن نأتي بالبيان من شرح الهمزيّة للعلّامة الإمام ابن الحجر ولغزارة فوائده وكثرة عوائده نسوقه برُمّته فها هو ذا قائلاً تحت القول المذكور من الهمزيّة ما نصّه: إنّ العرب قريشاً وغيرهم مع كونهم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة امتنعت ألسنتهم من النطق له صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالإيمان به والشهادة له بالرسالة إليهم. وشهد له بذلك الجمادات الصمّ بأفصح لسان وأبلغ بيان.

فمن ذلك تسبيح الحصى في يده صلّى الله تعالى عليه وسلّم، ثمّ في يد أبي بكر، ثمّ في يد عمر رضي الله تعالى عنهما يسمع تسبيحهنّ من في الحلقة. رواه جماعة وهو مشهور لكن في سنده ضعف.

وصحّ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كنّا نأكل مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام. وفي سماعهم لذلك غاية الكرامة لهم.

وصحّ أيضاً: (إنّي لأعرف حجراً بمكّة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعَث، إنّي لأعرفه الآن). قيل: هو الحجر الأسود. وقيل: البارز بزقاق المرفق. لأنّه كان بممرّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم من دار خديجة إلى المسجد. وعليه أهل مكّة سلفاً وخلفاً.

وصحّ عن عليّ كرّم الله تعالى وجهه: كنت أمشي مع النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم بمكّة. فخرجنا في بعض نواحي مكّة. فما استقبلنا شجر ولا حجر إلّا قال: السلام عليك يا رسول الله.

وروى البزّار وأبو نعيم: (لمّا استقبلني جبريل بالرسالة. جعلتُ لا أمرّ بحجر ولا شجر إلّا قال: السّلام عليك يا رسول الله).

وروى البيهقي وابن ماجة: أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم غطّى العبّاس وبنيه بملاءته فقال: (يا ربّ هذا عمّي وصنو أبي وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إيّاهم بملاءتي هذه) فقالت أسكفّة الباب وحوائط البيت: آمين آمين آمين.

وصحّ أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان هو وأبو بكر وعمر وعثمان على أحد. وصحّ أيضاً على حراء. فتحرّك فقال: (اثبت. وضربه برجله. فما عليك إلّا نبي وصدّيق وشهيدان).

(أقول: تضمن الحديث إخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بما هو من جملة الخمس وقد أشبع القول في هذا المرام جدّنا الإمام الشيخ أحمد رضا قدس سرّه في "الدولة المكّيّة بالمادّة الغيبيّة". الأزهري غفر له)

وصحّ أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم طلب من رجل الإيمان. فقال له: هل من شاهد؟ فقال: هذه الشجرة. فدعاها صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهي على شاطئ الوادي فأقبلت تخدّ الأرض خدّاً. أي تشقّها شقّاً. فقامت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت ثمّ رجعت إلى منبتها.

وفي رواية: (قل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك) فمالت عن يمينها وشمالها ومن بين يديها ومن خلفها. فتقطّعت عروقها ثمّ جاءت تخدّ الأرض تجرّ عروقها مغبرّة حتّى وقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا رسول الله. قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها فرجعت فدلّت عروقها في ذلك الموضع فاستقرّت. فقال الأعرابي: ائذن لي أن أسجد لك فقال: (لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها). قال فائذن لي أن أقبّل يديك ورجليك. فأذن له.

أقول: هذه الرواية الأخيرة الّتي ساقها الإمام ابن حجر تشعر بتعدّد القصّة وأنّ طلب الشاهد منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم تكرّر. والأعرابي المطالب له صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالشاهد في هذه غير الأعرابي في فيما قبلها. الأزهري غفر له

وصحّ أنّ أعرابيّاً قال له: بم أعرف أنّك رسول الله؟ قال: (بأن أدعو هذا العذق من هذه النخلة يشهد بأنّي رسول الله) فدعاه فسقط إليه. ثمّ قال: (ارجع) فعاد. فأسلم الأعرابي.

وأضاف الإمام ابن حجر قائلاً: تنبيه: علم من كلام الناظم على مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم وما بعده أنّ من دلائل نبوّته ما وجد في كتب الله من نعته وخروجه بأرض العرب. وما ظهر بين يدي مولده ومبعثه من العجائب المبطلة لسلطان الكفر والمنوّهة بشرف العرب كقصّة الفيل وما حلّ بأصحابه. وخمود نار فارس وما ذكر معها. وما سمع من الهواتف الصارخة بأوصافه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وانتكاس الأصنام المعبودة على وجوهها من محالها فيه من غير فعل فاعل مع شدّة ثباتها وإحكامها. وما سبق بعضه من العجائب الّتي ظهرت أيّام رضاعه وبعده إلى بعثته واتّباع الخلق له. مع أنّه لم يكن له مال يطمع فيه ولا قوّة يقهر بها الرجال مع ما كانوا عليه من محبّة الأصنام والمبالغة في الحميّة لها بالمقاتلة وشنّ الغارات. لا يجمعهم ألفة الدّين. ولا يمنعهم عن سوء أفعالهم النظر في عاقبة ولا خوف لائمة. فألّف صلّى الله تعالى عليه وسلّم بين قلوبهم. وجمع كلمتهم حتّى اتّفقت الآراء، واجتمعت القلوب. فصاروا يداً واحدة على من سواهم. وهجروا أوطانهم وأهاليهم في محبّته. وبذلوا مهجهم لنصرته. ونصبوا وجوههم لوقع السيوف في إعزاز كلمته بلا دنيا أفاضها عليهم في العاجل. ولا عزّ في الآجل أطمعهم في نيله يتحرّونه. بل كان صلّى الله تعالى عليه وسلّم من شأنه أن يجعل الغني فقيراً. والشريف أسوة الوضيع. فهل يلتئم مثل هذه الأمور من قبل اختيار عقلي أو تدبيري فكريّ؛ لا والّذي بعثه بالحق نبيّاً إنّما ذلك أمر إلهي وتأييد سماويّ تعجز عن بلوغه قوى البشر. ولا يقدر عليه إلّا من له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين. انتهى كلامه البليغ مع تصرّف منّا يسير (ص١٩٠،١٨٩،١٨٨)

وأخيراً نشرع في شرح غريب الكلمات وبيان الإعراب: قوله جاءت لدعوته أي أتت لطلبه أو عند طلبه. فالدعوة بمعنى الطلب واللّام للتعليل أو للتوقيت. والأشجار جمع شجرة فاعل جاءت. قال الخرفوتي: قال في إخوان الصفا: الفرق بين الشجر والنبات والنجم أنّ الشجر ما هو قائم على ساقه مرتفع في الهواء يورق في الصيف ويتناثر ورقه في الشتاء يخرج الثمر ولو غير مأكول. والنبات ما يبزر من الحبّ والبزر. والنجم ما ينبت من غير بذر وتنبسط على وجه الأرض من الحشائش والكلأ. وكلّها ذو طعم ولون ورائحة.

وساجدة أي خاضعة. ولا مانع أن يراد به حقيقة السجود ويدلّ عليه سياق بعض الروايات وكذلك يدلّ عليه قول الناظم الفاهم على ساق بلا قدم. قوله تمشي إمّا حال من الأشجار مترادفة أو حال من الضمير المستتر في ساجدة فهي حال متداخلة. إليه على ساق متعلّق بجاءت. وبلا قدم جار ومجرور ظرف مستقرّ صفة لساق. قوله كأنّما سطرت كأنّ حرف تشبيه وما كافّة والجملة مستأنفة وقعت جواباً لسؤال عن كيفيّة المشي. وسطرت أي كتبت سطراً مفعول مطلق ولما جار ومجرور متعلّق بسطرت. واللّام للتعليل وما موصولة. والضمير فيكتبت مفعول كتبت أي كتبته عائد إلى ما الموصولة. وفروعها جمع فرع وهو الغصن والفنن وفروعها أي أغصانها وأفنانها فاعل سطرت أو فاعل كتبت. من بديع الخطّ بيان لما وبديع الخطّ أي الخطّ الحسن من إضافة الصفة إلى الموصوف. واللّقم وسط الطريق.

والمعنى أنّ الأشجار كتبت على صفحة الطريق بفروعها خطّاً جميلاً من تأمّله علم أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم نبيّ الله حقّاً وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم صادق فى جميع ما أخبر به صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

وفى البيت استعارة تمثيليّة فقد شُبّهت الهيئة المنتزعة من الأشجار وأعضائها و كتابتها وسطرها سطراً. و كتابة فروعها خطّاً حسناً فى وسط الطريق بالهيئة المنتزعة من كاتب فى الحقيقة ونظمه سطوراً. وخطّه بالقلم خطّاً حسناً على الكاغذ.

وفى هذين البيتين إشارة إلى أنّ المسلمين أولى بأن يبادروا إلى امتثال أوامره صلّى الله تعالى عليه وسلّم وبأن يقوموا على قدم العبودية والإطاعة لأنّ الأشجار إذا كانت مطيعة منقادة للنبى عليه الصلاة والسلام فأمّته أولى بذلك.

رقم البيت (٧٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد أخذنا فى شرح البيت الثالث فى الفصل الخامس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

مثل الغمامة أنّى سار سائرةً

تقيه حرّ وطيسٍ للهجير حمى

هذا انتقال من الناظم الفاهم إلى آية أخرى تشابه الأولى وتناسبها فيكونها معجزة له صلّى الله تعالى عليه وسلّم وانقيادها له عليه الصلاة والسلام بتظليله ووقايته صلّى الله تعالى عليه وسلّم من حرّ الشمس وملازمته صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى السير والوقوف. فتسير معه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أين سار وحيث أصاب. و كيفما سار ماشياً أو راكباً. سريعاً أو بطيئاً. فلا تفارقه صلّى الله تعالى عليه وسلّم طرفة عين. وهذه آية عظيمة ومعجزة جسيمة كانت سبباً لإيمان بحيرى الراهب ومبادرة سيّدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه إلى الإيمان به صلّى الله تعالى عليه وسلّم لما شاهد هذه العلامة البديعة كما سيجىء.

شرح الغريب وبيان الإعراب: قوله مثل الغمامة بالرفع خبر مبتدأ محذوف أى هى والضمير راجع إلى الأشجار أى هى تشابه الغمامة وهى السحابة. قوله أنّى سار فى محلّ النصب ظرف مقدّم على سائرة. وأنّى بمعنى من أين أو بمعنى كيف أى تسير معه من أين سار وفى أىّ موضع مشى صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو كيفما سار ماشياً أو راكباً. سريعاً أو بطيئاً. وسائرة بالرفع أى هى سائرة بيان لحال الغمامة أو خبر بعد خبر لمبتدأ محذوف أو بالنصب حال من الغمامة. قوله تقيه من الوقاية بمعنى المنع والضمير فيه راجع إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مفعول أوّل بيان لحال الغمامة أيضاً. وحرّ وطيس مفعول ثان على الحذف والإيصال أى تقيه من حرّ الشمس. وقوله الوطيس التنّور. والمراد به الشمس على وجه التشبيه. ففيه استعارة تصريحيّة ذَكَرَ المشبّه به وهو الوطيس وأراد المشبّه وهى الشمس للهجير اللّام للاختصاص أو بمعنى عند والهجير والهاجرة وسط النهار الحارّ. وفيه تجريد من الحرّ المصرّح

به فی قوله حرّ وطيس. فالمراد به مطلق نصف النهار. قوله حمی فعل ماض وإسكان الياء لعارض الوقف صفة وطيس فی محلّ الجرّ أو اسم منقوص يقال "حمی الوطيس" إذا اشتدّ الحرب.

والمعنی أنّ الأشجار ساجدة لديه صلّی الله تعالی عليه وسلّم. جائية إليه مثل الغمامة الّتيكانت تسير إلی أين سار النبی صلّی الله تعالی عليه وسلّم تحفظه عند شدّة الحرّ وقت الزوال. والبيت إشارة إلی قصّة بحيری الراهب. وقد تعدّدت هذه القصّة. وتكرّر حديث خروج النبی صلّی الله تعالی عليه وسلّم فی تجارة إلی الشام مع ركب من قريش. فقد خرج مع عمّه أبی طالب مرّة. وأخری فی تجارة لخديجة مع غلامها ميسرة. وجمع النّاظم الفاهم قصّة تظليل الغمامة والشجرة فی همزيّته فقال:

وأتاها أنّ الغمامة والسرح
أظلّته منهما أفياء

وحان لنا أن نفصّل هذا ونذكر آيات أخر استطراداً لهلاء معها للمقام من جهة والمناسبة فی الجملة. قال العلّامة الإمام ابن الحجر فی أفضل القری: ورد فی تظليل الغمامة له صلّی الله تعالی عليه وسلّم أحاديث. أصحّها ما رواه جماعة وهو علی شرط الصحيح إلّا أنّ فی روايته غرابة. أنّ أبا طالب خرج به إلی الشام فی أشياخ من قريش. فمرّوا ببحيری. فخرج إليهم علی خلاف عادته. فجعل يتخلّلهم حتّی أخذ بيد رسول الله صلّی الله تعالی عليه وسلّم فقال: هذا سيّد العالمين. زاد البيهقی: ورسول ربّ العالمين. هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقالوا له: وما علمك؛ قال: إنّكم حين أشرفتم من الثنيّة لم يبق شجر ولا حجر إلّا خرّ ساجداً ولا يسجدان إلّا لنبی. وإنّی لأعرفه بخاتم النبوّة أسفل من غضروف كتفه (قوله غضروف: كلّ عظم لیّن رخص فی أیّ موضع كان). ثمّ رجع فصنع لهم طعاماً. فلمّا أتاهم به. كان صلّی الله تعالی عليه وسلّم فی رعية الإبل. فقال: أرسلوا إليه. فأقبل وعليه غمامة تظلّه. فلمّا دنا إلی القوم. وجدهم قد سبقوا إلی الشجرة. فلمّا جلس صلّی الله تعالی عليه وسلّم مال فیء الشجرة عليه. فقال: انظروا إلی فیء الشجرة مال إليه. الحديث. رواه أبو موسی الأشعری. وهو إمّا أن يكون تلقّاه عنه صلّی الله تعالی عليه وسلّم فيكون أبلغ. أو من بعض كبار الصحابة. أو كان مشهوراً أخذه بطريق الاستفاضة.

وبحيری بفتح فكسر مقصور أذكره جمع من الصحابة بناء علی أنّ الشرط رؤيته والإيمان به صلّی الله تعالی عليه وسلّم ولو قبل المبعث.

وصحّ أنّ سبعة من الروم أقبلوا يريدون قتله فمنعهم بحيری وردّه أبو طالب وبعث معه أبوبكر بلالاً. قوله وبعث معه اهـ وهم من أحد رواته لأنّ أبابكر إذذاك لم يكن متعقّلاً لذلك ولا اشتری بلالاً.

وروی أبونعيم وابن عساكر أنّ أخته شيماء بنت حليمة رأته فی الظهيرة الغمامة تظلّه إذا وقفت وقفت وإذا سار سارت. ولمّا بلغ ثمان عشر سنة سافر إلی الشام مرّة أخری لتجارة علی ما ورد لكن بسند ضعيف وفيه أنّ أبابكر كان معه وأنّ بحيری قال: هذا والله نبیّ وأنّ ذلك سبب إيمان أبی بكر به لما بُعِث قبل غيره.

وروی ابن إسحاق معضلاً والبيهقی فی الدلائل موصولاً: أنّهم لمّا نزلوا قريباً من صومعة بحيری. صنع لهم طعاماً كثيراً. لأنّه رأی رسول الله صلّی الله تعالی عليه وسلّم حين أقبلوا وغمامة تظلّه من بين القوم. ثمّ أقبلوا

فنزلوا فى ظلّ شجرة قريباً منه. فنظر إلى الغمامة حين أظلّته الشجرة وتهصّرت. أى مالت وانعطفت. أغصانها على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم حين استظلّ تحتها... القصّة.

وأضاف العلّامة ابن حجر قائلاً: ثمّ خرج وله خمس وعشرون سنة مرّة ثالثة فى تجارة لخديجة ومعه غلامها ميسرة. فنزل تحت ظلّ شجرة فأظلّته اه.

وورد أنّ حليمة رأت غمامة تظلّه وهو عندها. وورد ذلك أيضاً عن أخيه من الرضاعة. وأشار غير واحد إلى أنّ تظليل الغمامة له صلّى الله تعالى عليه وسلّم إنّما كان قبل النبوّة إرهاصاً وتأسيساً لنبوّته صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما سيأتى. وممّا يدلّ على انقطاع ذلك أنّ الصديق رضى الله تعالى عنه أظلّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حين قدما المدينة فى الهجرة لما أصابته الشمس فظلّلعليه برداءه وصحّ أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ظلّل عليه بثوب وهو يرمى الجمرة. وظلّل به مرّة أخرى وهو بالجعرّانة. وأنّهم كانوا بأسفارهم إذا أتوا على شجرة ظليلة تركوها له صلّى الله تعالى عليه وسلّم. (ص١٦٠،١٦٩)

رقم البيت (٧٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الرابع من الفصل الخامس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

أقسمت بالقمر المنشقّ إنّ له
من قلبه نسبةً مبرورةَ القسم

لمّا فرغ من قصة الغمامة فى البيت السابق انتقل إلى آية أخرى هى مثلها سماوية وأعلى وأجلى فى الدلالة على عموم الرسالة بالانقياد له صلّى الله تعالى عليه وسلّم و كونها كآية الغمامة خصّيصى لنبيّنا دون سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال الناظم الفاهم:

أقسمت بالقمر المنشقّ إنّ له
من قلبه نسبةً مبرورةَ القسم

أقسمت فعل ماض على صيغة التكلّم بمعنى الحلف دون الإقسام المصدر لأنّه لايستعمل. وعبّر بالماضى دون المضارع إشارة إلى أنّ اعتقاده مطوىّ عليه منذ عقل كذا قال الباجورى.

أقول: يتأتّى هذا إذا جعلت الجملة خبرية. أمّا إذا جعلتها إنشائيّة فلا. والظاهر بدلالة الحال أنّ الجملة إنشائيّة. وآثر الفعل الماضى للوزن ولأنّه أدلّ على التحقّق وإنشاء الفعل فى الحال كما لايخفى.

بالقمر: متعلّق بأقسمت مقسم به. والقمر يطلق على الكوكب المنير باللّيل بعد مضىّ ثلاث ليال. وأمّا قبله فيقال له الهلال. المنشق: بالكسر صفة القمر وهو اسم فاعل من الانشقاق بمعنى الانصداع. وما وقع للخرفوتى من

أنّه اسم مفعول سبقة قلم أو سهو من الكاتب. إنّ له: جواب القسم وله ظرف مستقرّ خبر إنّ. قدّمه للاهتمام. والضمير راجع إلى القمر. وقوله من قلبه: متعلّق بنسبة. والضمير للنّبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم في قلبه ومن بمعنى الباء. والمراد بالنسبة المناسبة والشبه وهو اسم إنّ. مبرورة القسم صفة لاسم إنّ. ومعنى قوله مبرورة القسم أنّ القسم على نسبة القمر من قلبه الشريف مبرور فيه أى الصادق بلا شك يعنى لو حلف أحد يميناً أنّ للقمر المنشقّ نسبة أى شبهاً بقلبه صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّذى ثبت له الانشقاق كان بارّاً أوصادقاً. ووجه الشبه الجامع إمّا اللّطف و الصفاء والنزاهة والإشراق أو صبغ القلوب و تربية الألباب والهداية من الضلال أو للأخذ من العالى والإفاضة على السافل.

تنبيه: يستفاد من قوله أقسمت بالقمر المنشق جواز القسم بغير الله سبحانه وتعالى لأنّ الناظم الفاهم من كبار رجال الدين المهتدين بهدى الصادق الأمين صلّى الله تعالى عليه وسلّم المتمسكين بسنّة الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام فيما يأتون وما يذرون. قال فى الهندية: "إنّما يتمسك بأفعال أهل الدين". وهذا منه رضى الله تعالى عنه إشعار بأنّ القسم إذا صدر عن المؤمن بربّه على وجه التعظيم لشعائره والإجلال لآياته ومجانبة أهل الشرك. والتحرّز عن المجازفين بعدم المبالاة بما يقولون. والابتعاد عن التفاخر المنهى عنه فليس من الحلف الممنوع فى شىء. كيف وقد قال سبحانه وتعالى (ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب). وقال (ومن يعظّم حرمات الله) الآية. وتعظيمه يرجع إلى تعظيم الربّ سبحانه وتعالى. فالقسم على وجه التعظيم لبعض شعائر الله ليس مرجعه إلاّ إلى الحلف بالله. ولا حاجة إلى ادّعاء حذف المضاف فإنّه معلوم من حال المؤمن وعقيدته الّتى انطوى عليها قلبه أنّه لا يقصد بذلك تعظيم غير الله على طريقة أهل الشرك. وإنّما يعظّم ما يعظّم عن أمر من الله بتعظيم ما عظّمه. ويقف بنفسه حيث أوقفه الشرع. واستفاض فى زمن النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم القسم بالكعبة. و جرى المسلمون لاسيّما الأعاظم من أئمّة الدين على القسم بالنبى وبحقّ النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وفى دلائل الخيرات الّتى حظيت من المسلمين أئمّتهم وعامّتهم بقبول عظيم منذ قديم. وأقبلوا على قراء تها فى الأعصار والأمصار. قال فى هذه الدلائل: "مبتهلاً يدعو ربّه يقسم عليه بالنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ونقسم به عليك إذ هو أعظم من أقسم بحقّه عليك. وهكذا القسم على وجه التوكيد مشروع. وناهيك برهاناً عليه بقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم للأعرابى الّذى علّمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم شرائع الإسلام. فقبل وولّى. أفلح وأبيه إن صدق. الحديث الصحيح. وبهذا بأن أنّ قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (من حلف بغير الله فقد أشرك) ليس على إطلاقه. وظهر الجواب عمّا قال الإمام العلّامة على القارى فى الزبدة: قيل القسم بغير الله تعالى على مجرى العادة وإلاّ فالشرع عدّه شركاً. ولهذا يُقدّر فى أمثاله المضاف أى لفظة الربّ اهـ. وأغرب هو نفسه إذ قال: ويُمكن أن يكون حكاية عن كلام الله تعالى إلى آخر ما قال.

وبان أن لا محلّ لما تعقّب به العلّامة القارى العلّامة عصاماً إذ يقول: وأغرب العصام حيث قال القسم الّذى يُراد به تأكيد الحكم ليس بمنهى عنه ولهذا فى المحاورات يقسم بالقمر ونحوه (إلى أن قال) ويُكره الحلف بغير أسماء الله تعالى سواء فى ذلك النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم والكعبة والإمام والحياة والروح.

وإليك حديث انشقاق القمر من الباجوری. قال ما نصّه: إنّ أهل مكّة سألوه صلّى الله تعالى عليه وسلّم آية، فأراهم انشقاق القمر فلقتين، فكانت فلقة فوق الجبل وفلقة دونه. فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم اشهدوا. فقال كفّار قريش: قد سحرنا محمّد فابعثوا إلى أهل الآفاق حتی يظهر هل رأوا مثل هذا؛ فأخبر أهل الآفاق أنّهم رأوه منشقّاً. فقال كفّار قريش هذا سحر مستمرّ. فنزل قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشقّ القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمرّ).

وأمّا انشقاق قلبه الشريف فقد وقع أربع مرّات، وقد جمعها بعضهم فی قوله:

وشقّ صدر المصطفى وهو فی
دار بنی سعد بلا مرية

كشقّه وهو ابن عشر ثمّ فی
ليلة معراج وعند البعثة

وزيد خامسة عند عشرين سنة لكنّها لم يثبت. (حاشية الباجوری ص ۴۲)

وأورد العلّامة الخرفوتی حكاية فی انشقاق القمر فيها غرابة نسوقها للمناسبة ثقة به والعهدة عليه وإليك القصّة كما ساقها الخرفوتی فيما يلی: قال فی المشكاة "روى أنّ أبا جهل عليه اللّعنة ومن تابعه لمّا عجزوا عن معارضة نبيّنا عليه الصلاة و السلام وارتفعت يوماً فيوماً شمس شريعته وجعل الناس يؤمنون به بعثوا إلى حبيب بن مالك أمير الشام مكتوباً و كتبوا فيه: أمّا بعد! ليعلم الملك أنّه قد ظهر بيننا رجل ساحر كذّاب يدّعى ربّاً واحداً وديناً جديداً، وأنّه يسبّ آلهتنا وكلّما قابلناه بالحجّة غلب علينا. فاليوم ضعف دينك ودين آبائك. فالحق به قبل أن ينشر دينه. فركب حبيب بن مالك ومعه اثنا عشر فارساً. ونزل بالأبطح. وخرج لاستقباله أبوجهل وعظماء مكّة بالهدايا. فأقعده حبيب وسأله عن أحوال محمد. قال أيّها السيّد سل بنی هاشم. فسأل منهم. فقالوا نعرفه بالصدق فی صغره. ولمّا بلغ عمره أربعين سنة جعل يسبّ آلهتنا ويظهر ديناً غير دين آبائنا. قال حبيب أحضروا محمّداً. فبعثوا إليه الحاجب. فأتی إليه عليه الصلوة والسلام أبوبكر بحلّة حمراء وعمامة سوداء. فلبسهما رسول الله. فجاء إلى حضور حبيب وأبوبكر عن يمينه وخديجة من خلفه. فلمّا رأى النبی عليه الصلاة والسلام قام إكراماً له عليه الصلاة والسلام. فلمّا جلس رسول الله والنور يتلألأ فی وجهه سكتت الألسن ووقعت الهيبة على الناس. فقال حبيب يا محمد أنت تعلم أنّ للأنبياء كلّهم معجزات ألك معجزة؛ فقال عليه الصلاة والسلام ماذا تريد؛ فقال حبيب أريد أن تغيّب الشمس وتخرج القمر وتُنزله إلى الأرض وتجعله منشقّاً نصفين ثمّ يعود إلى السماء قمراً منيراً. فقال عليه الصلاة والسلام إن فعلته أتؤمن بی؛ قال نعم بشرط أن تُخبر بما فی قلبی. فصعد رسول الله على جبل أبی قبيس وصلّی ركعتين. فدعا ربّه. فنزل جبرائيل عليه الصلاة والسلام فقال إنّ الله تعالى سخّر لك الشمس والقمر واللّيل والنّهار. وإنّ لحبيب بن مالك بنتاً سطيحة يعنی مقعدة. وليس لها يدان ولا رجلان ولا عينان. فأخبره بأنّ الله تعالى قدر دّ عليها جوارحها. فنزل رسول الله عليه الصلاة والسلام من الجبل وجبريل فی الهواء وصفّت الملائكة صفوفاً. فأشار بإصبعه عليه الصلاة والسلام إلى الشمس فركضت حتی غابت. واشتدّ الظلام وطلع القمر بدراً منيراً.

فأشار إليه بإصبعه فجعل القمر يركض ركضاً حتى نزل إلى الأرض فانفلق فلقتين ثمّ عاد قمراً منيراً. ثمّ عادت الشمس كما كانت أوّل مرّة. ثمّ قال حبيب بقي عليك الشرط. فقال النبي عليه الصلاة والسلام إنّ لك ابنة سطيحة والله تعالى قد ردّ جوارحها. فقال حبيب قائماً يا أهل مكّة لا أكفر بعد الإيمان اعلموا (أنّي أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله). فقال أبوجهل أتؤمن بهذا الساحر؛ ثمّ خرج حبيب بن مالك إلى الشام مسلماً ودخل قصره. فأستقبلته بنته قائلة (أشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله). فقال لها يا ابنتي من أين علمت هذه الكلمات؛ قالت أتاني آت في المنام. فقال لي إنّ أباك قد أسلم وإن كنت أسلمت نردّ عليك أعضاءك سالمة. فأسلمت في منامي. فأصبحت كما تراني". (الخرفوتي ص١٣٢، ١٣٣)

رقم البيت (٧٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

بحمد الله تعالى قد انتهينا إلى البيت الخامس من الفصل الخامس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وماحوى الغار من خير ومن كرم
وكلّ طرف من الكفار عنه عمي

لايزال الناظم الفاهم ينتقل من قصّة إلى أخرى في حسن ترتيب وأسلوب عجيب. فقد بدأ بالعجائب الّتي ظهرت قبيل مولده صلّى الله تعالى عليه وسلّم وحين وُلِد عليه الصلاة والسلام وسَنّ ببعض الإرهاصات الّتي ظهرت عند مبعثه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حتّى انتهى إلى بداية مهاجره من مكّة وما وقع له من خوارق حين أوى إلى الغار. وفي هذا البيت أشار الناظم الفاهم إلى بداية هجرته صلّى الله تعالى عليه وسلّم من مكّة المحميّة الّتي هي أحبّ المواطن إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وإلى ربّه والمقام يقتضي تفصيل ما ألجأه إلى الخروج من موطنه العزيز فنسوق إليك القصّة الّتي اشتملت على بيان كيفيّة دعوته بعد بعثته صلّى الله تعالى عليه وسلّم و كيف انتشر أمره حتى آواه غير أهل بلده. وآذاه المواطنون. فكانوا السبب في خروجه صلّى الله تعالى عليه وسلّم إلى المدينة المنوّرة. وبين يدي القصّة نودّ أن نأتي بأبيات أنشدها الناظم الفاهم في همزيته يشير بها إلى جميع ذلك. قال رحمه الله تعالى في همزيّته:

وسَلَوْه وحنّ جذع إليه وقَلَوْه ووَدّه الغرباء
أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآه ومن شدّة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتاقت إليه من مكّة الأنحاء

قال الإمام ابن حجر فی أفضل القری تحت هذه الأبيات: وسلوه أی نفرت قلوبهم عنه حتّی هجروه مع نشأته فيهم وعلمهم بغاية نزاهته ونهاية كماله. وحنّ جذع إليه أی اشتاق كما جاء من طرق كثيرة صحيحة وغيرها يفيد مجموعها التواتر المعنوی الموجب لتيقّن وقوع ذلك والقطع به. وعلی التواتر المعنوی يحمل قول التاج السبكی (الصحيح عندی أنّ حنينه متواتر) وسبقه لذلك عياض. وحاصلها أنّه صلّی الله تعالی عليه وسلّم قبل أن يعمل له المنبر كان يخطب مستنداً إلی جذع نخل من الجذوع المسقوف عليها المسجد. فلمّا صنع له المنبر ثلاث درجات. وضعه موضعه الآن بمسجده. ثمّ تخطّی الجذع يوم الجمعة ليخطب علی المنبر. فصاح الجذع حتّی سمعه جميع من فی المسجد القصّة.

قوله ورقاء هی ما فی لونها بياض يخالطه سواد. قوله الحمامة الحصداء أخذه من قولهم شجرة حصداء أی كثيرة الورق فاستعاره للحمامة لكثرة ريشها.

قال ابن حجر تحت قول الناظم فی الهمزيّة وودّه الغرباء: الّذين هم ليسوا من عشيرته ولا من قومه. ولا عرفوا ما عرفته قريش من كماله الأعظم. كالأنصار الأوس والخزرج وذلك أنّه صلّی الله تعالی عليه وسلّم خرج فی الموسم الّذی لقيهم فيه يعرض نفسه علی قبائل العرب كما كان يصنع فی كلّ موسم. فلقی بعض الخزرج عند العقبة. فقال من أنتم؟ فقالوا من الخزرج. قال أفلا تجلسون أكلّمكم؟ فجلسوا. فدعاهم إلی الإسلام وتلا عليهم القرآن. وكان عندهم علم منه. فعرفوا نعته لأنّ يهود المدينة كانوا يقولون لهم: إنّ نبيّاً يبعث الآن نتّبعه ونقتلكم معه. فأجابوه لئلّا تسبقهم اليهود إليه وأسلم منهم ستّة نفر. فقال لهم: تمنعون ظهری حتّی أبلّغ رسالة ربّی. فقالوا: ندعوا قومنا إلی ما دعوتنا إليه. فإن أجابوا فلا أحد أعزّ منك وموعدك الموسم العام القابل. فلمّا وصلوا المدينة لم تبق دار إلّا وفيها ذكر رسول الله صلّی الله تعالی عليه وسلّم.

فلقيه فی العام القابل اثنا عشر. خمسة من الستّة والبقيّة من الخزرج أيضاً إلّا رجلين فمن الأوس. وهذه العقبة الثانية.

ومضی ابن حجر قائلاً فأظهر الله الإسلام فيهم. إلی أن قال بعد ما ذكر العقبة الثالثة. وصحّ عن جابر مكث صلّی الله تعالی عليه وسلّم عشر سنين يتبع الناس فی منازلهم فی المواسم بمنیً وغيرها يقول (من ينصرنی حتّی أبلّغ رسالة ربّی وله الجنّة) حتّی بعث الله له من يثرب. وذكر الحديث. وفيه (علی أن تنصرونی إذا قدمت عليكم يثرب. فتمنعونی ممّا تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنّة).

وحضر العبّاس رضی الله تعالی عنه هذه المبايعة. فأكّد عليهم رسول الله صلّی الله تعالی عليه وسلّم. ثمّ أمر صلّی الله تعالی عليه وسلّم من بقی معه بالهجرة إلی المدينة. فخرجوا أرسالاً. متتابعين. وأقام صلّی الله تعالی عليه وسلّم ينتظر الإذن له فی الهجرة واستأذنه أبوبكر رضی الله تعالی عنه. فقال (لاتفعل. لعلّ الله أن يجعل لك صاحباً). فتطمّع أبوبكر فی أن يهاجر معه صلّی الله تعالی عليه وسلّم.

ولمّا بلغهم. أی قريشاً. أنّه صلّی الله تعالی عليه وسلّم بويع وأمر صلّی الله تعالی عليه وسلّم من معه أن يلحق بالمدينة وأنّه ظهر أمره بها. اشتوروا بدار الندوة. ثمّ أجمعوا أن يحبسوه أو يقتلوه أو يخرجوه. فأعترضهم إبليس فی

صورة رجل جميل. وأظهر لهم أنّه يريد نصحهم. وأمرهم أن يعرضوا عليه آراء هم ليختار أنفعها لهم. فقيل: نحبسه. فقال قد ينتزع منكم. فقيل: نخرجه. فقال: يأتيكم بما لا طاقة لكم به. فقال أبو جهل: أرى أن تأخذوا من كلّ قبيلة غلاماً قوياً. ثمّ تعطوهم شفاراً كما ورد في الرواية. فيضربه كلّ ضربة فيتفرّق دمه في القبائل. فلم يقدر أهله على حرب قومهم فيأخذوا ديته. فقال إبليس: لله درّك! هذا هو الرأي. فأجمعوا عليه. فأتاه جبريل فقال: لا تبت اللّيلة في فراشك. فاجتمعوا في اللّيل ببابه يرصدونه لينام فيثبوا عليه. فأمر عليّاً رضي الله تعالى عنه بأن ينام مكانه. ثمّ خرج عليهم فلم يبق أحد منهم إلّا أخذ الله على بصره فلم يره. ونثر على رأس كلّ واحد منهم تراباً كان في يده وهو يتلو (يٰس إلى لا يبصرون).

وصحّ أنّه ما أصاب أحداً منهم تراب إلّا قُتِل كافراً. ثمّ أعلموا بخيبتهم. فوضع كلّ منهم يده على رأسه فوجد التراب. وفي هذا نزل قوله تعالى (وإذ يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك) الآية (الأنفال ۳۰). ثمّ أذن الله لنبيّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم في الهجرة.

ومضى ابن حجر يتابع القصّة إلى أن قال: وخلّف عليّاً ليؤدّي ما عنده من الودائع. وكان مجيئه بيت أبي بكر وقت الظهيرة فقال: إنّه قد أذن لي في الخروج. قال: الصحبة يا رسول الله. قال: نعم. قال: فخذ إحدى راحلتي. قال: بالثمن. أي لتتمحّض هجرته لله ولا يكون لأحد فيها منّة. فخرجا ليلاً إلى غار جبل ثور. فاستخفيا فيه. ولمّا فقدته قريش طلبوه بمكّة أعلاها وأسفلها. وبعثوا القافة إثره في كلّ وجه. فوجد الّذي ذهب قِبَل ثور أثره هنالك. فلم يزل يتبعه حتّى انقطع لما انتهى إلى الثور. وشقّ عليهم خروجه وجزعوا منه. وجعلوا لمن ردّه مئة ناقة.

ولمّا دخل الغار. قيل: أنبت الله على بابه شجرة أمّ غيلان فحجبت عن الغار أعين النّاس. وأرسل الله حمامتين وحشيتين فوقعتا على فم الغار كما قال وحمته حمامة ورقاء. ومعنى حمايتهما له أنّ فتيان قريش من كلّ بطن لمّا أقبلوا بسلاحهم. جعل بعضهم ينظر في الغار فلم ير إلّا حمامتين وحشيتين بفم الغار. فرجع إلى أصحابه. فقالوا له: ما لك؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنّه ليس فيه أحد.

وقال آخر: ادخلوا الغار. فقال اللّعين أميّة بن خلف: وما أربكم في الغار؟ إنّ فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمّد.

وفي مسند البزّار: أنّ الله عزّ وجلّ أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار.

وروى أنّ الحمامتين باضتا في أسفل النقب. ونسج العنكبوت على أعلاه. فقالوا: لو دخلا لتكسر البيض وتفتّح نسج العنكبوت.

قال الأئمّة: وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود.

وروى أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: اللّهم أعم أبصارهم. فعميت عن دخوله. وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار. لظنّهم أنّ الحمام لا يحوم حوله. وأنّ العنكبوت لا تنسج عليه وفيه أحد. لما جرت العادة أنّهما متوحّشان. مهما أحسّا بالإنسان فرّا منه. وما علموا أنّ الله سبحانه وتعالى يسخّر ما شاء من خلقه لمن شاء من عباده. وأنّ وقاية الله تعالى عبده بما أراده تغنيه عن التحصّن بالأمكنة والأسلحة.

وصحّ أنّ أبابكر رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله! لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال صلى الله تعالى عليه وسلّم: ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟

وروى أنّ أبابكر نظر إلى قدميه صلّى الله تعالى عليه وسلّم في الغار يقطران دماً لأنّه لم يتعوّد الحفا فبكى. وأنّه دخل قبله ليقيه بنفسه. وأنّه رأى جحراً فيه فألقمه عقبه. فجعلت الحيّات والأفاعي تضربه وتلسعه. فجعلت دموعه تتحدّر. وفي رواية عند رزين: فدخل صلّى الله تعالى عليه وسلّم وجعل رأسه في حجره ونام. فلدغ أبوبكر في رجله فلم يتحرّك. فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فقال ما لك؟ قال: لدغت فتفل عليه فذهب ما يجده.

وروى أنّ أبابكر لمّا رأى القافة اشتدّ حزنه وقال: إن قتلتُ فإنّما أنا رجل واحد. وإن قتلت أنت هلكت الأمّة. فقال صلّى الله تعالى عليه وسلّم (لا تحزن إنّ الله معنا) أي بالمعونة والنصر. (فأنزل الله سكينة عليه) أي على أبي بكر لأنّه هو الّذي انزعج. وهي أمنة تسكن عندها القلوب (وأيّده) أي رسوله (بجنود لم تروها) أي الملائكة يصرفون أبصار الكفّار عنه.

وأضاف ابن حجر قائلاً: وبين قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (إنّ الله معنا) وقول موسى عليه الصلاة والسلام (كلّا إنّ معي ربّي سيهدين) ما بين مقاميهما. إذ كمال الإمداد للأتباع ليس إلّا لنبيّنا. فأمدّ أبابكر بشهود المعيّة أيضاً. وقصرها موسى على نفسه. وأيضاً فشتّان بين معيّة الألوهية ومعيّة الربوبية. والمشهور أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم مكث في الغار ثلاث ليال.

وكان عبد الله ابن أبي بكر، مع صغر سنّه يأتيهما ليلاً بخبر قريش. ثمّ يدّلج من عندهما بسحر. فيصبح كبائت بمكّة.

وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتيهما كلّ ليلة بما يغذيهما من لبن.

واستأجر عبد الله بن الأريقط ليدلّهما على الطريق. ولم يعرف له إسلام. فدفعا إليه راحلتيهما. ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال. فأتاهما وسار معهم عامر بن فهيرة فأخذ بهما طريق البحر. انتهى كلام ابن حجر بتصرّف منّا يسير. (الهمزيّة وشرحه ص١٩٣ إلى ٢٠٢)

أقول: صحّ عن النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم النهي عن تسمية المدينة يثرب. وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال (من سمّى المدينة يثرب فليستغفر الله هي طيبة وهي طابة). فما وقع في كلام ابن حجر عندما ساق رواية وقع فيها كلمة يثرب محمول على ما قبل النهي.

شرح الغريب وبيان الإعراب: وما حوى مبتدأ محذوف الخبر أي من جملة معجزاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم ما حوى وجمع وأحاط. وما اسم موصول. ومن بيانه. والغار نقب في الجبل. والخير ما له عاقبة حميدة وهو صيغة تفضيل على غير القياس وتنوين خير و كرم إمّا للتعظيم أو عوض عن المضاف إليه أي خير البشر و كرمه جعل نفسه وذاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم محض الخير والكرم. وكلّ طرف مبتدأ وعمي خبره ماضياً كان أو صفة وعنه متعلّق به والضمير للنبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ومن الكفّار صفة طرف والجملة في محلّ الحال. كذا قال الشيخ زاده. (الشيخ زادة ص١٣٥)

رقم البيت (٧٧، ٧٨، ٧٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا أوان الشروع في شرح البيت السادس والسابع والثامن من الفصل الخامس من قصيدة البردة. أعني قول الناظم الفاهم:

فالصدق في الغار والصديق لم يرما
وهم يقولون مابالغارمن أرم

ظنّوا الحمام وظنّوا العنكبوت على
خير البريّة لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عال من الأطم

وهذه الأبيات كما ترى مرتبط بعضها ببعض، ولها ارتباط بالسابق من حيث التفصيل ومن جهة التعليل، قوله فالصدق تفصيل لقوله "فما حوى الغار". والصدق مصدر بمعنى اسم الفاعل وهو الصادق أواسم المفعول وهو المصدوق. وهو نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم ذوالصدق في خبره فلا يتخلّف خبره عن الواقع بل يطابقه. المصدوق الّذي صدّقه ربّه فيما جاء به وقيّض له من يصدّقه من عباده. بل أشهد الجماد والنبات والحيوان بصدق سيّد الأكوان عليه الصلاة والسلام. وهو المعصوم عن كلّ ما لاينبغي. والملتزم لوعده. الموفّي له فهو الصادق في خبره ووعده وشأنه كلّه. بل هو عين الصدق بكلّ معنى الكلمة. ولذلك آثر المصدر فسمّاه عليه الصلاة والسلام به أي بالصدق وهو إشارة إلى قوله تعالى (والّذى جاء بالصدق وصدّق به) الآية.

والصدّيق فِعّيل مبالغة من الصدق أي كثير الصدق لقب لسيّدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه. في الغار خبر مبتدأ. والصدّيق مبتدأ. وفيه حذف الخبر من الثاني لدلالة الأوّل عليه أي والصدّيق كذلك. لم يرما بالنصب حال وهو من الورم أي لم ينتفخا. كنى به عن عدم الغضب على ما ابتلي به لأنّ الغضبان ينتفخ وجهه. فالمعنى أنّهما لم يغضبا بل رضيا بقضاء الله سبحانه وتعالى ولم يتغيّرا عن حالهما باستشعار الخوف لكمال تمكينهما وصدق تعيينهما. أوهو كناية عن عدم وصول الضرر إليهما بالغار الّذي كان مأوى الحيّات. وقيل لم يرما أصله لم يَرِمن بالنون الخفيفة للتأكيد. فالضمير راجع إلى أبي بكر الّذي ارتفع عنه ضرر لسعة الحيّة وذهب الورم عن رجله المباركة لمّا وضع صلّى الله تعالى عليه وسلّم عليها من ريقه. وكانت هذه معجزة عظيمة من معجزات نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم وكرامة لأبي بكر رضي الله تعالى عنه. ويجوز أن يقرأ لم يرما بالبناء للمجهول من الروم أي لم يطلبا في الغار حينما انقطعت الآثار عند الغار وظنّوا أن ليس بالدار ديّار صيانة لهما. وحجبا عن أعين الكفّار بمحض قدرة الجبّار. "وهم يقولون" الواو للحال وضمير "هم" مرجعه إلى الكفّار بدلالة المقام. "يقولون" أي

يحكمون. و"ما" نافية بالغار خبر مقدّم. ومن أرم فى محلّ الرفع مبتدأ مؤخّر. ومن مزيدة للتأكيد. وأرم وأريم بمعنىً أى والحال أنّ الكفار يقولون ما بالغار أحد. ما الّذى جعلهم يقولون ما بالغار من أرم؟ أجاب عنه بقوله:

ظنّوا الحمام وظنّوا العنكبوت على
خير البريّة لم تنسج ولم تحم

فالجملة مستأنفة بيانيّة وقعت جواباً عن سؤال مقدّر. والظنّ على أوجهٍ: العلم الجازم. والراجح من الرأى. والوهم. قيل المراد ههنا الوجه الثالث ولا مانع من إرادة الوجه الثانى بل ولا مانع من إرادة الأوّل كما لايخفى. الحمام بالنصب معطوف عليه والعنكبوت معطوف على الأوّل. ولم تنسج بضمّ السين وكسرها فى محلّ النصب مفعول ثانٍ. وكذا القول فى "ولم تحم" على خير البريّة جار مجرور متعلّق بقوله لم تنسج. ولم تحم من حام يحوم إذا دار وطاف أى لم تطف. قال الشيخ زادة: ويحتمل أن يكون ضميره للعنكبوت والمفعول الثانى من ظنّوا الأوّل محذوف على طريق قوله علّفتها تبناً وماء بارداً أى ظنّوا أنّه ما دار وما باض على باب الغار الّذى فيه خير البريّة. وإمّا أن يكون مفعولاً ثانياً لظنّوا الأوّل باللّف والنشر الغير المرتّب. (شيخ زاده ص١٣٦)

وقصّة الغار مشهورة وفى كتب السير مذكورة وقد تقدّم طرف صالح من القصّة فيما مضى.

ثمّ أفصح الناظم الفاهم عن السبب الحقيقى الّذى من أجله حصل ما حصل من إيواء الغار وحوم الحمام ونسج العنكبوت وظنّ الكفّار ما ظنّوا. وامتناعهم عن دخول الغار مع مشاهدة الآثار فقال:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدّروع وعن عالٍ من الأطم

الوقاية مصدر من وقاه يقيه بمعنى حفظه مضاف إلى فاعله ومفعوله محذوف أى وقاية الله نبيّه عليه الصلاة والسلام أغنت عن مضاعفة أى جعلت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم غنيّاً عن مضاعفة الدروع ومستغنياً عن عالٍ من الأطم. والمضاعفة من ضاعف يضاعف وهو ضمّ شىء إلى شىء. وقوله من الدروع بيان لمضاعفة. والدروع جمع الدرع وهو ما يلبس فى الحرب. والمضاعفة فى الدروع أن يلبس درع فوق درع وقاية فى الحرب. وعن عالٍ عطف على مضاعفة أى عن مكان مرتفع والأطم بضمّتين جمع أطمة وهو بمعنى الحصن والمعنى حفظ الله الملك الجبّار نبيّه المختار صلّى الله تعالى عليه وسلّم صيّره مستغنياً عن الدروع والأسلحة المتعدّدة وعن الحصون العالية المرتفعة فجعل الغار له بقدرته بمنزلة حصن حصين وصيّر نسج العنكبوت فى قوّة الدرع المتين.

روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم يحرس حتّى نزلت هذه الآية والله يعصمك من الناس فأخرج رأسه من القبّة وقال أيها النّاس انصرفوا فقد عصمنى ربّى. والمعنى أنّ العصمة أوّلاً كانت بواسطة الحجاب. ولمّا ارتفع الحجاب حُفِظَ بربّ الأرباب. وفى البيت إيماء إلى قوله تعالى (وما النصر إلّا من عند الله العزيز الحكيم). وإشارة إلى قوله عزّ وجلّ (الّا تنصروه فقد نصره الله) الآية. من الزبدة لمولانا على القارى بتصرّف يسير. (الزبدة ص٨١)

قال الخرفوتى يبيّن الحكمة فى هجرته صلّى الله تعالى عليه وسلّم من مكة إلى المدينة ما نصّه: فإن قلت ما

الحکمة فی هجرته علیه الصلاة والسلام إلی المدینة وإقامته بها إلی أن انتقل إلی ربّه عزّ وجلّ؛ قلت إنّ حکمة الله تعالی قد اقتضت أنّه علیه الصلاة والسّلام تتشرّف به الأشیاء. فلو بقی فی مکّة إلی انتقاله إلی ربّه لکان یتوهّم أنّه قد تشرّف بمکّة إذ کان تشریف مکّة بالخلیل وإسماعیل علیهما الصلاة والسلام. فأراد الله سبحانه وتعالی أن یظهر شرفه علیه الصلاة والسلام. فأمره بالهجرة إلی المدینة. فلمّا هاجر إلیها تشرّفت به حتّی أجمعوا علی أنّ الموضع الّذی ضمّ أعضاءه الکریمة أفضل من جمیع البقاع.

وقال أیضاً: ثمّ اعلم أنّ خاصیة هذا البیت أنّه من کان فی أرض مخوفة من الوحوش فلیقرأه سبعاً أو تسعاً ولیجعل فی أطرافه دائرة. فإنّ تلك الوحوش لاتضرّه ولاتدخل داخل تلك الدائرة. قال الأستاذ طوّل الله تعالی بقاءه وجعل آخرته خیراً من أولاه جرّبناه مراراً فوجدناه صادقاً. (الخرفوتی ص۱۳۹)

تذئیل فیما یتعلّق بالحمام والعنکبوت قال العلّامة الخرپوتی: قال فی إخوان الصفا الحمام خاصّته أن یحمل کتاباً إلی بلد بعید. وهو القائل فی طیرانه وذهابه: یا وحشتنا من فرقة الإخوان. یاطول الأشواق إلی الخلّان. یاربّ أرشدنا إلی الأوطان. وقال فی حلبة الکمیت اختلف النّاس فی صوت الحمام هل هو بکاء أو غیر ذلك؛ فمنهم من جعله بکاء وقال إنّها تبکی علی فرخ لها صاده جارح فی عهد نوح علیه الصلاة والسلام فما من حمامة إلّا وهی تبکی علیها إلی یوم القیامة. قلت والّذی یظهر لهذا الفقیر والله أعلم أنّ ذلك یختلف باختلاف المسامع فتارة یسمعه الخلی فیطرب ویسمّیه غناء وتارة یسمعه العاشق فیحزن ویسمّیه بکاء انتهی.

والعنکبوت دویبّة تنسج فی الهواء والجمع عناکب والمذکّر عنکب وهی أقلع الأشیاء وعلی رزقها أحرص الأشیاء وتبیض وتحیض وأوّل ما تلد تلد دوداً صغاراً ثمّ یتغیّر ویصیر عنکبوتاً وتکمل صورته فی ثلاثة أیّام ویقوّی علی النسج ساعة یولد من غیر تعلیم والّذی تنسج لاتخرجه من جوفها بل من خارج جلدها. قال فی حیاة الحیوان إذا وضع نسج العنکبوت علی الجراحة الطریّة فی ظاهر البدن حفظها من الورم ویقطع سیلان الدم. وإذا دلکت الفضّة بنسجها جاء جلاءها. والعنکبوت الّذی ینسج علی الخلاء إذا علّق علی المحموم یبرأ بإذن الله تعالی. وإذا لفّ فی خرقة وعلّق علی صاحب حمی الربع نفع انتهی. وفی الجامع الصغیر: قال علیه الصلاة والسلام العنکبوت شیطان مسخه الله فاقتلوه. وروی الثعلبی عن علی بن أبی طالب رضی الله تعالی عنه أنّه قال طهّروا بیوتکم من نسج العنکبوت فإنّ ترکه فی البیوت یورث الفقر. وفی الحلیة: نسجت العنکبوت مرّتین علی الأنبیاء مرّة علی داود علیه الصلاة والسلام حین کان جالوت یطلبه ومرّة علی النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم فی الغار. وروی الدیلمی فی مسند الفردوس عن علی رضی الله تعالی عنه أنّ النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم سئل عن الممسوخ. فقال هم ثلاثة عشر: الفیل والدبّ والخنزیر والقرد والجریث والضبّ والوطواط والعقرب والدعموث والعنکبوت والأرنب وسهیل والزهرة الحدیث. قال فی الزبدة: نهی علیه الصلاة والسلام عن قتل العنکبوت والحمام الکائنین فی الحرم. (الخرفوتی ص۱۳۸،۱۳۷)

رقم البيت (٨٠، ٨١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا أوان الشروع في شرح البيت التاسع والعاشر من الفصل الخامس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

ماسامني الدهر ضيماً واستجرت به
إلاّ ونلت جواراً منه لم يضم

ولاالتمست غنى الدارين من يده
إلّا استلمت النّدى من خير مستلم

وهذا كما ترى انتقال من حالة إلى أخرى وإشارة إلى ما ترقّى إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم من مقام أسنى بالإضافة إلى حالة ظهرت له عليه الصلاة والسلام في بداية أمره ودامت وارتفعت إلى أن صارت له مقاماً على الدوام. فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم محفوظ من الله بواسطة ما شاء من خلقه وسخّره له يمنعه. ثمّ تولّى حفظه بنفسه فقال (والله يعصمك من الناس). فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم معصوم محفوظ وفي نفس الوقت حافظ للخلق. المفيض عليهم من نعم الله تعالى وهو المأوى لهم في الشدائد. وإلى ذلك أشار الناظم الفاهم حيث أنشأ يقول: ماسامني الدهر اھ. وفي نسخة "ماضامني" وفي أخرى "يوماً" بدل "ضيماً". و"ماسامني" من سام يسوم أي ماقصدني أوما أذاقني. والضيم بمعنى الظلم. "ضيماً" إمّا مفعول مطلق من ضامني أومفعول ثان من سامني أومفعول مطلق من غير لفظه. والدهر فاعل فعل ماض وهو على حذف المضاف أي أهل الدهر مجازاً من إطلاق المحلّ على الحالّ. وذلك لأنّه كلام صدر عن الموحّد وهو القرينة على إرادة المجاز كما هو الشأن في كلّ ما أسند إلى ما سوى الله من إنبات وإحياء وإبراء وإيجاد وغير ذلك كقولهم أنبت الربيع البقل. و كقول سيّدنا عمر رضي الله تعالى عنه لسبط النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم الحسن: هل أنبت الشعر في الرؤوس إلاّ أنتم. و كما حكى الله سبحانه و تعالى عن سيّدنا عيسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام (أبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى) الآية.

وإنكار المجاز يؤدّي إلى خلط عظيم وخبط جسيم لايبقى معه الإيمان بالكتاب ولا بالسنّة وتبطل محاورات أهل اللّسان. وتتأتّى الوسائل الّتي قامت بها الأكوان ويؤول الأمر إلى إنكار الله سبحانه وتعالى بالتجسيم الناشئ عن التشبيه والتمثيل بإجراء ظواهر الكتاب والسنّة على معانيها المنافية للتنزيه كما يؤدّي إلى ابتداع في معنى الشرك وتفريق بين الاستغاثة بالنبي والولي وبين من دونهما من سائر الخلق حيث يعتقد المنع في النبي والوليّ بأنّه شرك ويباح في من دونهم كما هو ظاهر على من طالع "قوارع القهار" و"الأمن والعلا لناعتي المصطفى بدافع البلاء" و"بركات الإمداد" لجدّنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه أو طالع "الإعجاز على منكري المجاز" للشيخ العلّامة عيسى مانع الحميري دبي و"رفع الغاشية عن المجاز والتأويل وحديث الجارية" للشيخ العلّامة إبراهيم بن نضال

آله رشي من كبار العلماء بدمشق الشام۔

هذا وقد قدّر بعضهم خالق الدهر بينما اقتصر العلّامة الباجوري على التقدير الأوّل وهو أهل الدهر وهو الأوجه عندي فإنّ الثاني لا يخلو عن إيهام لأنّ الضيم بمعنى الظلم۔ واستجرت من الاستجارة من قولهم استجار فلان من فلان أي طلب الخلاص والنجاة كما في قوله تعالى "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره". وقيل بمعنى الالتجاء والاستغاثة والالتياذ وطلب المناص. والواو للحال والجملة في محلّ النصب حال. والباء في به إمّا للسببية أو للاستعانة والضمير راجع إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. والاستثناء مفرّغ حذف فيه المستثنى منه أي ما سامني الدهر ضيماً في حال من الأحوال أو في يوم من الأيّام لأنّه بمعنى الوقت. ونلت بكسر النون من ناله يناله إذا وصل إلى مراده وحصّل مناه ومقصوده. وقوله منه الضمير فيه يعود إلى الضيم المفهوم من ضام. هذا إذا أريد بالجوار الخلاص. والضمير لخير البريّة صلّى الله تعالى عليه وسلّم إن أريد به طلب المناص أي الملاذ. والواو في قوله ونلت واو الحال. فالجملة حالية أو هو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما في قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية إلّا ولها كتاب معلوم). والجوار بكسر الجيم وضمّها أي حميٌ وحفظاً من الرسول. وقوله لم يضم بالبناء للمجهول أي لم يحتقر بل يحترم۔

حاصل معنى البيت ما أذاقني الله تعالى يوماً من الأيّام ضرراً من أمور الدنيا. والحال أنّي قد التجأت إليه واستغثت به صلّى الله تعالى عليه وسلّم إلّا وقد نلت خلاصاً من الشدّة ووجدت فيه مناصاً وملجأً إلى الرسول صلّى الله تعالى عليه وسلّم لم يغلب ولم يظلم۔

قوله ولا التمست الواو للعطف والجملة معطوفة على جملة سامني الدهر و كرّر النفي للتأكيد. والتمست من الالتماس وهو في الأصل طلب المساوي من المساوي وهنا بمعنى الطلب على التجريد. وغنى الدارين أي غنى الدنيا بالمال والسعة والكفاية. وغنى الآخرة بالحفظ والمنع عن العذاب. وقوله من يده جار ومجرور متعلّق بالتمست ويراد باليد ههنا الذات إطلاقاً للجزء على الكلّ. فالمعنى بشفاعته والتوسّل به وببركته صلّى الله تعالى عليه وسلّم۔ وقوله إلّا استلمت الندى مستثنى استثناء مفرّغ كما تقدّم والمستثنى منه محذوف. واستلمت بمعنى الاستسلام والمراد بالاستلام الأخذ. والندى بمعنى العطاء وهو بالنصب مفعول لقوله استلمت. ومن خير مستلم إمّا صفة للندى أو متعلّق بقوله استلمت والمستلم أي المأخوذ منه والمراد به النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم۔

وحاصل المعنى ما طلبت غنى الدنيا بالكفاية وغنى العقبى بالسلامة من إحسانه وإنعامه أو من ذاته أو من جهته عليه الصلاة والسلام إلّا أخذت العطاء ونلت المنى من خير مستلم فكنت بسببه متخلّصاً من الآفات في الدنيا وناجياً من البليّات في العقبى عليه الصلاة والسلام۔

قال العلّامة الباجوري: وفي هذا البيت والّذي قبله براءة الطلب وهي كما قاله الزنجاني في كتاب المعيار أن يُلَوِّحَ بالطلب بألفاظ عذبة خالية من الإجحاف مقترنة بتعظيم الممدوح تشعر بما في النفس دون كشفه۔ (حاشية الباجوري ص۴۵)

وخاصية هذين البيتين أنّ من كان مسجوناً أو خائفاً من السلطان وداوم على قراءتهما سبع عشرة مرّة بعد كلّ صلاة فإنّ الله يفرّج عنه همّه ويجعل له من أمره مخرجاً۔ (حاشية الباجوری ص۳۲)

قال الخرفوتی یذکر خاصية البيت الأوّل: ثمّ اعلم أنّ خاصية هذا البيت أنّه إذا كتبه من يريد السفر فترك المصراع الأوّل فی داره مع أهله وأخذ المصراع الثانی معه فسافر فهو يصل إلى أهله بإذن الله تعالى سالماً من الآفات۔ (الخرفوتی ص۱۳۱،۱۳۰)

رقم البيت (۸۲)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين۔

وبعد فهذا أوان الشروع فی شرح البيت الحادی عشر من الفصل الخامس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

لاتنكر الوحی من رؤياه إنّ له
قلباً إذا نامت العينان لم ينم

هذا كما ترى إفصاح عن المقصود وتوصّل إلى ما مهّد له بذكر ماجرى له صلّى الله تعالى عليه وسلّم من الأحوال من بداية أمره إلى أن بعث عليه الصلاة والسلام ممّا كان ممهّداً لأمر النبوّة ومؤكّداً لرسالته عليه الصلاة والسلام ودليلاً على أنّه مرسل من ربّه قبل أن يخبر عن نفسه ويصدع بالوحی كما قال الشاعر:

لولم تكن فيه آيات مبيّنة
لكانت بديهته تأتيك بالخبر

وبالجملة فقد صدع الناظم الفاهم بالمدلول الّذی دلّت عليه أحوال الرسول صلّى الله تعالى عليه وسلّم فی أسلوب عجيب فجاء بالمدلول بعد الدليل فوافق الوضع الطبع فی الترتيب فشرع بقوله: لا تنكر الوحی اھ۔

قوله لاتنكر نهی للحاضر من الإنكار. والخطاب عامّ لكلّ من يصلح أن يخاطب أی لاتنكر الوحی ممّن اتّصف بهذه الصفات والنعوت الّتی استأهل بها بمحض فضل من الله تعالى أن يكون دائم الشهود فی الحضرة الأحديّة بقلبه المتهيّأ للتلقّی منه سبحانه وتعالى والمستمدّ منه فی كلّ حين فلا يفارقه فی جميع اللّيالی والأيّام ولو كان عيناه فی المنام كيف لا. وقد شُقّ مراراً وخاصّة فی غار حراء عند مجیء جبريل له بالوحی. قال العلّامة ابن حجر فی شرح الهمزيّة ما نصّه: ثبت شقّ صدره الشريف عند مجیء جبريل له بالوحی وهو بغار حراء. وممّن رواها الطيالسی والحارثی فی مسنديهما وكذا أبو نعيم. ولفظه: إنّ جبريل وميكائيل شقّا صدره وغسلاه ثمّ قالا: "اقرأ باسم ربّك" الآيات. والحكمة فيه: كمال التهيّؤ والتقوّی على ما يلقى إليه من القول الثقيل بقلب قوی فی أكمل أحوال التطهير۔

وثبت مرّة أخرى ليلة الإسراء ففی البخاری وغيره: "أنّه شقّ قلبه فيها وهو بالمسجد قبل أن يخرج به إلى ركوبه البراق فشقّ من ثغرة نحره إلى عانته فاستخرج قلبه. ثمّ غسل فی طست ذهب مملوء حكمة وإيماناً. ثمّ حشی. وحكمة

هذا الشقّ: التهيّؤ للرقى إلى الملأ الأعلى. والتقوّى على استجلاء ما شاهد تلك اللّيلة. ولمّا لم يتّفق هذا لموسى عليه السلام لم يطق الرؤية. (شرح الهمزيّة ص١٣٩).

وقوله لا تنكر الوحى. الوحى معروف. وقد تقدّم معناه. قال العلّامة ابن حجر فى شرح الهمزيّة: الوحى الآتى إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم على أقسام: الرؤيا الصادقة. فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح.

وما يُلقِيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه للحديث الصحيح: (إنّ روح القدس نفث فى روعى لن تموت نفس حتّى تستكمل رزقها. فاتّقوا الله وأجملوا فى الطلب).

وتمثّل الملك له رجلاً فيخاطبه. وصحّ: أنّه كان يأتيه فى صورة دحية الكلبى. أى: لأنّه كان جميلاً جدّاً. إذا قدم لتجارة خرجت الظعن لتراه. وتشكّل جبريل مع عظم صورته وأنّ له ستّ مئة جناح تسدّ الأفق فى صورة رجل غير بعيد. لأنّ الأجسام النورانيّة تقبل الانضمام حتّى تصغر الصورة جدّاً. كما أنّ القطن يقبل الانكباس فتصير الصورة الكبيرة منه صغيرة.

ويأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليه. ولذا كانت ناقته صلّى الله تعالى عليه وسلّم تبرك به. وكان رأسه على فخذ زيد ابن ثابت فكادت تُرض من شدّة الثقل. حتّى إنّه يقول: (لا أمشى بعد اليوم على رجلى أبداً).

ويأتيه على صورته الأصليّة. ووقع له ذلك مرّتين كما فى (سورة النجم).

وكلام الله تعالى له بلا واسطة كموسى. واختصّ بالكليم. لأنّ ذلك وقع له وهو بالأرض. ونبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم إنّما وقع له ذلك وهو كقاب قوسين أو أدنى.

وصحّ عن الشعبى: أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وكّل به إسرافيل. فكان يتراءى له ثلاث سنين. ويأتيه بالكلمة من الوحى والشىء. ثمّ وكّل به جبرائيل فجاءه بالقرآن. (شرح الهمزية ص١٦٥،١٦٣)

والرؤيا ما يراه الشخص فى منامه.

والبيت مقتبس من قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم "تنام عيناى ولا ينام قلبى". وفيه أنّ نومه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ليس كنوم سائر البشر من غير الأنبياء وإنّما هو إغفاء كما صرّح فيه الناظم الفاهم فى همزيّته حيث يقول:

سيّد ضحكه التبسّم والمشى الهوينا ونومه الإغفاء

قال ابن حجر يشرح هذا البيت: سيّد للعالمين الأوّلين والآخرين (ضحكه) أى الّذى يظهر به سروره ..هو (التبسّم) كما رواه البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها ما رأيته مستجمعاً قطّ ضاحكاً. أى مقبلاً على الضحك بكلّيته. إنّما كان يتبسّم.

أمّا مشيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فأراد: أنّه كان يستعمل التثبّت. ولا يتبيّن منه فى هذه الحالة استعجال ومبادرة بالمشى. وهذا هو مراد الناظم بقوله: و"المشى" الكائن منه "الهوينا" تصغير الهون وهو السكينة والوقار.

(و) أمّا (نومه) صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فهو (الاغفاء) أى: أخفّ النوم بحيث لا يستغرق. لأنّ الاستغراق إنّما يتولّد عن نوم القلب وغفلته المتولّد عن الشبع المفرط. وهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم كسائر الأنبياء. كان

تنام عينه ولا ينام قلبه. كما صحّ عنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ومن ثمّ لم ينتقض وضوءه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالنوم. وسرّ ذلك كمال حياة قلبه ويقظته. ودوام شهوده لربّه. ومن ثمّ كان صلّى الله تعالى عليه وسلّم إذا نام لا يوقظ لأنّه لا يدرى ما هو فيه. ولا ينافيه نومه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالوادى عن صلاة الصبح حتّى حميت الشمس. لأنّ رؤيتها من وظيفة العين. وكأنّه لم يدرك مرور الوقت الطويل (إلى أن قال) لأنّه كان مستغرقاً في شهود ربّه وما يفيضه عليه من معارفه. وإنّما لم ينبّه على ذلك. ليقع التشريع بتلك الأحكام الكثيرة جدّاً الّتي استفيدت من تلك الواقعة. كسهوه في الصلاة وقد أشار صلّى الله تعالى عليه وسلّم بنفسه إلى الحكمة فيما جرى من قصّة الوادى فقال: لو شاء الله تعالى لأيقظنا ولكن أراد أن تكون سنّة لمن بعدكم.

تتمّة في بيان الإعراب وشرح بعض الكلمات: قوله: "الوحى" مفعول و"من رؤياه" في محلّ نصب حال أو مجرور محلّاً صفة. و"من" ابتدائية أي الوحى الّذي ابتدأ من الرؤيا و"من" بيانيّة أي إنّ رؤياه عليه الصلاة والسلام وحى. والرؤيا كما قال المازرى حقيقتها على مذهب أهل السنّة. خلق الله تعالى في قلب النائم اعتقادات كخلقها في قلب اليقظان وهو تعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة. وخلق هذه الاعتقادات في قلب النائم علمه على أمور أخرى يلحقها في ثانى الحال. كالغيم عَلَمًا على المطر.

والرؤيا بألف مقصورة والرؤية بمعنىً إلّا أنّها خصّت بما كان مناماً. فلا جرم لحقها ألف التانيث. قوله "إنّ له قلباً" أي لأنّ له قلباً فالجملة مستأنفة سيقت لإفادة التعليل لما مرّ من قوله "لا تنكر الوحى". وتنوين قلب للتفخيم والتعظيم ولأن يتمكّن من وصفه بالجملة. قوله "إذا نامت العينان" بسبب تصاعد رطوبات الأبخرة إلى أعصاب الدماغ فتحلّها فينام المرء. و"أل" فيه عوض عن المضاف إليه أي عيناه. قوله "لم ينم" لأنّه قد شقّ كما مرّ مفصّلاً وطهر من التعلّق لغير الله ومُلِئ حكمة وإيماناً. فاليقظة الدائمة صفته فيحسن منه أن يخاطب ويتلقّى الوحى. لا كالقلوب الّتي تنام حين تنام أعينها.

وأما نومه صلّى الله تعالى عليه وسلّم عن الصلاة في سفره حتّى طلعت الشمس فلأنّ مشاهدة طلوعها وظيفة العين وهى نائمة كما مرّ في كلامه العلّامة ابن حجر رحمه الله تعالى.

رقم البيت (٨٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الثانى عشر من الفصل الخامس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وذاك حين بلوغ من نبوّته
فليس ينكر فيه حال محتلم

لمّا ساق الناظم الفاهم قوله "إنّ له قلباً" كالعلّة للمنع من أن تنكر رؤياه صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّتي هي

وحی. ووصف قلبه صلّی الله تعالی علیه وسلّم بالجملة الّتی هی فی قوّة الخبر لاسم إنّ فالجملة اسمیة تفید الثبوت والدوام والاستمرار فتدلّ علی أنّ کلّ رؤیاه صلّی الله تعالی علیه وسلّم من قبیل الوحی بعد ما نُبِّئ فی عالم الأجسام علی رأس أربعین سنة فکان مأموناً فی کلّ ما یخبر قبل أن یبلغ زمناً یعلن فیه نبوّته فما ظنّك أیّها المخاطب به علیه الصلاة والسلام فی حین بلوغ من نبوّته کیف ینکر فیه حال هذا المحتلم الّذی هو الرسول صلّی الله تعالی علیه وسلّم ولذلك حسن من الناظم الفاهم أن یؤکّد هذا المعنی الّذی مضی فی البیت السابق بقوله:

وذاك حین بلوغ من نبوّته
فلیس ینکر فیه حال محتلم

بإیراد علّة تلوعلّة. وأنت خبیر بأنّ هذا التقریر أجدر بالمقام وأقوم للکلام ممّا أفاده بعض الشرّاح فی هذا المحلّ بقوله "ولمّا کان کلامه قد یوهم سامعه أنّ الوحی إلیه صلّی الله تعالی علیه وسلّم دائماً یکون فی النوم دفعه بقوله:

وذاك حین بلوغ من نبوّته
فلیس ینکر فیه حال محتلم

وما قاله بعضهم من أنّه لما توهّم أن یقال أنّ رؤیاه علیه الصلاة والسلام لو کانت وحیاً لکان رؤیا الّتی رآها قبل النبوّة وحیاً أیضاً مع أنّه لیس کذلك اه لأنّ الظاهر أنّ الناظم بصدد أن یبیّن أنّ کلّ رؤیاه صلّی الله تعالی علیه وسلّم حق کسائر ما یخبر به ولیس من قصده أنّ کلّ ما یوحی إلیه صلّی الله تعالی علیه وسلّم من قبیل الرؤیا ولیس من قصده أن یدّعی أنّ کلّ رؤیاه وحی وإنّما أراد أن لا تنکر له الرؤیا ولاسیّما بعد بلوغ من نبوّته صلّی الله تعالی علیه وسلّم لأنّها وحی فکیف تنکر إذ ذاك ولم ینکر له شیء قبل أن یعلن نبوّته علیه الصلاة والسلام.

وضمّ إلی ذلك ما قد جری لغیره صلّی الله تعالی علیه وسلّم فی الرؤیا له صلّی الله تعالی علیه وسلّم ولاسیّما رؤیا أمّه الّتی رأت حین حملت به علیه الصلاة والسلام ممّا کان مؤسّسا لأمر نبوّته علیه الصلاة والسلام لم ینکر شیء من هذا فکیف تنکر رؤیا الصادق المصدوق الأمین علیه الصلاة والسلام ولا مانع من أن یکون کلّ الرؤیا له صلّی الله تعالی علیه وسلّم وحیاً ولو کان قبل إعلان نبوّته فإنّه لا مانع من أن یکون صلّی الله تعالی علیه وسلّم نبیّاً من قبل. کیف وقد صحّ أنّه صلّی الله تعالی علیه وسلّم قال: کنت نبیّاً وإنّ آدم لمنجدل فی طینه. وفی لفظ: کنت نبیّاً وآدم بین الروح والجسد. وتأیّد معنی الحدیث بقوله تعالی: "وإذ أخذ الله میثاق النبیّین" الآیة. وقد تقدّم تقریر معنی الآیة ودلالتها علی تقدّم نبوّته صلّی الله تعالی علیه وسلّم فی کلام الإمام أحمد رضا قدس سرّه فی رسالته "تجلّی الیقین" نقلا عن السبکی فی فتاواه. ولاسیّما بعد ما استعلن أمر نبوّته و کیف لا یکون کلّ رؤیاه علیه الصلاة والسلام فی زمن بعثته وحیاً فکلّ رؤیاه صلّی الله تعالی علیه وسلّم وحی.

هذا وقد قال العلّامة القاری فی الزبدة: وفی شرح السیّد أنّ من جملة أیّام الوحی وهو ثلاثة وعشرون سنة کان ستّة أشهر فی المنام. وبهذا فسّر قوله صلّی الله تعالی علیه وسلّم رؤیا المؤمن جزء من ستّة وأربعین جزءاً من

النبوّة.

شرح بعض الكلمات وبيان الإعراب: قوله فذاك أی الوحی حين النّوم كان أو ثبت. حين بلوغ أی وصول من نبوّته إليه صلّی الله تعالی عليه وسلّم عليه ومن ابتدائيّة أو تعليليّة والظرف لغو صلة بلوغ. ويحتمل التبعيض أی بعض آيات نبوّته وتنوين بلوغ للتعظيم. والفاء فصيحة فی قوله فليس ينكر منه صلّی الله تعالی عليه وسلّم وفی نسخة (فيه) ويقرأ فيه بالإشباع والضمير راجع إلی حين بلوغ من نبوّته. وعلی ما فی نسخة أخری من قوله منه فالضمير راجع إليه صلّی الله تعالی عليه وسلّم. وحال محتلم نائب فاعل لقوله فليس ينكر منه. ومحتلم يقرأ بفتح اللّام علی أنّه مصدر ميمیّ بمعنی الحلم أو بكسر اللّام علی أنّه اسم فاعل والأظهر الثانی فإنّ ذلك إنّما كان فی ابتداء النبوّة ليأنس بها وبملاقاة الملك إذ لو فأجأه ابتداء لأمكن أن لا يطيق ملاقاته فلمّا أنس وقوی حاله أتاه فی اليقظة كذا فی الذخر والعدّة. (الذخر والعدّة ص۲۱۸)

رقم البيت (۸۳)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلی يوم الدين.

قد فرغنا بحمد الله عن شرح اثنی عشر بيتاً من الفصل الخامس من قصيدة البردة وهذا أوان الشروع بحول الله فی شرح البيت الثالث عشر من هذا الفصل وهو قول الناظم الفاهم:

تبارك الله ما وحی بمكتسب

ولا نبی علی غيب بمتّهم

استأنف الناظم الفاهم يتحدّث عن الوحی وأنّه محض فضل من الله سبحانه وتعالی يعطيه من يشاء. فجاء بجملة مستأنفة لها مناسبة بما سبق وارتباط بما مضی ارتباط الدليل بالمدّعی وبيان لسؤال مقدّر كأنّ قائلاً يقول لماذا لم يخبر صلّی الله تعالی عليه وسلّم الناس عن نفسه منذ البداية. ولماذا أخّر الإعلام حتّی بلغ رأس الأربعين؟ أخذ الناظم الفاهم يرُدّ علی هذا القائل ويقول: "ما وحی بمكتسب" وقدّم علی الجواب تنزيه الله سبحانه وتعالی فقال: "تبارك الله" إشارة إلی أنّ ما بعده أمر عجيب فقوله "تبارك الله" بمثابة قول المرء "سبحان الله" عند الاستعجاب وتقرير الجواب بأنّ ما أخبر به صلّی الله تعالی عليه وسلّم من أمور جرت عليه فی الرؤيا لا يستقلّ بإدراكها العقل ومع ذلك فالعقل لا يردّه ولا يستريب فی أنّه حق ولا يرتاب فی أمر المخبر به صلّی الله تعالی عليه وسلّم ولا يتّهمه لِمَا تقرّر من حسن سيرته وصدقه وأمانته منذ نشأ إلی أن بلغ هذا المبلغ فالعقل يطمئنّ إليه صلّی الله تعالی عليه وسلّم ويذعن له ويؤمن بأنّه نبی قد أوحی إليه ومتی أمر بالبلاغ والإعلام عن نفسه أخبر بأنّه نبی أوحی إليه فهو فی كلّ ذلك مأمور من الله سبحانه وتعالی يتابع الوحی وينتظر الأمر منه سبحانه وتعالی حتّی يصدع بأمره ويخبر عن شأنه والوحی غير مكتسب فلمّا أوحی إليه الأمر أعلن الأمر. وبان بذلك أنّ كلّ رؤياه وحی وإن تأخّر علمنا بذلك كما تأخّر علمنا بنبوّته حتّی أخبر صلّی الله تعالی عليه وسلّم عن نفسه. وأخّر الإعلام بنبوّته صلّی الله تعالی

عليه وسلّم لحكمة إلهية اقتضت ذلك. وهي تمكّن النّاس من مشاهدة أحواله صلّى الله تعالى عليه وسلّم السنيّة، والتأمّلُ فيما نشأ عليه صلّى الله تعالى عليه وسلم منذ كان صبيّاً إلى أن صار كهلاً مرضيّاً من مجانبته الأصنام وابتعاده عن مشاهد أهل الشرك و أعيادهم. والاستيناسُ بسيرته الزكيّة حتّى يعلموا أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم لم يفاجئهم بما لا يألفون من عادته ولم يخالفهم إلى ما يأمرهم وليطابق القالُ الحالَ ولتلزمهم الحجّة بذلك. هذا غاية التقرير لما أجمله العلّامة الباجوري فقال هذا البيت استدلال على ما قبله ومعنى تبارك الله تنزّه الله وتعالى وارتفع عمّا يقوله الكافرون علوّاً كبيراً وقوله ما وحي بمكتسب أي ليس وحي وإن قل بمكتسب فالتنوين فيه للتقليل أي ليس وحي بمكتسب لأحد بسعيه فيه بأن يحصّله بأسباب وذلك لأنّ اكتساب الشيء تحصيله بأسبابه الّتي جرت العادة بحصوله عقبها وإذا لم يكن الوحي مكتسباً بل كان بتخصيص الله من يشاء من عباده فليس بمستنكر وقوعه في الرؤيا كما لا يستنكر وقوعه في اليقظة لإنّ فعل الفاعل المختار لا يختصّ بحالة دون حالة أخرى. ومن هنا علم أنّ الوحي ليس مكتسباً وعليه أهل الحقّ خلافاً لمن زعم ذلك وهم الفلاسفة الّذين زعموا أنّ الوحي مكتسب بالخلوة والرياضة وهو كفر صريح فيجب الإيمان بأنّ ذلك بمحض فضل الله قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته). ومثل الوحي الولاية ليست مكتسبة أيضاً بل هي بفضل الله يخصّ بها من يشاء. وقوله ولا نبي على غيب بمتّهم أي ولا نبي من الأنبياء عليه الصلاة والسلام بمتّهم على إخبار غيب. والغيب بمعنى الغائب أي ليس بمتّهم على الإخبار بأمر غائب فهو على تقدير مضاف. والغيب صفة لموصوف محذوف وذلك لأنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب كسائر المعاصي قبل النبوّة وبعدها ولا يرد قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر) وأجاب العلّامة الباجوري عن قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك. وقوله ووضعنا عنك وزرك ونحو ذلك بجواب آخر وهو أنّ ما يقع منهم من باب حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى (وما هو على الغيب بظنين) على القراءة بالظاء أي بمتّهم. فالبيت مقتبس من قوله سبحانه وتعالى (وما هو على الغيب بضنين). وفيه إشارة إلى قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى) قال العلّامة الباجوري. والحاصل أنّ الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر الخسيسة بالإجماع، ومن الصغائر غير الخسيسة على ما عليه المحقّقون. والراجح أنّهم معصومون منها قبل النبوّة وبعدها. (حاشية الباجوري ص٤٦)

قال العلّامة الخرفوتي عند قوله ولا نبي على غيب بمتّهم ما نصّه: وهذا القول لدفع توهّم بعض القاصرين من أنّ غير الله تعالى لا يعلم الغيب فلا يجوز إخبار الأنبياء عن الغيب.

أقول: وهذا منهم سفه وإيمان ببعض الكتاب و كفر ببعضه جرياً على عادة اليهود الّذين عنّفهم الله سبحانه وتعالى بقوله "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض". والقول بأنّ النبي لا يعلم الغيب نفي للنبوّة رأساً فإنّ النبوّة هي الاطّلاع على الغيب والإخبار بالغيب لغة وشرعاً وتحقيق المقام بما لا مزيد عليه في رسالة مستقلّة لجدّنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه في هذا الموضوع سمّاها "الدولة المكّية بالمادّة الغيبيّة".

تبارك الله للتعجيب. وتبارك من البركة وهو كثرة الخير ومعناه تكاثر خيره وتزايد على كلّ شيء وتعالى

وتعاظم فی صفاته وأفعاله. قال المولی الفناری فی تفسیر الفاتحة یروی أنّ الصاحب ابن عبّاد کأن یتردّد فی معنی الرقیم وتبارك والمتاع ویدور فی قبائل العرب فسمع امرأة تسأل ابنها أین المتاع؛ ویجیب ابنها الصغیر بقوله جاء الرقیم وأخذ المتاع وتبارك الجبل. فاستفسر عن الکلمات وعرف أنّ الرقیم الکلب وأنّ المتاع هو ما یبلّ بالماء فیمسح به القصاع (والقصاع جمع قصعة) وأنّ تبارك بمعنی صعد قیل معنی تبارك دام دواماً ثابتاً لا انتقال له ولهذا لایقال یتبارك مضارعاً لأنّه للانتقال وعلی هذا فقوله تبارك یختصّ إطلاقه فعلاً ماضیاً علی الله سبحانه وتعالی وعلی هذا فهو فعل لایتصرّف ولایأتی منه المضارع. قال فی البرهان إنّ هذه اللّفظة لاتستعمل إلّا لله تعالی ولاتستعمل إلّا بلفظ الماضی انتهی. (الخرفوتی ص١٣٣)

رقم البيت (٨٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الکریم وآله وصحبه الکرام أجمعین ومن تبعهم بإحسان إلی یوم الدین.

فقد أتینا علی شرح البیت الرابع عشر من الفصل الخامس من قصیدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

کم أبرأت وصباً باللّمس راحته

وأطلقت أرباً من ربقة اللّمم

لمّا فرغ الناظم الفاهم من بیان أمر النبوّة وأنّه محض فضل من الله یؤتیه من یشاء. أخذ یشیر إلی حکمة البعثة وفائدة النبوّة الّتی هی سفارة بین الله وبین ذوی العقول من عباده لإزاحة علّتهم فی أمر معادهم ومعاشهم. (مفردات ص٤٨٣) وأنّ وظیفة النبوة إبراء النّاس من الأوصاف الظاهرة والباطنة کما هو ظاهر من حدّ النبوّة المذکور آنفاً وتزکیة النفوس. وهدایة النّاس عامّة. وإیصال المؤمنین منهم خاصّة إلی الحضرة الأحدیّة. وإجزال العارفة بالعنایة بهم وإتمام النعمة علیهم. قال تعالی "لقد منّ الله علی المؤمنین إذ بعث فیهم رسولاً من أنفسهم یتلو علیهم آیاته ویزکّیهم ویعلّمهم الکتاب والحکمة وإن کانوا من قبل لفی ضلال مبین".

ولنبیّنا صلّی الله تعالی علیه وسلّم الحظّ الأوفر من ذلك کما علم ممّا تلونا وهو صلّی الله تعالی علیه وسلّم رحمة مهداة کما أخبر صلّی الله تعالی علیه وسلّم عن نفسه بنفسه إذ یقول: "أنا رحمة مهداة" فهو صلّی الله تعالی علیه وسلّم رحمة للنّاس کافّة بل للعالمین عامّة. قال الإمام القشیری فی لطائف الإشارات تحت قوله تعالی "لقد منّ الله علی المؤمنین إذ بعث فیهم رسولاً" الآیة.

أجزل لدیهم العارفة. وأحسن إلیهم النعم حیث أرسل إلیهم مثل المصطفی سیّد الوری صلوات الله علیه وعلی آله. وعرّفهم دینهم. وأوضح لهم براهینهم. وکان لهم بکلّ وجه فلا نعمه شکروا. ولاحقّه وقروا. ولابما أرشدهم استبصروا. ولاعن ضلالتهم أقصروا هذا وصف أعداءه الّذین جحدوا واستکبروا. وأمّا المؤمنون فتقلّدوا النّعمة فی الاختیار. وقابلوا الأمر بالسمع والطاعة عن کنه الاقتدار. فسعدوا فی الدنیا والعقبی. واستوجبوا من الله الکرامة والزلفی. انتهی (١/١٩٢)

وهو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى وهو النبى بكلّ معنى الكلمة. إذ النبى الطريق، وهو الطريق الوحيد لكلّ من وصل أويصل إلى الملك المجيد، والصراط المستقيم وبه فسّر الصراط المستقيم فى القرآن العظيم، وهديه هو الصراط المستقيم الّذى عليه أهل الحق والتوحيد وملازمة جنابه والخدمة فى عتبة بابه من جهة الشريعة والطريقة من أقوى الوسائل إلى الوصول وهو المبعوث رحمة للعالمين كما قال تعالى: "وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين" فأشار بذلك إلى الحكمة فى بعثته. وما أراد لسائر العالمين من رحمته. قال العلّامة الإمام إسماعيل الحقى فى تفسير روح البيان تحت قوله سبحانه وتعالى وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين. الآية:(وما أرسلناك) يامحمد بما ذكر وأمثاله من الشرائع والأحكام وغير ذلك من الأمور الّتى هى مناط السعادة فى الدارين فى حال من الأحوال (إلّا) حال كونك (رحمة للعالمين) فإنّ ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام ومصالحم فى النشأتين ومن أعرض منه واستكبر فإنّما وقع فى المحنة من قبل نفسه فلا يرحم وكيف كان رحمة للعالمين وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال. قال بعضهم جاء رحمة للكفار أيضاً من حيث أنّ عقوبتهم أخّرت بسببه وأمنوا به عذاب الاستئصال والخسف والمسخ ورد فى الخبر أنّه عليه السلام قال لجبريل (إنّ الله يقول ما أرسلناك إلى آخره فهل أصابك من هذه الرحمة)، قال نعم إنّى كنت أخشى عاقبه الأمر فأمنت بك لثناء أثنى الله علىّ بقوله (ذو قوّة عند ذى عرش مكين مطاع ثمّ أمين).

قال بعض الكبار وما أرسلناك إلا رحمة مطلقة تامّة كاملة عامّة شاملة جامعة محيطة بجميع المقيّدات من الرحمة الغيبيّة والشهادة العلميّة والعينيّة والوجوديّة والشهوديّة والسابقة واللاحقة وغير ذلك للعالمين، جمع عوالم ذوى العقول وغيرهم من عالم الأرواح والأجسام ومن كان رحمة للعالمين لزم أن يكون أفضل من كلّ العالمين.

وقال بعض الكبار إنّما كان رحمة للعالمين بسبب إتصافه بالخلق العظيم ورعايته المراتب كلّها فى محالها كالملك والملكوت والطبيعة والنفس والروح والسرّ. وفى التأويلات النجميّة فى سورة مريم بين قوله (ورحمة منّا) فى حق عيسى وبين قوله فى حقّ نبيّنا عليه السلام (وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين) فرق عظيم وهو أنّه فى حق عيسى ذكر الرحمة مقيدة بحرف من ومن للتبعيض فلهذا كان رحمة لمن آمن به واتّبع ما جاء به إلى أن بعث نبيّنا عليه السلام ثمّ انقطعت الرحمة من أمّته ينسخ دينه وفى حق نبيّنا عليه السلام ذكر الرحمة للعالمين مطلقاً فلهذا لا تنقطع الرحمة عن العالمين أبداً أمّا فى الدنيا فأن لا ينسخ دينه، وأمّا فى الآخرة فبأن يكون الخلق محتاجين إلى شفاعته حتّى إبراهيم عليه السلام فافهم جدّاً. قال فى عرائس البقلى أيها الفهيم أنّ الله أخبرنا أنّ نور محمّد عليه السلام أوّل ما خلقه ثمّ خلق جميع الخلائق من العرش إلى الثرى من بعض نوره. فإرساله إلى الوجود والشهود رحمة لكلّ موجود إذ الجميع صدر منه فكونه كون الخلق و كونه سبب وجود الخلق وسبب رحمة الله علىٰ جميع الخلائق فهو رحمة كافية وافهم ان جميع الخلائق صورة مخلوقة مطروحة فى فضاء القدرة بلا روح حقيقة منتظرة لقدوم محمّد عليه السلام فإذا قدم إلى العالم صار العالم حيّاً بوجوده لأنّه روح جميع الخلائق. وياعاقل إنّ من العرش إلى الثرى لم يخرج من العدم إلّا ناقصاً من حيث الوقوف على أسرار قدمه بنعت كمال المعرفة

والعلم. فصاروا عاجزين عن البلوغ إلى شطّ بحار الألوهية وسواحل قاموس الكبريائية. فجاء محمد عليه السلام إكسير أجساد العالم وروح أشباحه بحقائق علوم الأزلية وأوضح سبيل الحق للخلق بحيث جعل سفر الآزال والآباد للجميع خطوة واحدة. فإذا قدم من الحضرة إلى سفر القربة بلغهم جميعاً بخطوة من خطوات صحارى (سبحان الّذى أسرى بعبده) حتّى وصل إلى مقام (أوأدنى) فغفر الحق لجميع الخلائق بمقدمه المبارك. قال بعض العلماء إنّ كلّ نبيّ كان مقدّمة للعقوبة لقوله تعالى (وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً) ونبيّنا عليه السلام كان مقدّمة للرحمة لقوله (وما أرسلناك) إلى آخره وأراد الله تعالى أن يكون خاتمة على الرحمة لا على العقوبة لقوله تعالى (سبقت رحمتى على غضبى). ولهذا جعلنا آخر الأمم فابتداء الوجود رحمة وآخره وخاتمته رحمة. واعلم أنّه لمّا تعلّقت إرادة الحق بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة الأحمديّة من كمون الحضرة الأحديّة فميّزه بميم الإمكان وجعله رحمة للعالمين وشرّف به نوع الإسلام ثمّ انجبست منه عيون الأرواح ثمّ بدا ما بدا فى عالم الأجساد والأشباح كما قال عليه السلام (أنا من الله والمؤمنون من فيض نورى) فهو الغاية الجليلة من ترتيب مبادى الكائنات كما قال تعالى (لولاك لما خلقت الأفلاك). (روح البيان: ٥/٥٢٨،٥٢٩،٥٢٤)

ومن رحمته صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّه مُبْرِء لذوى الأوصاب. معافٍ للمرضى ولذلك قال:

كم أبرأت وصبا باللمس راحته
وأطلقت أرباً من ربقة اللّمم

وإليك البيان من الشفا لما حصل على يديه صلّى الله تعالى عليه وسلّم للمرضى من الشفاء: عن محمد بن اسحاق حدثنا ابن شهاب وعاصم بن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بقضية أحد بطولها قال وقالوا قال سعد بن أبى وقاص إنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم ليناولنى السهم لا نصل له فيقول ارم به وقد رمى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم يومئذ عن قوسه حتّى اندقّت. وأصيب يومئذ عين قتادة يعنى ابن النعمان حتّى وقعت على وجنته فردّها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فكانت أحسن عينيه ورواها أبوسعيد الخدرى عن قتادة. وبصق على أثر سهم فى وجه أبى قتادة فى يوم ذى قرد قال فما ضرب علىّ ولا قاح. وروى النسائى عن عثمان بن حنيف أنّ أعمى قال يا رسول الله ادع الله أن يكشف لى عن بصرى قال فانطلق فتوضّأ ثمّ صلّ ركعتين ثمّ قل اللّهم إنّى أسألك وأتوجّه إليك بنبى محمّد نبى الرحمة يا محمّد إنّى أتوجّه بك إلى ربك أن يكشف عن بصرى اللّهم شفّعه فىّ. قال فرجع وقد كشف الله عن بصره. وروى أنّ بن ملاعب الأسنّة أصابه استسقاء فبعث إلى النبى عليه الصلاة والسلام فأخذ بيده حثوة من الأرض فتفل عليها ثمّ أعطاها رسولَه فأخذها متعجّباً يرى أن قد هزء به فأتاه بها وهو على الشفا فشربها فشفاه الله. وذكر العقيلى عن حبيب بن فديك ويقال فريك أنّ أباه ابيضّت عيناه فكان لا يبصر بهما شيئاً فنفث رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى عينيه فأبصر فرأيته يدخل الخيطة فى الإبرة وهو ابن ثمانين. ورميكلثوم ابن الحصين يوم أحد فى نحره فبصق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى فيه فبرأ. وتفل على شجّة عبد الله بن أنيس فلم تُمدّ (أى لم تسل منه مِدّة). وتفل فى عينى على يوم خيبر وكان رمِدا فأصبح بارئاً. ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرأت. وفى رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب حين

قتل ابن الأشرف فبرأت. وعلى ساق على بن الحكم يوم خندق إذ انكسرت فبرء مكانه وما نزل عن فرسه. واشتكى على بن أبي طالب فجعل يدعو فقال النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم اللّهم اشفه أوعافه ثمّ ضربه برجله فما اشتكى ذلك الوجع بعده. وقطع أبوجهل يوم بدر يد معوّذ ابن عفراء فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام وألصقها فلصقت رواه ابن وهب. ومن روايته أيضاً أنّ خبيب ابن يساف أصيب يوم بدر مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم بضربة على عاتقه حتّى مال شقّه فردّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ونفث عليه حتّى صحّ. وأتته امرأة من خثعم معها صبيّ به بلاء لايتكلّم فأتى بماء فمضمض فاه وغسل يديه ثمّ أعطاها إيّاه وأمرها بسقيه ومسّه به فبرأ الغلام وعقل عقلاً يفضل عقول النّاس. وعن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما جاءت امرأة بابن لها به جنون فمسح عليه الصلاة والسلام صدره فثعّ ثعّة فقال اخرج فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فسعى. وانكفأت القدر على ذراع محمّد ابن حاطب وهو طفل فمسح عليه ودعا له وتفل فيه فبرأ لحينه. وكانت فيكفّ شرحبيل الجعفى سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابّة فشكاها للنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم فما زال يطحنها بكفّه حتّى رفعها ولم يبق لها أثر. وسألته جارية طعاماً وهو يأكل فناولها من بين يديه وكانت قليلة الحياء فقالت إنّما أريد من الّذى فى فيك فناولها ما فى فيه ولم يكن يسأل شيئاً فيمنعه فلمّا استقرّ فى جوفها أُلقِى عليها من الحياء مالم تكن امرأة بالمدينة أشدّ حياء منها. (ص٢٢٠،٢١٩،٢١٨)

(ذكر ما ورد من الغريب فى الشفاء: قوله ما ضرب علىّ أى ما آلمني وما أوجعني ضربانه. ولا قاح أى سال منه قيح وبِدّة. قوله فثعّ بفتح المثلّثة وتشديد العين المهملة قاء مرّة واحدة. الجرو الأسود بجيم مثلّثة أى يجوز فيها الأوجه الثلاثة الرفع والنصب والجرّ وراء مهملة ساكنة وواو وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع ويطلق على صغار الحنظل والقثاء أيضاً والكلّ محتمل ههنا وجمعه أجرٍ بكسر آخره وحذف الواو بعد قلبها ياء. قوله سِلعة بكسر السين وسكون اللّام وعين مهملة زيادة بين الجلد واللّحم كالغدّة).

قال الخرفوتى: وهذا أى كونه صلّى الله تعالى عليه وسلّم معافياً للمرضى ومبرئاً لذوى العاهات غير مخصوص بزمانه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بل هو باق إلى يوم القيامة لأنّه لو ربط أحد قلبه به صلّى الله تعالى عليه وسلّم وصلّى عليه ودعا لله أن يجعله وسيلة له لكان البتّة بإذن الله تعالى لداءه دواء وقد وقع مثله لأكابر العلماء والأولياء. قال فى المواهب نقل عن القشيرى أنّ ولده مرض مرضاً شديداً حتّى أشرف على الموت واشتدّ عليه الأمر. قال فرأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المنام فشكوت إليه ما بولدى. فقال أين أنت من آيات الشفاء! فانتبهت فتفكّرت فيها فإذا هى فى ستّة مواضع من كتاب الله تعالى (ويشف صدور قوم مؤمنين. وشفاء لما فى الصدور. يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للنّاس. وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. وإذا مرضت فهو يشفين. قل هو للّذين آمنوا هدى وشفاء). قال فكتبتها ثمّ محوتها بالماء وسقيته إيّاها فكأنّما نشط من عقال. وقال أبو بكر الرازى كنت بأصبهان عند أبي نعيم. فقال له شيخ إنّ أبا بكر بن على قد سُعِى به عند السلطان فسجن فرأيت النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى المنام وجبرائيل عن يمينه يحرّك شفتيه بالتسبيح. فقال لى النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم قل لأبي بكر يدعو بدعاء الكرب الّذى فى صحيح البخارى حتّى يفرّج الله

عنه قال فأصبحت فأخبرته فدعا فلم يمكث إلّا قليلاً حتّى فرج عنه ودعاء الكرب ما رواه الشيخان وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (لا إله إلّا الله العظيم الحليم لا إله إلّا الله ربّ العرش العظيم لا إله إلّا الله ربّ السماوات والأرض وربّ العرش الكريم). (الخرفوتی ص۱۳٦)

شرح الغريب الّذي ورد في البيت وبيان الإعراب: قوله كم أبرأت كم خبرية أي كثيراً مّا أبرأت. أبرأت من الإبراء بمعنى الإزاحة والإزالة والمعنى شفت. وقوله وصِباً من الوصب وهو المرض أي صاحب المرض وقوله باللّمس الباء للسببية والجارّ والمجرور متعلّق بأبرأت. وقوله راحته أي باطن كفّه فاعل أبرأت. وقوله أطلقت من الإطلاق وهو التخلية والعفو والإخلاص من القيد. وأرِب بكسر الراء بمعنى صاحب الحاجة وقوله أرِباً أي صاحب احتياج وأرَب محرّكة الحاجة وأَرِب بفتح الهمزة وكسر الراء صاحب الحاجة خلافاً لما وقع في الباجوری ونصّه قوله أرِباً بفتح الهمزة وكسر الراء بوزن فرحاً أي ذا أرب وحاجة (ص۳۷).

ومن ربقة متعلّق بأطلقت والربقة بالكسر حبل له عقدة يشدّ به البهائم. واللّمم بفتحتين صغار الذنوب وأريد به ههنا مطلق الذنب وطرف من الجنون ومقاربة الذنب.

رقم البيت (۸٦، ۸۷)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد فرغنا من شرح البيت الرابع عشر بحمد الله سبحانه و تعالى. وهذا أوان الشروع في شرح البيت الخامس عشر. ونتبعه بشرح البيت السادس عشر وبه يتمّ الفصل الخامس بحول الله سبحانه وتعالى. قال الناظم الفاهم:

وأحيت السنة الشهباء دعوته
حتّى حكت غرّة في الأعصر الدهم

بعارض جاد أو خلت البطاح بها
سيباً من اليمّ أو سيلاً من العرم

أشار الناظم الفاهم فيما سبق من البيت إلى تأثيره صلّى الله تعالى عليه وسلّم في العالم السفلي باستجابة دعاء ه وتسخير الله سبحانه وتعالى له العالم السفلي في هذا البيت ترقّي إلى بيان نفوذ كلمته في العالم العلوی وموازرة من يدبّر الأمر بإذن الله وهم الملائكة إلى إنجاح طِلبته. قال تعالى "وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله". فقال:

وأحيت السنة الشهباء دعوته
حتّى حكت غرّة في الأعصر الدهم

وهذا من معجزاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم أن أحيت أي أخصبت ففيه استعارة تصريحيّة تبعيّة جرت في المصدر وهو الإخصاب شبّه بالإحياء واشتقّ من الإخصاب أخصبت ومن الإحياء أحيت وطُوي ذكر المشبّه وهو

أخصبت فى الذهن وأطلق أحيت المشبّه به وأريد أخصبت على وجه التشبيه. ولك أن تجعل السنة الشهباء استعارة بالكناية بأن شُبّهت السنة الشهباء فى الذهن بالموتى فى عدم الانتفاع ثمّ استعير الموتى فى الذهن لمفهوم السنة الشهباء أطلق السنة الشهباء وأراد بها الميّت ثم أثبت الإحياء الّذى هو من ملائمات المشبّه للمشبّه به وهى السنة الشهباء فكان استعارة مكنيّة وتخييليّة وإسناد أحيت إلى دعوته مجازاً من إسناد الشىء إلى سببه إذ المحيى المميت فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى. السنة معناها العام أصلها "سنهة" وزان جبهة. قال فى الصحاح: غلب استعماله فى "حول" يكون الغالب فيه الجدب والشدّة. و"العام" فيما يكون فيه الخصب والرخاء. قوله "الشهباء" هى الّتى لامطر ولا نبات فيها سمّيت به لغلبة بياض الأرض فيها لعدم النبات. وهى بالنسبة إلى البياض ميتة أحيتها دعوته: أى دعاءه ربّه سبحانه وتعالى أن يحييها بالمطر فاستجاب الله دعاءه ونزل المطر. وأحيت السنة بتبديل الجدب فيها بحال الخصب. حتّى حكت أى شابهت كما فى قوله:

ظلمناك فى تشبيه صدغيك بالمسك
وقاعدة التشبيه نقصان ما يحكى

والضمير المستتر فيه راجع إلى السنة. والغرّة: بضمّ الغين المعجمة. هو فى الأصل بياض مستطيل فى جبهة الفرس. ويعبّر به عن الكرم. وغرّة كلّ شىء أحسنه. وقوله فى الأعصر جمع عصر والأعصر الدهم المراد بها الأعصر المخصبة كثيرة الرّتع. والدُّهُم: بضمّ الدال وسكون الهاء وبضمّ الهاء على الإتباع جمع أدهم وهو بمعنى الأسود. وهذا الإحياء بدعوته حصل بسبب عارض فالباء فيه للسببيّة. والعارض سحاب معترض فى الأفق. وجاد من الجود بفتح الجيم بمعنى المطر الغزير فمعنى جاد أمطر مطراً شديداً. وأو عاطفة بمعنى الواو وجعله بعضهم بمعنى "إلى أن" واعترضه العلّامة ابن حجر فى أفضل القرى وأطال فى ردّه وملخّص ما قاله أنّ أو بمعنى إلى أن لا تدخل على الماضى وإنّما تدخل على المضارع واستند لذلك بما قاله العلّامة ابن مرزوق فى شرح هذا البيت قال فى شرح الهمزيّة: ما نصّه: ثمّ رأيت شارحها العلّامة ابن مرزوق تنبّه لما ذكرته فقال فى: (أوخلت البطاح بها): إن (أو) هنا عاطفة ثمّ جعلها بمعنى الواو أو (بل) أو أنّها على حالها للشكّ أو التخيير. وتكلّف بيان ذلك ولم يعرّج على أنّها (أو) الغائيّة بوجه. وليس سرّ ذلك إلّا امتناع دخولها على الماضى. وإلّا كان معنى الغائيّة فى البيت أقرب ممّا تكلّفه. وممّا يصرّح بذلك أيضاً أنّ النّحاة لم يذكروا لِـ(أو) إلّا قسمين: عاطفة وناصبة. وهى الغائيّة. فالعاطفة: أمرها واضح ولا كلام فيها. والناصبة: تختصّ بالمضارع. فمن أثبت لها قسماً ثالثاً. وهو دخولها على الماضى ولا تكون للعطف. فعليه البيان. (ملخّصاً من شرح الهمزيّة ص١٤٤،١٤٦)

خِلْتَ البطاح أى حسبت ماء البطاح فهو على حذف مضاف أو هو من قبيل إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ كما يقال سال الوادى وكقولهم جرى النهر وهو أوجه. والبطاح جمع أبطح وهو مسيل واسع للماء. وسيب على وزن الغيب بمعنى الجرى واليمّ بفتح الياء البحر ويجوز أن يكون السيب بمعنى العطاء قال فى القاموس يقال فاض سيبه على الناس أى عطاءه. والسيل هو بمعنى مجتمع الماء الجارى بغتة من كثرة المطر وفى الحديث (اللّهم إنّى أعوذ بك من السيل والبعير الصؤول). والعرم بفتح العين وكسر الراء بمعنى المطر الشديد أو اسم وادٍ ببلدة سبأ فإنّه

كان يجيء عليهم منه سيل عظيم أوسدّ من اليمن بنته بلقيس على ما ذكر أهل التفسير والتاريخ من عظمته وكيفيته وإحكام صنعته۔

والبيت إشارة إلى ما روى عن أنس أنّه قال أصابت النّاس سنة جدب على عهده عليه الصلاة والسلام فبينما النبي عليه الصلاة والسلام يخطب فى يوم الجمعة قام أعرابي فقال يارسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله تعالى لنا فرفع يديه وما نرى فى السماء سحاباً ولا قزعة فوالّذى نفسى بيده ما وضعهما أى اليدين الكريمتين حتّى سار السحاب أمثال الجبال ثمّ لم ينزل عن منبره حتّى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلّى الله تعالى عليه وسلّم فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد حتّى إلى الجمعة الأخرى فقام رجل وقال يارسول الله تهدم البناء وغرق المال فادع الله تعالى لنا فرفع يديه فقال اللّهم حوالينا ولا علينا فما يشير إلى ناحية من السحاب إلّا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسال وادى قناة شهراً ولم يجئ أحد من ناحية إلّا حدّث بالجوّد۔

وعبّر عن هذا المعنى الناظم فى الهمزيّة بأحسن وجه وأتمّه فيقول:

ودعا للأنام إذ دهمتهم
سَنَة من مُحُولِها شهباء

فاستهلّت بالغيث سبعة
أيّام عليهم سحابة وطفاء

تتحرّى مواضع الرّعى والسّقى
وحيث العطاش تُوهَى السقاء

وأتى النّاس يشتكون أذاها
ورخاء يؤذى الأنام غلاء

فدعا فانجلى الغمام فقل فى
وصف غيث إقلاعه استسقاء

شرح الغريب من هذه الأبيات: قوله دهمتهم أى غشيتهم. محولها أى شدّة جدبها وقحطها. شهباء أى لا خضرة فيها ولا مطر. استهلّت بالغيث أى انصبّ المطر بشدّة. وطفاء بواو مفتوحة وتاء ساكنة مسترخية الجوانب لكثرة ماء ها. تتحرّى أى تقصد تلك السحابة بماء ها. وتوهى بالبناء للمفعول أى تخرق. أى أنّ تلك السحابة عمّت جميع الأماكن بماء ها. حتّى إنّها تتحرّى الأماكن العطشة الّتى تتخرّق أسقية العطاش فيها. فيحتاجون إلى الغدران للشرب منها. ولمّا استمرّت عليهم سبعة أيّام وكادت أن تهلكهم. أتى النّاس إليه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو على المنبر كحاله يوم سألوه أن يدعو بها يشتكون أذاها أى أذى تلك السحابة. أى الماء النازل منها لقطعه السبل وتعطيله المعاش وتخريبه البيوت۔ ورخاء أى سعة من المطر يؤذى الأنام غلاء أى شدّة عظيمة. إقلاعه أى انكشافه أى انكشاف السحابة استسقاء أى ذو استسقاء على خلاف المتعارف إذ الاستسقاء غالباً إنّما يكون لطلب وجوده لا لطلب رفعه۔ (شرح الهمزية ص٣٣٦،٣٣٥،٣٣٣)

وحُكِي أنّ أبا طالب قدّمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بين يديه وهو غلام فلاذ بالكعبة واستسقى أبو طالب بوجهه وحوله عِصابة من قريش لما قُحِطُوا فسقاهم الله تعالى ببركته صلى الله تعالى عليه وسلم وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وإشارة إلى الذكرى لهذه القصّة يمكن أن يقرأ هذا البيت بتغيير يسير بأن يقال:

وأحييت السنةَ الشهباءَ طلعتُه
حتّى حكت غرّةً في الأعصر الدهم

حكى القصّة الإمام ابن حجر المكّي في "أفضل القرى" وهذا نصّه: أخرج ابن عساكر عن عرفطة قال: قدمت مكّة وهم في سنة قحط. فقالت قريش: يا أبا طالب. أقحط الوادي وأجدب العيال. فهلمّ فاستسق. فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنّه شمس دجنّ تجلّت عنه سحابة قتماء وحوله أغيلمة. فأخذه أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة. ولاذ الغلام بإصبعه وما في السماء قزعة فأقبل السحاب من ههنا وههنا. وأغدق الوادي واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي. وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

(شرح الهمزية ص١٥٥)

الفصل السادس

فی شرف القرآن الکریم ومدحه

رقم البيت (۸۸)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قد فرغنا بحمد الله من الفصل الخامس وهذا أوان الشروع فى شرح البيت الأول من الفصل السادس وهو قول الناظم الفاهم: دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلاً على علم

لمّا ذكر الناظم الفاهم جملة من معجزاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم ورأى أنّها آيات كانت وبانت، ومنها مالم يشتهر، فكان مجال للعدوّ المعاند والكافر الجاحد، أراد الناظم الفاهم تثبيتاً من أنفس المؤمنين بمزيد اليقين، وتبكيتاً للعنيد المهين، وسدّاً لمجال الإنكار بذكر حجّة بلغت المدى فى الانتشار، كأنّه يقول لا مجال لك فى إنكار ما ذكرته من الآيات للأمين المأمون وإن أبيت فهاك آية ليس لك بعدها مجالاً كيف وقد دامت على مرّ القرون فأنشأ يقول:

دعني ووصفي آيات له ظهرت
ظهور نار القرى ليلاً على علم

شرح الغريب من هذا البيت: قوله دعني أى اتركني أمر من ودع، وقوله وصفي يقرأ بفتح الياء وهو مفعول معه والواو بمعنى مع أو معطوف على مفعول وهو الضمير فى قوله دعني، آيات جمع آية أى علامات ظاهرة للنبوّة وتنكيرها للتعظيم أى آيات عظيمة، له فى محلّ الصفة أوالحال بفاعل ظهرت وهو فى محلّ الجرّ على الأوّل وفى محلّ النصب على الثانى والتقديم للاختصاص، ويجوز جعله لغواً متعلّقاً بظهرت والجملة بتأويل المفرد فى محلّ الجرّ صفة آيات، ظهور مفعول مطلق مصدر نوعي، والقرى الضيافة كأنّه من القرى بمعنى الجمع يقال قرى الشيء يقرى جمعه ويقال قرى الماء فى الحوض جمعه وقرى الضيف يقرى قرىً وقراءً أضافه وأكرمه، وقوله ليلاً على علم أى جبل مرتفع فالعلم بمعنى الجبل، قالت الخنساء رحمها الله ترثي أخاها:

إنّ صخراً لتأتمّ الهداة به
كأنّه علم فى رأسه نار

ومن عادة أسخياء العرب إيقاد النار فى رأس الجبل ليراها أبناء السبيل ويأتون إليها ويقضون عندها حاجتهم من الأكل والشرب وغير ذلك، وتنكير ليل وعلم للنوعية أى ليلاً حالكاً وعلماً أى جبلاً شامخاً أو للتعظيم.

وحاصل معنى البيت اتركني أيّها الناصح بالاختصار فى الكلام لأنّه يجرّ إلى الملال والسأم، فإنّ ذكر الحبيب لا يشبع منه اللّبيب، فخلّني مع وصفي له عليه الصلاة والسلام بآيات بيّنات وعلامات واضحات ظهرت ظهوراً بيّناً فى الآفاق فى وقت ظلمة الجهل بمحاسن الأخلاق مثل نار الضيافة المتوقّدة على رؤوس الجبال للعلامة فى اللّيل الّذى كانت ظلمته فى غاية الكمال لحضور المحتاجين وأبناء السبيل والمسافرين وقضاء حاجاتهم عند الكرام والحمد لله الملك المنعام.

رقم البيت (٨٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الثاني من الفصل السادس من قصيدة البردة. وهو قول الناظم الفاهم:

فالدرّ يزداد حسناً وهو منتظم
وليس ينقص قدراً غير منتظم

تضمّن سؤاله شخصا جرّده الناظم الفاهم من نفسه أن يدعه ووصفه آيات للنبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم ظهرت ظهور نار القرى ليلاً على علم دعوى هي أن معجزاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم تشبه في نفاستها وبهاء ها الدرّ المنثور وأشعر سؤاله بعزمه على نظمه وخُيّل إليه رجل يسائله ويقول له: إذا كانت آياته صلّى الله تعالى عليه وسلّم بهذه المشابة من الظهور فما فائدة ذكرك لها؛ فأنشأ يقول:

فالدرّ يزداد حسناً وهو منتظم
وليس ينقص قدراً غير منتظم

فأخرج البيت مخرج الجواب كأنّه يقول لا يخلو ذكرها عن فائدة وذكرها منظومة يزيدها حسناً وظهوراً في العين فآياته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وإن كانت ظاهرة بأتمّ وجه تزداد ظهوراً على ظهور بذكرها وحسناً على حسن بنظمها. ولا ينقص قدرها منثورة لأنّ حسنها ونظمها ذاتيّ لها فلا يفارقها سواء كانت منثورة أومنظومة نعم ما يحصل من زيادة الالتذاذ عند سماعها منظومة ينقص مع الإخبار بها نثراً لأنّ ما يزيد بوصف ينتقص إذا سُلِبَ منه ذلك الوصف. واستدلّ لذلك بأمر محسوس يُدْرَك به المعقول. فأنشأ يقول: فالدرّ يزداد حسناً إلى آخر البيت.

أي فالدرّ الّذي عُلِمَ حسنه وهو اللّؤلؤ الكبار يزداد حسناً والحال أنّه منتظم في السلك لترتيبه وتنزيله في المنازل المتناسبة ولا ينقص قدراً وهو غير منتظم لأنّ حسنه ذاتيّ فلا ينفكّ عنه منظوماً كان أوغير منظوم ومع ذلك فهو أضبط وأحفظ وأقرب إلى الفهم.

هذا وقوله وليس ينقص قدراً فيه احتراس لرفع ما يتوهّم من أنّ زيادة الحسن بالنظم يوجب فواته نقص القدر.

الفاء للتعليل. يزداد فعل مضارع من نقص وروى معلوماً ومجهولاً فيجوز أن يقرأ ينقص بفتح الياء على البناء للمعلوم وينقص بضمّ الياء وفتح القاف على البناء للمجهول. ومن هنا يُعلم أنّ نقص يأتي لازماً ومتعدّياً وحسناً وقدراً تمييزان محوّلان عن الفاعل وما بعدهما أي قوله وهو منتظم وقوله غير منتظم حالان.

هذا وقد اقتصر الشرّاح في إعراب غير منتظم كلّهم اقتصروا على أنّه حال من فاعل ينقص ويجوز أن يُقرأ غير منتظم بالرفع على أنّه فاعل ينقص وعلى هذا فليس فعل لايتصرّف يرفع الاسم وينصب الخبر. اسم ليس ضمير الشأن والجملة الفعليّة بعدها في محلّ النصب خبر ليس. جاء في المعجم الوسيط: تدخل ليس على الجملة الفعلية أو

على المبتدأ أو الخبر مرفوعين فيكون اسمها ضمير الشأن. والجملة بعدها فى محلّ نصب خبراً لها. ومثال الجملة الفعلية: ليس يقوم زيد. ومثال المبتدأ والخبر: ليس زيد قادم.

هذا ويجوز فى قوله منتظم الوجهان فالأوّل منتظم بكسر الظاء وضمّ الميم على أنّه اسم فاعل من انتظم. انتظم الشيء تألّف واتّسق وقالوا نظمه فانتظم. ويجوز أن يُقرَأ بفتح الظاء على أنّه اسم مفعول من قولهم انتظم الأشياء جمعها وضمّ بعضها إلى بعض. وبهذا عُلِم أنّ انتظم يأتى لازماً ومتعدّياً.

رقم البيت (٩٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثالث من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

فما تطاول آمال المديح إلى
ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

أراد الناظم الفاهم التبرئة عن تزكية نفسه بإيفاء حقّه صلّى الله تعالى عليه سلّم واستقصاء أوصافه بالمديح بوجه عام. فأدرج نفسه فى جملة المدّاحين له صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وأشعر بذلك أن قد عجز المادحون عن آخرهم أن يبلغوا الغاية فى مدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فكيف إن أراد فى نفس الوقت أن يبيّن الوجه الّذى من أجله عدل عن وصف الذات إلى مدح الصفات فأنشأ يقول:

فما تطاول آمال المديح إلى
ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

فالفاء لإفادة التعليل لما سبق أوهى عاطفة وما استفهامية مبتدأ وتطاول خبره أو ما نافية ومابعده فعل ماض بفتح الواو واللّام أو فعل مضارع بفتح الواو وضمّ اللّام من باب التفاعل على حذف إحدى التائين والآمال بالرفع فاعل تطاول جمع أمل مضاف إلى ياء المتكلّم على نسخة أو مضاف إلى المديح على نسخة أخرى والمديح فعيل بمعنى اسم الفاعل أى المادح أو بمعنى المفعول أى الممدوح وهو الأوجه بحسب الاستعمال الغالب. وإلى متعلّق بتطاول. وما موصول وفيه ظرف مستقرّ صلته. ومن بيانيّة. وإضافة الكرم من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف أى الأخلاق والشيم الكريمة. والأخلاق جمع خلق بضمّتين وهو الطبيعة. والشيم بكسر الشين المشدّدة وفتح الياء جمع شيمة وهى الخلق بضمّتين. والمراد بالأخلاق الكسبيّات التخليقيّات والشيم الغريزيّات أو بكلّ كلاهما والتكرار للتأكيد.

وحاصل المعنى أنّ آمال المداح لم تبلغ إلى ما فيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم من محاسن الشيم ومكارم الأخلاق مادام السبع الطباق.

رقم البيت (۹۱)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في البيت الرابع من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

آيات حق من الرحمن محدثة
قديمة صفة الموصوف بالقدم

لمّا أشعر الناظم الفاهم بعجز المادحين له صلّى الله تعالى عليه وسلّم عن أداء حقّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم و بلوغ الغاية في مدحه توهّم أنّه تارك وصفه عليه الصلاة والسلام لعجزه عن نيل المرام فدفع الوهم إيذاناً بأنّه مهما عجز عن مدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حقّ المدح فإنّه لا يدعه بل يقبل عليه ويتوخّى من مدائحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم ما هو من أشرف المدائح له صلّى الله تعالى عليه وسلّم وآيات باقية على وجه الدهر لعلّه يبلغ بذلك إلى مدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم جملة وإن عجز عنه تفصيلاً معترفاً مع ذلك ببقاءه على العجز عن بلوغ الغاية في هذا المضمار ونعم ما قيل العجز عن الإدراك إدراك فتخلّص الناظم الفاهم إلى ذكر آيات على دوام نبوّته صلّى الله تعالى عليه وسلّم إلى الأبد باقيات فأنشأ يقول:

آيات حق من الرحمن محدثة
قديمة صفة الموصوف بالقدم

قوله آيات حق خبر مبتدأ محذوف أي هي أو بعض معجزاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم والآيات جمع آية وهي العلامة وتطلق على طائفة من القرآن منقطعه عمّا قبلها وما بعدها سمّيت بها لأنّها علامة على صدق من أتى بها، وإضافتها بمعنى اللّام إن كان الحق مراداً به اسم الجلالة أو النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم وبيانيّة على أنّه صفة مشبّهة بمعنى الثابت من الحق ضدّ الباطل. قوله: من الرحمن خبر بعد خبر أوصفة آيات أو متعلّق بالحقّ بمعنى اسم الجلالة الله فعلى هذا من الرحمن بيان للحق وليس خبراً بعد خبر على هذا التقدير. وآثر ذكر الرحمن إيذاناً بأنّ بعثة النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم وإنزال الآيات عليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم عن محض رحمة من الله سبحانه وتعالى لا عن وجوب عليه لمراعاة الأصلح للعبد كما تزعمه المعتزلة والرحمة في الأصل رقّة في القلب فهي صفة نفسانيّة تستدعي الإحسان من الراحم على المرحوم والمراد في حقّه تعالى إرادة الخير. وذلك لأنّ القاعدة التفسيرية أنّ الأفعال الّتي لها أوائل البدايات وأواخر غايات إذا لم يمكن إسنادها إلى الله تعالى باعتبار البدايات يراد بها حين الإسناد غاياتها مجازاً مرسلاً كالغضب والحياء والتكبّر والاستهزاء وغيرها كذا في روح البيان بتصرّف منّا.

قوله محدثة وفي نسخة محكمة وبه فسّر قوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث الآية. وإطلاق "محدثة" على آيات اقتباس من قوله تعالى هذا. جاء في تأويلات أهل السنّة للإمام أبي منصور الماتريدي قوله تعالى: "ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث" قال بعضهم محدث محكم أحكمه من أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه وأحكمه لما

أعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله وعلى هذا فلا تخالف بين قوله محدثة وقديمة وفُسِّر محدثة بوجه آخر وهو الّذى ذكره فى التأويلات وغيره ومحصّله أنّها محدث نزولها وهى قديمة بمعنى أنّها صفة قائمة بالموصوف بالقدم وهو الله سبحانه وتعالى متجلّية فيكسوة منزل على النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم والمكتوب فى المصاحف والمقرو بالألسنة والمحفوظ فى الصدور فالنزول حادث والكتابة حادثة والقراءة حادثة والحفظ حادث والقرآن واحد لا تعدّد فيه بتعدّد مظاهره فلا يجوز أن يطلق عليه حادث ويأتى بيانه عن العلّامة الباجوري كما يأتى مزيد تفصيل لهذا المبحث الجليل عن "أنوار المنّان فى توحيد القرآن" للإمام الهمام أحمد رضا قدّس سرّه.

وقوله محكمة على نسخة أخرى اقتباس من قوله سبحانه وتعالى "أحكمت آياته" وقوله محدثة وقديمة وصفة الموصوف صفات جارية على آيات أو يكون كلّ منها خبر بعد خبر ويجوز أن يكون كلّ من شطرى البيت وارداً على سبيل الاستيناف. وهذا تعليل لقدم الآيات لأنّها صفة الموصوف بالقدم وصفة القديم قديمة. وبالقدم متعلّق بالموصوف ..وفى الجمع بين محدثة وقديمة طباق.

وإذ قد فرغنا من بيان الإعراب فلنأخذ فى الكلام عن صفة الكلام وبيان حقيقته ومعناه فى حقّ ربّنا الملك العلّام ونذكر ما يستتبعه استطراد من خبر موسى الكليم ومن نشأة أهل الجنّة وأحوالهم فى دار النعيم . قال العلّامة الباجورى: تحت قول اللّقانى فى منظومته جوهرة التوحيد:

حياته كذا الكلام السمع
ثمّ البصر بذى أتانا السمع

اختلف أهل الملل والمذاهب فى معنى كلامه سبحانه وتعالى. فقال أهل السنّة صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت منزّهة عن التقدّم والتأخّر والإعراب والبناء ومنزّهة عن السكوت النفسى بأن لّا يدبّر فى نفسه الكلام مع القدرة عليه ومنزّهة عن الآفة الباطنيّة بأن لّا يقدر على ذلك كما فى حال الخرس والطفولية.

وقالت الحشويّة وطائفة سمّوا أنفسهم بالحنابلة: كلامه تعالى هو الحروف والأصوات المتوالية المترتّبة. (قال الأزهرى: وهذا هو اللّائح من صنيع الألبانى المتحدّث عن حشويّة الزمان وترجمانهم فى مقدّمته على كتاب العلو للذهبى) ويزعمون أنّها قديمة. وتغالى بعضهم حتّى زعم قدم هذه الحروف الّتى نقرأها والرسوم. بل تجاوز جهل بعضهم لغلاف المصحف.

وقالت المعتزلة: كلامه هو الحروف والأصوات الحادثة. وهى غير قائمة بذاته. فمعنى كونه متكلّماً عندهم أنّه خالق للكلام فى بعض الأجسام. لزعمهم أنّ الكلام لا يكون إلّا بحروف وأصوات. وهو مردود بأنّ الكلام النفسى ثابت لغة كما فى قول الأخطل:

إنّ الكلام لفى الفؤاد وإنّما
جعل اللّسان على الفؤاد دليلاً

وكلامه تعالى صفة واحدة لا تعدّد فيها. لكن لها أقسام اعتبارية: فمن حيث تعلّقه بطلب فعل الصلاة مثلاً فأمر. ومن حيث تعلّقه بطلب ترك الزنا مثلاً نهى. ومن حيث تعلّقه بأنّ فرعون فعل كذا مثلاً خبر. ومن حيث

تعلّقه بأنّ الطائع له الجنّة وعد، ومن حيث تعلّقه بأنّ العاصي يدخل النار وعيد، إلى غير ذلك.

وتعلّقه بالنسبة لغير الأمر والنهي تعلّق تنجيزيّ قديم. وأمّا بالنسبة للأمر والنهي فإن لم يشترط فيهما وجود المأمور والمنهي فكذلك، وإن اشترط فيهما ذلك كان التعلّق فيهما صلوحياً قبل وجود المأمور والمنهي وتنجيزيّاً حادثاً بعد وجودهما.

واعلم أنّ كلام الله يطلق على النفسي القديم بمعنى أنّه صفة قائمة بذاته تعالى، وعلى الكلام اللّفظي بمعنى أنّه خلقه، وليس لأحد في أصل تركيبه كسب، وعلى هذا المعنى يحمل قول السيّدة عائشة (ما بين دفّتي المصحف كلام الله تعالى) وإطلاقه عليهما، قيل: بالاشتراك، وقيل: حقيقي في النفسي مجاز في اللّفظي، وعلى كلّ من أنكر أنّ ما بين دفّتي المصحف كلام الله فقد كفر، إلّا أن يريد أنّه ليس هو الصفة القائمة بذاته تعالى. (تحفة المريد)

وختام كلام الباجوري هنا وفي شرح البردة أشدّ مناقضة لما قدّمه آنفا من وحدة القرآن ونصّه: الحاصل أنّ الألفاظ الّتي نقرأها لها دلالتان دلالة بالوضع وهي الّتي اعتبرها العلّامة ابن قاسم فإنّ المدلول بهذه الدلالة مساوٍ للمدلول الّذي تدلّ عليه الصفة القديمة ودلالة بالالتزام العرفي لا العقلي وهي الّتي اعتبرها السنوسي وغيره من المتقدّمين فإنّ المدلول بهذه الدلالة هو الصفة القديمة فكلّ من المسلكين صحيح كما في حواشي الكبرى. (حاشية الباجوري على قصيدة البردة ص١٥).

قال الأزهري: وهذا ينافي ما قدّمه العلّامة الباجوري آنفا من أنّ كلامه تعالى صفة واحدة لا تعدّد فيها.

أقول: وهذا هو الحق أعني ما قدّمه العلّامة الباجوري من أنّ كلامه تعالى صفة واحدة لا تعدّد فيها هو الحقّ الّذي مضى عليه الأئمّة الأقدمون وبيّنه بأحسن وجه وفصّله بأجمل تفصيل فحقق وحدة القرآن ومنع تعدّده بالاشتراك أو الحقيقة والمجاز سيّدنا الجدّ الإمام الفذّ أحمد رضا في أنوار المنّان في توحيد القرآن وإليك البيان تنجيزاً لما وعدناك به آنفاً فنسوق كلامه من عدّة مواضع قال في خطبة الكتاب ما نصّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الأحد في ذاته، الواحد في صفاته، المتعالي بقدمه عن الحدوث وسماته تعالى أن يتطرّق الحدوث إلى مسمّى لكلامه أو مصداق لآياته، أو يكون لكلامه تجدّد بتجدّد تجلّياته، أو تعدّد بتعدّد كسواته، هو الّذي أنزل كلامه القديم على سيّد بريّاته، وخاتم رسله وأوّل مخلوقاته، عليه وعلى آله وصحبه وذريّاته أفضل صلواته، وأكمل تسليماته، وأزكى تحيّاته، وأنمى بركاته، فتجلّى القرآن في الأذهان، والآذان والورق واللّسان، والزمان والمكان، وما انفصل عن الرحمن، ولا اتّصل بالأكوان، في شيء من حضراته، حدثت القلوب والأسماع والللسن واليراع، وتحوّلت الأحوال وتبدّلت الأوضاع، والقرآن كما كان على قدمه وثباته.

اعلم أنّ العلماء الكرام جعلوا لوجود الشيء أربع مرّات: وجود في الأعيان، كما لزيد الموجود في الخارج، ووجود في الأذهان، وهو حصول صورة زيد الّتي هي مرآة ملاحظته في الذهن، ووجود في العبارة، كأن تقول بلسانك زيد فإنّ الاسم عين المسمّى.

وانطلق الإمام أحمد رضا قدّس سرّه يؤيّد ما ادّعاه من أنّ الاسم عين المسمّى بحديث جليل وبما جاء في

التنزيل فقال: وفى مسند أحمد، وسنن ابن ماجة، وصحاح الحاكم وابن حبّان عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم عن ربّه عزّ وجلّ: أنا مع عبدى إذا ذكرنى وتحرّكت بى شفتاه. ووجود فى الكتابة، كما إذا كتب زيد. قال تعالى: (يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) (الأعراف157). يعنى النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

عقيدة أئمّتنا السلف الحقّة الصادقة أنّ هذه الأنحاء الأربعة كلّها مواطن وجود القرآن العظيم حقيقة وحقا، ومجالى شهود الفرقان الكريم تحقيقاً وصدقاً. فالقرآن الّذى هو صفة قديمة لحضرة العزّة عزّ جلاله، وقائم أزلاً وأبداً بذاته الكريمة، مستحيل الانفكاك عنه، ولا هو ولا غيره، ولا خالق ولا مخلوق، هو بعينه المقروء بلسانا، المسموع بآذاننا، المكتوب فى سطورنا، المحفوظ فى صدورنا، والحمد لله ربّ العالمين. لا أنّه شيء آخر غير القرآن، دالّا على القرآن، كلّا بل كلّها تجلّياته، وهو المتجلّى فيها حقيقة، من دون أن ينفصل عن الذات الإلهية، أو يتّصل بشيء من الحوادث، أو يكون له حلول فيه، أو يصيب ذيل قدمه شية من حدوث تلك الكسوات، أو يتطرّق إليه تعدّد بتعدّد الجلوات، كما قلت:

أتجدّد الملابس مغيّر للابس

وقلت: شمس وراء مدارك الوطواط فعليك بالإيمان لا الإبعاط (الإبعاط: الغلوّ فى الجهل، وفى الأمر القبيح، والقول على غير وجه، وتجاوز المقدار).

ثمّ جاء يؤيّد لما ذكره من وحدة القرآن بغير نظير من السنّة فقال:

وهذا سيّدنا جبريل عليه الصلاة بالتبجيل، رآه عدو الله أبو جهل فى صورة فحل، وقد صال عليه، وله ناب وهامة لم ير مثلها حتّى نكص عدو الله على عقبيه. فهل يسوغ لأحد أن يزعم أنّه لم يكن جبريل، وإنّما كان شيء آخر يدلّ على جبريل؟ حاش لله بل كان جبريل يقيناً. وفى نفس الحديث عنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم: قال ذاك جبريل لو دنا منّى لأخذه. رواه ابن إسحاق، وأبونعيم، والبيهقى عن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما. وإن كنّا نعلم أيضاً باليقين أنّ صورة جبريل الجميلة ليست الصورة الجملية، بل له ستّ مائة جناح قد سدّ الأفق.

ورأى الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى مسيرهم إلى بنى قريظة دحية بنى خليفة متوجّهاً إليهم على بغلة بيضاء، فأخبروا به النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقال كما فى الحديث: ذاك جبريل بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب فى قلوبهم. وحديث أعرابى أتى النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة وأشراطها، لم يعرفه أحد، ولا يرى عليه أثر سفر، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، وقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: إنّه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم. معروف مشهور، وقد ثبت غير مرّة إتيانه إليه فى صورة دحية الكلبى رضى الله تعالى عنه وعلى جبريل الصلاة والسلام. فللنسائى بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما: كان جبريل يأتى النبى فى صورة دحية الكلبى. ورواه الطبرانى عن أنس رضى الله تعالى عنه مرفوعاً أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: كان جبريل يأتينى على صورة دحية الكلبى. وفى الباب عن أمّهات المؤمنين عائشة وأمّ سلمة رضى الله تعالى عنهما.

ولا يسوغ لمسلم أن يشكّ فى كونه جبريل. مع القطع بأنّ جبريل ليس أعرابياً ولا كلبياً۔ فما هو إلّا أنّها تجلّيات جبريل بتلك الصور المختلفة. لم يتعدّد بتعدّدها جبريل.

ولا يمكن أن يقال إن هذه كانت أشياء أخر غير جبريل تدلّ عليه. وفى ذلك أقول:

شعر:3

أجبريل من السدرة
وآخر جاء من قرية
وثالثهم عدا جملاً
ورابعهم غدا دحية
فمنهم من له ذنب
ومنهم من له لحية
وهذا باطل قطعاً
فلا يرضاه ذو نهية
ومع ذا وحدة الكلّ
يقين ما به مرية
هو العادى على الغاوى
هو الموحى بلا فرية

فهذا ما أفاده البرهان. ووراءه طور لأهل العرفان. فأهل الحقائق أدرى بهذه الدقائق. وعلينا التسليم والإذعان.

وتابع يذكر آيات بيّنات من الذكر الحكيم مستدلاً بها على وحدة القرآن عظيم فى أسلوب عجيب:

قال الله عز وجل: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون)(الأعراف/204).

وقال تعالى: (لا تحرّك به لسانك لتعجل به۔ إنّ علينا جمعه وقرآنه۔ فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه۔) (القيامة/16-18)،

وقال تعالى: (فاقرءوا ما تيسّر من القرآن) (المزمل/20)

وقال تعالى: (فأجره حتّى يسمع كلام الله) (التوبة/6)

وقال تعالى: (ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل للذكر من مدّكر) (القمر/17).

وقال تعالى: (بل هو آيات بيّنات فى صدور الّذين أوتوا العلم)(العنكبوت/49)

وقال تعالى: (وإنّه لفى زبر الأوّلين) (الشعراء/196).

وقال تعالى: (فى صحف مكرّمة. مرفوعة مطهّرة)(عبس/13، 14)

وقالى تعالى: (بل هو قرآن مجيد. فى لوح محفوظ) (البروج/21، 22)

وقال تعالى: (إنّه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسّه إلّا المطهّرون) (الواقعة/77-79).

وقال تعالى: (نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربيّ مبين) (الشعراء/193-195)

إلى غير ذلك من الآيات.

فانظروا إيّاه جعل مقروّاً. وإيّاه جعل مسموعاً. وإيّاه جعل محفوظاً. وإيّاه جعل مكتوباً. وفيه قال إنّه القرآن. وإنّه كلام الرحمن.

وتابع القول يؤيّده بنقول من العلماء والفحول وأنكر ما ادّعى ما يفيد التعدّد بالاشتراك بإطلاق الكلام على النفسي واللّفظي بالاشتراك أو الحقيقة والمجاز. ثمّ ختم الكلام بالقول الفصل في هذا المبحث:

قال سيّدنا الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه في الفقه الأكبر: القرآن في المصاحف مكتوب. وفي القلوب محفوظ. وعلى الألسن مقروّ. وعلى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم منزّل. ولفظنا بالقرآن مخلوق. و كتابتنا له. وقراءتنا له مخلوق. والقرآن غير مخلوق اه.

وقال رضي الله تعالى عنه في وصاياه: نقرّ بأنّ القرآن كلام الله تعالى. ووحيه. وتنزيله. وصفته. لا هو ولا غيره. بل هو صفته على التحقيق. مكتوب في المصاحف. مقروّ بالألسن. محفوظ في الصدور. غير حال فيها (إلى قوله رضي الله تعالى عنه) والله تعالى معبود. ولا يزال عمّا كان. وكلامه مقروّ. ومكتوب. ومحفوظ من غير مزايلة عنه اه.

وقال العارف بالله سيّدي العلّامة عبد الغني النابلسي الحنفي قدّس سرّه القدسي في المطالب الوفيّة: لا تظنّ أنّ كلام الله تعالى اثنان: هذا اللّفظ المقروّ والصفة القديمة. كما زعم ذلك بعض من غلبت عليه اصطلاحات الفلاسفة والمعتزلة. فتكلّم في كلام الله تعالى بما أدّى إليه عقله. وخالف إجماع السلف الصالحين رضي الله تعالى عنهم على أنّ كلام الله تعالى واحد. لا تعدّد له بحال. وهو عندنا وهو عنده تعالى. وليس الّذي عندنا غير الّذي عنده. ولا الّذي عنده غير الّذي عندنا. بل هو صفة واحدة قديمة موجودة عنده تعالى بغير آلة لوجودها. وموجودة أيضاً عندنا بعينها لكن بسبب آلة هي نطقنا و كتابتنا وحفظنا. فمتى نطقنا بهذه الحروف القرآنية و كتبناها وحفظناها كانت تلك الصفة القديمة القائمة بذات الله تعالى. الّتي هي عنده تعالى هي عندنا أيضاً بعينها. من غير أن تتغيّر من أنّها عنده تعالى. ولا انفصلت عنه تعالى. ولا اتّصلت بنا. وإنّما هي على ما عليه قبل نطقنا و كتابتنا وحفظنا إلى آخر ما أطال وأطاب. عليه رحمة الملك الوهاب.

وقال قدّس سرّه في النوع الأوّل من الفصل الأوّل من الباب الأوّل من الحديقة النديّة: إذا علمت هذا ظهر لك فساد قول من قال: إنّ كلام الله تعالى مقول بأشتراك الوضع على معنيين الصفة القديمة. والمؤلّف من الحروف والكلمات الحادثة. فإنّه قول يؤول إلى اعتقاد الشرك في صفات الله تعالى. وإشارة النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم هنا في هذا الحديث (أي حديث إنّ هذا القرآن طرفه بيد الله تعالى. وطرفه بأيديكم. رواه ابن أبي شيبة. والطبراني في الكبير عن أبي شريح رضي الله تعالى عنه إلى القرآن تفيد أنّه واحد لا تعدّد له أصلاً. وهو الصفة القديمة. وهو المكتوب في المصاحف. المقروء بالألسنة. المحفوظ في القلوب. من غير حلول في شيء من ذلك. ومن لم يفهم

هذا على حسب ما ذكرنا لصعوبته عليه يجب عليه الإيمان به بالغيب. كما يؤمن بالله تعالى وبباقى صفاته سبحانه وتعالى. ولا يجوز لأحد أن يقول بحدوث ما فى المصاحف والقلوب والألسنة إلى آخر ما أفادوأجاد. عليه رحمة الملك الجواد.

وقال الإمام الأجلّ العارف بالله تعالى سيّدى عبد الوهاب الشعرانى الشافعى قدّس سرّه الربّانى فى كتابه ميزان الشريعة الكبرى: قد جعله (أى المكتوب فى المصحف) أهل السنّة والجماعة حقيقة كلام الله تعالى. وإن كان النطق به واقعاً منّا. فافهم. وأكثر من ذلك لا يقال. ولا يسطر فى كتاب. اهـ.

وقال فى المبحث السادس عشر من اليواقيت والجواهر فى عقائد الأكابر: مثال ظهور الوحى بالألفاظ مثال ظهور جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة دحية. فإنّ جبريل لم يكن حين ظهر فيها بشراً محضاً ولا ملكاً محضاً. ولا كان بشراً وملكاً معاً فى حالة واحدة. فكما تبدّلت صورته فى أعين الناظرين ولم تتبدّل حقيقته الّتى هو عليها. فكذلك الكلام الأزلى والأمر الأحدى يتمثّل باللّسان العربى تارة. والعبرى تارة. والسريانى أخرى. وهو فى ذاته أمر واحد أزلى اهـ.

وقال سيّدى محى الدين رضى الله تعالى عنه فى باب الأسرار من فتوحاته: لو حلّ بالحادث القديم لصحّ قول أهل التجسيم. القديم لا يحلّ ولا يكون محلّاً ذكر القرآن أمان. وبه يجب الإيمان. إنّه كلام الرحمن. مع قطع حروفه فى اللّسان. ونظم حروفه فيما رقم باليراع والبنان. فحدثت الألواح والأقلام. وما حدث الكلام. وحكمت على العقول الأوهام. اهـ.

وفى شرح الفقه الأكبر المنسوب إلى إمام السنّة علم الهدى أبى منصور الماتريدى رحمه الله تعالى. والله تعالى أعلم به: الكلام لا يوصف بالمزايلة. بظهور المكتوب فى المصاحف. ولسنا نقول إنّ الكلام حال فى المصاحف. حتّى يكون قولاً بالمزايلة. يدلّ عليه أنّه لو لم يكن المكتوب كلام الله تعالى لكان الكلام معدوماً فيما بين العباد. فيؤدّى إلى تفويت خطاب الله تعالى اهـ.

وفى الإبانة عن أصول الديانة. المنسوبة نسختها إلى إمام السنّة أبى الحسن الأشعرى رحمه الله تعالى. والله تعالى أعلم بها: إن قال قائل حدّثونا أتقولون إنّ كلام الله تعالى فى اللّوح المحفوظ؟ قيل له كذلك نقول لأنّ الله عزّ وجلّ قال: (بل هو قرآن مجيد. فى لوح محفوظ) (البروج21, 22). فالقرآن فى اللّوح المحفوظ. وهو فى صدور الّذين أوتوا العلم. قال الله عزّ وجلّ: (بل هو آيات بيّنات فى صدور الّذين أوتوا العلم) (العنكبوت49). وهو متلوّ بالألسنة. قال الله تعالى: (لا تحرّك به لسانك) (القيامة16). والقرآن مكتوب فى مصاحفنا فى الحقيقة. محفوظ فى صدورنا فى الحقيقة. متلوّ بألسنتنا فى الحقيقة مسموع لنا فى الحقيقة. كما قال عزّ وجلّ: (فأجره حتّى يسمع كلام الله) (التوبة6). وإنّما قال قوم (لفظنا بالقرآن) ليثبتوا أنّه مخلوق. ويزيّنوا بدعتهم وقولهم بخلقه. فدلّسوا كفرهم على من لم يقف على معناهم. فلما وقفنا على معناهم أنكرنا قولهم. ولا يجوز أن يقال إنّ شيئاً من القرآن مخلوق. لأنّ القرآن بكماله غير مخلوق. اهـ باختصار.

وقال الإمام النسفى لا كما نقل عنه فى المطالب الوفية: القرآن كلام الله تعالى وصفته. والله تعالى بجميع

صفاته واحد قديم، غير محدث ولا مخلوق، بلا حرف، ولا صوت، ولا مقاطع، ولا مبادى، لا هو ولا غيره، وهو مقروء بالألسن، محفوظ فى القلوب، مكتوب فى المصاحف، وليس بموضوع فى المصاحف. اهـ

وقال شارح عقيدة الطحاوى، كما أثر عنه فى منح الروض الأزهر: من قال إنّ المكتوب فى المصاحف عبارة عن كلام الله تعالى، أوحكاية كلام الله تعالى وليس فيها كلام الله تعالى فقد خالف الكتاب والسنّة، وسلف الأمّة. اهـ

وقال فيكنز الفوائد شرح بحر العقائد: لا يلزم من الظهور فى صورة أن يكون ذا صورة، ألا ترى أنّ كلامه النفسى ظهر فى الكتابة، واللّفظ، والمخيّلة، مع كونه ليس له من صور ظهره شىء. اهـ

وقال فى جمع الجوامع: القرآن هو كلامه تعالى، القائم بذاته تعالى، غير مخلوق، وهو مع ذلك أيضاً على الحقيقة لا المجاز مكتوب فى مصاحفنا، محفوظ فى صدورنا، مقروء بألسنتنا. اهـ

وتدارك الله بنعمته عبديه القاضى عضد الدين صاحب المواقف، والعلّامة السيّد الشريف شارحها. فالأوّل صنّف فى المذهب الحقّ مقالة مستقلّة تبع فيها إجماع السلف، والثانى أيّده وقوّى عضده فى شرح المواقف، مع مشايعتهما فى المواقف وشرحها لأولئك الأحداث.

قال السيّد قدّس سرّه: واعلم أنّ للمصنّف مقالة مفردة فى تحقيق كلام الله تعالى على وفق ما أشار إليه فى خطبة الكتاب، ومحصولها أنّ لفظ المعنى يطلق تارة على مدلول اللّفظ، وأخرى على الأمر القائم بالغير. فالشيخ الأشعرى لمّا قال الكلام هو المعنى النفسى فهم الأصحاب منه أنّ مراده مدلول اللّفظ وحده، وهو القديم عنده، أمّا العبارات فإنّما تسمّى كلاماً مجازاً، لدلالتها على ما هو كلام حقيقى، حتّى صرّحوا بأنّ الألفاظ حادثة على مذهبه أيضاً، لكنّها كلامه حقيقة. وهذا الّذى فهموه من كلام الشيخ له لوازم كثيرة فاسدة، كعدم إكفار من أنكر كلامية ما بين دفّتى المصحف، مع أنّه علم من الدين ضرورة كونه كلام الله تعالى حقيقة، و كعدم المعارضة والتحدّى بكلام الله الحقيقى، و كعدم كون المقروء والمحفوظ كلامه حقيقة إلى غير ذلك ممّا لا يخفى على المتفطّن فى الأحكام الدينيّة، فوجب حمل كلام الشيخ على أنّه أراد به المعنى الثانى، فيكون الكلام النفسى عنده أمراً شاملاً للّفظ والمعنى جميعاً، قائماً بذات الله تعالى، وهو مكتوب فى المصاحف، مقروء بالألسن، محفوظ فى الصدور، وهو غير الكتابة والقراءة والحفظ الحادثة، وما يقال من أنّ الحروف والألفاظ مترتّبة متعاقبة فجوابه أنّ ذلك الترتّب إنّما هو فى التلفّظ، بسبب عدم مساعدة الآلة، فالتلفّظ حادث، والأدلّة الدالّة على الحدوث يجب حملها على حدوث، دون حدوث الملفوظ، جمعاً بين الأدلّة، وهذا الّذى ذكرناه وإن كان مخالفاً لما عليه متأخّرو أصحابنا إلّا أنّه بعد التأمّل تعرف حقيقته تمّ كلامه. وهذا المحمل لكلام الشيخ ممّا اختاره الشيخ محمّد الشهرستانى فيكتابه المسمّى بنهاية الأقدام، ولا شبهة فى أنّه أقرب إلى الأحكام الظاهريّة المنسوبة إلى قواعد الملّة. اهـ

وقال رحمه الله تعالى فى خطبة المواقف: وأنزل معه صلّى الله تعالى عليه وسلّم كتاباً عربيّاً مبيّناً، فأكمل لعباده دينهم وأتمّ عليه نعمته ورضى لهم الإسلام ديناً كتاباً كريماً، وقرآناً قديماً، ذا غايات ومواقف، محفوظاً فى القلوب مقروءً بالألسن مكتوباً فى المصاحف اهـ

قال السيّد قدّس سرّه: وصف القرآن بالقدم، ثمّ صرّح بما يدلّ على أنّه هذه العبارات المنظومة كما هو

مذهب السلف حيث قالوا: إنّ الحفظ والقراءة والكتابة حادثة لكن متعلّقها أعني المحفوظ والمقروء والمكتوب قديم وما يتوهّم من أن ترتّب الكلمات والحروف وعروض الانتهاء والوقوف ممّا يدلّ على الحدوث فباطل. لأنّ ذلك لقصور في آلات القراءة. وأمّا ما اشتهر عن الشيخ أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى من أنّ القديم معنى قائم بذاته تعالى قد عبّر عنه بهذه العبارات الحادثة فقد قيل إنّه غلط من الناقل منشؤه اشتراك لفظ المعنى بين ما يقابل اللّفظ وبين ما يقوم بغيره وسيزداد ذلك وضوحاً فيما بعد إن شاء الله تعالى اه.

قال الحسن جلبي: إنّ الشارح سيحقّق ما عليه المصنّف في أثناء بحث الكلام حسب ما أشعر به كلامه ههنا أنّه يوافق السلف وعليه نصّ في شرح المختصر اه.

وقال في أوّل المقصد السابع في أنّه تعالى متكلّم: الثابت بالشرع كونه صفة له تعالى قائماً به على ما هو رأي السلف في الكلام اللّفظي اه. (أنوار المنّان ص٢٤٣ إلى ٢٨٣)

ثمّ أخذ جدّنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه يتكلّم عمّا نقل من فواتح الرحموت وما في نقله من مغايرة فيما نقل رضي الله تعالى عنه عن صاحب المواقف عمّا نقله عنه السيّد الشريف. قال: ولا يضرّ. فإنّ مرادنا وهو وحدة كلام الله تعالى وبطلان تقسيمه إلى نفسي قديم ولفظي حادث حاصل على الوجهين. (ص٢٨٦)

وتكلّم على ما أبداه في فواتح الرحموت من الاحتمالات في الكلام قائلاً: وما ذكر من الشقوق أنّ الكلام حقيقة في اللّفظي أو النفسي ، أو فيهما فأقول: لها رابع. وهو أنّه مشترك فيهما اشتراكاً معنوياً. فحقيقة في معنى يعمّهما. (ص٢٨٦)

وردّ ما اختاره ابن الهمام والعلّامة التفتازاني وعلي القاري ممّا يطول ذكره وأغنانا عن ذكره ما ذكره الإمام أحمد رضا منذ البداية إلى ههنا ولاسيّما ما أثره عن فواتح الرحموت فلا نشتغل بإيراد ما يردّه كما لا نطيل بذكر ما ختم به العلّامة الباجوري كلامه في شرح الجوهرة وشرح البردة لأنّ فيما ذكرنا كفاية وبه يظهر ما فيكلام العلّامة الباجوري وسبق منّا بعض التنبيه على ما فيكلامه من مناقضة فتذكّر والآن يجدر بنا أن نذكر القول الفصل وخلاصة المقال في هذا المجال تقريباً للمبحث إلى الفهم وتسهيلاً لتذكّره قال الإمام الهمام أحمد رضا في آخر رسالته ما نصّه:

وبالجملة فاحفظ عنّي هذا الحرف المبيّن ينفعك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم. أنّك إن قلت إنّ جبريل حدث الآن بحدوث الفحل أو لم يزل فحلاً مذ وجد فقد ضللت ضلالاً مهيناً. وإن قلت إنّ الفحل لم يكن جبريل بل شيء آخر عليه دليل فقد بهت بهتاً مبيناً. ولكن قل هو جبريل قطعاً تصوّر به. فكذا إن زعمت أنّ القرآن حدث بحدوث المكتوب أو المقروء أو لم يزل أصواتاً ونقوشاً من الأزل فقد أخطأت الحقّ بلا مرية. وإن زعمت أنّ المكتوب المقروء ليس كلام الله الأزلي بل شيء غيره يؤدّي مؤدّاه فقد أعظمت الفرية. ولكن قل هو القرآن حقّاً تطوّر به. وهكذا كلّما اعتراك شبهة في هذا المجال فاعرضها على حديث الفحل تنكشف لك جليّة الحال. وما التوفيق إلّا بالله المهيمن المتعال. (أنوار المنّان: ص٣٠٣)

رقم البيت (٩٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الخامس من الفصل السادس وهو قول الناظم الفاهم:

لم تقترن بزمان وهي

تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

أراد الناظم الفاهم أن يؤكّد ما مضى في البيت السابق من وصف الآيات بأنّها قديمة وأنّها صفة الموصوف بالقدم في أسلوب من التأكيد مشوب بتفسير القدم وتأسيس لمعنىً جديد فأنشأ يقول:

لم تقترن بزمان وهي

تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

أي صفة كلامه سبحانه وتعالى الّتي تجلّت في مظهر المقاطع والمبادي الّتي هي آيات منفصلة بعضها عن بعض متعاقبة مترتّبة محدثة أي منزلة على النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم هي هذه الصفة القديمة الّتي لا بداية لها ولا نهاية. فهي غير مسبوقة بالعدم ولا تنعدم ومن جرّاء أنّها قديمة لم تقترن أي لم تختصّ بزمان دون زمان وهي واحدة لا تعدّد فيها كما استفيد من الآيات البيّنات الّتي تليت عليك. ومن صرائح النصوص الّتي ألقيت عليك قريباً فيما مرّ من البيان عن "أنوار المنّان في توحيد القرآن" للإمام أحمد رضا قدّس سرّه.

وهي مع ذلك تتجلّى في مظاهر الأخبار. فهي تخبرنا عن قصّة عاد وإرم وجميع ما كان وما يكون في المعاش والمعاد وهذا القول من الناظم الفاهم في هذا البيت والّذي قبله صريح في جريه على ما جرى عليه السلف من أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق وهو هذا المقروء المكتوب المحفوظ المنزّل على النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم لم يتعدّد بتعدّد كسواته وتكثر جلواته ولذا حمل الناظم الفاهم قوله صفة الموصوف بالقدم على الآيات إشارة إلى أنّها صفة بسيطة في حدّ ذاتها متجلّية فيما ذكر من مظاهر مختلفة لم تنفكّ عن ذات القديم سبحانه وتعالى ولم تحلّ في حادث كما تقرّر فيما مرّ ولأضرب لك مثلاً من الأمر المحسوس لتقريب الفهم إلى المعنى المعقول وإن جلّ عن المثال وله المثل الأعلى ليس كمثله شيء وهو المتعال أرأيت هذه المرآة الّتي تنعكس فيها أشعّة الشّمس والصور الّتي بحذاءها أفتزول الشمس عن محلّها والصور عن مستقرّها وتحلّ في المرآة أم تتعدّد الشمس فشمس في السماء وأخرى في المرآة أم يتعدّد ذو الصورة فواحد في محلّه وآخر دونه في المرآة كلا لم تتعدّد الشمس بل هي هي في كبد السماء وهي المتجلّية في المرآة وطرف من أشعّتها في السماء وطرف آخر من الشعاع في المرآة فلا زالت عن محلّها ولا حلّت في المرآة كذلك ذو الصورة هو هو. واحد في حدّ ذاته وهو المتجلّي في المرآة من غير انفكاك ولا حلول. كذلك القرآن صفة للقديم واحدة لم تتغيّر بتغيّر الكسوات ولم تحدث بحدوث التعيّنات وبالله العصمة عن الزلّات وبه التوفيق للاستقامة والثبات.

هذا وفي قوله لم تقترن إشارة إلى معنىً آخر وهو أنّ شريعته عليه الصلاة والسلام الّتي جاء بها القرآن لم تقترن أي لم تختصّ بزمان دون زمان كشريعة من قبلنا فإنّها اختصّت بهم. أمّا شريعة نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقد نسخت شريعة من قبله وهي باقية والعمل بها ماض حتّى ينزل سيّدنا عيسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام فيعمل بشريعة نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم ويكون واحداً من أمّته. ولمّا أراد الله أن تبقى شريعة نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم ضمن الكتاب الّذي أنزله عليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم الحفظ فسلمه من التغيّر قال تعالى: "إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون". وهذا المعنى هو المناسب لما سيصرّح به في البيت الّذي يليه وهو قوله "دامت لدينا اهـ" وهو تبيين بعد تبيين لما تضمّن قوله لم تقترن من الإشارة. فنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم مبعوث إلى النّاس كافّة فلا نبيّ بعده وكتابه إلى النّاس كافّة ولا كتاب بعده فقوله بعد هذا البيت بيان كما ذكرنا من قبل وإلّا فكلّ حادث مقترن بزمان والقديم مع كلّ زمان.

ولا يذهبنّ عنك أنّ شرح البيت بالمعنى الّذي قرّرناه هو الأوفق بما تقرّر من مذهب السلف فيما سبق وهو الأليق بالمعنى الّذي يستفاد من نفس البيت من وحدة القرآن كما بيّنّا. فتفسير الآيات بالصفة القديمة كما تلونا عليك أوجه من تفسيرها بالمعاني كما جنح إليه بعض الشرّاح.

بيان الإعراب: قوله "لم تقترن" صفة بعد صفة للآيات أو حال من الضمير المستتر في قديمة والضمير فيه للآيات. بزمان متعلّق بلم تقترن. والزمان عند المتكلّمين عبارة عن متجدّد معلوم يقدّر به متجدّد آخر موهوم.

قوله "وهي" الواو للحال وهي مبتدأ والضمير راجع إلى الآيات وجملة تخبرنا خبره والجملة الاسمية في محلّ النصب حال من فاعل لم تقترن وقوله "عن المعاد وعن عاد وعن إرم" كلّ متعلّق بتخبرنا وكرّر عن في كلّ من الثلاثة المذكورة لأنّها أنواع مختلفة فلا يحسن جمعها في واحد ولأنّ لكلّ أخباراً تخصّه وقيل كرّرها للوزن وحسنه أنّ مقام المدح يحسن فيه الإطناب. قوله "عن المعاد" مصدر ميمي بمعنى العود أي تخبر عن عود الخلق بعد انعدامهم فالمعاد بمعنى عود الخلق إلى الله تعالى في الدار الآخرة بعد انعدامهم في دار الدنيا وذلك قال تعالى "وهو الّذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده". وقال تعالى "كما بدأنا أوّل خلق نعيده". قوله "عن عاد" أي تخبرنا عن قبيلة عاد الّتي بعث إليها سيّدنا هود على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام. تخبر الآيات عن قصّة عاد. وعاد قبيلة من العرب في ناحية اليمن لقوله تعالى في سورة الأعراف "وإلى عاد أخاهم هوداً" الآية وغير ذلك من سور القرآن. وقصّتهم أنّ عاداً تبسطوا في البلاد ما بين عمّان وحضرموت وكانت لهم أصناماً يعبدونها صداء وصمود والهباء فبعث الله تعالى إليهم هوداً نبيّاً وكان من أوسطهم وخيرهم وأفضلهم حسباً فكذّبوه وازدادوا عتوّاً. فأمسك الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين حتّى جاعوا وجهدوا وكانت عادة النّاس في ذلك الوقت إذا نزل عليهم البلاء توجّهوا إلى البيت المكرّم مسلمهم وكافرهم. وطلبوا من الله تعالى الفرج فجهّزت عاد إلى مكّة من أماثلهم سبعين رجلاً. فدخلوا مكّة ورئيسهم قيل بن عتر. فقال قيل (اللّهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم). فأنشأ الله تعالى ثلاث سحابات بيضاء وحمراء وسوداء. ثمّ ناداه من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فإنّها أكثرهنّ ماء فخرجت تلك السحابة إلى بلدهم فغشيتهم فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم

ونجا هو دوالمؤمنون معه۔

وقوله "وعن إرم "عطف على القريب أو البعيد وإرم إرم ذات العماد وهى لعاد الثانية فإنّ القرآن أخبر عن قصّتها أيضاً فى سورة الفجر بقوله: "ألم تر كيف فعل ربّك بعاد إرم ذات العماد الّتى لم يخلق مثلها فى البلاد)، وذكر قصّتهم النيسابورى فى تفسير هذه الآية وجماله أنّه كان لعادبن ارم ابنان شدّاد وشديد ملكا الدنيا كلّها ثمّ مات شديد فبقى الملك لشدّاد وكان عمره تسع مئة سنة وكان حريصاً على قراءة الكتب. فقرأ يوماً صفة الجنّة فاشتهت نفسه ووقع فى قلبه أنّ يبنى جنّة مثل الجنّة الّتى وصفها الله تعالى فأرسل طائفة من جيشه ليطلبوا صحراء طيبة الهواء خالية من الأحجار كثيرة المياه والأشجار فساروا فى الأرض فوجدوا صحراء مثل ما وصف لهم فى أرض عدن فأخبروا بذلك. فطلب شدّاد من وزراءه أصناف الجواهر والذهب والفضّة فجمعوا منها ما لايعدّ ولايحصى فبعثها شدّاد إلى تلك الأرض مع مائة ألف رجل من البنّائين والصنّاع فذهبوا إليها وبنوا أساسها لبنة من ذهب ولبنة من فضّة ولمّا فرغوا من بناء حيطانها ونصبوا فيها أعمدة من زبرجد أخضر وياقوت أحمر وبنوا فوقها قصوراً كثيرة وغرفاً فوق غرف من ذهب وفضّة ومجالس كثيرة ينظر أبواب بعضها إلى بعض وجعلوا موضع الملك فى حصنها قصراً مبنيّاً من ذهب وكان الملك ألف وزير فجعلوا حول الحصن ألف قصر لكلّ وزير قصراً منها وجعلوا فيها مجارى النهار من الفضّة وهى تجرى باللّبن والخمر والعسل حتّى فرغوا من بناءها فى ثلاث مائة سنة. ثمّ أخبروا الملك بفراغها فجمع وزراء واتباعه وأنصاره وساروا إليها فلمّا دنوا منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة فأهلكهم جميعاً فلم يبق أحد منهم. وروى أنّه لم يدخل تلك الجنّة إلّا واحد من المسلمين. كذا فى الخرفوتى (شرح الخرفوتى ص۱۵۵)

وعن عبد الله ابن قلابة أنّه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه ممّا ثمّ من الذهب وغيره وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقصّ عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال هى إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج فى طلب إبل له ثمّ التفت فأبصر ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل۔ (شيخ زاده ص۱۵۳)۔

هذا وقال القرطبى بعد ما تكلّم على المراد فى قوله تعالى (لم يخلق مثلها فى البلاد) ما هو المراد بمثلها قبيلة عاد أو المدينة الّتى بنوها وما هو المراد بمدينة إرم دمشق أو غيرها. قال ما نصّه: وقد روى معن عن مالك أنّ كتاباً وجد بالإسكندرية فلم يُدرَ ما هو؟ فإذا فيه أنا شدّاد ابن عاد الّذى رفع العماد بنيتها حين لا شيب ولا موت. قال مالك إن كان لتمرّ بهم مائة سنة لايرون فيها جنازة. وذكر عن ثور ابن زيد أنّه قال أنا شدّاد ابن عاد وأنا رفعت العماد وأنا الّذى شددت بذراعى بطن الواد وأنا الّذى كنزت كنزاً لسبعة أذرع لا يخرجه إلّا أمّة محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم۔ (القرطبى تحت تفسير قوله تعالى (لم يخلق مثلها فى البلاد))

رقم البيت (٩٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت السادس من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

دامت لدينا ففاقت كلّ معجزة

من النبيّين إذ جاء ت ولم تدم

لايزال الناظم الفاهم يؤكّد المعنى الّذى قدّمه في البيت المتقدّم وهو قوله "قديمة" وكذا قوله "تقترن" ويصرّح باللّازم المستفاد من قدمها وكونها لم تقترن بزمان وهو دوامها أي دامت ثبتت واستقرّت واستمرّت سالمة لدينا من التغيير والتبديل بخلاف سائر الكتب المنزّلة على من قبلنا فإنّها وإن كانت دائمة في حدّ ذاتها لم تبق في مظهر دائم لدى من قبلنا من الأمم وهم النصارى واليهود الّذين غيّروا وبدّلوا وكذلك لم تدم معانيها وأحكامها بعد ما بعث نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم بشريعة نسخت الكثير من الشريعة المتقدّمة وأبقت بعض الأحكام من شريعة من قبلنا فكان مشروعاً في حقّنا بتقرير من نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم فهو الشارع وهو الناسخ بإذن من له الأمر الّذى يمحو ما يشاء ويثبت وهو الملك المتعال سبحانه وتعالى ولسيّدنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه رسالة في هذا الموضوع سمّاها "منية اللّبيب في أنّ التشريع بيد الحبيب". وقد مرّت الإشارة غير بعيد إلى توجيه دوامها بهذا الوجه فتذكّر. وبهذا ظهرت فائدة التقييد لقوله دامت بقوله لدينا. ولدينا منصوب ظرف لفعل ماض والضمير في دامت راجع للآيات وقوله ففاقت الفاء فيها للتعليل وفاقت أي تفوّقت وبرعت. وكلّ معجزة مفعول لفاقت. والمعجزة أمر خارق للعادة يصدر عن من يدّعي النبوّة مقرون بالتحدّى وقد نظم الأمور الخارقة للعادة بعضهم فقال:

إذا ما رأيت الأمر يخرق عادة

فمعجزة ان من نبى لنا صدر

وإن بأن منه قبل وصف نبوّة

فالإرهاص سمه تتبع القوم في الأثر

وإن جاء يوماً من ولى فإنّه

الكرامة في التحقيق عند ذوى النظر

وإن كان من بعض العوام صدوره

فكنوه حقّا بالمعونة واشتهر

ومن فاسق إن كان وفق مراده

يسمّى بالاستدراج فيما قد استقر

وإلّا فبدعي بالإهانة عندهم وقد تمّت الأقسام عند الّذي اختير (الباجوري ص٥٢)

وقوله من النبيين في محلّ جرّ صفة لمعجزة والتنوين في معجزة للاستغراق كما أنّ التعريف في النبيّين للاستغراق كذلك ونبينا صلّى الله تعالى عليه وسلّم مندرج في عموم النبيّين فالقرآن معجزة له صلّى الله تعالى عليه وسلّم فاقت كلّ معجزة غيرها ولو كانت معجزة لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلم. لأنّها جاءت ولم تدم كما قال الناظم الفاهم "إذ جاءت ولم تدم". وإذ مفيد للتعليل معمول لفاقت والضمير في فاقت راجع إلى الآيات والضمير في جاءت راجعة إلى كلّ معجزة وأنّث الكلّ لاكتسابه التأنيث بالإضافة إلى مؤنّث.

رقم البيت (٩٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت السابع من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

محكمات فما يبقين من شبه
لذي شقاق ولايبغين من حكم

سبق من الناظم الفاهم أن وصف الآيات بأنّها دامت لدينا وفاقت كلّ معجزة من النبيّين. وتقدّم منّا معنى كونه دامت لديناً وأنّه سلم نظمها عن التغيير والتحريف ومعناها عن النسخ والتبديل فيما مرّ والشيء إذا ثبت ثبت بجميع لوازمه. وأراد الناظم الفاهم في هذا البيت أن يصرّح ببعض اللّوازم ويدلّ على بعضها في ضمن ما تحتويه الكلمة من المعاني فقال:

محكمات فما يبقين من شبه
لذي شقاق ولايبغين من حكم

قوله محكمات بفتح الحاء والكاف المشدّدة مبالغة محكمات بالتخفيف ويؤيّده رواية ومحكمات بالرفع خبر مبتدأ محذوف أي هنّ محكمات أو خبر بعد خبر لآيات أو صفة بعد صفة لآيات والمحكمات يحتمل أربعة معان أحدها أن يكون من التحكيم أي جعلت حاكمة والثاني من الحكمة أي جعلت حكيمة لاشتماله على الحِكَم كما في قوله تعالى (والقرآن الحكيم. والذكر الحكيم) والثالث من الاحكام اى جعلت محكمة بحيث لاتحتمل النسخ والتبديل ولايناقض بعضها بعضاً. والرابع من الحَكَمة أي جعل ممتنعات محفوظات من التحريف.

والمعنى أنّ الآيات جعلها الله تعالى محكمة لاتنسخ ولاتبدّل أوجعلها مشتملة على حكم ومثل أوجعلها ذات حكم فيحكم على كلّ مجمل أوحاكمة على غيره من الكتب السماويّة والسنن النبوية والأقيسة العقلية والاتفاقات الإجماعية أو تدلّ على الحق والباطل أوتحكم بالحرمة والحلّ كذا أفاد العلامة القاري في الزبدة. (الزبدة ص٨٨)

أقول: وذكر المعانى الّتى تحتملها كلمة محكمات على الأوجه المختلفة من التشديد والتخفيف وفتح الكاف وكسرها وعطف بأو المفيده للترديد إشارة إلى أن القضيّة مانعة الخلو وليست بمانعة للجمع وأحسن العلّامة على القارى حيث لم يقل كما قال الشيخ زاده "وعلى قول من يقول إنّ للمشترك عموماً يكون الكلّ مراداً" إذ لامانع من إرادة الكلّ لأنّ الأوجه المحتملة لاينافى بعضها بعضاً بل هى متقاربة فغير مستنكر اندراجها تحت مفهوم يعمّ الكلّ وعلى هذا يكون مدلول محكمات من قبيل المشترك المعنوى دون اللّفظى وهو الّذى لاعموم له إذا دلّ على معانٍ متباينة لايتأتّى اندراجها تحت جنس واحد.

وأجاد العلّامة القارى فى الزبدة تفسير قوله "محكمات" فى إيجاز وإيضاح للمراد فقال "محكمات لاتنسخ ولاتبدّل" فشمل قوله محكمات على هذا التفسير كلّ كلم القرآن محكمه ومتشابهه واستغنى بذلك عمّا أبداه العلّامة الخرپوتى من الجواب عمّا استشكل من تعبير الناظم الفاهم لجميع القرآن بقوله محكمات مع أنّ الآيات منها محكمات وأُخر متشابهات، حيث لم يتعرّض لحمل المحكمات على المعنى اللّغوى ولم يتجشّم ما تجشّمه العلّامة الخرپوتى من كون المراد بالمحكمات بعض الآيات حيث قال وهو يجيب عن الإشكال ما نصّه: الحمل باعتبار معناه اللّغوى لا الاصطلاحى على أنّه يجوز أن يكون فى ضمير محكمات استخدام بأن يرجع الى الآيات ويرادمنها بعضها.

اقول: ولا استبعاداذا ادّعى ان جميع القرآن محكم متشابها كان او غير إلّا ان ما كان محكماً فهو محكم من كلّ وجه والمتشابه فى حكم المحكم باعتبار مردّه لأنّ مردّه إلى المحكم فهو متشابه من حيث الظاهر الّذى ليس مراداً ومحكم على مراد الله وعلى مرجعه إلى أمّ الكتاب وهو المحكم.

ووصف الآيات بأنّها محكمات وصف للكتاب الّذى أنزل على سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم بكل ما يترتب على كون الآيات محكمات وما يلزم منها من كونه مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه وشاهداً له صلّى الله تعالى عليه وسلّم ورقيباً على ما أنزل من قبل ومؤتمناً عليه وهو ناظر إلى قوله تعالى "وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه" الآية.

قال الخازن فى تفسير هذه الآية ما نصّه: قوله عزّ وجلّ وأنزلنا إليك الكتاب. الخطاب للنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم يعنى وأنزلنا إليك يا محمّد القرآن بالحق يعنى بالصدق الّذى لا شك فيه أنّه من عند الله مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب يعنى يصدّق بجميع الكتب الّتى أنزلها الله على أنبياءه ومهيمناً عليه. قال ابن عبّاس يعنى شاهداً على الكتب الّتى قبله. ومنه قول حسّان:

إنّ الكتاب مهيمن لنبيّنا
والحقّ يعرفه ذوو الألباب

يريد أنّه شاهد ومصدّق لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم وإنّما كان القرآن مهيمناً على الكتب الّتى قبله لأنّه الكتاب الّذى لايُنسخ ولايُغيّر ولايُبدّل وإذا كان القرآن شاهداً كان شهادته على التوراة والإنجيل والزبور وجميع الكتب المنزّلة حقّاً وصدقاً. وقيل المهيمن الأمين. وإنّما كان القرآن أميناً على الكتب الّتى قبله فيما أخبر أهل

الكتاب عن كتبهم فإن قالوا ذلك في القرآن فقد صدقوا وإلّا فلا۔ (تفسیر الخازن ۲۹۳،۲۹۲/۲)

قال الأزهری: ومن هنا یعلم أنّ القرآن حاکم علی غیره من الکتب بمعنی أنّه مظهر لما أخفاه أهل الکتابین وأنّ حکمه صلّی الله تعالی علیه وسلّم نافذ فیهم فهو الناسخ لشریعة من قبله. ویؤیّد ذلك ما رُوی عن الکلبی عن أبی صالح عن ابن عبّاس رضی الله تعالی عنهما: أنّ رجلاً وامرأة من خیبر زنیا. وکان فی کتابهم الرجم فکرهوا رجمهما لشرفهما فیهم. فرفعوا أمرهما إلی رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم ورجوا أن یکون عنده رخصة. فحکم علیهما بالرجم. فقال له النعمان ابن أوفی وبحری ابن عمروك جُرتَ علیهما یا محمّد لیس علیهما الرجم. فقال رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم بینی وبینکم التوراة. فقالوا قد أنصفتنا. قال: فمن أعلمکم بالتوراة؟ قالوا: رجل أعور یسکن فدك یقال له ابن صوریا. فأرسلوا إلیه فقدم المدینة وکان جبریل قد وصفه لرسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم. فقال له رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم: أنت ابن صوریا؟ قال: نعم. قال: أنت أعلم الیهود؟ قال: کذلك یزعمون. قال: فدعا رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم بشیء من التوراة [فیها الرجم] فقال له: اقرأ. فلمّا أتی علی آیة الرجم وضع کفّه علیها. وقرأ ما بعدها علی رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم. فقال عبد الله ابن سلام: یا رسول الله قد جاوزها. فقام فرفع کفّه عنها. ثمّ قرأ علی رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم وعلی الیهود بأنّ المحصن والمحصنة إذا زنیا وقامت علیها البیّنة رُجِما. وإن کانت المرأة حبلی تربّص حتّی تضع ما فی بطنها. فأمر رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم بالیهودیین فرُجِما فغضب الیهود لذلك وانصرفوا. فأنزل الله عزّ وجلّ (ألم تر إلی الّذین أوتوا نصیباً من الکتاب التوراة حظاً من الکتاب یدعون إلی کتاب الله لیحکم بینهم ثمّ یتولّی فریق منهم وهم معرضون) (آل عمران: ۲۳) (معالم التنزیل تحت تفسیر الآیة المذکورة)

وروی الطبری بسنده عن ابن زید کان فی حکم حیی ابن أخطب للنضیری دیتان والقرظی دیة لأنّه کان من النضیر. قال: وأخبر الله تعالی نبیّه صلّی الله تعالی علیه وسلّم بما فی التوراة. قال: (وکتبنا علیهم فیها أنّ النفس بالنفس) إلی آخر الآیة. قال: فلمّا رأت ذلك قریظة لم یرضوا بحکم ابن أخطب. فقالوا نتحاکم إلی محمّد صلّی الله تعالی علیه وسلّم. فقال الله تبارك وتعالی (فإن جاءوك فاحکم بینهم أو أعرض عنهم) فخیّره (وکیف یحکّمونك وعندهم التوراة حکم الله) الآیة کلّها. قال: وکان الشریف إذا زنی بالدنیّة رجموها هی وحمّموا وجه الشریف أی سوّدوه وحملوه علی البعیر وجعلوا وجهه من قبل ذنب البعیر وإذا زنی الدنیّ بالشریفة رجموه وفعلوا بها هی ذلك. فتحاکموا إلی النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم فرجمها. قال: وکان النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم قال لهم من أعلمکم بالتوراة؟ قالوا فلان الأعور. فأرسل إلیه. فأتاه. قال: أأنت أعلمهم بالتوراة؟ قال کذلك تزعم الیهود. قال له النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم أنشدك بالله وبالتوراة الّتی أنزلها علی موسی یوم طور سیناء. ما تجد فی التوراة فی الزانیین؟ فقال: یا أبا القاسم یرجمون الدنیّة ویحملون الشریف علی بعیر ویحمّمون وجهه ویجعلون وجهه من قبل ذنب البعیر ویرجمون الدنیّ إذا زنی بالشریفة ویفعلون بها هی ذلك فقال له النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم أنشدك بالله وبالتوراة الّذی أنزلها علی موسی یوم طور سیناء ما تجد فی التوراة فجعل یروغ أی یذهب یمنة ویسرة بسرعة فی خدیعة والنبیّ صلّی الله تعالی علیه وسلّم ینشده بالله وبالتوراة الّتی أنزلها علی موسی یوم طور سیناء حتّی

قال يا أبا القاسم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة. فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فهو ذاك. اذهبوا بهما فارجموهما. قال عبد الله فكنت فيمن رجمهما فما زال يُجْنِئ عليها ويقيها الحجارة بنفسه حتّى مات. (قوله يجنئ عليها: أكبّ عليها ومال ليقيها. (الطبری ۱۰/۳۲۸،۳۲۶)

قوله فى الرواية الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما كما هو آية من التوراة كذلك هو آية من القرآن نسخت تلاوته دون حكمه.

تتمّة فى بيان ما بقى من الإعراب وشرح الكلمات: قوله فما يبقين الفاء للنتيجة ويبقين جمع مؤنّث من الإبقاء بمعنى الدوام ومن زائدة وشبه جمع شبهة والشبهة ما يشبه الثابت وليس بثابت. وقوله لذى شقاق ظرف مستقرّ صفة شبه أو متعلّق بيبقين والشقاق الخلاف أى فما تبقى هذه الآيات المحكمات من شبه لذى شقاق وهو الكافر لأنّه مشاقّ للدين إذ هو فى شقّ والإسلام فى شقّ بل تزيلها. ولايبغين من حكم أى لايطلبن حكماً آخر. والحكم بفتحتين بمعنى الحاكم أى القرآن لا يحتاج إلى حاكم آخر فوقه ولايرد الحديث فإنّه مسند إلى الكتاب وكذا الإجماع والقياس فإنّهما محتاجان إلى أحدهما وقرء حكم بكسر وفتح على أنّه جمع حكمة فالمعنى أنّ القرآن لايحتاج إلى حكم زائدة لوضوح قوانينها بل جميع الحكم والقواعد مأخوذة منه. وقوله لايبغين معناه لايطلبن كما تقدّم ومن زائدة أو ما يظلمن من حيث هى حاكمة فمن لإفادة التمييز فإنّها حاكمة بالفصل والعدل لا غير. وفى هذا البيت صنعة تلميح إلى قوله تعالى (هو الّذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) الآية. وجناس كامل بين يبقين ويبغين.

هذا وقد قال العلّامة الخرفوتى ما نصّه: ثمّ إنّه روى عن علىّ رضى الله تعالى عنه أنّه عليه الصلاة والسلام قال أنزل القرآن على عشرة أقسام بشيراً ونذيراً. وناسخاً ومنسوخاً. محكماً ومتشابهاً. وموعظة ومثلاً. وحلالاً وحراماً. فمن أبشر بتبشيره ونذر بنذيره وعمل بناسخه وآمن بمنسوخه واقتصر على محكمه وردّ متشابهه إلى محكمه واتعظ بعظته واعتبر بمثله وأحلّ حلاله وحرّم حرامه فأولئك من المؤمنين حقّاً لهم الدرجات العلى مع النبيّين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً وهو وارثى ووارث الأنبياء قبلى ولايزال فى كنفه تعالى وحيثما تلا القرآن غشيته الرحمة ونزلت عليه السكينة ويحشر فى زمرتى وتحت لوائى اللّهم ارزقنا حسن الختام والحشر مع النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. (الخرفوتى ص۱۵۶)

رقم البيت (۹۵)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. بحول الله نأخذ فى شرح البيت الثامن من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قال الناظم الفاهم:

ما حوربت قطّ إلّا عاد من حرب أعدى الأعادى إليها ملقى السلم

لمّا فرغ الناظم الفاهم من وصف الآيات من حيث المعانى وسبق منه أن وصفها بكونها معجزة مستمرّة فيما

مرّ من قوله دامت لدینا. والمعجزة كما تقرّر أمر خارق للعادة يصدر على يد مدعي النبوّة مقروناً بالتحدّي. أراد أن يعلم أنّه قد وقع التحدّي بالكتاب بالفعل وطولبوا بالمعارضة فعجزوا عن آخرهم كما هو معلوم من قوله تعالى "وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا" الآية. أنشأ الناظم الفاهم يقول: ما حوربت قطّ إلّا عاد من حرب أعدى الأعادي إليها ملقي السلم

قال الرازي عند تفسيره لهذه الآية ما نصّه: اعلم أنّ التحدّي بالقرآن جاء على وجوه: أحدها قوله: (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى). وثانيها قوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا). وثالثها قوله (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات). ورابعها قوله (فأتوا بسورة من مثله). (تفسير الرازي ۱/۳۹۲)

شرح الغريب و بيان الإعراب: ما حوربت من المحاربة أي ما عورضت فالمراد من المحاربة المعارضة على وجه التشبيه بجامع المخالفة وطلب الغلبة وعدم الانقياد وفيه استعارة تصريحيّة تبعيّة جرت في المصدرين ثمّ اشتق من المحاربة حوربت ومن المعارضة عورضت و أطلق حوربت وهو المشبّه به و أريد عورضت. وقطّ ظرف زمان للماضي على سبيل الاستغراق ولا يستعمل إلّا في النفي وإلّا الاستثناء مفرّغ والمستثنى منه محذوف أي ما حوربت قطّ في حال من الأحوال إلّا حال كونها عاد إليها أعدى الأعادي ملقي السلم. وعاد إمّا بمعنى رجع أو بمعنى صار فهو من الأفعال الناقصة. ومن ابتدائية أو تعليليّة ومن حرب متعلّق بعاد. والحرب بفتحتين أي من شدّة والمراد شدّة بلاغتها مجازاً وهو في الأصل سلب المال و يلزمه الشدّة فهو من إطلاق الملزوم وإرادة اللّازم أي حربه حَرَبا: سلبه جميع ما يملك. ويحتمل أن يكون المراد به سلب الحجّة التي هي كالمال لأنّ الشخص يخاف على حجّته أن تدحض وتضمحلّ فيفتضح كما يخاف على ماله والمراد بقوله ما حوربت قطّ إلّا عاد من حرب سرعة الانهزام حتّى كأنّه مقارن. وأعدى مرفوع تقديراً واسم عاد بمعنى صار على الوجه الثاني. والأعدى اسم تفضيل من العداوة والأعادي جمع أعداء وهي جمع عدو فهي جمع الجمع. وإليها جار مجرور متعلّق بعاد أو متعلّق بملقي السلم وملقي السلم منصوب على أنّه حال على الأوّل أو على أنّه خبر على الوجه الثاني. ومعنى السلم بفتحتين السلاح أو الاستسلام والانقياد. وفي التنزيل (وألقوا إليكم السلم) أي الاستسلام والانقياد.

والمعنى ما عارض الآيات أحد قطّ إلّا وقد رجع عن معارضتها لأجل كمال بلاغتها وفصاحتها أكبر المعارضين وأقوى المعاندين حال كونه ملقياً آلة المعارضة وملغياً حالة المعاندة ومسلماً لها ظهور المعجزة وخرق العادة. ثمّ اعتراء الروعة للمعارضين وعجز معارضة المعاندين هل هو ممّا يعجز عنه قدرة البشر لاشتماله على جزالة الألفاظ وحسن المعاني من كمال فصاحته و كونه في أعلى طبقات البلاغة فيكون كإحياء الموتى وقلب الحصى وتسبيح الحصى أو بصرف همّتهم وأنّ المعارضة كانت في مقدورهم ففيه اختلاف أئمّة أهل السنّة والجمهور على الأوّل وعليه المعوّل والثاني مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه. وعلى القولين تركت العرب المعارضة بما هو مقدورهم أو ما هو من جنس مقدورهم لعجزهم عن الإتيان بمثله. كذا في الزبدة للعلّامة على القاري. (الزبدة ص۸۸)

وروى أنّ الوليد ابن المغيرة كان بين قريش في غاية الفصاحة. فجاء إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم ذات يوم لقصد المعارضة في البلاغة. فقال للنبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم اقرأ عليّ فقرأ عليه قوله تعالى (إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) الآية. فاستعاده فأعاده صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فقال والله إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق ما يقول هذا بشر وسكت وقام من المجلس ولم يقل شيئاً غير هذا.

وحكي عن يحيى ابن حكيم أنّه رام شيئاً من المعارضة للقرآن فنظر في سورة الإخلاص ليأتي بمثلها أو ينسج بزعمه على منوالها فاعترته روعة وهيبة من الله فتاب وعاد عن نيّته.

وروى أنّهم أتوا سورة القارعة بنظيره في زعمهم وهي قولهم الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب قصير وخرطوم طويل إنّ ذلك من خلق الله لقليل ولقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) بقولهم القتل أنفى للقتل. ثمّ تفكّروا ووجدوا في قولهم نقائص كثيرة فبعد التفكّر بهتوا وسُخِّروا تسخيرا. تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً. (خرفوتي ص١٥٨).

رقم البيت (٩٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

شروع في شرح البيت التاسع من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

ردّت بلاغتها دعوى معارضها

ردّ الغيور يد الجاني عن الحُرُم

لمّا بين الناظم الفاهم في البيت السابق أنّ نظم القرآن معجز يردّ معارضه ويصرفه عن المعارضة ويلجئه إلى أن يعود إليه مستسلماً منقاداً أراد أن يفيد جهة الإعجاز في نظم القرآن فأنشأ يقول:

ردّت بلاغتها دعوى معارضها

ردّ الغيور يد الجاني عن الحرم

فالجملة استينافية بيان لعلّة مضمون البيت قبله أو وصف آيات. وردّت أبطلت وصرفت بلاغتها فاعل ردّت والبلاغة في اللّغة تنبئ عن معنى الوصول إلى النهاية وإدراك الغاية وفي الاصطلاح كون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال مع الفصاحة الّتي هي الخلوّ عن الحشو والتعقيد والغرابة. وفي المتكلّم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ. والضمير في معارضها راجع إلى البلاغة أو إلى الآيات. وآثر بلاغتها على التعبير بفصاحتها لأنّ البلاغة أخصّ فيستغني عن التعبير بالفصاحة لأنّ البلاغة تقارن الفصاحة ولاعكس والدعوى هي في الأصل طلب شيء يظنّ أنّه حقّ وغلب استعماله في الباطل. ومعارضها أي المتصدّي لإتيان مثلها ردّ مصدر منصوب على أنّه صفة لموصوف محذوف أي ردّاً مثل ردّ الغيور والغيور شديد الغيرة وهو صفة موصوف محذوف أي ردّ الرجل الغيور.

وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم إنّ الله يغار وإنّ المؤمن يغار. وقد جاء أيضاً فى الخبر أنّ الله غيور يحبّ الغيور. والغيرة فى الأصل كراهية مشاركة الغير فى حق من الحقوق وغيرة الله منعه عبده من الإقدام على الفواحش وغيرة المؤمن هيجان وانزعاج فى قلبه يحمله على منع الحريم من الفواحش ومقدّماتها. (الخرپوتی ص١٥٩)

يد الجانى مفعول ردّت والمراد باليد التعرّض أو التصرّف من إطلاق السبب على المسبّب. الجانى اسم فاعل من الجناية وهو الجرم والحرم يجوز فيه الأوجه الثلاثة أوّلها فتح الحاء وفتح الراء حَرَم. وضمّ الحاء وضم الراء حُرُم. وضمّ الحاء وفتح الراء حُرَم. وعن الحرم متعلّق بردّت. والضمير فى ردّت راجع إلى الآيات. وفى معارضها راجع إلى البلاغة أو إلى الآيات.

والمعنى ردّت ورفعت الآيات القرآنية وفصاحة الكلمات الفرقانية دعوى معارضها فضلاً عن ظهور معارضتها ووقوع مقابلتها مثل ردّ الموصوف بكمال الغيرة المنعوت بشدّة الحميّة يد الجانى وتصرّف الخائن الباغى عن أن يحوم حول حرمه وعن الوصول إلى حصول حرمه.

قال الخرفوتى ثمّ اعلم أنّه حكى أنّ ابن المقفّع وكان أفصح أهل وقته طلب المعارضة للقرآن ونظم كلاماً وجعله مفصّلاً وسمّاه سوراً. فمرّ يوماً على مكتب يقرأ فيه صبيّ قوله تعالى (يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى) الآية. فقال إنّ هذا لا يعارض أبداً وما هو من كلام البشر. (الخرپوتی ص١٥٩)

قال العلّامة الباجورى وظاهر كلام المصنّف أنّ إعجاز القرآن لبشر عن الإتيان بمثله بسبب ما اشتمل عليه من البلاغة الّتى لم يصلوا إليها وعلى ذلك فالقرآن ليس هو من جنس مقدورهم وهو قول الجمهور. والقول الثانى أنّه من جنس مقدورهم لكنّ الله تعالى صرفهم عن الإتيان بمثله ولذلك يسمّى بقول الصرفة وهو أدخل فى الإعجاز لأنّ عجزهم عمّا هو من جنس مقدورهم أدخل فى قيام الحجّة عليهم من عجزهم عمّا هو ليس من جنس مقدورهم لكنّه يلزم عليه أنّ إعجاز القرآن ليس هو بنفسه بل بالصرفة فيكون غير معجز بنفسه فالحق القول الأوّل. (حاشية الباجورى ص٥٣)

وأشار الناظم الفاهم بذلك إلى قصّة مسيلمة الكذّاب الّذى عارض القرآن بزعمه لمّا ادّعى النبوّة وزعم أنّ جبريل جاءه به فقال يقصد المعارضة لسورة والنازعات: والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً فافتضح لا بارك الله فيه.

رقم البيت (٩٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فلمّا فرغنا من شرح الأبيات التسعة من الفصل السادس من قصيدة البردة حان لنا أن نشرح البيت العاشر من هذا الفصل بحول الله وهو قول الناظم الفاهم :

لها معان كموج البحر فى مدد
وفوق جوهره فى الحسن والقيم

هذا كما ترى عود من الناظم الفاهم على ما بدأ من وصف المعانى بعد ما تخلّله من وصف نظم القرآن فلا يزال الناظم الفاهم يستطرد فى وصف المعانى منذ البداية فى تفنّن فتارة يصفها والكلمة مجتمعة كما صنع فى قوله دامت لدينا وأخرى يفردها بالذكر عن الكلم حيناً يجمل وفى حين آخر يفصل ويقرن التأكيد بتأسيس وإفادة لمعنى جديد كما هو ظاهر من صنيعه فى هذا البيت. ومعنى البيت مقتبس من قوله سبحانه وتعالى "قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّى ولو جئنا بمثله مددا". وقد تكلّمنا فيما سبق على هذه الآية وبيّنا وجهاً فى قوله تعالى "كلمات ربّى" عند قول الناظم الفاهم (نبيّنا الآمر الناهى فلا أحد أبرّ فى قول لا منه ولا نعم) فتذكّر. وفيه وجوه أخر تناسب المقام فنقدّم بين يدى شرح الكلمات وبيان الإعراب تفسير هذا القول الكريم فنقول: قال فى روح البيان ما نصّه: قل لو كان البحر أى ماء البحر مداداً لكلمات ربّى أى لكلمات علمه وحكمته يعنى لمعلوماته وحكمه فتكتب من ماء البحر كما تكتب من المداد والحبر. (روح البيان).

قال فى تفسير الجلالين: "لكلمات ربّى" أى لكتابتها وهى حكمه وعجائبه والكلمات هى العبارات عنها. لنفد البحر يعنى ماء جنس البحر بأسره مع كثرته ولم يبق فيه شىء لأنّ كلّ جسم متناهٍ قبل أن تنفد كلمات ربّى أى من غير أن تفنى معلوماته وحكمه فإنّها غير متناهية لا تنفد كعلمه فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر. وإنّما اختار جمع القلّة على الكثرة وهى الكلم تنبيهاً على أنّ ذلك لا يقابل بالقليل فكيف بالكثير. ولو جئنا بمثل البحر الموجود يعنى بماءه مدداً أى زيادة ومعونة أى لنفد أيضاً والكلمات غير نافدة لعدم تناهيها. (جلالين)

قلت ممّا تقدّم ظهر أن قوله قبل مجاز وكناية عن نفاد البحر دون أن تنفد كلمات الله. وهذا المعنى يستبين بقول الله سبحانه وتعالى: "ولو أنّ ما فى البحر من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله". فاستبان المراد بنفس القرآن والقرآن يفسّر بعضه بعضاً. ويحتمل أن يقدّر مضاف قبل كلمات الله يقتضيه المقام فيقال التقدير قبل أن تنفد كتابة كلما ت الله كما صنع فى الجلالين عند قوله "لكلمات ربّى" حيث قال "لكلمات ربّى" أى لكتابتها اھ. كما تقدّم وعلى هذا فكلمة قبل على حقيقته وليس مجازاً كما لا يخفى. والحقّ أنّ الكلام خرج مخرج الفرض والتقدير والمعنى على هذا لو جاز أن تكتب كلمات الله بعد الوقوف على حقيقتها وكان البحر مداداً يمدّه سبعة أبحر والشجر أقلاماً لنفد البحر والأقلام والكتاب قبل أن يصلوا إلى نهاية ما أقبلوا عليه من الكتابة وعلى هذا فلا إشكال ولا حاجة إلى ادّعاء الحذف. وفى البيت إشارة إلى قدم الآيات ففيه تأكيد مشتمل على تأسيس معنى جديد. قال فى التأويلات النجميّة أى لو أنّ ما فى الأرض من الأشجار أقلام والبحر يصير مداداً وبمقدار ما يقابله ينفق القرطاس ويتكلّف الكتّاب حتّى تنكسر الأقلام وتفنى البحار وتستوفى القراطيس ويفنى عمر الكتّاب ما نفدت معانى كلام الله تعالى لأنّ هذه الأشياء وإن كثرت فهى متناهية ومعانى كلامه لا تتناهى لأنّها قديمة والمحصور لا يفى بما لا حصر له انتهى.

وفى الآية إشارة ظاهرة إلى قدم القرآن فإنّ عدم التناهى من خاصية القديم وجاء فى حقّ القرآن (ولا تنقضى

عجائبه) أی لا ينتهی أحد إلی كنه معانيه العجيبة وفوائده الكثيرة. وفی الآية إشارة أيضاً إلی أنّ كلمات الحكماء الإلهية وعلومهم لا تنقطع أبداً لأنّها من عيون الحكمة كما أنّ ماء العين لا ينقطع عن عينه و كيف ينقطع وحكمة الحكيم تلقين من ربّ العالمين وفيض من خزائنه وخزائنه لا تنفد كما دلّت عليه الآية. ولبعض العارفين تجلّی برقی يعطی فی مقدار طرفة عين من العلوم ما لا نهاية له وإذا كان حاله هذا فی جزء يسير من الزمان فما ظنّك بحاله فی مدّة عمره. (روح البيان ص۹۵)

قال العلّامة الباجوری: قوله لها معانٍ أی لتلك الآيات معان كثيرة لا نهاية لها بل يمدّ بعضها بعضاً كما أشار إليه بقوله كموج البحر فی مدد أی مثل موج البحر فی كونه يمدّ بعضه بعضاً إذ ما من موجة إلّا وبعدها موجة وهكذا وأشار بذلك إلی قول بعضهم أقلّ ما قيل فی العلوم الّتی فی القرآن من ظواهر المعانی المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمان مائة علم. (الباجوری ص۵۴)

قال الأزهری: وقد جاء الإمام الهمام جدّنا الفذّ شيخ الإسلام أحمد رضا فی تعليقه علی رسالته الفذّة فی علم النبی صلّی الله تعالی عليه وسلّم المسمّاة بالدولة المكّية بالمادة الغيبيّة بتفصيل جليل وتقرير جميل لما اشتمل عليه القرآن من عجائب لا تنقضی فقال ما نصه: قال الإمام الجليل السمين فی تفسيره ثمّ العلّامة الجمل فی الفتوحات الإلهية تحت قوله تعالی "ما فرّطنا فی الكتب من شیء" (الأنعام: ۳۸) ما نصّه: اختلفوا فی الكتاب ما المراد به؛ فقيل اللّوح المحفوظ. وعلی هذا فالعموم ظاهر. لأنّ الله تعالی أثبت ما كان وما يكون فيه. وقيل القرآن. وعلی هذا فهل العموم باق؛ منهم من قال نعم. وإنّ جميع الأشياء مثبت فی القرآن إمّا بالتصريح وإمّا بالإيماء. ومنهم من قال: إنّه يراد به الخصوص والمعنی من شیء يحتاج إليه المكلّفون اه.

ولفظ الخازن: وقيل إنّ المراد بالكتاب القرآن يعنی أنّ القرآن مشتمل علی جميع الأحوال اه.

وقال الله تعالی: "تفصيل الكتاب لا ريب فيه" (يونس: ۳۷).

قال فی الجلالين: تفصيل الكتاب تبيين ما كتبه الله تعالی من الأحكام وغيرها. قال فی الجمل: قوله تبيين ما كتبه الله تعالی أی فی اللّوح المحفوظ اه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم فی تفاسيرهما عن سيّدنا عبد الله بن مسعود رضی الله تعالی عنه قال: إنّ الله تعالی أنزل هذا الكتاب تبياناً لكلّ شیء ولقد علمنا بعضاً ممّا بيّن لنا فی القرآن. ثمّ تلا "ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شیء" (النحل: ۸۹).

وأخرج سعيد بن منصور فی سننه وابن أبي شيبة فی مصنّفه وعبد الله ابن الإمام أحمد فی زوائد كتاب الزهد لأبيه وابن الضريس فی فضائل القرآن وابن نصر المروزی فی كتابه "فی كتاب الله" والطبرانی فی المعجم الكبير والبيهقی فی شعب الإيمان عنه رضی الله تعالی عنه قال: من أراد العلم فليثوّر القرآن فإنّ فيه علم الأوّلين والآخرين. وفی قوله رضی الله تعالی عنه "فليثور" ردّ أيّما ردّ علی العميان الّذين يقولون ما نری فی القرآن إلّا أحرفاً يسيرة فی أوراق عديدة أنّی تحتمل ما كان وما يكون. ولعمری ما شبّهت قول هؤلاء الطاعنين الطاغين إلّا بقول المشركين قبله "كيف يسع العالمين إله واحد" وقد بيّنت ذلك بحمد الله تعالی تبعيداً للافهام وتقريباً إلی

الأفهام فى رسالتى "إنباء الحى أنّ كلامه المصون تبيان لكلّ شىء" (۱۳۲٦) وحسبك (ذكره الإمام السيوطى فى الثامن والسبعين من الإتقان عن الإمام ابن سبع فى شفاء الصدور قال: وقد قال بعض العلماء ۱۲منه حفظه جديدة) ما نقل العلّامة القارى فى المرقاة قال: قال بعض العلماء: لكلّ آية ستّون ألف فهم. وعن على كرّم الله تعالى وجهه: لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير القرآن لفعلت اھ. (هكذا ذكره الإمام السيوطى عن الإمام الأجلّ العارف ابن أبى جمرة عن على كرّم الله تعالى وجهه ولفظه أنّه قال: لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من أمّ القرآن لفعلت اھ فظاهر سقوط لفظ "أم" من عبارة القارى عن قلم الناسخ ۱۲منه حفظه جديدة).

ولفظ العلّامة إبراهيم البيجورى فى شرح البردة فى الأوّل: لكلّ آية ستّون ألف فهم وما بقى من فهمها أكثر، ولفظه فى أثر أمير المؤمنين: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير الفاتحة اھ.

وفى اليواقيت والجواهر لسيّدى الإمام عبد الوهاب الشعرانى عن الإمام الأجلّ أبى تراب النخشبى: أين هؤلاء المنكرون من قول على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه: لو تكلّمت لكم فى تفسير الفاتحة لحملت لكم سبعين وقراً اھ.

وفى شرح العشماوى لصلاة سيّدى أحمد الكبير رضى الله تعالى عنه عن سيّدى عمر المحضار: لو أردت أن أملى من تفسير "ما ننسخ من آية" (البقرة: ١٠٦) حمل مائة ألف جمل وما ينفد تفسيرها لفعلت.

وفيه عن بعض الأولياء من بيت أبى فضل: وجدنا تحت كلّ حرف من القرآن أربع مائة ألف لك من المعانى، وكلّ حرف منه له معانٍ فى موضع غير المعانى الّتى له فى موضع آخر.

قال وقال سيّدى على الخوّاص نفع الله به: إن الله تعالى أطلعنى على معانى سورة الفاتحة فظهر لى منه مائة ألف علم وأربعون ألف علم وتسعمائة وتسعون علماً اھ.

وفى الزرقانى على المواهب: ذكر الغزالى فى كتابه فى بيان العلم اللّدنّى قول على رضى الله تعالى عنه: لو طويت لى وسادة لقلت فى الباء من بسم الله سبعين جملا اھ.

وفى ميزان الشريعة الكبرى للإمام الشعرانى: قد استخرج أخى أفضل الدين من سورة الفاتحة مأتى ألف علم وسبعة وأربعين ألف علم وتسعمائة وتسعة وتسعين علماً، ثمّ ردّها كلّها إلى البسملة، ثمّ إلى الباء، ثمّ إلى النقطة الّتى تحت الباء، وكان رضى الله تعالى عنه يقول: لا يكمل الرجل عندنا فى مقام المعرفة بالقرآن حتّى يستخرج جميع أحكامه وجميع مذاهب المجتهدين فيها من أى حرف شاء من حروف الهجاء اھ. قال ويؤيّده فى ذلك قول الإمام على رضى الله عنه: لو شئت لأوقرت لكم ثمانين بعيراً من علم النقطة الّتى تحت الباء اھ.

أقول وبأمثال هذه تظهر حقيقة قول سيّدنا عبد الله بن عبّاس رضى الله تعالى عنهما: لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله. رواه عنه أبو الفضل المرسى كما فى الإتقان، فمن ضيق العطن بل بعض الظنّ تحويله إلى أنّ المعنى لوجد فى القرآن ما يرشده إلى طريق وجدانه. وهذا الإمام الجليل الجلال السيوطى رحمه الله تعالى قائلاً فى النوع الثالث والأربعين من الإتقان: قال الجوينى: واستخرج بعض الأئمة من قوله تعالى "الم غلبت الروم" (الروم: ١،٢) أنّ البيت المقدس يفتحه المسلمون فى سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة ووقع كما قال اھ.

أقول فتح بيت المقدس ۵۸۳سنة معلوم وفيها ذكره المؤرخون كابن أثير في الكامل. أمّا الجويني فقد تقدّم حتفه على فتحه بنحو من مائة وخمسين سنة فضلاً عن الإمام الّذى حكى عنه الجويني هذا الاستخراج. قال ابن خلكان: أبو محمّد الجويني توفّي في ذي القعده سنة ثمان وثلاثين كذا قال السمعاني في كتاب الذيل. وقال في الأنساب: سنة أربع وثلاثين وأربع مائة بنيسا بور اهـ.

فجملة "ووقع كما قال" من كلام الإمام السيوطي لا الإمام الجويني رحمهما الله تعالى. فسبحان من أكرم هذه الأمّة بنبيّها صلّى الله تعالى عليه وعليها وبارك وسلّم. ولعمري لو قيل لهؤلاء أخبروا كيف استخرج هذا من قوله تعالى "ألم غلبت الروم" لحاروا و ما أحاروا بشيء أصلاً. فكيف نحكم بجهلنا على علم حبر الأمّة الّذى دعا له النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم "اللّهمّ علّمه الكتاب".

وقد أخرج ابن سراقة في كتاب الإعجاز عن الإمام أبي بكر بن المجاهد. قال: ما من شيء في العالم إلّا وهو في كتاب الله تعالى اهـ.

وفي الطبقات الكبرى من ترجمة سيّدي إبراهيم الدسوقي رضي الله تعالى عنه كان يقول: لو فتح الحق تعالى عن قلوبكم أقفال السدد لاطلعتم على ما في القرآن من العجائب والحكم والمعاني والعلوم. واستغنيتم عن النظر في سواه فإنّ فيه جميع ما رقم في صفحات الوجود. قال تعالى "ما فرّطنا في الكتب من شيء" (الأنعام: ۳۸) اهـ.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهما عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى "ما فرّطنا في الكتب من شيء" قال: لم يغفل الكتاب ما من شيء إلّا هو في ذلك الكتاب. و روى الديلمي في مسند الفردوس عن أنس رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثور القرآن. وقد قدّمناه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه. فبه بدأنا وبه ختمنا. (الدولة المكية)

شرح الغريب وبيان الإعراب: قوله لها معان لها ظرف مستقرّ خبر مقدّم قدّمه لإفادة الحصر وللاهتمام وتخصيص المبتدأ الّذى هو نكرة. ومعان مبتدأ مؤخر مرفوع بضمّة مقدّرة على الياء والتنوين عوض عن الياء المحذوفة على الأصحّ من الخلاف أهو عوض عن الياء. أم عن الضمة أم للصرف. والتنوين للتعظيم والقرينة عليه قوله "كموج البحر في مدد" والموج مصدر ماج البحر أي اضطرب ويقال لما يعلو من غوارب الماء أي أعالي موجه كنى به عن الكثرة وعدم النهايه والمدد بفتح أوليه كالمداد. ما يمد به الشيء كالحبر للدواة والنصرة والعون فان كل موج في البحر يمد موجاً آخر و كذلك القرآن يفسر بعضه بعضاً ويمدّ بعضه بعضاً ويجوز كونه من المد المقابل لجزر البحر اى ازديأده وحينئذ ففي الكلام مضاف اى في وقت مده و فوق ظرف ملازم النصب في محل الرفع صفة بعد صفة للآيات والتقدير وللآيات معان كانت وثبتت فوق اوصفة لمعان مرفوعا الى الابتداء والضمير في جوهره للبحر وفي الحسن متعلق بالزيأدة التى تضمنها لفظ فوق والقيم بكسر القاف وفتح الياء جمع قيمة.

يعني للآيات البيّنات الموصوفات بالمعجزات مع قطع النظر عن فصاحتها وبلاغتها معان ثابتة كثيرة كموج البحر في الازديأد وعدم النفاد كما قال الله تعالى (قل لوكان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن

تنفد كلمات ربّي) يعني معانيها. أو فى النصرة والإمداد فإنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً كما أنّ الموج يؤيّد بعضه بعضاً ولها معان وأحكام حسنة وحكم مستحسنة فوق جواهر البحرين نحو اللؤلؤ والمرجان فى الحسن والقيمة عند أرباب البصيرة وأصحاب الخبرة. كذا قال القارى فى الزبدة۔ (الزبدة ص٨٩)

رقم البيت (٩٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين۔

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الحادي عشر من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

فلا تعدّ ولاتحصي عجائبها
ولاتسام على الاكثار بالسأم

وإذ قد شبه الناظم الفاهم الآيات بموج البحر فى الكثرة ووصفها بالتفوق على جوهر البحر فى البهاء والقيمة انطلق يصرح بما يترتب على التشبيه ۔ والتنويه بشأن الآيات بوصف النبي صلى الله تعالى وعليه وسلم فانشأ يقول:

فلا تعدّ ولاتحصي عجائبها
ولاتسام على الاكثار بالسأم

فجاء بماذكر فى الشطرين على وجه النتيجة مع زيادة الاحتراس ودفع ماعسى ان يتوهم من نهاية المعانى بتشبيهها بالموج فان الموج ينفد كما احترس فى الشطر الثانى عن توهم الملالة وعدم الرغبة فيها من الكثرة كما يزهد الرجل فى الجوهر لكثرته اوغلاء قيمته. فانشأ يقول:

فلا تعد ولاتحصي عجائبها
ولاتسام على الاكثار بالسأم

الفاء للنتيجة ۔ وعد الشيء يكون اذا كان واحدا واحدا والاحصاء جملة جملة ۔ والعجيبة المعجبة وهى مايتعجب منها والعجاب بالتخفيف والتشديد والأعجوبة بمعنىً والضمير فى عجائبها لآيات القرآن يعنى أنّ الآيات لاتعدّ عجائبها ولاتحصي غرائبها من العلوم الغريبة والأسرار العجيبة والدقائق اللّطيفة فى كلّ حدّ وزمان وجميع وقت وآن۔

فى الزبدة يعنى معانى الآيات لاتدخل تحت العدّ ولا تضبط معانيها العجيبة فى حيّز الحدّ وهى العبر والحكم والآداب والشيم والمواعظ والبراهين والعوارف والمعارف والترغيب والترهيب والوعد والوعيد والأحكام والأمثال إلى غير ذلك. ولا تعرض الملالة بكثرة التلاوة هو المسك ما كرّرته يتضوّع. وفى الحديث لا يخلق عن كثرة الردّ ولاتفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولايشبع منه العلماء۔ (الزبدة ص٩٠)

ولاتسام أى لاتترك من سام السائمة إذا تركت على حالها ويجيء هذا الفعل لازماً ومتعدّياً قال فى المعجم: سامت الماشية: رعت حيث شاءت ودامت على الكلأ. والإبلَ ونحوَها فى المرعى: خلّاها ترعى. والإنسان ونحوه ذلّاً أو خسفاً أو هواناً: أولاه إيّاه وأراده عليه. أو بمعنى ولايقاس منها ولايتعب فالضمير على كلا الوجهين راجع إلى الآيات. وعلى الإكثار متعلّق بتسام وعلى بمعنى مع كما فى قوله تعالى "ويطعمون الطعام على حبّه" الآية. والإكثار الإتيان من الشيء بالكثير والألف واللّام عوض عن المضاف إليه أى إكثارها. وقوله بالسأم الباء لإفادة السبب متعلّقة بلا تسام. والسأم بفتحتين السأمة والملالة وهومصدر سئم يسأم سامة وسآما أى ملّ يملّ ملالة وملّاً.

قال بعض الحكماء: لكلّ آية سبعون معنىً. وعن ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما أنّ هذا القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لاتنقضى عجائبه. ولا تبلغ غايته. ولايملّ قارئه. ولايسأم من تكرار تلاوته واستماعه. ولايذهب رونقه وبهجته كما فى كلام الخلائق. بل كلّما ازداد التكرار ازداد الحسن. ولا تتغيّر حروفه بتكرار التلاوة والتدريس من العلماء والأعراب والأعجام. بل يردّ الخطأ إلى الصواب كما فى حديث الجامع الصغير (إذا قرأ القارء فأخطأ ولحن أوكان أعجمياً كتبه الملك كما نزل) وفى معنى هذا البيت قول الشيخ أبى القاسم الشاطبى فى وصف القرآن ولله درّه:

هو خير جليس لا يملّ حديثه وترداده يزداد فيه تجمّلاً (الخرفوتى ص١٦١)

وبالجملة إذقد بلغت الآيات فى الحسن والإعجاب فلا تسام بالملل كمن كرّر قراءته و كثّر تلاوته لكمال حسن موقعها من القلوب فشأنها كما قيل بالنسبة لعين القلب: يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

وبهذا القدر تمّ شرح البيت الحادى عشر من الفصل السادس من قصيدة البردة. ولله الحمد أوّلاً وآخراً. وصلّى الله تعالى على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

رقم البيت (٩٩،١٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثانى عشر والثالث عشر من الفصل السادس من قصيدة البردة. وهو قول الناظم الفاهم:

قرّت بها عين قاريها فقلت له
لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم

وقوله:

إن تتلها خيفة من حرّ نار لظى
أطفأت حرّ لظى من وردها الشبم

لايزال الناظم الفاهم يستطرد فى وصف القرآن ويذكر فضائله فى تفنّن فيذكّر فضيلة وينتهى إلى أخرى حتّى مهّد فى البيت السابق لذكر ما للقرآن من فضائل متعدّية وفوائد عدّة تعود على قاريها والتالى لنظمها والمتّبع لمعالمها والقاصد لمعانيها. والّذى يقريها بحسن إضافتها بكلّ وجه. فأنشأ يقول: قرّت بها عين قاريها البيتين.

فأحصى فى الفضائل ماله على قاريها من سوابغ النعم والفواضل قوله: قرّت فعل ماض من القرّة بمعنى البرودة يقال قرّت عينه تقرّ بالفتح والكسر قيل هو كناية عند العرب عن الراحة لأنّ بلادهم كانت حارّة جدّاً فالراحة عندهم فى البرودة. ويحتمل أن يكون من قرّ قراراً بمعنى ثبت أى ثبتت نفسه. فالمراد بالعين النفس على سبيل المجاز المرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ. قوله قاريها إمّا من قرأ بالهمز وإمّا من قرا بالألف بمعنى أضافه. ويجوز أن يراد بقاريها تابعها وقاصدها من قرأتُ إليه قصدته قوله قارئها سكّنت الهمزة فيه للنظم وأبدلت بالياء هذا على تقدير أن يكون قاريها من قرأ. ويجوز أن يكون معنى قاريها قاصدها وهو من قولهم قرا يقرو قرواً إذا قصده. وقوله بها متعلّق بقرّت والباء للسببيّة. وقوله فقلت له الفاء فصيحة تفصح عن شرط مقدّر أى إذ قرّت بها عين قاريها فقلت له. وقوله لقد ظفرت اللّام توطئة للقسم والمعنى والله لقد ظفرت. وقوله ظفرت فعل ماض على صيغة الخطاب يجوز فيه الوجهان فتح الفاء وكسرها والمعنى فزت ونلت المراد والباء فى قوله بحبل الله متعلّقة بقوله فاعتصم وحبل الله فيه استعارة تصريحيّة وقوله فاعتصم ترشيح للاستعارة وقرينة الاستعارة إضافة الحبل إلى الله والمراد بالحبل الآيات أو عهد الله. وقوله فاعتصم جواب شرط محذوف واعتصم أمر للحاضر من اعتصم والمراد من الاعتصام ههنا هو العمل بموجبها وامتثال أوامرها واجتناب المناهى. وقوله فاعتصم عطف من قبيل عطف الإنشائية على إنشائية قبلها وهو قوله لقد ظفرت وهى الجملة الإنشائيّة القسميّة.

وقوله إن تتلها مندرجة فى مقول القول الّذى مرّ آنفاً من قوله (فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم) وهو كالتفسير للاعتصام. وقوله تتلها فيه وجهان أحدهما أنّه من التلاوة من قولهم تلا يتلو تلاوة والتلاوة بمعنى القراءة أى إن تقرأها. والوجه الثانى أن يكون من تلاه يتلوه بمعنى تبعه تلوة أى إن تتبعها وتعمل بموجبها والكلّ محتمل. والخيفة كالخوف بمعنى الخشية مفعول له أو حال أو تمييز. وقوله من متعلّق به أى بالخيفة. وقوله لظى علم من أعلام جهنّم وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث أو طبقة من طبقاتها. وقال الزمخشرى فى الكشّاف لظى علم النار منقول من اللّظى بمعنى اللّهب الخالص. وفى البيت يقرأ منوّناً وغير منوّن بناء على كونه علماً أو اسم جنس. والتنوين على كونه اسم جنس للتفخيم والتهويل أى لظى لايكتنه كنهه. وقوله أطفأت جزاء الشرط ومن متعلّق بقوله أطفأت. والورد مصدر بمعنى الورود والإشراف على الماء. والمراد ههنا بالورد اسم المكان فالورد بمعنى المورد. والشبم بفتح الشين المعجمة وكسر الباء الموحّدة البارد. وإذا كان الماء البارد موضع الانتفاء يحصل به الراحة والتطهّر والتطهير والحياة أطلق على القرآن الشبم على طريقة الاستعارة كما فى قوله رأيت من فلان صديقاً حميماً والمراد إثبات الصداقة لفلان على طريقة المبالغة والتجريد. كذلك ههنا المراد إثبات أنّ القرآن يشبه المورد البارد على الطريقة المذكورة وفيه وجه آخر وهو أن يكون من قبيل لجين الماء أى

الآيات الّتى هى كالورد لأنّ كلاًّ منهما سبب للحياة فإنّ العلم يشبه الماء فكما أنّ الماء سبب لحياة الأبدان كذلك القرآن سبب لحياة الأرواح بالأولى فقد قيل من صار حيّاً بالعلم لم يمت أبداً۔

وفى البيت تلميح إلى ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال (تركت فيكم ما إن تمسّكتم به فلن تضلّوا أبداً كتاب الله تعالى وسنّة رسوله) صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وبالمناسبة للمقام يجدر بنا أن نسرد ما ورد فى السنّة من فضائل القرآن فنقول: أخرج الترمذى والدارمى وغيرهما عن على سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم يقول ستكون فتن. قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم. وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله. وهو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الّذى لا تزيغ به الأهواء. ولا تلتبس به الألسنة. ولا تشبع منه العلماء. ولا يخلق على كثرة الردّ. ولا تنقضى عجائبه. من قال به صدق. ومن عمل به أجر. ومن حكم به عدل. ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم۔ وأخرج الدارمى من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: القرآن أحبّ إلى الله من السماوات والأرض ومن فيهن۔ وأخرج أحمد والترمذى من حديث شدّاد بن أوس: ما من مسلم يأخذ مضجعه فيقرأ سورة من كتاب الله تعالى إلّا وكّل الله به ملكاً يحفظه فلا يقربه شىء يؤذيه حتّى يهبّ متى هبّ۔ وأخرج الدارمى من حديث عبد الله بن عمرو: من قرأ القرآن فقد استدرج النبوّة بين جنبيه غير أنّه لا يوحى إليه لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من يجد ولا يجهل مع من يجهل وفى جوفه كلام الله۔ وأخرج البزار من حديث أنس: أنّ البيت الّذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره. والبيت الّذى لا يقرأ فيه القرآن يقلّ خيره. وأخرج الطبرانى من حديث ابن عمر: ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ولا ينالهم الحساب هم على كثيب من مسك حتّى يفرغ من حساب الخلائق رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأمّ به قوماً وهم به راضون الحديث۔ وأخرج أحمد وغيره من حديث عقبة بن عامر: لو كان القرآن فى إهاب ما أكلته النار۔ وقال أبو عبيد: أراد بالإهاب قلب المؤمن وجوفه الّذى قد وعى القرآن. وعند الطبرانى من حديث عصمة بن مالك: لو جمع القرآن فى إهاب ما أحرقته النار۔ وعنده من حديث سهل ابن سعد: لو كان القرآن فى إهاب ما مسّته النار۔ وأخرج الطبرانى فى المعجم الصغير من حديث أنس: من قرأ القرآن يقوم به آناء الليل والنهار يُحِلّ حلاله ويُحرّم حرامه حرّم الله لحمه ودمه على النار وجعله مع السفرة الكرام البررة حتى إذا كان يوم القيامة كان القرآن حجّة له۔ وأخرج أبو عبيدة عن أنس مرفوعا: القرآن شافع مشفّع وماجد مصدّق (كذا فى النسخة الّتى عندنا من الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ولعلّه شاهد صدق). من جعله أمامه قاده إلى الجنّة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار۔ وأخرج الطبرانى من حديث أنس رضى الله تعالى عنه: حملة القرآن عرفاء أهل الجنّة۔ وأخرج النسائى وابن ماجة والحاكم من حديث أنس رضى الله تعالى عنه وعن الصحابة أجمعين. قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصّته۔ وأخرج الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة ما من رجل يعلّم ولده القرآن إلّا توّج يوم القيامة بتاج فى الجنّة۔ وأخرج أبو داود وأحمد الحاكم من حديث معاذ بن أنس: من قرأ القرآن فأكمله وعمل به ألبس والده تاجاً يوم القيامة ضوئه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا. لو كانت فيكم فما ظنّكم بالّذى عمل بهذا۔

أقول وقد عبّر عن معنى الحديث الإمام الشاطبي حيث يقول:

هنيئاً مريئاً والداك عليهما
ملابس أنوار من التاج والحلى

فما ظنّكم بالنجل عند جزاءه
أولئك أهل الله والصفوة الملا

قلت: وبهذا يظهر أنّه ينبغي أن يكون لفظ الحديث ألبس والداه بدل قوله ألبس والده.

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد من حديث علىّ: من قرأ القرآن فاستظهره فأحلّ حلاله وحرّم حرامه أدخله الله الجنّة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلّهم قد وجبت لهم النار. وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث جابر: من جمع القرآن كانت له عند الله دعوة مستجابة إن شاء عجّلها في الدنيا وإن شاء ادّخرها له في الآخرة. وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي موسى مثل المؤمن الّذي يقرأ القرآن مثل الأترجّة طعمها طيّب وريحها طيّب. ومثل المؤمن الّذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيّب ولا ريح لها. ومثل الفاجر الّذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيّب وطعمها مرّ. ومثل الفاجر الّذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها.

وعبّر عن هذا المعنى الّذي ورد في الحديث المذكور الإمام الشاطبي حيث يقول:

وقارئه المرضى قرّ مثاله
كالأترجّ حاليه مريحاً وموكلا

وبعد فحبل الله فينا كتابه
فجاهد به حبل العدى متحبّلا

قرّ مثاله أي ثبت مثاله. حاليه أي حلوه. مريحاً أي تجد منه الرائحة الطيّبة. مُوكِلاً أي يؤتى أكله. وقوله متحبّلاً من تحبّلت الدابّة نشبت قوائمها في الحبل. أو هو من تحبّل الصيدَ حبله أي نصب له حبالة وصاده بها.

وأخرج الشيخان من حديث عثمان: خيركم. وفي لفظ: أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه. زاد البيهقي في الأسماء: وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه. وأخرج الترمذي والحاكم من حديث ابن عباس: إنّ الّذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب. وأخرج ابن ماجه من حديث أبي ذرّ: لأنْ تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلّي مائة ركعة. وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس: من تعلّم كتاب الله ثمّ اتّبع ما فيه هداه الله به من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب. وأخرج ابن أبي شيبة من حديث أبي شريح الخزاعي: إنّ هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسّكوا به. وأنّكم لن تضلّوا ولن تهلكوا بعده أبداً. وأخرج الديلمي من حديث علي: حملة القرآن في ظلّ الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه. وأخرج الحاكم من حديث أبي هريرة: يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن يا ربّ حلّه فيلبس تاج الكرامة. ثمّ يقول يا ربّ زده يا ربّ ارض عنه فيرضى عنه. ويقال له اقرأ وارق ويزاد له بكل آية حسنة. وأخرج من حديث عبد الله بن عمر: الصيام والقرآن يشفعان العبد. وأخرج من حديث أبي ذرّ إنّكم لا ترجعون إلى الله بشيء أفضل ممّا خرج منه يعني القرآن.

رقم البيت (١٠١، ١٠٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الرابع عشر والخامس عشر من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

كأنّها الحوض تبيضّ الوجوه به
من العصاة وقد جاء وه كالحمم

وقوله:

وكالصراط وكالميزان معدلة
فالقسط من غيرها فى الناس لم يقم

لمّا انتهى الناظم الفاهم بعد بيان فضائل الآيات المختصّة بها إلى فواضلها وفوائدها الّتى تعود على قارءها فبيّنها جملة فى البيت السابق وأخذ فى تفصيل بعض فوائدها فى البيتين فأنشأ يقول:

كأنّها الحوض البيتين.

والناظم الفاهم اقتبس المعنى الّذى ذكره فى البيتين من الحديث الّذى تقدّم فى فضائل القرآن من انه شافع مشفّع وماحل مصدّق وعبّر عن المعنى المقتبس بما ذكر فى البيت على وجه التشبيه. فأنشأ يقول كأنّها اه.
كأنّ للتشبيه والضمير للآيات. والحوض أى ماءه ففيه حذف مضاف أو أطلق الحوض وأراد به الماء على سبيل المجاز المرسل من إطلاق المحلّ وإرادة الحال والمراد به إمّا جنس الحوض أو المراد به الكوثر وهو نهر فى الجنّة ماءه أشدّ بياضاً من اللّبن وأحلى من العسل وأطيب ذكاء من المسك يجرى على جنادل اللّؤلؤ والمرجان حافّتاه من الذهب ويروى أنّ العاصى بعد ما عُذّب فى النار وأخرج منها وأدخل الجنّة محترقاً مسوداً فيشرب من ذلك الماء ويسبح فيه ينبت لحمه ويستوى أعضاءه ويحسن وجهه كالبدر كذا قال الشيخ زاده. (شيخ زاده ص١٦٣)

قوله تبيضّ الوجوه به. جملة تبيضّ صفة الحوض أو حال منه أو هو استيناف. وقوله الوجوه المراد بها ذووها على حذف المضاف وفيه مجاز بالحذف أو على سبيل المجاز المرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ. وبه متعلّق بتبيضّ والباء للسببية والضمير للحوض. وقوله من العصاة من بيانيّة ومن العصاة صفة للوجوه أو حال والمراد بالعصاة الّذين يخرجون من النار بشفاعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم والحال أنّهم قد جاءوه أى جاءوا الحوض أو جاءوا إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم من العذاب فالواو للحال وضمير الفاعل راجع للعصاة وضمير المفعول راجع للحوض أو النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وقوله كالحمم فى محلّ نصب حال أى قد جاءوا وقد وردوا الحوض حال كونهم مسودّين كالحمم. والحمم جمع حممة والحممة بمعنى الفحمة والرماد وكلّ ما احترق من النار.

وقوله كالصراط أى وهذه الآيات كالصراط استقامة وحذف التمييز الّذى هو استقامة لدلالة المعنى عليه.

والصراط بالصاد وبالسين وبالزاى بمعنى ففيه ثلاث لغات. والمراد به الدين الّذى لا اعوجاج فيه وهو دين الحق أو المراد به الصراط المعهود وهو الجسر الممدود على متن جهنّم الّذى هو أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف يعبره أهل الجنّة وتزلّ به أقدام أهل النار ويتناولهم زبانية أهل النار بالخطاطيف والكلاليب على جنبتيه ملائكة يقولون اللّهمّ سلّم. ومن الناس من يمرّ مثل البرق الخاطف ومنهم كالريح الهابّة ومنهم كالجواد المسرع ومنهم من يحبو حبواً إلى غير ذلك ممّا ورد فى الحديث. أو واسع فى حقّ ناس وضيّق فى حقّ آخرين على الخلاف فى ذلك يسير الناس عليه إلى الجنّة على قدر أعمالهم.

وقوله وكالميزان معدلة. الميزان ما يعرف به مقادير الأعمال والعقل قاصر عن إدراك كيفيته. قيل توزن كتب الأعمال. وقيل تجعل الحسنات أجساماً نورانيّة والسيئات ظلمانيّة. وقيل يوزن العبد مع عمله مرّة بالخير ومرّة بالشرّ. وقوله معدلة تمييز من الإضافة فيكالميزان وهو مصدر ميمى أو اسم آلة. والمعنى الآيات تشبه الميزان فى كونه معدلة. ففيه ردّ على المعتزلة كما أنّ فى قوله كالصراط ردّاً عليهم أيضاً. لأنّهم أنكروا الصراط والميزان وقالوا نفياً للميزان بأنّه لا فائدة له ولا غرض كما قالوا نفياً للصراط إنّه لا يمكن العبور على مثل ذلك فإيجاده عبث ولو أمكن ففيه تعظيم للمؤمنين والأنبياء بأنّ العبور عليه ممكن والأنبياء والمؤمنون يمرّون عليه من غير تعب.

وقوله فالقسط الفاء فيه لمجرّد العطف كالواو والقسط مصدر من قسط فلان يقسط قسطاً: عدل وقسطاً وقسوطا: جار وعدل عن الحق. وهكذا اختصر فى المصباح المنير على وجه واحد وهو كسر السين فى المضارع فقال قسط قسطا من باب ضرب وقسوطا جار وعدل ايضا فهو من الاضداد ولعله هو المشهور الغالب من اللغة. وأفاد فى القاموس أنّه يجيء بضم السين من نصر ينصر فقال: القسط بالكسر العدل من المصادر الموصوف بها كالعدل يستوى فيه الواحد والجميع. يقسِط ويقسُط كالاقساط والحصّة والنصيب اه فجاء بالوجهين فى معنى واحد وهو العدل. وأفاد فيما بعد أنّه يستعمل فى معنى الجور أيضاً حيث قال قسط يقسط قسطاً وقسوطاً جار وعدل عن الحق كما أفاد غيره مجيء قسط يقسط من باب ضرب بالمعنيين فهو من الأضداد كما هو ظاهر وصرّح به فى المصباح المنير وبهذا يظهر أنّ ما ادّعاه العلّامة الخرپوتى من الفرق بين قسط ويقسط من باب نصر وبين قسط يقسط من باب ضرب يخالفه ما تقدّم من القاموس ممّا يفيد مجيء قسط يقسط من باب نصر بمعنى العدل أيضاً ولذلك قال فيما تقدّم قسط يقسط ويقسُط بالوجهين وأكّد بقوله كالإقساط. وهذا كلّه على وفق ما ذكرته المعاجيم. أمّا استعمال المجرّد فى معنى العدل فمهجور وإنّما يستعمل القاسط بمعنى الجائر كما يشهد به التنزيل: قال تعالى: (وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا). والمزيد فيه من باب الإفعال يستعمل فى معنى العدل. قال تعالى وأقسطوا الآية ولذلك قال الإمام البخارى آخر كتابه الجامع الصحيح ويقال القسط مصدر المقسط أمّا القاسط فهو الجائر.

وقوله من غيرها ظرف مستقرّ صفة قسط والضمير للآيات وقوله فى الناس متعلّق بلم يقم قدّم للضرورة أو بالقسط أى العدل فيما بين الناس. لم يقم أى لم يدم ولم يتحقّق.

وحاصل المعنى أنّ الآيات البيّنات شافعة للعصاة يوم العرصات كما أنّ حوض نبيّنا عليه الصلاة والسلام يشفى العصاة من المؤمنين الّذين يخرجون من النار بتبييض وجوههم قبيل الدخول إلى دار القرار.

وفيه تلميح إلى قوله عليه الصلاة والسلام الّذى تقدّم فى فضائل القرآن من أنّ (القرآن شافع مشفّع وماحل مصدّق) يعنى أنّ القرآن شافع يوم القيامة لصاحب الكبائر والصغائر ورافع من يعمل به ومن يتلوه وشاك بليغ مصدّق فى فيما يشكو ممّن يضيّعه بعدم العمل وعدم القراءة والنسيان وعدم الترتيل وعن الزهرى من شهد عليه القرآن بالتقصير فهو فى النار. وحاصل معنى البيت الثانى أنّ الآيات البيّنات تشبه الصراط فى تمييز الحق من الباطل وكالميزان من جهة العدالة ورفع الخصومات. فإذا كان كذلك فطلب العدالة فى الدنيا بين الناس من غير هذا القرآن ومن غير ما يستمدّ من الكتاب لم يثبت ولم يدم فقيام الدنيا وقوام أهلها إنّما هو بالعدالة. والعدالة قائمة بالشريعة. والشريعة إنّما قامت بالقرآن فلو لم تكن الآيات ثابتة لما كانت الدنيا قائمة ولما كانت الخصومات بين الخلائق مندفعة. (الخرفوتى ص١٦٥، ١٦٦)

تتمّة: قد سبق منّا أن ذكرنا فى فضائل القرآن من الإتقان حديث شافع مشفع ماجد مصدق وعثرنا على الحديث فى غيره على الوجه الصحيح وهو قوله "ماحل مصدّق" فليتنبّه.

رقم البيت (١٠٣، ١٠٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت السادس عشر والسابع عشر من الفصل السادس من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

لا تعجبن لحسود راح ينكرها
تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم

وقوله:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

أخذ الناظم الفاهم فيما يلى من البيتين الأخيرين من الفصل السادس يجيب جواباً عن سؤال تقديره إذا كانت الآيات قد بلغت هذه الغاية فكيف جاء عن كثير من الكفرة إنكار كونها من الله ودلالتها على صحة نبوّة من أتى بها. فأنشأ يقول:

لا تعجبن لحسود راح ينكرها
تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

وحاصل الجواب أنّ الكفرة أنكروها حسداً وجحدوها عناداً واستيقنتها أنفسهم كما قال تعالى "جحدوا بها

واستيقنتها أنفسهم" فلا معنى لأن تعجب أيّها السامع بعد ما اطّلعت على حسد الكفرة وعنادهم الّذى هو منشأ إنكارهم وتجاهلهم لأنّه كما قيل إذا ظهر السبب بطل العجب.

قوله لاتعجبن أى لاينبغى العجب والعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء. والحسود ذوالحسد والحسد أن يتمنّى زوال نعمة الغير أويتمنّى أن يحوّلها إلى نفسه والغبطة أن يتمنّى مثل نعمة الغير من غير أن يتمنّى زوالها عنه والحسود العدوّ والمعاند. وراح فعل ناقص بمعنى صار. واسمه الضمير المتّصل المستتر فى الفعل وينكرها فى محلّ النصب خبره والمجموع صفة الحسود. وأصل راح سار بالعشى ثمّ استعمل فى الذهاب والمراد أنّه أنكر ما اتّضحت دلالته حتّى صار كالأشياء المحسوسة بحاسّة البصر فى نصف النهار الّذى هو أوّل وقت الرواح. (باجورى ص٥٧)

وعلى هذا فراح بمعنى ذهب والضمير المستتر فيه فاعل. وينكرها فى محلّ النصب حال من راح. والتجاهل إظهار الجهل مع عدم الجهل. وهو منصوب على أنّه حال أى متجاهلاً. أو على أنّه مفعول له وهو عين الحاذق فى محلّ النصب جملة حالية فالواو للحال والعين مقحمة لإفادة التأكيد. والحاذق الماهر وهو ههنا الماهر بالأصالة لا عن التجارب بقرينة قوله الفهم والفهم صفة مشبّهة وهو أبلغ من الفاهم لما فيه من المبالغة ما ليس فى الفاهم فالفهم الشديد الفهم والمعنى أنّ الحسود راح ينكرها والحال أنّه هو الحاذق فى صناعة البلاغة شديدالفهم لخواص التراكيب ومقتضيات الاحوال. وقوله قدتنكر من الانكار. وقد إمّا لإفادة التقليل أو لإفادة التحقيق. وجملة تنكر تعليل لقوله لاتعجبن. والعين الباصرة. وآثر الضوء فقال ضوء الشمس ولم يقل نور الشمس لأنّ الضوء أقوى من النور لأنّ الضوء لمّا كان بالذات والنور لمّا كان بالعرض. قال تعالى "جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً". قوله من رمد أى من أجل الرمد فمن تعليلية والرمد بفتحتين وجع العين يقال رمدت العين اذا هاجت. قوله وينكر الواو عاطفة والجملة معطوفة على جملة تنكر. والفمّ مشدّدة كالفم بمعنى واحد وفيه ثلاث لغات فتح الفاء وضمّها وكسرها وقد تشدّد الميم. أوردها فى القاموس حيث قال الفم مثلّثة أصله فوه وقد تشدّد الميم وقال فى موضع آخر الفاه والفوه بالضمّ والفيه بالكسر والفوهة والفم سواء جمع أفواه وأفمام. ولا واحد لها لأنّ فماً أصله فوَه حذفت الهاء كما حذفت من سنة وبقيت الواو طرفاً متحرّكة فوجب إبدالها ألفاً لانفتاح ما قبلها فبقى فاً ولايكون الاسم على حرفين أحدهما التنوين فأبدل مكانها حرف جلد مشاكل لها وهو الميم لأنّهما شفهيّتان وفى الميم هوى فى الفم يضارع امتداد الواو وفى تثنيته فمان وفموان وفميان والأخيران نادران. والهوى على ما فى القاموس بضمّ الهاء للانحدار وأنّ الهوى بفتح الهاء للإصعاد. وبهذا ظهر أنّ تشديد الفم لغة. فمن ذهب إلى أنّ تشديد الميم للضرورة ذهل. والطعم بمعنى اللذة. والماء معروف ومن السقم اى من اجل السقم القائم به فمن لإفادة التعليل فى الموضعين وجعلها الشيخ زاده لابتداء الغاية فى الموضعين والسقم بفتحتين المرض.

قال الشيخ زاده: اعلم ان المفهوم من البيت السابق ان انكار الحسود انّما هو بواسطة أنّه مسلوب التوفيق ومحروم عن فضيلة الإنصاف وهو يعلم مع ذلك الفضيلة ولكنّه لكونه مسلوب التوفيق ينكر تلك الآيات الباهرة ويجحد الرسالة الظاهرة كما أنّ العين تنكر ضوء الشمس من الرمد والفم يجد الماء الزلال مرّاً من السقم

والكمد (والكمد التغيّر يقال كمد لونه أي تغيّر وذهب صفاءه) وفي البيتين إشارة إلى قوله تعالى (الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون) يعني يعرفون رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم معرفة جليّة. ويميّزون بينه وبين غيره بالوصف المعيّن المشخّص كما يعرفون أبناءهم بحيث لا يشتبه عليهم أبناءهم وأبناء غيرهم. وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنّه سأل عبد الله ابن سلام عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقال أنا أعلم به منّي بابني. قال ولم؟ قال لأنّي لست أشكّ في محمّد (صلّى الله تعالى عليه وسلّم) أنّه نبيّ. فأمّا ولدي فلعلّ والدته خانت. فقبّل سيّدنا عمر رأسه. ومعرفة الرسول مستلزمة لمعرفة الآيات ولهذا قال الناظم رحمه الله تعالى وهو عين الحاذق الفهم. (الشيخ زاده ص١٦٨،١٦٧)

وفي البيت صناعة التذئيل ففيه تذئيل للبيت قبله أي لمضمونه بالفحوى جارٍ مجرى الأمثال في الاستقلال وفشوّ الاستعمال كذا في الذخر والعدّة.



الفصل السابع
فی إسراءہ ومعراجه (صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم)

رقم البيت (١٠٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في الفصل السابع من قصيدة البردة وهو الفصل الّذي اشتمل على ذكر الإسراء والمعراج الذي هو أعظم فضيلة وأخص مزيّة ثبتت لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم وخص به صلّى الله تعالى عليه وسلّم من بين النبيين صلّى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين فكان من بعض الفضائل التي ثبت بها الشرف له صلى الله تعالى عليه وسلم على من تقدمه من الأنبياء والرسل صلى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين وظهر به تفرد بالمحل الأسنى من القرب في الحضرة والزلفى عند ربّ العزّة. وانفراده بالأصالة في الحيازة لكل كمال وتخصيصه بالوساطة لغيره في حصول النعم والأفضال. أخذ الناظم الفاهم في مدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وجدّد البيان واستطرد ينتقل من جديد الى جديد حتى أقبل على النداء ملتفتا من الغيبة الى الخطاب وتابع الحديث بذكر الحبيب الفريد من جديد. وأخذ في توطئة وتمهيد لذكر المزايا ومجتليا لكثير من الخبايا التي انطوت عليها فضيلة الإسراء والمعراج فأنشأ يقول:

يا خير من يمم العافون ساحته
سعيا وفوق متون الأينق الرسم

"يا" حرف لنداء البعيد. حقيقة أوحكماً. وقد ينادى به القريب توكيداً. وقوله خير يحتمل أن يكون أفعل تفضيل خفف. وأن يكون اسماً أي ما يرغب فيه الكل ومن بمعنى الذى والمضاف محذوف أي يا خير كل من انه أو بمعنى الذين وهو عام وافراد الضمير في ساحته بالنظر إلى اللفظ. يمم بمعنى قصد. العافون جمع العافي بمعنى السائل. والساحة بالنصب مفعول يمم وهو بمعنى حريم الدار والضمير راجع الى من. والساحة من قبيل ذكر المحل وارادة الحال اذ شرف المكان بالمكين ولذا قال الشاعر:

وما حبّ الديار شغفن قلبى
ولكن حب من سكن الديارا

على سبيل المجاز المرسل والمعنى يا خير من قصد السائلون ذاته ونفسه. وسعياً بالنصب حال من فاعل العافون أي ساعين على أرجلهم. وفوق ظرف متعلق بمحذوف معطوف على سعيا أي وكائنين فوق المتون. والمتن الظهر. والأينق جمع ناقة وأصله أنوق قدّمت الواو على النون فصار أونق ثمّ قلبوها ياء فصار أينق. الرسم جمع رسوم وهي الناقة الّتي تؤثّر في الأرض من شدة الوطء. أو الّتي تبقى على السير يوما وليلة. وحاصل معنى البيت يا خير كلّ من يقصد إليه أرباب الحاجات والمطالب وأفضل من ترجى إلى ساحته الركائب. وكونه خير من يقصد إليه أرباب الحاجات يدلّ على كونه قاضياً لحاجاتهم ومعطياً لمقاصدهم.

رقم البيت (١٠٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الثاني من الفصل السابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

ومن هو الآية الكبرى لمعتبر

ومن هو النعمة العظمى لمغتنم

أشعر الناظم الفاهم من نفسه مزيد شوق اليه صلى الله تعالى عليه وسلم فكرر النداء شوقاً و تشويقاً للسامع. واستطرد يتفنن في بيان أوصافه العلية حسب عادته المرضية فقال:

ومن هو الآية الكبرى لمعتبر

ومن هو النعمة العظمى لمغتنم

قوله: ومن هو معطوف على المنادى قبله والآية: ما يعتبر به في تعرف الحق عن الباطل والمعنى يا علم الهدى والآية الكبرى لكل معتبر قال الله تعالى (إنّك لتهدى إلى صراط مستقيم). والكبرى تأنيث الأكبر ووصفه بذلك لأنه افضل الخلق ودينه خير الأديان. لمعتبر اسم فاعل من الاعتبار وهو تعرف الشيء فالمعتبر المتعرّف. ومن هو معطوف على "من" قبله. والنعمة يطلق على الإنعام وعلى المنعم والمراد ههنا هو الثاني كذا قال الشيخ زاده. والعظمى تأنيث الأعظم. ولمغتنم اسم فاعل من اغتنم الشيء يعتنمه عدّه غنيمة وانتهز غنمه. والمعنى أنه صلّى الله تعالى عليه وسلّم النعمة الكبرى الذي ينتهز غنمه ويستلم نعمه الناس وينالون باتّباعه السعادة في الدارين.

وفي البيت تلميح الى قوله تعالى ألم تر الى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً. وعن ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى هذا هم كفّار قريش ونعمة الله محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم وسمّي نعمة الله كما سمّي رحمة وذلك حقيقة لمن اتّبعه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وفي البيت تلميح الى قوله تعالى "ان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها". قال سهل نعمته بمحمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم والى قوله تعالى "وما ارسلناك الى رحمة للعالمين".

رقم البيت (١٠٧،١٠٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسول الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بأحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت الثالث والرابع من الفصل السابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

سريت من حرم ليلاً الى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم

وقوله: وبت ترقى الى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

أخذ الناظم الفاهم فى ذكر قصة الاسراء والمعراج التى هى من أشهر المعجزات له صلى الله تعالى عليه وسلم وأوضح الكرامات وأصدق البراهين الواضحات على نبوّته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وعلى شرفه على سائر الأنبياء والمرسلين بما خص به من مزيد القرب والزلفى عند الملك الحق المبين، نطق القرآن بها فى سورة الاسراء. ودلّت عليها الأخبار الصحيحة الصريحة وتواترت عن الصحابة. وانعقد عليها اجماع المسلمين والمقطوع به الذى نطق به القرآن أنّه أسرى به صلى الله تعالى عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى، فمنكره كافر. وان العلماء اوردوا قصة الاسراء على روايات مختلفة. وذهبوا فيها مذاهب شتى. فقيل كان الاسراء بالروح فقط مناماً وقيل بالروح والجسد يقظة. وقيل بهما كذلك الى بيت المقدس وبالروح فقط الى السماء والصحيح الذى عليه الجمهور ان الاسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة بالروح والجسد يقظة من مكة الى بيت المقدس ثم الى السماوات العلى ثم الى سدرة المنتهى ثم الى ماشاء الله العلى الأعلى. ويحضرنى أنّ الامام أحمد رضا صنّف رسالة مستقلّة سمّاها ... وذهب فيها إلى أنّ المعراج من وراء العرش حصل له صلّى الله تعالى عليه وسلم بالروح وذهب جماعة الى ان الاسراء وقع مرتين مرة فى النوم ومرة فى اليقظة. قالوا مرة النوم توطئة وتيسيرا عليه كما بدئت نبوته صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالرؤيا الصالحة.

وتعرّض الناظم الفاهم لقصّة الاسراء والمعراج فى همزيّته بأحسن وصف وأبلغ بيان حيث يقول:

وطوى الأرض سائراً والسماوات العلى فوقها له اسراء

فصف الليلة التى كان للمختار فيها على البراق استواء

وترقى به الى قاب قوسين وتلك السعادة القعساء!!!!!!

وأشار ابن حجر الى الجمع بين الروايات المختلفة التى سبقت منه الاشارة اليها فيما ذكر ونشأ عنها اختلاف العلماء وذهابهم مذاهب شتى فى شرحه على الهمزية تحت قول الناظم الفاهم:

فصف الليلة التى كان للمختار فيها على البراق استواء

قال ابن حجر ما نصّه: قصّة الاسراء والمعراج من أشهر المعجزات وأظهر البراهين والبيّنات وأقوى الحجج وأصدق الأنباء وأعظم الآيات ومن ثمّ قال بعض المفسّرين: إنّها أفضل من ليلة القدر لكن بالنسبة له صلّى الله تعالى عليه وسلّم لأنّه أوتى فيها ما لا يحيط به الحدّ. ولذا كان الإسراء بالجسم فى اليقظة من خصائص نبيّنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وخالف فى كونه بالجسم و كونه فى اليقظة من لا يعتدّ بخلافه. وزعم تعدّد الإسراء لتباين الروايات فيه تبايناً منتشراً لا يمكن الجمع بينها إلّا بدعوى التعدّد بالجسم تارة والروح أخرى مردود. والأصحّ أنّه إسراء واحد بالجسم والروح فى اليقظة، وأنّ ما خالف الجادة من الروايات إن أمكن تأويله تعيّن وإلّا حُكِمَ عليه بأنّه وهم كرواية أنّ الإسراء كان قبل البعثة. فإنّ الإجماع على أنّه بعدها. على أنّها أوّلت.

ثمّ استطرد ابن حجر قائلاً ما نصّه: وكان للمختار صلّى الله تعالى عليه وسلّم فيها عجائب. منها أنّه جاءه جبريل. وفى رواية وميكائيل. وفى أخرى ذكر ثالث.

وهكذا أخذ في التطبيق والجمع فأضاف قائلاً: ولا مانع أنّ جبريل نزل أوّلاً. ثمّ ميكائيل ثمّ الثالث. بالحطيم، أو شعب أبي طالب أو بيته أو بيت أمّ هانئ بعد أن انفرج سقفه. روايات جمع بينها بأنّه بات في بيت أمّ هانئ. وبيتها عند شعب أبي طالب. وأضيف إليه لأنّه كان يسكنه. فأخرجه الملك منه إلى المسجد. فاضطجع لأثر نعاس كان به. ثمّ أخذه فأخرجه من المسجد فأركبه البراق. فاستمرّت يقظته. فرواية: أنّه كان بين النائم واليقظان. محمولة على ابتداء الأمر. ورواية: فلمّا استيقظت. أي من شغل البال بمشاهدة الملكوت.

ثمّ ذكر الحكمة في كون الملك لم يأته من الباب فقال: وحكمة كونه لم يأته من باب البيت أنّه انصبّ من السماء انصبابة واحدة بإزاء محلّه الّذي هو فيه. فلم يُعَرِّج على غيره مبالغة في المناجاة. وتنبيهاً على أنّ الطلب وقع على غير ميعاد لإظهار أنّه مراد. ووقع في موسى بميعاد تنبيهاً على أنّه مريد وشتّان ما بينهما. وأيضاً ففي انفراج سقف البيت والتئامه عقبه تنبيه على شقّ صدره الشريف تلك اللّيلة. وأنّه لا بأس عليه فيه. (شرح الهمزيّة ص۲۰۹،۲۱۰)

قوله سريت من سرى يسري وهو السير بالليل وذكر أهل اللغة أن سرىٰ وأسرى بمعنى سار ليلا. وأسرى هي لغة أهل الحجاز التي جاء بها القرآن. من حرم المراد به هو حرم مكّة. ليلاً منصوب على أنّه ظرف والتنوين فيه للتقليل أى في جزء يسير من الليل. الى حرم المراد به هو حرم بيت المقدس. وكلاهما يقال له:حرم. بمعنى :المحرّم والمعظّم. والبدر هو القمر ليلة أربع عشرة ليلة كماله وتمام نوره. في داج أى في ليل مظلم فداج اسم فاعل صفة لموصوف محذوف وهو الليل يقال دجا الليل اذا أظلم. وقوله من الظلم أى من أوقات مظلمة بيان لذلك ووجه الشبه سرعة السير وكمال الانارة وارتفاع المقدرات واستجماع الكمالات وفائدة ذكر الليل مع أنّ الاسراء لايكون الّا بالليل نبّه عليها الزمخشري بأنّه اعلام بأنّه وقع في جزء من الليل ولولم يذكره لاعتبر أن يكون ذلك قد استوعب الليل كلّه أى وليس كذلك بل كان في ترقّيه الى أعلى السماوات العلى ثمّ الى ما شاء الله تعالى ثمّ الى تلقّيه من ربّ العزة ما تلقّى وما أطلعه عليه من أحوال الجنّة والنّار وغير ذلك ممّا لايعلمه الّا الله

قال الزمخشري ويشهد لذلك قراءة عبدالله وحذيفة من اللّيل وقال الجوهري الحكمة في ذكر اللّيل التأكيد وقال بعض آخر الحكمة فيه رفع توهّم أنّ السير وقع نهاراً وعبّر عنه بالاسراء مجازاً والحكمة في وقوع الاسراء باللّيل أنّه لمّا محا الله آية اللّيل وجعل آية النّهار مبصرة انكسر اللّيل فجبر اللّيل بطلوع الاسراء فيه بسيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم وقيل افتخر النهار على اللّيل بطلوع الشمس فيه وسيرها في ساعة فافتخر اللّيل على النّهار بأسرائه وعروجه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فيه الّذي هو أبهى من الشمس وهو النور الأكبر وجنس الأنوار العالى الأفخر وقيل انّما سمّى النّبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم بدراً أخذاً من قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى). فانّ الطاء بتسعة والهاء بخمسة والجملة أربعة عشر كأنّه قال يا بدر. وقوله بتّ أى بتّ ليلة اسرائك وهو معطوف على سريت. ترقى رقيّاً أى رقيّاً حسّيّاً بالروح والجسد معاً يقظة لا مناماً من الأرض الى السماوات العلى ثمّ الى ما شاء الله تعالى أى الى أن نلت منزلة أى بلغت بروحك السنيّة مرتبة أى منزلة. من قاب قوسين أى قدره أى قدرها في القرب المعنوىّ من الله تعالى كما قال الله تعالى ثمّ دنى فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى. أى أنّه كان في القرب

كقرب الواحد من الآخر بقوسين أو أقلّ. والله سبحانه وتعالى منزّه عن المكان ومن هنا للبيان. لم تدرك أى لم ينلها أحد قبلك ولا ينالها أحد بعدك. ولم ترم أى لم يطلبها أحد لعلمهم باختصاصك بها وأنّها لا تكون لنبيّ مرسل ولا ملك مقرّب ومن هنا يؤخذ تفضيله على سائر الخلق انسا وجنّا وملكاً. كذا فى العمدة بتصرّف يسير منّا.

رقم البيت (۱۱۰،۱۰۹)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الخامس والسادس من الفصل السابع من قصيدة البردة. وهو قول الناظم الفاهم:

وقدّمتك جميع الانبياء بها
والرسل تقديم مخدوم على خدم

وأنت تخترق السبع الطباق بهم
فى موكب كنت فيه صاحب العلم

أخذ الناظم الفاهم بعد ما ذكر رقيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم إلى أن نال منزلة من الدنو ومكانة من الزلفى فى حضرة ربه العلى الاعلى لم تتأتّ لأحد ولم يبلغها احد بل لم يصحّ ان يرومها ملك مقرب أو نبيّ مرسل اخذ فى البيتين يذكر بعض ما وقع له من امور عجيبة كتقديم الانبياء والرسل له صلى الله تعالى عليه وسلم للامامة وانتظارهم صفوفا له صلى الله تعالى عليه وسلم حتى دخل المسجد وامّهم ولقاءه صلى الله تعالى عليه وسلم فى منازلهم ومروره بالانبياء والرسل فى موكب عظيم ومعه الملائكة ينتقل من سماء الى اخرى حتى جاوز سدرة المنتهى خصّيصى له عليه الصلوة والسلام دون غيره من الانبياء والرسل ولم يزل يترقى حتى بلغ العرش وماشاء الله فقال:

وقدمتك جميع الانبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم البيتين.

وقدّمتك فعل ماض من التقديم وضمير الخطاب مفعول قدمتك والخطاب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم. قوله جميع الانبياء بالرفع فاعل قدّمتك وتأنيث الفعل اما لان الجميع بمعنى الجماعة واما لانه مضاف الى جمع التكسير فاكتسب التانيث والجملة معطوفة على بتّ أو نلت والباء للسببية والضمير المنفصل المجرور راجع الى المنزلة أو راجع إلى بيت المقدس بتأويل البقعة المفهوم من قرينة المقام. وقوله والرسل بالجر عطفاً على المضاف اليه وهو بضم الراء والسين وهو جمع رسول واسكان السين للضرورة وفى عطف الرسل على الانبياء تخصيص بعد تعميم تنبيها لشرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على الانبياء عامة والرسل خاصة. وقوله تقديم منصوب على انه مفعول مطلق اى تقديما يشبه تقديم المخدوم وهو المتبوع وهو هنا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم. على خدم متعلق بقوله تقديم مخدوم. والخدم جمع خادم والمراد به التابع.

وفی البیت تنویه بالنبی صلی اللہ تعالی علیه وسلم واظهار لعظیم شرفه صلی الله تعالی علیه وسلم ولا ایهام فیه للتنقص من الانبیاء علیهم الصلوة والسلام کما اوضحه محقق العمدة بشام محمد بارود. والبیت یشیر الی تقدیمه صلی الله تعالی علیه وسلم علی الأنبیاء فی الصلاة وإمامته بهم لیلة الإسراء کما ثبت ذلك فی أحادیث منها فحانت الصلوة فأممتهم۔

ومنها أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم صلّى ببيت المقدس مع الملائكة. وأنّه أتى بأرواح الأنبياء. فأثنوا على الله عزّ وجلّ. وفيه قول إبراهيم. على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام. لقد فضلكم محمّد.

وفی روایة: ثمّ بعث له آدم فمن دونه. فأمّهم تلك اللّيلة۔

وفی روایة: فنشر لی رهط من الأنبیاء منهم إبراهیم وموسی وعیسی۔

وفی روایة: ثمّ أقیمت الصلاة فتدافعوا حتّی قدّموا محمّداً صلی الله تعالی علیه وسلم۔

وفی روایة: فلمّا أتی صلی الله تعالی علیه وسلم المسجد الأقصی. قام یصلّی. فإذا النبیّون أجمعون یصلّون معه۔ (العمدة ص ۵۲۱، ۵۲۰، ۵۱۹)

ثمّ اختلف هل کانت تلك الصلاة قبل عروجه علیه الصلاة والسلام إلی السماء أو بعده والمستفاد من هذا البیت کونها قبل العروج کما لا یخفی. کذا قال الخرپوتی لکنّ الظاهر من ارجاع الضمیر الی المنزلة التی نالها من قاب قوسین والتی لم تُدْرَك ولم تُرَم. والتی ذکرها الناظم الفاهم قبل هذا البیت. ثم اخذ یتحدث عن تقدیمه للامامة من اجل تلك المنزلة انه صلی بهم بعد ما نال تلك المنزلة عند رجوعه الی بیت المقدس. والکل محتمل ولا مانع من التعدد۔

واختلفوا فی هذه الصلاة هل هی فرض أو نفل فعلی روایة أنّه صلّی الله تعالی علیه وسلّم صلّی بهم قبل العروج تکون نفلاً وعلی روایة أنّه صلّی بهم بعده تکون فرضاً أعنی الصبح کذا فی المواهب. (الخرفوتی ص۱۰۵)

کذا قال الخرفوتی ویحتمل کونها عشاء کما افاده العلامة ابن حجر فی العمدة. بل المتعیّن کونها عشاء للروایات التی تقدّمت وللروایة الآتیة وهی أنّه لمّا أتی صلّی الله تعالی علیه وسلّم بیت المقدس نزل عن البراق فربطه فی الحلقة الّتی کانت الأنبیاء تربطه فیها فدخل المسجد فإذا المسجد مملوّ بالأنبیاء فأُقیمت الصلاة. قال صلّی الله تعالی علیه وسلّم فقمنا صفوفاً ننتظر من یؤمّنا فأخذ بیدی جبرائیل. فقدّمنی فصلّیت بهم. ثمّ خرجت من المسجد فجاء جبرائیل علیه الصلاة والسلام بإناء من خمر وإناء من لبن. فاخترت اللّبن. فقال جبرائیل اخترت الفطرة. وفی لفظ فقال جبرائیل أصبت. هُدِیت للفطرة. لو اخترت الخمر لغوت أمّتك. (الخرفوتی ص۱۰۵)

قال فی الشفا: ثمّ عُرِجَ بنا إلی السماء فاستفتح جبریل فقیل من أنت؟ قال: جبریل. قیل ومن معك؟ قال: محمد. قیل وقد بعث إلیه قال: قد بعث إلیه. ففتح لنا. فإذا أنا بآدم صلّی الله تعالی علیه وسلّم. فرحّب بی ودعا لی بخیر. ثمّ عرج بنا إلی السماء الثانیة. فاستفتح جبریل. فقیل من أنت؟ قال: جبریل. قیل ومن معك؟ قال محمد. قیل وقد بعث الیه؟ قال: قد بعث إلیه. ففتح لنا. فإذا أنا بابنی الخالة عیسی ابن مریم ویحیی بن زکریا صلّی الله علیهما. فرحّبا بی ودعوا لی بخیر. ثمّ عرج بنا إلی السماء الثالثة. فذکر مثل الأوّل. ففتح لنا فإذا أنا بیوسف صلّی الله

تعالى عليه وسلّم. وإذا هو قد أعطى شطر الحسن. فرحّب بي ودعا لي بخير. ثمّ عرج بنا إلى السماء الرابعة. وذكر مثله. فإذا أنا بإدريس. فرحّب بي ودعا لي بخير. قال الله تعالى: (ورفعنه مكانا عليّا). ثمّ عرج بنا إلى السماء الخامسة. فذكر مثله. فإذا أنا بهارون. فرحّب بي ودعا لي بخير. ثمّ عرج بنا إلى السماء السادسة. فذكر مثله. فإذا أنا بموسى. فرحّب بي ودعا لي بخير. ثمّ عرج بنا إلى السماء السابعة. فذكر مثله. فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثمّ ذهب بي إلى سدرة المنتهى. وإذا ورقها كآذان الفيلة. وإذا ثمرها كالقلال. قال: فلمّا غشيها من أمر الله ما غشي تغيّرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فأوحى الله إليّ ما أوحى. ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى. فقال: ما فرض ربّك على أمّتك؟ قلت خمسين صلاة. قال ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف. فإنّ أمّتك لا يطيقون ذلك. فإنّي قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربّي. فقلت يا ربّ خفّف عن أمّتي. فحطّ عنّي خمساً. فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عنّي خمساً. قال: إنّ أمّتك لا يطيقون ذلك. فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربّي تعالى وبين موسى. حتى قال يا محمد: إنّهنّ خمس صلوات كلّ يوم وليلة. لكلّ صلاة عشر. فتلك خمسون صلاة. ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة. فإن عملها كتبت له عشراً. ومن همّ بسيّئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً. فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى. فأخبرته. فقال: ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف. قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقلت قد رجعت إلى ربّي حتّى استحييت منه.

قال القاضي رضي الله عنه: جوّد ثابت هذا الحديث عن أنس ما شاء. ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا. وقد خلّط فيه غيره عن أنس تخليطاً كثيراً. لا سيّما من رواية شريك بن أبي نمر. فقد ذكر في أوّله مجيء الملك له وشقّ بطنه وغسله بماء زمزم. وهذا إنّما كان وهو صبي وقبل الوحي. وقد قال شريك في حديثه: وذلك قبل أن يوحى إليه. وذكر قصّة الإسراء ولا خلاف أنّها كانت بعد الوحي. وقد قال غير واحد إنّها كانت قبل الهجرة بسنة وقيل قبل هذا. (الشفا ص۱۲۸،۱۲۷)

قوله: عن يوسف عليه الصلاة والسلام وقد اعطى شطر الحسن اى شطرا من حسن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم. ولاينافيه ما ذكره العلامة ابن حجر في شرحه على الهمزيّة من حديث عند البيهقي وغيره "فاذا انا برجل احسن من خلق الله. قد فضل النّاس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب فالمراد غير نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقوله وأنت تخترق الواو للحال والجملة في محل النصب حال والسياق يفيد الحصر وقصر الصفة على الموصوف اى انت لاغيرك تخترق والخبر حال من الكاف في قدمتك وتخترق من الخرق والجملة من المبتدأ والخبر حال من كاف قدّمتك. وآثر التعبير بالخرق ردّا على من يزعم امتناع الخرق والالتئام على السماوات كالفلاسفة. وقوله السبع الطباق اى السماوات. بعضها فوق بعض وطباق اما جمع طبقة. كرحبة ورحاب. او جمع طبق كجمل وجمال. قال الله تعالى "الذى خلق سبع سماوات طباقا". وبهم حال من فعل تخترق والباء للملابسة اى مارّاً بهم والضمير للانبياء والرسل. في موكب جار مجرور متعلّق بتخترق وموكب أي جمع عظيم فالتنوين للتعظيم. على هيئة عظيمة. حيث

كان معه جبريل وملائكة كلّ سماء تستقبله وتشيعه إلى السماء الأخرى تعظيماً له وجبريل يستفتح كلّ سماء، فيقال له: من معك؟ فيقول: محمّد. وذلك موكب أيّ موكب عظيم. كنت يا محمّد فيه أي في ذلك الموكب صاحب العلم وهو الرئيس المشار. والعلم رمح في رأسه راية يحمل في العادة على رأس الأمير المشار إليه الّذي هو أفضل أهل ذلك الموكب.

تتمة: تتعلق بما ذكره القاضي عياض عن رواية شريك وانه خلّط فيه تخليطا كثيرا وما انتصر له غيره وما أجيب به عمّا أخذ عليه وما قيل في توثيق شريك وأنّ توثيقه هو المعتمد جاء في شرح الشفاء للخفاجي ما نصّه:

أنكروا عليه روايته هذه وقالوا فيه إنّه وهم من وجوه: منها ما في سنده. فإنّ قتادة رحمه الله تعالى رواه عن أنس رضي الله تعالى عنه عن مالك بن صعصعة. والزهري رحمه الله تعالى عن أنس رضي الله عنه عن أبي ذر رضي الله عنه. وشريك جعله عن أنس رضي الله عنه من غير واسطة. وخالف سياقه سياقهم بالزيادة المنكرة والتقديم والتأخير. وقد نبّه على ذلك مسلم رحمه الله في صحيحه. وما ذكره المصنّف رحمة الله عليه موافق لقدح ابن حزم فيه إلّا أنّ الحافظ أبا الفضل بن طاهر رحمه الله انتصر له في جزء مستقلّ ألّفه فيه. قال: تعليل حديثه بتفرّده به ودعوى ابن حزم أنّ الآفة من شريك لم يسبق إليه لا تقبل. فإنّ أئمّة الجرح والتعديل وثّقوه وورووا عنه. وقالوا: لا بأس به. وحدّث عنه مالك رحمه الله وغيره من الثقاة. وحديثه إذا رواه عنه ثقة لا ضعيف لا بأس به. وقد روى عنه سليمان بن هلال رحمه الله وهو ثقة وتفرّده بقوله الآتي وذلك قبل أن يوحى إليه لايقتضي طرح حديثه. فوهم الثقة في موضع لايقتضي ردّ جميع ما روى. ولو قيل بهذا لزم ردّ كثير من السلف. ولعلّه أراد أن يقول بعد أن أوحي إليه فقال قبله. وقد سبق ابن حزم إلى هذا الخطابي رحمه الله تعالى. وقال النسائي رحمه الله إنّه قول ليس بالقوي. وكان بعضهم لا يحدّث عنه. وقال محمد بن سعد رحمه الله وأبوداود رحمه الله تعالى إنّه ثقة. والحاصل أنّه اختلف فيه فيُعدّ ما انفرد به شاذا منكرا. وقد خالف غيره في مواضع من هذا الحديث: منها أمكنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وكون المعراج قبل البعثة. وكونه مناما. وكون سدرة المنتهى فوق السابعة والمشهور أنّها فيها أو في السادسة. وفي نهري النيل والفرات. وكون أصلهما في السماء الدنيا والمشهور أنّهما من تحت السدرة. وكون شقّ الصدر عند الإسراء. إلى أن قال. فهذه مواضع مخالفته في السند والمتن الّذي قال المصنّف رحمه الله تعالى إنّه خلّط فيها. وقد أجيب عن بعضها. (وهذا) أي المذكور من الشقّ والغسل (إنّما كان وهو) صلّى الله تعالى عليه وسلّم (صبي) عند مرضعته حليمة رضي الله تعالى عنها. (وقبل الوحي) وأتى بإنّما ردّاً لقول شريك رحمه الله تعالى إنّه كان ليلة الإسراء. وأجيب عنه بأنّ الشقّ وقع مراراً مرّة وهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم طفل صغير يلعب مع الصبيان لإزالة حظّ الشيطان معه كما مرّ. ومرّة وهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم ابن عشر سنين لإزالة الطفولية عنه. ومرّة عند البعثة ليتثبّت قلبه بالوحي. وليلة الإسراء ليقوى عليه. وزيد خامسة ضعّفها ابن حجر رضي الله عنه في شرح البخاري وصحّح هو والبرهان الحلبي رحمة الله عليه الأربعة الأول إلى آخره ملتقطاً. (٢/٢٣٣،٢٣٣)

هذا وقد راجعت بعد ما التقطت لك من نصّ العلامة الشهاب الخفاجي شرح الشفا للملا على القاري فرأيته صرح بنحو ما مضى من العلامة الشهاب الخفاجي وزاد عليه فيما أفاد بحمل ما ذكر من شق الصدر على التعدد وصرح

نقلا عن الحافظ البغوى بأنّ الاعتراض على حديث شريك لا يصحّ. لأنّ الجمع ممكن بأن يقال ذلك كان رؤيا فى النوم أراه الله عزّ وجلّ. واليك نصه فيما يلى: هذا اى ماذكر كله (إنّما كان وهو صبى وقبل الوحى) فيه أنّه يمكن تعدّده فلا وهم إلّا بسبب ما بيّنه المصنّف بقوله (وقد قال شريك فى حديثه) أى هذا بعينه (وذلك قبل أن يوحى إليه وذكر قصّة الإسراء) أى معه (ولا خلاف أنّها) أى فى أنّ قصّة الإسراء (كانت بعد الوحى) فثبت وهمه بهذا التعارض الواقع بين كلاميه.

ثمّ ذهب العلامة القارى يدفع ما نسب إليه من الوهم فقال: ولكن قال الإمام الحافظ أبو محمّد الحسين البغوى هذا الاعتراض الّذى اعترض به على رواية شريك لا يصحّ عندى. لأنّ ذلك كان رؤيا فى النوم أراه الله تعالى عزّ وجلّ قبل الوحى بدليل آخر الحديث فاستيقظ وهو بالمسجد الحرام. ثمّ عرج به فى اليقظة بعد الوحى تحقيقاً لرؤياه من قبل كما أنّه رأى عليه الصلاة والسلام فتح مكة فى المنام عام الحديبية سنة ستّ من الهجرة. ثمّ كان تحقيقه سنة ثمان. ونزل قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) انتهى. وبهذا الجمع يزول الإشكال عن قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلّا فتنة للنّاس) فيكون التقدير تصديق الرؤيا وتحقيقها إذلا تترتّب الفتنة على نفس الرؤيا كما لا يخفى). وقد قال غير واحد) أى كثير من علماء المحدّثين (إنّها كانت) أى قصّة الإسراء (قبل الهجرة بسنة). فقد ذكر النووى أنّ معظم السلف وجمهور المحدّثين والفقهاء على أنّ الإسراء كان بعد البعثة بستة عشر شهراً. وقال السبكى الإجماع على أنّه كان بمكّة والّذى نختاره ما قاله شيخنا أبو محمد الدمياطى أنّه قبل الهجرة بسنة وهو فى ربيع الأوّل انتهى. وروى السيّد جمال الدين المحدّث فى روضة الأحباب أنّه كان فى سبعة وعشرين من شهر رجب على وفق ما عليه فى الحرمين الشريفين من العمل. وقيل فى الربيع الآخر. وقيل فى رمضان. وقيل فى شوال. وقيل بعد نقض الصحيفة. وقيل بعد بيعة العقبة. وقيل أسرى به فى الحجّة لأنّه كان ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً. وقيل ليلة اثنى عشر من الربيع الأوّل ليلة الاثنين منه فيكون زمان معراجه كميلاده ومدارجه باعتبار يوم الاثنين وشهر الربيع الأوّل والله سبحانه وتعالى أعلم.

رقم البيت (١١١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد أخذنا فى شرح البيت السابع من الفصل السابع من قصيدة البردة بحول الله سبحانه وتعالى. وهو قول الناظم الفاهم:

حتى إذا لم تدع شأواً لمستبق
من الدنو ولامرقى لمستنم

أراد الناظم الفاهم دفعاً لما عسى أن يتوهم بما مرّ فى البيت السابق أن يكون أحد شاركه فى مسيره إلى الغاية القصوى فأخذ يبين المدى الذى بلغ بهم السُرى ومبتدأ عروجه إلى مقام قاب قوسين أو أدنى حيث نال منتهى الزلفى. فقال:

حتى اذا لم تدع شأواً لمستبق
من الدنوّ ولامرقى لمستنم

حتى غاية لقوله تخترق واذا ظرفيّة متضمّنة لمعنى الشرط. أو لمحض الظرفية. وجواب إذا محذوف أو قوله خفضت. ولم تدع لم تترك. والشأو بمعنى الغاية يقال فلان بعيد الشأو اى بعيد الهمة ويراد به الغاية اى لم تترك منتهى. ولمستبق اما متعلق بلم تدع او هو ظرف مستقر صفة لشأوا. ومستبق على صيغة اسم الفاعل بمعنى طالب السبق أو بمعنى أخذ السبق أو سعى ليسبق وهو ههنا بمعنى طالب السبق. والتنوين فيه للتكثير أى لكل مستبق نبيّا كان أو ملكا. من الدنو: اما متعلق بلم تدع او صفة شأوا والمراد من الدنو دنوّ المنزلة الدنوّ من الله والتقرّب إلى الله. والمراد من دنوّه تعالى نهاية القرب ولطف المحل وإيضاح المعرفة والإشراق على الحقيقة إذ لا دنوّ للحق تعالى ولا بعد له باعتبار المكان. ولا مرقىً عطف على شأوا وتكرير النفي للتأكيد والمرقى بفتح الميم وسكون الراء المصعد. لمستنم متعلّق بلم تدع كالمستبق فى وهو اسم الفاعل من استنم بمعنى ارتفع وتمكّن و المراد من المستنم هو جبريل الأمين لأنّه مرتفع ومطمئنّ أى متمكّن. لأنّه ذو قوّة عند ذى العرش مكين (كما وصف بهذه النعوت فى التنزيل). وفيه إشارة إلى ما أورده فى الشفاء وغيره أنّ جبريل عليه الصلاة والسلام لمّا صعد به صلّى الله تعالى عليه وسلّم حتّى انتهى إلى سدرة المنتهى. وهى شجرة أوراقها مثل آذان الفيلة. فى أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان. سأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم جبريل عن هذه الأنهار. فقال له جبريل أمّا الباطنان ففى الجنّة. وأمّا الظاهران فالنيل والفرات. فبقى جبريل فى ذلك المقام. فقال لو دنوت أنملة لاحترقت. ولذا قال تعالى فيهم (وما منّا إلّا له مقام معلوم) ومقامه عليه الصلاة والسلام فى سدرة المنتهى. وفى أنوار التنزيل روى أنّها أى سدرة المنتهى فى السماء السابعة ينتهى إليها علم الخلائق وأعمالهم ما ينزل من فوقها ويصعد من تحتها ينتهى إليها انتهى. (الخرفوتى ص١٤٨،١٤٤).

وحاصل المعنى أى أنت دخلت الباب وقطعت الحجاب إلى أن لم تترك غاية للساعى إلى السبق من كمال القرب المطلق إلى جناب الحقّ ولاتركت موضع رقى وصعود وقيام وقعود لطالب رفعة من عالم الوجود بل تجاوزت ذلك إلى مقام قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليك ربّك من الحكمة ما أوحى. (الزبدة ص٩٦)

رقم البيت (١١٣،١١٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

و بعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثامن والتاسع من الفصل السابع من قصيدة البردة. وهو قول الناظم الفاهم:

خفضت كل مقام بالاضافة إذ
نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

وقول الناظم الفاهم:

كيما تفوز بوصل أيّ مستتر
عن العيون وسرّ أيّ مكتتم

أخذ الناظم الفاهم فى تكميل مضمون البيت السابق وبيان مابلغه فى عروجه الى منتهى الزلفى ومأترتب عليه من مزيد الفضل له صلى الله تعالى عليه وسلم على سائر الملائكة والانبياء والرسل بمراتب فوق مراتبهم واختصاصه بالدرجات العلى فقال:

خفضت كل مقام بالإضافة إذ
نوديت بالرفع مثل المفرد العلم.

(البيتين)

قوله خفضت اما مجزوم محلا على انه جواب اذا الشرطية او فى محل الجر بدل من قوله لم تدع او استيناف مؤ كد لمضمون الجملة وهو كمال ترقيه وتعلّيه. والخفض على أوجه: الحركة التحتانية فى الاعراب. وخفضه من العلو الى السفل حطّه. والخفض فى المرتبة والمقام ان يدرك المرء من ترقّى قبله او معه ويتعدّاه ويخلّفه. والمعنى تعدّيت كل مقام و تجاوزت كل مرتبة وخلّفت كل درجة وهذا أحسن فى التعبير من ان يقال حططت فى تفسير خفضت، وقوله بالاضافة اى بالنسبة الى مقامك لا مطلقا والا فالانبياء كلهم متصفون بالكمال لكنه صلى الله تعالى عليه وسلم اكمل فمقام غيره منخفض بالنسبة لمقامه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو المرتفع عن مقام كل مخلوق وان كان ذلك المقام المنخفض مرتفعا فى نفسه وانما انخفض بالنسبة لمقامه صلى الله تعالى عليه وسلم والقرينة على ذلك فى نفس البيت السابق وفى هذا البيت وهو كلّ من مستبق ومستنم فى البيت الّذى قبله وقوله خفضت فى هذا البيت. واياك ان تعتقد ان غيره صلى الله تعالى عليه وسلم من الانبياء ليس متصفا بالكمال لان ذلك كفر فالواجب عليك ان تعتقد انهم متصفون بالكمال لكن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أكمل. قوله إذظرف لقوله"خفضت" او علة له. والنداء طلب الاقبال بالرفع اى متلبسا برفع الله اياك مصدر مضاف الى الفاعل او المفعول اى رفع الله اياك او رفعك. والمراد من المفرد المفرد بالفضائل والكمالات و من العلم المشهور العالى القدر يعنى طلب الله اقبالك بفضله وعنايته مثل مايطلب فيما بين الناس يقال يا هذا الرجل بالتعظيم والاكرام.

كيما اى لكيما تفوز الخ. وعلى هذا فاللام مقدرة قبل كى فتكون كى مصدرية وعلى هذا فكى هى الناصبة للفعل بنفسها. ويحتمل ان لا تكون اللام مقدرة قبلها فتكون تعليلية وعلى هذا فالناصب للفعل ان مقدرة بعدها لاهى نفسها على الصحيح. وما زائدة على الوجهين وعلى كل من الوجهين فهو علة لقوله سريت أوبتّ اه.

فالمعنى بلغت ذلك المنتهى إلى قاب قوسين لتفوز بوصل أى من الله تعالى. والوصل ضدّ القطع. أىّ مستتر بالجرّ صفة لوصل والمستتر من الاستتار بمعنى الاختفاء أى بوصل مستتر استتاراً كاملاً. عن العيون الظرف متعلق بمستتر والعيون النواظر. وسرّ بالجرّ عطف على وصل أى كيما تفوز بسرّ من أسرار إلهك الّذى أوحى إليك فى

ذلك المقام ما أوحى مكتتم صفة لسرّ أى اكتتاماً كاملاً عن الآذان والأسماع والمراد بالسرّ ههنا الحقائق والمعانى وأسرار كاملة لم تنكشف لأحد غيره صلّى الله تعالى عليه وسلّم. قال فى الزبدة: وصلت ذلك المنتهى أى منزلة قاب قوسين أو أدنى لتفوز بوصل من الله وقطع عمّا سواه وليس المراد بالوصل الوصل بالقرب المكانى بل ظهور أعظم منزلته وإشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبته وقدرته والتخلّق بأخلاقه وقصر النظر على مطالعة جماله وشهود كماله. على هذا يدلّ قوله سبحانه وتعالى (دنى فتدلّى) على أحد الوجوه الّتى ذكرت فى التفسير وهو أنّ ضمير دنى عائد إلى نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم. قال فى روح البيان: ويدل على أنّ الضمير يعود إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّه قال فى رواية لمّا أسرى بى إلى السماء قرّبنى ربّى حتّى كان بينى وبينه كقاب قوسين أو أدنى قيل لى قد جعلت أمّتك آخر الأمم لأفضح الأمم عندهم أى بوقوفهم على أخبارهم ولا أفضحهم عند الأمم لتأخّرهم عنهم. وقال بعض الكبار ثمّ دنا إشارة إلى العروج والوصول. وقوله فتدلّى إلى النزول والرجوع. وقوله فكان قاب قوسين بمنزلة النتيجة إشارة إلى الوصول إلى عالم الصفات المشار إليه بقوله تعالى الله الصمد. وقوله أو أدنى إشارة إلى عالم الذات المشار إليها بقوله تعالى الله أحد فى صورة الإخلاص. فحاصل المعنى ثمّ دنى أى إلى الحق من الخلق فتدلّى إلى الخلق من الحق. فكان قاب قوسين فى مرتبة الوحدة الواحدية الجامعة بين شهادة الصفات والخلق وبين غيب الذات والحق أو أدنى فى الوحدة الأحدية المختصّة بغيب ذات الحق. وإذن هنا أمران الأوّل الوصول إلى مرتبة قاب قوسين، وذلك بفناء فى الصفات فقط. والثانى الوصول إلى مرتبة أو أدنى. وذلك بفناء فى الصفات والذات معاً. فإن يسر الله النزول والبقاء يكمل الأمر فى هاتين الجهتين. ولعمرى عزيز أهل هذا المقام جدّا. وقال بعضهم ضمير دنا إلى آخره يعود إلى الله تعالى. قال فى كشف الأسرار دنوّ الله من العبد على نوعين بإجابة الدعوة وإعطاء المنية ورفع المنزلة كما فى قوله (فإنّى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان). والثانى بمعنى القرب فى الحقيقة دون هذه المعانى كقوله (ثمّ دنى فتدلّى) انتهى. فالمعنى ثمّ دنا الجبّار ربّ العزّة فتدلّى أى زاد فى القرب حتى كان من محمّد عليه الصلاة والسلام قاب قوسين أو ادنى. فمعنى الدنوّ والتدلّى الواقعين من الله تعالى كمعنى النزول منه إلى السماء الدنيا كلّ ليلة فى ثلث اللّيل الأخير وهو انّ ذلك عند أهل الحقائق من مقام التنزّل بمعنى أنّه تعالى يتلطّف بعباده ويتنزّل فى خطابه لهم فيطلق على نفسه ما يطلقونه على أنفسهم. فهو فى حقّهم حقيقة وفى حقّه تعالى مجاز كما فى إنسان العيون. قال القاضى أبو الفضل فى كتاب الشفاء اعلم أنّ ما وقع فى إضافة الدنوّ والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنوّ مكان ولا قرب مدى بل كما ذكرنا عن جعفر الصادق ليس بدنوّ حد وإنّما دنوّ النبى من ربّه وقربه منه إبانة عظيم منزلته وتشريف رتبته وإشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته ومن الله له مبرّة وتأنيس وبسط وإكرام. قال فى فتح الرحمن فمن جعل الضمير عائداً إلى الله لا إلى جبريل على هذا كان قوله فكان الخ عبارة عن نهاية القرب ولطف المحلّ واتضاح المعرفة والإشراف على الحقيقة من محمّد عليه الصلاة السلام وعبارة عن إجابة الرغبة وقضاء المطالب قرب بالإجابة والقبول وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول. (روح البيان)

وقد اختلف القوم فى أنّه عليه الصلاة والسلام رأى الله تعالى فى ليلة الإسراء بقلبه أو بعين رأسه. فقال

بعضهم جعل بصره فى فؤاده فرأى بفؤاده فيكون معنى قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) على هذا ما كذب الفؤاد ما رأى به الفؤاد. وقال بعضهم رأى بعينه لقوله عليه الصلاة والسلام إنّ الله أعطى موسى الكلام وأعطانى الرؤية، وقوله عليه الصلاة والسلام رأيت ربّى فى أحسن صورة أى صفة. قال فى الكواشى هذا لا حجّة فيه لأنّه يجوز أنّه أراد الرؤية بالقلب بأن زاده معرفة على غيره. وقال إسماعيل الحقى فى روح البيان إيراد الرؤية فى مقابلة الكلام يدلّ على رؤية العين. لأنّ موسى سألها فمنع منها. فاقتضى أن يفضل نبيّنا عليه الصلاة والسلام بما منع منه وهو الرؤية البصريّة. ولا شكّ أنّ الرؤية القلبيّة يشترك فيها جميع الأنبياء حتّى الأولياء. وقد صحّ أنّ موسى عليه الصلاة والسلام رأى ربّه بعين قلبه حين خرّ فى الطور مغشياً عليه. وحمله على زيادة المعرفة لا يجدى نفعاً انتهى. وقال بعض الفضلاء ذكر الله تعالى فى الآية رؤية فؤاده عليه الصلاة والسلام ولم يذكر رؤية العين لأنّ رؤية العين سرّ بينه وبين حبيبه. وإلى هذا أشار الناظم بقوله وسرّ مكتتم۔

والحاصل أنّا نذهب إلى صحّة رؤيته بعينه وبقلبه لحديث رواه مسلم فى صحيحه رأيت ربّى بعينى وبقلبى۔ ولكنّا عاجزون عن درك كيفيّتها وفى قوله سرّ أىّ مكتتم إشارة إلى أسرار لا تنكشف لأحد غير محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم على ما يدلّ عليه قوله تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى). قال بعض الفضلاء ستر الله بعض ما أوحى إلى عبده عليه الصلاة والسلام عن الخلق لئلّا يطّلع عليه غيره. لأنّ ذلك من خواص محبّته ومعرفته وعلوّ درجاته إذ بين الأحباب يجرى من الأسرار ما لا يطّلع عليه غيرهم من الأجانب والأغيار انتهى۔ قال الشاعر:

لايكتم السرّ إلّا كلّ ذى خطر
والسرّ عند كرام الناس مختوم

والسرّ عندى فى بيت له غلق
قد ضاع مفتاحه والباب مختوم

وقال آخر:

بين المحبّين سرّ ليس يفشيه
قول ولا قلم للخلق يحكيه

سرّ يمازجه انس يقابله
نور يحير فى بحر من التيه

وقال بعض أهل الحال لو بيّن كلمة من تلك الأسرار لجميع الأوّلين والآخرين لماتوا جميعاً من ثقل ذلك الوارد الّذى ورد من الحق على قلب عبده وتحمّل ذلك المصطفى صلّى الله تعالى عليه وسلّم بقوّة ربّانية ملكوتية لاهوتية ألبسه الله إيّاها. ولو لا ذلك لم يتحمّل ذرّة منها. لأنّها أنباء عجيبة وأسرار أزلية لو ظهرت كلمة منها لتعطلت الأحكام ولفنيت الأرواح والأجسام واندرست الرسوم واضمحلّت العقول والعلوم۔ وقال بعض المفسّرين إنّ ما أوحى إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم تلك اللّيلة على أقسام قسم أدّاه إلى العوام وهو الأحكام والشرائع. وقسم أدّاه إلى الخواص وهو المعارف الإلهية. وقسم أدّاه إلى أخصّ الخواص وهو الحقائق والنتائج للعلوم الذوقية. وقسم

آخر بقي معه لكونه مما خصّه الله تعالى به وهو السرّ الّذي بينه وبين الله عزّ وجلّ۔ (الخرفوتی ص۱۸۱،۱۸۰)

رقم البيت (۱۱۳، ۱۱۵)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام اجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين۔

وبعد فقد أخذنا في شرح البيت العاشر والحادي عشر من الفصل السابع من قصيدة البردة. ذكر الناظم الفاهم في البيت السابق الوصل الذي خص به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كالعلة الغائية لمسراه وعروجه وبلوغه في القرب الى منتهاه والذي هو عبارة من الدنوّ الى الله والدنوّ من الله وتدلّيه الى مصطفاه صلّى الله تعالى عليه وسلّم. والشيء إذا ثبت ثبت بجميع لوازمه فدلّ هذا الدنوّ على أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حاز كلّ فخار غير مشارك وجاز كل مقام غير مزدحم وولاّه مولاه رتبا جلّت ان يدرك مداها وأولاه مولاه نعما عزّت أن يدرك مداها كما وصفه الناظم الفاهم في قوله:

فحزت كل فخار غير مشترك
وجزت كل مقام غير مزدحم

وجلّ مقدار ماولّيت من رتب
وعزّ ادراك ما اوليت من نعم

قوله فحزت الفاء للتفصيل والتفريع وحزت من حاز الشيء إذا جمعه. وكلّ بالنصب مفعول حزت. والفخار ما يفتخر به من الفضائل والفواضل والشمائل. وغير مشترك بالنصب على انه حال من فاعل حزت او على انه صفة كل ومجرور على انه صفة لفخار. مشترك أي غير مشترك فيه فهو من باب الحذف والإيصال إن لم يصل إليه غيرك حتى يشاركك فيه و كذا القول في غير مزدحم. وجزت بالجيم والزاء أي تعدّيت كلّ مقام من الكمالات إلى ما هو أكمل من ذلك لم يصل إليه غيرك وقوله جلّ أي عظم معطوف على فحزت والمقدار بالرفع فاعل جلّ وما موصولة وولّيت من ولّاه أي جعله والياً أي صار لك عليه ولاية بدخوله في حوزتك. ومن رتب من بيانية والرتب جمع رتبة أي مناصب شريفة لا يحاط بها والمقصود من هذا الكلام وما بعده التعجب وعزّ إذا غلب وامتنع والمراد ههنا امتنع. والادراك الاحاطة بالشيء ذاتاً وصفة. والمراد به العلم إن أريد بالنعم المعارف والعلوم والحكم والحقائق وإن أريد أعمّ من ذلك فالمراد الوجدان. وما موصولة. وأوليت أي أوتيت من نعم من بيان لما الموصولة ونعم جمع نعمة والتنوين للتعظيم والتكثير أي من نعم عظيمة و كثيرة خصّك الله بها۔

وحاصل المعنى فبسبب ما نلت من تلك الرتب جمعت كلّ ما يفتخر به من الفضائل المختصّة بك. وعبرت وتجاوزت كلّ رتبة غير مزدحم فيها لأنّه لايصل إليها غيرك۔ (الباجوری ص۶۲)

قال بعض الفضلاء المراد بكلّ فخار غير مشترك فيه مثل الوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والشفاعة العظمى والمقام المحمود واللّواء الممدود ومن المقام الغير المزدحم مقام المحبة وختم النبوّة والرسالة العامّة

وأمثالها مع ما فيه من الإشارة إلى ما روى عنه عليه الصلاة والسلام في حديث الإسراء حيث قال فتقدّمت وجبريل على أثرى حتّى انتهى بي إلى حجاب الذهب فحرّك الحجاب فقيل من هذا قال أنا جبريل ومعي محمّد (صلّى الله تعالى عليه وسلّم) قال الملك الله أكبر فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني فوضعني بين يديه في أسرع من طرفة عين وغلظ الحجاب مسيرة خمس مائة عام فقال لي تقدّم يا محمّد فمضيت فانطلق بي الملك في أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللّؤلؤ فحرّك الحجاب فقال ملك من وراء الحجاب من هذا قال أنا صاحب حجاب الذهب وهذا محمّدمعي فقال الله أكبر فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني حتّى وضعني بين يديه فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب حتّى جاوز بي سبعين حجاباً غلظ كلّ حجاب مسيرة خمسمائة عام. ثمّ دُلّيَ لي رفرف أخضر يغلب ضوءه ضوء الشمس ووضعت على ذلك الرفرف. ثمّ احتملني حتّى وصلت إلى العرش فأبصرت أمراً عظيماً ثمّ تدلّى لي قطرة من العرش فوقعت على لساني فما ذاق الذائقون شيئاً قطّ أحلى منها وأنبأني الله بها نبأ الأوّلين والآخرين. (الخرفوتي ص١٨١، ١٨٢)

وفي قوله "وجلّ مقدار ما ولّيت من رتب" إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام والياً يوم القيامة على أهلها بالشفاعة حيث أعطى له الشفاعة ليلة المعراج وكذا ممّا أعطى له فيها ما أوحى إليه من أنّ الجنّة محرّمة على الأنبياء حتّى تدخلها وعلى الأمم حتّى تدخلها أمّتك. وقوله تعالى له عليه الصلاة والسلام لولاك لما خلقت الأفلاك. وكذا أعطى له فيها قوّة جبروتية يُهْلِكُ بها أعداءه وغير ذلك ممّا لا يحيط به القلم. وفي قوله ما أوليت من نعم إشارة إلى إعطاءه تعالى له عليه الصلاة والسلام فيها علم الأوّلين والآخرين وجعل أمّته خير الأمم وإرسال النصيحة لأمّته حيث روى عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال شكا أي الله تعالى من أمّتي ليلة المعراج شكايات الأولى أنّه تعالى قال إنّي لم أطلب منهم اليوم عمل الغد وهم يطلبون منّي رزق الغد. والثانية أنّه قال لا أدفع أرزاقهم إلى غيرهم وهم يدفعون عملهم إلى غيري. والثالثة أنّه قال إنّهم يأكلون رزقي ويشكرون غيري ويخونون معي ويصالحون خلقي. والرابعة أنّ العزّة لي وأنا المعزّ وهم يطلبون العزّ من سواي. والخامسة أنّي خلقت النار لكلّ كافر وهم يجتهدون أن يوقعوا أنفسهم فيها. وقال قل لأمّتك إن أجبتم أحداً لإحسانه إليهم فأنا أولى به لكثرة نعمتي عليهم. وإن خفتم أحداً من أهل السماء والأرض فأنا أولى بذلك لكمال قدرتي. وإن أنتم رجوتم أحداً فأنا أولى به. وإن أنتم استحييتم من أحد لجفاء كم إيّاه فأنا أولى به لأنّ منكم الجفاء ومنّي الوفاء. وإن أنتم آثرتم أحداً بأموالكم وأنفسكم فأنا أولى بذلك لأنّي معبود كم. وإن صدقتم أحداً في وعده فأنا أولى بذلك لأنّي أنا الصادق. وكذلك قال تعالى له عليه الصلاة والسلام يا محمّد لم أكثر مال أمّتك لئلّا يطول حسابهم يوم القيامة. ولم أطل أعمارهم لئلّا تقسو قلوبهم. ولم أفجأهم بالموت لئلّا يكون خروجهم من الدنيا بدون التوبة. وأخّرتهم في الدنيا عن الآخرين لئلّا يطول في القبور حبسهم كذا في روح البيان. (الخرفوتي ص١٨٣، ١٨٢)

رقم البيت (١١٦، ١١٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيتين الأخيرين من الفصل السابع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

بشرى لنا معشر الاسلام إنّ لنا
من العناية ركنا غير منهدم

لما دعا الله داعينا لطاعته
بأكرم الرسل كنّا أكرم الأمم

إذ قد بيّن الناظم الفاهم من بداية قصة الاسراء والمعراج الى ماقبل هذين البيتين مايدل على علو همته وسموّ درجته وفضله على الملائكة والانبياء والرسل الكرام وشرفه على جميع الانام بماخُصّ من المزايا التى لاتحصى والفضائل التى لاتستقصى والحظوة والزلفى عند الملك المنعام وما أسبغ عليه من معارف وحكم كثيرة فى كلمات يسيرة وغيرها من نعم غزيرة. اراد ان يصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بمايؤكد المعنى الذى مضى فيما يخصّه صلى الله تعالى عليه وسلم مشوباً بذكر ماحصل لأمته صلى الله تعالى عليه وسلم بسببه من العناية السرمدية والسعادة الابدية وانه صلى الله تعالى عليه وسلم غدا لهم ركناً لايزول وسنداً لا يحول. فهو صلى الله تعالى عليه وسلم لهم الى الابد. وحكمه ومدده يدوم الى آخر الامد. اليه بأذن ربه المرغب فى الرغائب واليه المرهب لدفع الشدائد والمصائب هذا هو المعتقد الذى مضى عليه السلف والخلف وتوارثه المسلمون فى سائر الازمنة من حياته وبقاء حرمته بعد وفاته واستمرار مدده ودوام حكمه وولايته فلانزال فى عهده ورعايته ومن لم يرذلك لم يذق طعم الايمان ولاحلاوة. وإذ سمّى الله داعينا لطاعته اكرم الرسل اقبل الله علينا باستجابتناله فجعلنا اكرم الامم. انشأ الناظم الفاهم يقول:

بشرى لنا معشر الاسلام ان لنا
من العناية ركناً غير منهدم

لما دعا الله داعينا لطاعته
بأكرم الرسل كنّا أكرم الأمم

بشرى مصدر "بشرته بكذا" من البشارة ويرادبه الخبر السار المغير للبشرة. وقد يراد به الطيبة والبهجة الحاصلة به. وبشرى لنا اما خبر مبتدأ محذوف اى حاصل البيان المذكور بشرى ولنا صفة أو مبتدأ وخبره محذوف أى بشرى لنا قد ثبتت أو قوله بشرى مبتدأ ولنا خبره. ومعشر جماعة. انّ لنا استئناف انّ بكسر الهمزة على الاستيناف البيانى أو بفتحها على وجه التعليل. والمراد من العناية الّتى ذكرها الناظم الفاهم فى البيت السابق مزيد الاعتناء بمصالحهم. والكرامة لهم وهى العنايات الأزليّة الّتى هى السعادة الأبديّة وهى الخصائص الّتى لم توجد فى سائر الأمم منها إحلال الغنائم ولم تحل لأمّة قبلها. ومنها أنّه جعل الأرض لهم مسجداً. ومنها أنّه جعل تراب الأرض لهم طهوراً. ومنها الوضوء فإنّه لم يكن إلّا للأنبياء دون أممهم. ومنها مجموع الصلوات الخمس ولم تجمع لأحد غيرهم. ومنها الأذان والإقامة. ومنها البسملة حيث لم تنزل على أحد من الأمم. ومنها التأمين خلف

الإمام. ومنها الاختصاص بالركوع. ومنها الصفوف فى الصلاة كصفوف الملائكة. ومنها الجمعة. ومنها ساعة الإجابة التى فى الجمعة. ومنها أنّه إذا كان أوّل ليلة من شهر رمضان نظر الله إليهم ومن نظر إليه لايعذّبه أبداً. ومنها تزيين الجنّة لهم فيه واستغفار الملائكة لهم فى كلّ ليلة منه وكون ذنوبهم مغفورة جميعاً فى آخر ليلة منه. ومنها السحور وتعجيل الفطر. ومنها ليلة القدر. ومنها أنّ لهم الاسترجاع عند المصيبة. ومنها أنّ الله تعالى رفع عنهم الإصر والأغلال. ومنها أنّ الله تعالى لم يجعل عليهم فى الدين من حرج. ومنها أنّ الله تعالى رفع عنهم المؤاخذة بالخطأ والنسيان. ومنها أنّ الإسلام وصف خاصّ بهم لا يشاركهم فيه غيرهم إلّا الأنبياء. هو سمّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ـ الحج: ٧٨) هو سمّاكم يعنى أنّ الله تعالى سمّاكم المسلمين من قبل يعنى من قبل نزول القرآن فى الكتب المتقدّمة وفى هذا أى فى الكتاب. هذا قول أكثر المفسّرين. وقال ابن زيد هو يرجع إلى إبراهيم أى أنّ إبراهيم سمّاكم المسلمين فى أيّامه من قبل هذا الوقت وفى هذا الوقت وهو قوله (ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك) كذا فى معالم التنزيل للبغوى. ومنها أنّ شريعتهم أكمل الشرائع. ومنها أنّهم لايجتمعون على الضلالة. ومنها أنّ إجماعهم حجّة واختلافهم رحمة. ومنها أنّهم أقلّ الأمم عملاً وأكثرهم أجراً. ومنها أنّ الطاعون شهادة ورحمة لهم وكان على سائر الأمم عذاباً. ومنها أنّهم إذا شهد منهم اثنان لعبد بخير وجبت له الجنّة. ومنها أنّهم أوتوا الإسناد وهو خصيصة وفضيلة من خصائص هذه الأمّة. ومنها انّهم أوتوا تصنيف الكتب. ومنها أنّ فيهم أقطاباً وأوتاداً ونجباء وأبدالاً. ومنها أنّهم يدخلون قبورهم بذنوبهم ويخرجون منها بلاذنوب لأنّها تغفر لهم باستغفار المؤمنين لهم. ومنها أنّهم اختصّوا فى الآخرة بأنّهم أوّل من تنشقّ عنهم الأرض من بين الأمم. ومنها أنّهم يدعون يوم القيامة غرّاً محجّلين من آثار الوضوء. ومنها أنّهم يكونون فى الموقف على مكان عال. ومنها أنّهم يؤتون كتابهم بأيمانهم. ومنها أنّهم يدخل الجنّة منهم سبعون ألفاً بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر. ومنها أنّهم يدخلون الجنّة قبل سائر الأمم.

ركنا هو مايعتمد عليه. وأراد به نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّذى جاء نابشريعة لم تنسخ. غير بالنصب صفة ركناً. منهدم اى متغير وزائل لعدم لغيّر شريعته وزوالها. إذ لايعتريها نسخ بل هى باقية الى يوم القيامة.

قوله لمّا حرف وجود لوجود عند سيبويه. وظرف بمعنى حين عند ابن فارس. يليها فعل ماض لفظاً أو معنى. ودعا بمعنى سمّى. الله فاعل دعا. داعينا أى سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهو مفعول أوّل لِدَعَا. وسكن آخره للضرورة. أو لغة كما فى قوله: أعط القوس باريها. وتسمية النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم داعياً مأخوذ من قوله تعالى (وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً). لطاعته متعلّق بدعا. والضمير للّه تعالى. بأكرم الرسل مفعوله الثانى تعدّى إليه بالباء. كنّا من أجل ذلك. أكرم الأمم السالفة لأنّ شرف التابع بشرف المتبوع. فكما أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أشرف الرسل كذلك أمّته أشرف الأمم.

ويدلّ على أفضليّة هذه الأمّة ما ذكره أبونعيم فى الحلية عن أنس أنّه قال قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم أوحى الله تعالى إلى موسى نبىّ بنى إسرائيل أنّ من لقينى وهو جاحد بأحمد أدخلته النار. قال ياربّ ومن أحمد؟ قال تعالى ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منه. كتبت اسمه مع اسمى فى العرش قبل أن أخلق السماوات والأرض. وأنّ

الجنّة محرّمة على جميع خلقي حتّى يدخلها هو وأمّته. قال ومن أمّته؛ قال الحمّادون يحمدون صعوداً وهبوطاً وعلى كلّ حال يشدّون أزرهم أوساطهم ويظهرون أطرافهم صائمون بالنهار ورهبان باللّيل. أقبل منهم اليسير. وأدخلهم الجنّة بشهادة أن (لا إله إلّا الله). قال موسى يا ربّ فاجعلني نبيّ تلك الأمّة. قال نبيّها منها. قال اجعلني من أمّة ذلك النبي. قال استقدمت واستأخرت ولكن سأجمع بينك وبينه في دار الجلال. (الخرفوتي ص١٨٥، ١٨٣، ١٨٦)

وحاصل معنى البيتين بشرى عظيمة لنا أيّها المسلمون لأنّ لنا شريعة غير منسوخة. ولمّا سمّى الله تعالى نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم بأكرم الرسل كنّا أكرم الأمم السالفة قبل مجيء الإسلام مصداقه قوله تعالى (كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس). أي أنتم خير أمّة وإنّما كانت أمّته خير الأمم لأنّه خير الرسل.



الفصل الثامن

فی جہاد النبی (صلّی اللہ تعالٰی علیہ وسلّم)

رقم البيت (١١٩،١١٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام اجمعين ومن تبعهم بأحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيتين الأولين من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

راعت قلوب العدى أنباء بعثته

كنبأة أجفلت غفلاً من الغنم

وقوله:

ما زال يلقاهم فى كلّ معترك

حتّى حكوا بالقنا لحماً على وضم

اخذ الناظم الفاهم بعد ذكره قصّة الإسراء والمعراج يشير الى جملة ما انتشر من خبره صلى الله تعالى عليه وسلم قبل مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم مقروناً بوصف ما قذف ذلك من الرعب فى قلوب العدى وما صار اليه حالهم لما سمعوا تلك الانباء وهم فى غفلة توطئة لما قام به صلى الله تعالى عليه وسلم من مجاهدة الكفار وما لقيه الكفرة على يديه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وعلى أيدى المؤمنين من الهوان فانشأ يقول: راعت قلوب العدى أنباء بعثته. البيتين.

راعه أى أعجبه وراعه خوّفه. راعت قلوب العدى أى أفزعت قلوب العدى وقلوب العدى بالنصب مفعول راعت وهو جمع قلب وهو محلّ إدراك و كيفيّة إدراكه مجهولة. والعدى بكسر العين مقصوراً جمع عدوّ كالأعداء والمراد أعداء الدين من الكفار والمشركين والأنباء جمع نبأ بمعنى الخبر وهو بالرفع فاعل راعت والبعثة مصدر غلب استعماله فى النبوّة والرسالة والضمير راجع إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم والمراد الأنباء الّتى صدرت من الكهّان والرهبان قبل ولادته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وبعدها أى الأخبار الدّالّة على وجوده صلّى الله تعالى عليه وسلّم وعموم بعثته وظهور دينه على سائر الأديان ونسخ شريعته لسائر الشرائع وبقاءها إلى يوم القيامة وغير ذلك ممّا منعه الله. أشار الناظم الفاهم فى الفصل الرابع إلى بعض ما ذكر وخصّه به الله سبحانه وتعالى من بين سائر الخلائق. ولمّا راعت هذه الأخبار قلوب العدى وأفزعتهم وهم غافلون عن دين الإسلام كانت تلك الأنباء فى كمال روعتها وشدّة إخافتها كنبأة وهى الزأرة من الأسد. أجفلت أى أفزعت. غفلاً جمع غافل. من الغنم جار ومجرور صفة غفلاً ومن بيانيّة مشوبة بإفادة التبعيض.

وحاصل المعنى أنّ أخبار نبوّته وآثار بعثته أفزعت قلوب الأعداء من الكافرين من أهل الكتاب والمشركين مثل صيحة الأسد أهربت الأغنام الغافلة وفرّقت جمعهم بهيبة عالية. وفى هذا البيت إشارة إلى نصرته عليه الصلاة والسلام بالرعب إذ ورد فى الحديث الصحيح أنّه عليه الصلاة والسلام قال نصرت بالرعب مسيرة شهر وفى حديث شهرين حيث وقعت الهيبة فى قلوبهم بلا جهاد ولا مقاتلة بل من عند الله تعالى فكانوا يجيئون من الأقطار

ويؤمنون بالنبي المختار صلّى الله تعالى عليه وسلّم . (الخرفوتي ص١٨٦)

واستطرد الناظم الفاهم فيما يلي من البيت يصفه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالمصابرة والصمود في وجه الكفرة وأنّه صبر وصابر واستمرّ يلقاهم حتى تركهم لحماً على وضم ما زال بمعنى ما دام مجازاً يلقاهم من اللّقاء بمعنى الملاقاة ويقرأ بالإشباع والضمير المستتر في قوله يلقاهم فاعل يلقى راجع إلى النّبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم والضمير المنفصل وهو هم راجع إلى الكفرة في كلّ معترك جار ومجرور متعلّق بقوله يلقاهم ومعترك بضمّ الميم وفتح التاء أي محلّ المعركة والمكان الّذي وقعت فيه المحاربة مع الكفرة وذلك تارة بنفسه أي يلقاهم صلّى الله تعالى عليه وسلّم بنفسه تارة وأخرى بخيله ورجله في سراياه وبعوثه. وحتى حكوا أي إلى أن شابهوا. حكوا بمعنى شابهوا لكثرة ما أوقعه بهم من القتل والجراحات. بالقنا وهو بفتح القاف بمعنى الرمح والباء فيه للسببيّة وفيه حذف مضاف أي بسبب طعن القنا. و كذلك بضرب السيوف و كذلك بالرمي بالسهام والرشق بالنبال ففيه اكتفاء ولحماً بالنصب مفعول لحكوا. ووضم جار مجرور صفة لحماً والوضم ما يضع القصّاب اللّحم عليه معدّاً لمن يأخذه من خشب أو غيره. ويقال لكل ذليل حقير على طريق المثل: لحماً على وضم.

وحاصل المعنى دام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم يجاهد أعداء الإسلام فيكلّ معركة و كتيبة حتى تركهم جرحى وقتلى على رؤوس القنا مشابهين اللّحم الموضوع على الخشب والكلاليب والمتروك في العيان بلا حجب. والبيت الثاني ينظر إلى قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنا نبيّ السيف والملحمة. ولا يخفى ما في البيتين من تشبيه الأصحاب بالقصّاب والكفّار بالغنم ورماح الأصحاب بسلاح القصّاب مع الإشارة إلى كمال شجاعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم وشجاعة أصحابه وأتباعه وأحزابه و كون قلوب الأعداء في غاية الجبانة في السرّ والعلانية و كون موتاهم معلّقة على الرماح في فضوح و كونهم أذلّة حتى كأنّهم لحم على وضم.

ولعلك تتفطن بما أُلقِي عليك من أنّ البيتين اشتملا على استعارة تمثيلية بقرينة ماذكر من تشبيه حال النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأصحابه مع الكفرة وماصارت إليه حالهم وماحلّ بهم من الهوان حتى صيّرهم النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم في المعارك لحماً على وضم على الحقيقة. ويقال هذا أيضاً للحقير الذليل على سبيل الاستعارة. فالكل محتمل بل واقع كما لا يخفى.

رقم البيت (١٢٠-١٢١)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

نحمده ونصلي ونسلم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام اجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيتين الثالث والرابع من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

ودّوا الفرار فكادوا يغبطون به
أشلاء شالت مع العقبان والرّخم

وقول الناظم الفاهم:

تمضی اللّیالی ولا یدرون عدّتها
ما لم تکن من لیالی الأشهر الحرم

أخذ الناظم الفاهم یبیّن فی البیتین ما تحدّث عن ملاقاته صلی الله تعالی علیه وسلم بالکفار وترکهم قتلی فی المعارک لحماً علی وضم أخذ یبین ما حصل لبقیّتهم لما رأوا ما حلّ بقتلاهم من الانهزام وایثرهم الاحجام مع انه من اقبح الخصال واشنع الاحوال ولما رأوا انهم لاینجون حتی بالفرار کادوا یغبطون ویتمنون لو کانوا أشلاع وقطعا رفعتها العقبان او شالت مع الرخم فانشأ یقول:

ودّوا الفرار فکادوا یغبطون به
أشلاء شالت مع العقبان والرّخم

تمضی اللّیالی ولا یدرون عدّتها
ما لم تکن من لیالی الأشهر الحرم

ودّوا من الودّ بمعنی المحبّة یقال ودّه أی أحبّه أو بمعنی التمنّی یقال ودّه أی تمنّاه اه. والمعنی علی هذا ودّوا الفرار أی تمنّوا الفرار وضمیر الجمع یعود الی الکفار. والفرار بالنصب مفعول ودّوا. والفاء فی قوله فکادوا للعطف والتفسیر. وکادمن افعال المقاربة ای قربوا. ویغبطون فی محلّ النصب خبر کاد. وهو من غبط یغبط کضرب یضرب وقال فی القاموس کضرب وسمع والاسم الغبطة بکسر الغین وهی أن یتمنّی المرء أن یحصل له مثل ما حصل لغیره من النعمة من دون أن یتمنّی زوالها عنه وقد یراد بالغبطة ما یلزمها من المحبّة والسرور والمراد ههنا هو المعنی الأوّل أی التمنّی وبه متعلّق بیغبطون وهو فی محلّ النصب حال من فاعل یغبطون والضمیر للفرار والباء بمعنی علی ای علی الفرار والباء بمعنی علی وعلی تفید معنی مع یعنی یتمنّون مع الفرار فحاصل هذا أنّ الباء ههنا للملابسة أی یغبطون متلبّسین بالفرار. وقال الشیخ زاده یجوز ان تکون الباء للسببیة فیکون الضمیر علی هذا للنبی صلّی الله تعالی علیه وسلم. واشلاء بالنصب مفعول یغبطون وهی کأشیاء فی الزنة والمنع من الصرف جمع شلو بکسر الشین بمعنی قطعة اللحم أو بمعنی العضو وشالت من شال یشیل یجیء لازما ومتعدّیاً ومعناه رفع أوارتفع وجملة شالت فی محلّ النصب صفة أشلاء. والضمیر فی شالت راجع الی أشلاء. ومع حال من فاعل شالت فهو فی محلّ النصب. والعقبان جمع عقاب. وهو طائر من کواسر الطّیر قویّ المخالب مسرول له منقار قصیر أعقف حادّ البصر. وفی المثل أبصر من عقاب. یطلق علی الذکر والأنثی والجمع أعقب وعِقبان کذا فی المعجم الوسیط. ولم یتعرّض فی المعجم الوسیط لکونه اسم جنس أو اسم جمع کما أنّه لم یذکر کما صنع فی القاموس.... الرخم بالهاء فقال واحده رخمة وهذا یدلّ علی أنّ الرخمة اسم جنس یقع علی القلیل والکثیر. وهو طائر غزیر الریش أبیض اللّون مبقّع بسواد له منقار طویل قلیل التقوّس رمادی اللّون إلی الحمرة وأکثر من نصفه مغطّی بجلد رقیق وفتحة الأنف مستطیلة عاریة من الریش وله جناح طویل مدبّب یبلغ طوله نحو نصف متر والذنب طویل به أربع عشرة ریشة والقدم ضعیفة والمخالب متوسطة الطول سوداء اللّون. واللّبنُ الغلیظُ کذا فی المعجم الوسیط. وقال فی القاموس والرخم

محرّكة اللّبن الغليظ والعطف والمحبّة واللّين. يقال ألقي عليه رخمته. ورخمه وطائر الواحدة بهاءٍ يطلى بمرارته لسمّ الحيّة وغيرها. والتبخير بجفيف لحمه مخلوطاً بخردل سبع مرّات يحلّ المعقود عن النساء. ووضع ريشة من أيمنها بين رجلي المرأة يسهّل ولادها ويبخّر بزبله لطرد الهوامّ ويداف (أي يُخلَط ويُبلُّ ويُسحَق) بخلّ خمر ويطلى به البرص فيغيّره وكبده تشوى وتسحق وتداف بخمر وتسقى المجنون ثلاثة أيّام كلّ يوم ثلاث مرّات فيبرئه.

قال الخرفوتي الرخم بفتحتين جمع رخمة وهو أيضاً نوع من الطير الّذي يقع على الميتة وفي بعض الأوقات يرفع الدجاجة. ومن قال إنّ الرخم جنس واحده رخمة فقد غفل عن كتب اللّغات كما لا يخفى على الثقات (ص ۱۸۸).

وهذا تعريض من العلامة الخرپوتي بالعلامة الشيخ زاده الذى صرّح بأن الرخم جنس وعسى ان نحقق الامر في التتمة فانتظر.

وحاصل المعنى البيت كما قال العلّامة الخرفوتي أنّ أهل الشرك والعناد انهزموا في الجهاد وتمنّوا الفرار من مجاهدة سيّد الأبرار فقاربوا من كمال خوفهم ونفرة جوفهم أن يكونوا مثل قطع اللّحم الّتي ترفعها الطيور (ص ۱۸۸).

ولما تمادت بهم الشدايد واستمر بهم الفزع والجزع حتى كانوا في شغل شاغل وتمضي الليالي والايام وهم في ذهول فلا يدرون عدّتها مالم تكن من الشهر الحرام كما بينه الناظم العلّام فقال:

تمضي اللّيالي ولا يدرون عدّتها

ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم

وقوله: تمضي بمعنى تمرّ والليالي فاعل تمضي وفي الليالي تغليب المونث على المذكر اعني الايام فانّه وان كان الأصل تغليب المذكّر على المؤنّث كما في القمرين للشمس والقمر وكما في الآيات الكثيرة كقوله تعالى (يا أيّها الّذين آمنوا) لكن غُلّب المؤنّث ههنا على خلاف الأصل ولأنّ في ذكر اللّيالي إشعاراً بسوء حالهم فإنّ ظلمة الزمان وسواده كناية عن ذلك (خرفوتي ص ۱۸۸).

وكثيراً مّا يستعمل اللّيالي ويراد بها الأيّام واللّيالي وقد غلب ذلك عند ذكر الشدائد وذلك لأنّ مقاساة ذوى المحن والأحزان في اللّيالي أشدّ ممّا في النهار. وأمّا ههنا فلأنّ الخوف في اللّيالي أكثر كما ينبئ عنه قوله تعالى (فيه ظلمات ورعد وبرق). والبيتان فيهما تأكيد لإفادة أنّهم غُلِبوا ومزيد بيان أنّهم قُهِروا حيث وصفهم بأنّهم يفرّون فيدركهم الشجعان فيغبطون على عضو اختطفه الرخم والعقبان ولكمال حيرتهم ودهشتهم تمضي اللّيالي ولا يشعرون بمضيّ الأزمان غير أنّهم يترقّبون وينتظرون مجيء الشهر الحرام ليتخلّصوا عن قتال المسلمين (شيخ زاده ص ۱۸۸).

وقوله: ولا يدرون الواو للحال أي والحال أنهم لا يعلمون وعدّتها بالنصب مفعول يدرون والعدّة بكسر العين بمعنى العدد والضمير يرجع الى الليالي اى لا يعرفون عدد الايام والليالي بالحساب لشدّة ما هم فيه من العذاب الذى أوقعه بهم النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأنزل بهم من أنواع الذلّ وأصناف الغموم. ومالم تكن أى مدّة دوام لم تكن أى تلك اللّيالي من ليالي الأشهر الحرم والأشهر جمع شهر والحرم بالجر صفة أشهر وهو بضمتين جمع حرام والمراد بالاشهر الحرم أربعة أشهر وهي ذوالقعدة وذوالحجّة والمحرّم ورجب كما قال الله تعالى (إنّ عدّة

الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فی كتاب الله یوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم. التوبة:۳٦). ثلاثة سرد القعدة والحجّة والمحرّم. وواحد فرد وهو رجب. كانت العرب تكفّ عن القتال فيها. حتی يجد الرجل قاتل أبيه فلا يتجاسر أن يقدم عليه بل لا يروّعه احتراماً لها وجاء صدر الإسلام بذلك ثمّ نسخ. (العمدة ص۵۵۳).

يريد الناظم الفاهم انهم فی ذهول عن عدة الليالی والايام و فی ترقب لدخول شهر حرام فانهم غافلون عن عدة الايام حتی يدخل الشهر الحرام. دخل فانّهم يدرون عدّتها لإمكان إمساك النبی صلّی الله تعالٰی عليه وآله وسلّم عن القتال فيها كما هو معلوم عندهم. وذلك لأنّهم يفيقون فيها عن سكرات الخوف وغمرات الشدّة فترجع إليه عقولهم ويعود إليهم بعض تمييزهم فيتفطنون لما مضی منها ويدرون عدّتها وهذا كان قبل إباحة القتال فی الأشهر الحرم ثمّ نسخ بقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الآية. وقال عطاء لم تنسخ حرمة القتال فيها وهو ضعيف. كذا أفاده العلّامة ابن حجر فی العمدة. (العمدة ص۵۵۳).

تتمّة: فی تسوية الخلاف فی الرخم هل هو اسم جنس. او اسم جمع. اقول وبالله التوفيق: لا يتم ما ادعاه العلامة الخرپوتی من الغفلة عن كتب اللغات علی العلامة الشيخ زاده حيث يقول: "ومن قال ان الرخم جنس واحده رخمة فقد غفل عن كتب اللغات". فان كتب اللغات ليست متضافرة علی ان الرخم جمع لان المعاجيم منها ما أورد الرخم. واقتفی بتفسير معناه وسكت عن كونه اسم جنس أو جمع ولم يتعرّض لبيان الواحد كأن يقول واحده رخمة كما هو ظاهر من صنيع المعجم الوسيط فيما تقدّم. وجری فی القاموس علی نفس المجری من عدم التعرض لبيان انه اسم جنس او جمع غير انه خالف صنيع المعجم الوسيط حيث تعرض لبيان الواحد كما مرّ نصه. وهذا يحتمل الوجهين فی الرخم. وقد يرجّح احتمال كونه جنسا صنيع المعجم حيث فسّره بأنه طائر الخ. فانه يصدق مفهومه علی القليل والكثير والواحد والجمع كما لا يخفی. وقول صاحب القاموس واحدته رخمة لا يعيّن وجه الجمع فأنه نظير شجر وشجرة ونخل ونخلة وتمر وتمرة و كذب و كذبة وغير ذلك مما لا يطرد فی كل كلمة اذ لا يطرد فی كل ما ذكر دعوی كونه اسم جمع. وتصريح بعض المعاجيم بأن الرخم جمع لا ينافی كونه اسم جنس وهاك شاهدا من لسان العرب فی نفس المادة. قال فيه ما نصه: الرخم اللبن الغليظ وقال فی موضع آخر: الرُخم كُتَلُ اللِّبَأ. والرخمة: طائر أبقع علی شكل النسر خلقة الا انه مبقّع بسواد وبياض يقال له الأنوق والجمع رَخَم و رُخُم. وخصّ اللّحيانی بالرخم الكثير. قال ابن سيده: ولا أدری كيف هذا الّا أن يعنی الجنس الخ. وهذا القول من ابن سيدة كما تری صريح فی افادة ان الجمع لا ينافی الجنس وان الجنس يحتمل القليل والكثير وقد يختص بحسب الاستعمال بالكثير فيكون جمعا وجنسا. فيطلق عليه اسم الجمع مع كونه جنسا زنة ومعنی. وبما قرّرنا آل الامر الی الوفاق وزال الشقاق والله ولیّ التوفيق.

وأزيدك بياناً فأقول جنس الشیء حقيقته وطبيعته المتمكّنه من أیّ فرد شاءت وهو الفرد المنتشر الذی يكتفی بثبوته فی تحقق الجنس ويقتضی نفيه بأنتفاء جميع الافراد. فينتفی بنفيه الجنس. فهو فی قوّة الجمع ولذلك فالقضيّة الايجابية ههنا موجبة جزئية تعمّ الكلية والسلبية سالبة كلية. ومن اجل هذا كان قولنا محمد رسول الله صلّی الله تعالٰی عليه وسلّم إيمانا بجميع الرسل حيث أثبتنا من خلال اعتقادنا حقيقة الرسول ولذلك صحّ ان يقال فی قوله تعالٰی (كذّبت قوم نوح المرسلين) انه اريد بالجمع جنس المرسل لأنّ قوم نوح انّما كذّبوا نوحاً

ولكنّهم اذ نفوا من خلال تكذيبهم حقيقة المرسَل لم يقتصر تكذيبهم على نوح فقط بل تعدّاه الى غيره فقد كذّب بذلك كما قال القرآن كذّب قوم نوح المرسلين.

هذا ملخص ما أفاده الامام الهمام جدنا الشيخ احمد رضا خان قدس سره مع زيادة بيان وايضاح لحديث القضية الايجابية والسلبية والتمثيل لذلك بشواهد التنزيل.

من هنا ظهر ان العلامة الشيخ زاده ليس فى غفلة عن كتب اللغة ولم يخرج عن حد الصواب ولاجاوز التحقيق فيما أصاب.

رقم البيت (١٢٢ـ١٢٣)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

نحمده ونصلى ونسلم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام اجمعين ومن تبعهم بأحسان الى يوم الدين.

وبعد فقد أخذنا فى شرح البيتين الخامس والسادس من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

كأنّما الدين ضيف حلّ ساحتهم
بكلّ قوم الى لحم العدى قرم

وقوله:

يجرّ بحر خميس فوق سابحة
يرمى بموج من الأبطال ملتطم

أخذ الناظم الفاهم فى البيتين يجلّى الدين فى العيون بشكل ضيف حلّ ساحة أهل الدين أو نزل بساحة الكافرين بكل سيّد شجاع شديد الشهوة إلى لحم أعداء المسلمين ويبيّن فى تمثيل بليغ وتشبيه بديع هيئة استتباع الدين لجيش المسلمين فى اندفاع ومسابقة واصطكاك أسلحتهم والتمثيل تضمّن بيان ما هو السبب فى فرار الكفّار وأنّ الكفّار وقعوا فيما وقعوا من وهنهم لأنّ دين الاسلام مُثّل فى أعينهم بتمثال سلطان نزل ضيفاً فى ساحة دارهم مستولياً على خطّ بلادهم وديارهم ومعه من جنودهم كلّ سيّد مطاع حريص لأكل الأعداء وسند شجاع مهيب فى عيون الأشقياء فلم يعلموا ما هو فقلقوا وتاهوا (الزبدة ص١٠١).

وصوّر الناظم الفاهم عجيب حالهم و غريب شأنهم وأخرجه مخرج حكاية متجدّدة حتى كأنّ الجيش بحر فوق خيل سابحة يرمى بموج من الأبطال يدفع بعضه بعضا ويلتطم فأنشأ يقول: كأنّما الدين ضيف حلّ ساحتهم البيتين.

كأنّما حرف تشبيه. الدين أى دين الإسلام مبتدأ خبره ضيف. والدين يجيء لمعان عدّة أوردها صاحب القاموس وهذا نصّه: الدّين بالكسر الجزاء وقد دنته بالكسر ديناً ويُكسَر والإسلام وقد دنت به بالكسر والعادة والعبادة والمواظب من الأمطار أواللّيّن منها والطاعة كالدينة بالهاء فيهما والذّلّ والداء والحساب والقهر

والغلبة والاستعلاء والسلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد واسم لجميع ما يُتعبّد الله عزّ وجلّ به والملّة والورع والمعصية والإكراه. ومن الأمطار: ما يعاهِد موضعاً فصار ذلك له عادة والحال والقضاء. ودنته أدينه: خدمته وأحسنت إليه وملكته. ودان يدين: عزّ وذلّ وأطاع وعصى واعتاد خيراً أوشرّاً. وأصابه الداء وفلاناً: حمله على ما يكره وأذلّه. والدين: الديانة والاعتقاد بالجنان والإقرار باللّسان وعمل الجوارح بالأركان والجمع أديُن وديون وأديان ويقال قوم دين أى دائنون. والدينة: الدِّين والدِّين والعبادة والطاعة (ج) دِيَن ويقال رأى فلان بفلان دِينَةً: رأى به سبب الموت. أتينا ببقيّة معان الدين من المعجم الوسيط ملتقطاً. وقوله ضيف معروف والتنوين فيه للتعظيم أى ضيف عظيم القدر. حلّ أى نزل. والساحة بمعنى ماحول الدار فالمعنى حلّ أى نزل ساحة الكفّار أو ساحة الصحابة فالضمير فى ساحتهم عائد على الكفّار كما قال بعض الشارحين وهو قضيّة السياق أو حلّ ساحة الصحابة فالضمير على هذا راجع للصحابة وهو المسموع من المشائخ والمفهوم بقرينة المقام. قوله بكل قرم حال من فاعل حلّ أى متلبّساً ومصحوباً. والقرم بإسكان الراء بمعنى السيّد الشجاع والمراد بكل قرم صحابة النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهم جند الله والسادات الكرام والباذلون مهجهم فى تشييد قواعد الاسلام. وإلى لحم العدى جار مجرور متعلّق بقرِم وقوله لحم العدى من قبيل وضع المظهر موضع المضمر لزيادة التمكّن ونكتته التصريح بوصفهم بالعداوة للمسلمين. والقرْم صفة بعد صفة لضيف أوصفة لكلّ قرم وهو الأقرب لفظاً ومعنىً والقرِم شديد الاشتهاء الى اللّحم. وحاصل المعنى على الوجه الأوّل كأنّما دين الإسلام ضيف حلّ ساحة الكفّار مع كلّ شجاع شديد الشهوة إلى لحم أعداء المسلمين. ومن شأن الضيوف إذا كانوا كراماً أن يَشْبَعوا عند المضيف لهم ممّا يشتهون. وحاصل المعنى على الوجه الثانى كأنّما دين الإسلام ضيف حلّ ساحة الصحابة مع كلّ شجاع شديد الشهوة إلى لحم العدا للمسلمين. ومن شأن المضيف أن يُشْبِع ضيوفه ممّا يشتهون. وعلى كلّ فالغرض من ذلك الإخبار بكثرة القتل فى الكفّار (باجورى ص٦٦).

قوله يجرّ بحر خميس. يجرّ أى يشيّع. بحر خميس أى جيشاً عظيماً كالبحر وهو من قبيل إضافة المشبّه به إلى المشبّه فهو كالبحر فى كمال تموّجه وشدّة إهلاكه وسمّى الجيش خميساً لأنّه خمسة أجزاء: مقدّمة وقلب وساقة وجناحان ويقال لهما ميمنة وميسرة. وفوق ظرف مكان ليجرّ. سابحة صفة لموصوف محذوف أى خيل جارية لاتتعب ركّابها كأنّها تسبح فى الماء لحسن جريها. وقوله يرمى الضمير راجع إلى البحر أو الخميس. وبموج جمع موجة وهو ما يرفعه الريح من الماء ويسيّره. من الأبطال جمع بطل وهو الشجاع الكامل سمّى بذلك لأنّ أقرانه تبطل حيلُهم عنده. وهو ظرف مستقرّ على أنّه صفة لموج فى محلّ الجرّ أى موج حاصل من الأبطال. أو بيان لقوله المؤخّر ملتطم. وملتطم بالجرّ صفة موج وهو على صيغة اسم الفاعل بمعنى ضارب بعضه على بعض من شدّة الهيجان والمراد من الموج الأفعال الواصلة من الأبطال إلى الكفّار من طعن وقتل وغيرهما. وفى تعبير الناظم بقوله فوق سابحة جعل البحر فوق السابحة وعكس ما هو المتعارف من كون السابحة فوق البحر. (العمدة ص٥٥٤-٥٥٩)

وقوله يجرّ استعارة تبعية شبه الاستتباع بالجر فجرت الاستعارة فى المصدر و تبعتها استعارة فى الفعل بأن شق من الاستتباع استتبع ومن الجرّ يجرّ وأطلق المشبه به وهو الجرّ وأراد به الاستتباع وهو المشبّه على وجه

الاستعارة التصريحية التبعية أو هو تخييل. وقوله بحر خميس استعارة بالكناية إذ يحتمل أنّه شبّه الخميس الّذى هو كالبحر بدابّة تجرّ برسن تشبيهاً مضمراً فى النفس وحذف اسم المشبّه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الجرّ فهو تقييد للاستعارة بالكناية۔

وحاصل معنى البيت ما زال النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم يجرّ ويقود جنداً تامّ الأطوار له خمسة أركان. كأنّهم بحر وكلّهم من الأشراف يجرى كلّهم على خيول جارية بالجريان اليسير ونوق سارية كجريان السفينة على وجه الماء الكبير إلى مضمار المعارك وميدان المهالك يرمى ذلك الجند سهاماً ورماحاً إلى الكفّار كأمواج البحار وهم أبطال تتصادم وتصطك أسلحتهم بالاضطراب (خرفوتى ص١٩٢)

قال العلّامة على القارى فى الزبدة عند شرحه للبيت الأوّل وهو قوله كأنّما الدين ضيف اھ: فيه إيماء إلى أنّ الدين يجب القيام بخدمته لوصوله والاختتام بحضرته وحصوله وإلّا فله الانتقال إلى قلوب أرباب الكمال وفيه إشعار بأنّ الضجع (أى القعود) من الضيف وأهل الارتحال ملّة الكفّار والجهّال. (الزبدة ص١٠٢)

رقم البيت (١٢٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام اجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين۔

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت السابع من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

من كل منتدب الله محتسب

يسطو بمستأصل للكفر مصطلم

شرع الناظم الفاهم يصف الأبطال الذابّين عن الدين والقائمين فى ابطال الضلال بالهمم العالية فى استجابتهم الله وللرسول. والمقاصد الغالية بطلب الحسبة والاجر من الله والابتعاد عن حظّ نفوسهم والاخلاص الله والاكتفاء بالله ومهارتهم فى استئصال مادة الكفر واصطلام أهله وحذاقتهم فى السطوة بكل مايستأصل دابر الكفر من سيف ورمح وسهم فأنشأ يقول:

من كل منتدب الله محتسب

يسطو بمستأصل للكفر مصطلم

من كل بدل من قوله "من الابطال" او بيان لها وهو الاوجه فان هذا البيت مسوق لوصف تلك الابطال بالهمم العالية والمقاصد الغالية. كما ان البيت الاول سيق لوصف الجيش بكسر العدو وغاية السودد ونهاية المدد. والمنتدب اسم فاعل من الانتداب بمعنى الاجابة للدعوة الى شىء بالحث والاغراء أى من كل مجيب لدعوة الله ففى قوله الله حذف مضاف. وضبطه بعض الشرّاح بفتحها على أنّه مفعول بمعنى مدعو ولكنّ الوجه الأوّل أوجه

والثاني لم يرتضه العلّامة ملّا على القاري وقال انّه في غير محلّه. وعلى كلّ فقوله لله متعلّق بمنتدِب أو منتدَب. وقوله محتسب بالجر صفة منتدب وهو ايضا اسم الفاعل من الاحتساب بمعنى طلب الثواب أي المدّخر ثواب عمله عند الله أو مكتف بالله عن كلّ من سواه كما في قوله تعالى حكاية (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل). وقوله يسطو أي يصول مع شدّة بطش و كمال قهر. بمستأصل من سيف ورمح وغيرهما من آلات القتال وهو من الاستئصال وهو اخذ الشيء من أصله. والظرف متعلق بيسطو والباء للمصاحبة أو للاستعانة. قوله للكفر أي لأهله مجاز بالحذف أو أراد بالكفر أهل الكفر على سبيل المجاز المرسل واللام فيه للتعدية. ومصطلم من الاصطلام بمعنى الاستئصال ففيه توكيد وهو صفة مؤكدة لمستأصل.

وحاصل معنى البيت أنّ الأبطال المهرة قائمون بإبطال أهل الضّلال كلّهم مجيبين لدعوة ربّهم الكبير المتعال راغبين إليه في الغنى والعيلة مع اجتهاد في إخلاص النّية بالحسبة الشاملة. يسطو أي يصول ويحول بقدرته تعالى وقوّته ملتبساً بمستأصل للكفر وأهله ومصطلم للباطل من أصله ونسله من آيات القتال من سيف ورمح ونصل (الزبدة ص١٠٢).

(تصحيح الخطأ قوله من آيات القتال صوابه من آلات القتال. وقوله من آلات القتال بيان لمصطلم).

رقم البيت (١٢٥-١٢٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام اجمعين ومن تبعه بإحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا اوان الشروع في شرح البيتين الثامن والتاسع من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

حتى غدت ملّة الاسلام وهي بهم
من بعد غربتها موصولة الرحم

مكفولة ابدا منهم بخير اب
وخير بعل فلم تيتم ولم تئم

لمّا فرغ الناظم الفاهم فيما تقدّم من بيان جرّة صلّى الله تعالى عليه وسلّم للجيوش المقاتلة في المعارك وسطوته مع اصحابه الابطال المندفعين في النضال لكل مستأصل لمادّة الكفر والضلال من آلات القتال المنتدبين للدعوى من الله والمحتسبين الاجر عند الله اراد ان يبيّن المدى الذى انتهى اليه جهاد العدى وما كانت عاقبة ملة الاسلام وكيف صين الدين بالنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ومن قام به من بعده من الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين حتى كانوا لها كخير أب وخير بعل فأنشأ يقول:

حتى غدت ملّة الاسلام وهى بهم (البيتين)

حتى هذه امّا غاية ليجرّ أو يسطو أوحتي التي يبتدأ بعدها الكلام وهي حرف العطف على التقديرين. وغدت

بمعنى صارت وملّة الاسلام من اضافة الاعم الى الاخص كشجر الاراك او من اضافة المسمى الى الاسم والملّة الدين السماوى لأنّها تملى من السماء۔ وهى بهم الواو للحال وهى مبتدأ وبهم ظرف مستقر خبر المبتدأ وضمير هى راجع الى الملة اى والحال انها منصورة بهم۔ والضمير فى بهم راجع الى الصحابة الابطال من بعد غربتها جارّ مجرور متعلق بغدت أو بموصولة الرحم وقوله موصولة الرحم خبر غدت وضمير المؤنّث فى غربتها راجع الى ملة الاسلام من بعد غربتها اى من بعد ضعفها وقطعها لما الفه الناس زمن الفترة من الضلالة والجهالة۔ موصولة الرحم فى غاية الظهور ونهاية القوّة وهو بالنصب خبر غدت. وفى قوله وهى بهم وجه آخر وهو أنّه جملة معترضة بين اسم غدت وخبرها للتنبيه على أنّ علّة وصلها بعد غربتها هو جهاد الصحابة للكفرة وقيامهم بأعبائها۔ والموصولة من الصلة والرحم القرابة وصلة الرحم عبارة عن رعاية الاقارب بزيارتهم وتفقّد خواطرهم وإعطاء نفقة من تجب عليه نفقته وفى الحديث صلوا أرحامكم ولو بالسلام. والمراد من صلة الإسلام الإكرام إليه بإحياءه وبإكثار أصحابه۔

وحاصل معنى البيت أنّه قد كانت نهاية جزء عليه الصّلاة والسّلام العسكر الكثير وفائدة صولتهم وحملتهم على أهل النار والزمهرير كون ملّة الإسلام والحال أنّها منصورة بهم ومصونة عندهم موصولة من أحبابه وأصحابه الّذين هم عزّزوها بإتلاف أبدانهم فى بابه ومن أتباعه وأتباع أتباعه ممّن اقتدى بكتابه ما دار الزّمان إلى يوم القيامة بدولابه بعد كونها غريبة ذات كربة وبعد أن لم يكن لها صحبة أحد. ثمّ إنّ فى هذا البيت إيماء إلى قوله عليه الصّلاة والسّلام: إنّ الدّين بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء (خرفوتى ص١٩٣)۔

ضبط بدأ بالهمزة أى جاء وظهر بين قوم لا يعرفونه ولا يقومون بأعباءه فهو مقطوع الرحم. ثمّ جاء النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم فوصلوا لحمته. (العمدة ص٥٦٣)۔

وقوله مكفولة امّا مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف تقديره هى أو خبر بعد خبر باعتبار المحل ومحلّه الرفع وامّا منصوب باعتبار اللفظ أو حال منه. مكفولة معناه محفوظة ومصونة. وأبداً منصوب على الظرفيّة. وهو بمعنى الدهر والزمان الطويل وبمعنى الدائم ومنهم متعلق بمكفولة والضمير للكفّار والمعنى محفوظة ومصونة من الكفّار عن أن يدخلوا فيها زيغاً وتغييراً أو اخفاء لشىء منها لأنّهم أعداء الدين وحرّاص على اطفاء نوره۔ قال الله تعالى (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون. (التوبة:٣٢))۔ وفى نسخة منه فالضمير للنبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو للخير على طريقة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أو لبحر خميس۔ قوله بخير أب متعلق بمكفولة وخير بعل عطف على خير أب وخير بعل أى زوج والمراد من كلّ من الأب والبعل هو النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم لأنّه أشفق على أمّته من الأب على أولاده وأقوم بمصالحهم من البعل على زوجاته وأهمّ المهمّات حفظ الشريعة حفظاً كاملاً وإضاءتهم بأنوارها وإزالة ظلمات الشرك عنهم وهدايتهم۔ قال الإمام ابن حجر: ويجوز أن يراد بالأب النّبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وبالبعل من يقوم بأعباء الشريعة بعده من الصحابة والعلماء والخلفاء الراشدين. وهذا هو الأنسب لأنّ البعل تكون كفالته للمرأة بعد كفالة أبيها لها واستمرّت لها تلك الكفالة أبداً (العمدة ص٥٦٩)۔

فلم تيتم الفاء تفريعية و تيتم من يتم ييتم كعلم يعلم يقال يتم الولد اذا مات ابوه وهو صغير واليتم

اصل معناه الانفراد ومنه الدرّة اليتيمة ويتم الولد بموت الأب وهو صغير لم يبلغ الحلم فى الآدميين وأمّا يتم البهائم فهو من ماتت أمّه وفى الطير من مات أبواه لأنّهما معاً يرزقان فراخهما. والمعنى اذا كانت الملّة محفوظة بخير أب دائماً فلم تصر يتيمة من جهة الأب. ولم تئم: عطف على لم تيتم وهو من آمت المرأة تئيم من باب باع يبيع اذا مات زوجها وخلت منه. ومنه قوله تعالى (وانكحوا الأيامى منكم) اى اذا كان لها زوج فلم تصر أيّماً من جهة البعل.

وحاصل معنى البيت ملّة الإسلام كانت كابن الكرام أو كبنت السلاطين العظام محفوظة ومصونة دائماً بالأب الّذى هو أكرم الأنبياء العظام وأصحابه الّذين هم أشرف الأنام وعلماء أمّته الّذين هم ورثته إلى يوم القيام وكانت كزوجة لها بعل أشرف البعول وهو النّبى الرّسول وأصحابه وعلماء أمّته الّذين كلّهم مرغوب ومقبول حيث كانوا فى إقامة امورها ورؤية مصالحها وحفظها من الأغيار من أهل الشّرك والكفّار فنعم الآباء والأزواج الكبار. (خرفوتى ص١٩٣-١٩٥)

رقم البيت (١٢٧-١٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيتين العاشر والحادى عشر من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم
ماذا رأى منهم فى كلّ مصطدم

وقوله:

فسل حنيناً وسل بدراً وسل أحداً
فصول حتف لهم أدهى من الوخم

استشعر الناظم الفاهم كأنّ قائلا يقول أيها الناظم البليغ أبدعت فى بيان الابطال وأحسنت فى صفتهم حتى حرّكت منّى شوقاً الى لقائهم. فهلّا تصوّرهم لى اذ تعذر اللقاء واجعلهم كأنّى أنظر اليهم فزدنى بياناً وأخبرنى ما شأنهم فى الثبات عند المصادمة وماذا لقى منهم من صادمهم فى كلّ مصطدم. واذ لم يمكن التفصيل فاذكر بعض مشاهدهم بالاجمال. ردّاً على سؤاله أنشأ الناظم يقول: هم الجبال البيتين.

قوله هم الضمير راجع الى الصحابة رضى الله تعالى عنهم وهم مبتدأ والجبال بالرفع خبر المبتدأ وهو جمع جبل والحمل من قبيل قولهم زيد أسد ووجه الشبه التمكّن والثبات وعدم الفرار أى مثلهم فى كمال الثبات وتمام القوّة وشدّة الظهور وكمال الارتفاع واهلاك من مالوا عليه عند المصادمة مثل الجبال وان شككت فى ذلك فسل الفاء فصيحة وسل من السؤال مخفّف بحذف الهمزة بعد القاء حركتها على ما قبلها. عنهم أى عن

الصحابة رضى الله تعالى عنهم جار مجرور متعلّق بسل. مصادمهم فى الحروب اسم فاعل من المصادمة والمصادمة اصطكاك أحد الجسمين بالآخر بنوع صلابة فيهما. ماذا رأى أى أىّ شىء شاهد البشر من القوّة التى لا تتكيّف والشدّة التى لا توصف وهو بدل اشتمال من ضمير عنهم. وفى قولهم ماذا صنعت وجهان: أحدهما أىّ شىء الذى صنعت. فعلى هذا ما اسم استفهام مبتدأ بمعنى أىّ شىء وذا اسم موصول خبر ما. والمعنى أىّ شىء الذى صنعت. والأحسن على هذا فى جواب السؤال الرفع ليطابق السؤال الجواب فى الاسميّة. والثانى بمعنى أىّ شىء صنعت. وعلى هذا فقوله ماذا فى محلّ النصب مفعول لصنعت. وعلى هذا التقدير ماذا كلمة واحدة. والأحسن فى جوابه النصب. وقوله منهم أى من الصحابة الأبطال رضى الله تعالى عنهم. فى كلّ مصطدم أى فى محلّ اصطدامهم مع أعدائهم اللئام الكفرة الفجرة فى الحروب. فاذا سألت المصادم فانّه يخبرك بما ذا رأى منهم. ولايسعه انكاره بذلك. إمّا بلسان الحال بعد هلاكه أو بلسان المقال بعد ادباره. ثمّ شرع يفصّل ما أجمله بعض التفصيل فقال:

فسل حنيناً وسل بدراً وسل أحداً
فصول حتف لهم أدهى من الوخم

فسل معطوف على سل قبله. حنيناً بالتصغير وهو واد بين مكّة والطائف أحد أسواق الجاهليّة سمّى باسم من نزل به من العماليق وهو حنين ابن أمامة. بدراً وهو بين مكّة والمدينة. الى المدينة أقرب وبه قرية مشهورة سمّى باسم من نزل به وهو بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة وقيل بدر بن الحارث حافر بئرها وقيل سمّى باسم البئر وسمّيت البئر بدراً لاستدارتها كالبدر أو لصفائها ورؤية البدر منها. وسل أحداً بضمّ الهمزة والحاء المهملة جبل معروف بالمدينة على أقلّ من فرسخ منها وكانت الوقعة المعروفة عنده. وسمّى أحداً لتوحّده وانفراده عن غيره من الجبال. وسل حنيناً أى أهل حنين كما فى قوله تعالى (واسئل القرية) أو زمن حنين ولعلّه الأوجه ويوجّهه مجىء فصولَ حتفٍ بدلاً عن حنين وما بعده ويُحتمل أن يكون المراد من هذه المواضع أنفسها إذ كثيراً ما يخاطب الأطلال والرسوم والربوع والمنازل والأزمنة والأمكنة للاعتبار بالمذكور لداعٍ خطابى وليس القصد إلى حقيقة الأمر بالسؤال بل المقصود به بيان التحقّق والتقرّر بلا اشتباه. والفصول جمع فصل وهو طائفة من الزمان فصلت وعيّن مبدأها ومنتهاها كما يقال لطائفة من الكلام. فصول حتف بالنصب أى عن فصول حتف لهم فهو على المجاز بالحذف والايصال كما فى (واختار موسى قومه). وبالرفع خبر مبتدأ محذوف أى أوقات حربه معهم فى هذه المواضع فصول حتف. ولهم صفة حتف أى حاصل لهم ويروى بهم أى ملتبس بهم. وأدهى أى أشدّ اصابة وتأثيراً صفة فصول أو حتف. وقوله أدهى من الوخم أى أشدّ داهية عليهم لما يصيبهم فيه من الوخم وهو الوباء فانّ من يموت منهم فى زمن الوباء مع تطاوله لايبلغ كثرة من يموت منهم فى زمن مقاتلة المؤمنين لهم مع قصره كساعة واحدة.

أشار الناظم الفاهم إلى ثلاث غزوات إحداها غزوة حنين. بيانها أنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم لمّا فتح مكّة اقام بها خمس عشرة ليلة يقصر الصلوة وكان فتحه اياها فى عشر يقين من رمضان سنة ثمان فلما سمعت به هوازن جمعها مالك بن عوف النصرى فاجتمعت اليه مع هوازن ثقيف وبنو نضر وخثعم وسعد بن بكر وناس يسير من بنى هلال وقصد واضرب رسول الله فلما سمع بهم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم امر الناس

بالخروج الی حنین یوم السبت لست لیال خلون من شوال فخرج فی عشرة آلاف من المسلمین الذین شھدوا فتح مکة وثلاثة آلاف من الطلقاء وانتھی إلی حنین مساء لیلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال وقد بعث مالك بن عوف عیونا من رجاله فأتوه وقد تفرّقت أوصالھم فقال ویلکم ما شأنکم؟ قالوا رأینا رجالاً بیضاً علی خیل بلق واللہ ما تماسکنا أن أصابنا ما نری وإن أطعتنا رجعت بقومك قال أفّ لکم بل أنتم أجبن أھل العسکر. وقال رجل من المسلمین لن نغلب الیوم من قلة فساءت رسول اللہ صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم تلك المقالة وذلك قوله تعالی (ویوم حنین إذ أعجبتکم کثرتکم) ثمّ ساروا ولایعلمون خبر القوم فی عمایة الصبح. قال جابر بن عبد اللہ وکان القوم قد کمنوا فی شعاب الوادی وتھیّأوا وأعدّوا فواللہ ما رأینا إلّا الکتائب قد شدّت علینا شدّة رجل واحد فانھزم الناس راجعین وأدرك المسلمین کلمة الإعجاب بالکثرة ونسیان أنّ اللہ ھو الناصر لا کثرة الجنود فانھزموا لایلوی أحدھم علی أحد و بقی رسول اللہ صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم وحده وھو ثابت فی مرکزه لیس معه الا عمّه العباس آخذا بلجام بغلته البیضاء و ابو بکر و عمر وعلی وابو سفیان ابن الحارث بن عبد المطلب و أخوه زمعة والفضل بن العباس واسامة ابن زید واخوه ایمن بن عبید الخزرجی ثم طفق رسول اللہ صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم یرکض بغلته نحو الکفار ویقول انا النبی لا کذب انا ابن عبد المطلب. والعباس اخذ بلجام بغلته یکفه ثم قال یارب ائتنی بما وعدتنی وقال للعباس وکان صیّتا صح بالناس فنادی الانصار فخذا فخذا ثم نادی یا اصحاب الشجر یا اصحاب سورة البقرة فجاء الناس کأنّھم عنق فالتفت رسول اللہ صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم فاذا عصابة من الانصار فقال أمعکم غیرکم؟ قالوا لا یانبی اللہ لو عمدت الی برك الغماد من ذی یمن لکنا معك ثم انزل اللہ تعالی نصرة و ھزم عدوھم و نزلت الملائکة علیھم البیاض علی خیول بلق فنظر رسول اللہ صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم الی قتال المسلمین فقال ھذا حین حمی الوطیس ثم اخذ کفا من تراب فرماھم به وقال انھزموا ورب الکعبة شاھت الوجوه فمرت کانھا غمامة قد خلت فی اعینھم کلھم وانھزموا فرکض رسول اللہ صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم خلفھم.

والثانیة غزوة بدر الکبری وھیکانت فی السنة الثانیة من الھجرة والذی ھاج ھذا الحرب ھو ان رسول اللہ صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم لما سمع ان ابا سفیان قد اقبل من الشام فی عیر لقریش عظیمة فیھا اموال کثیرة لھم وفیھا ثلاثون راکبا من قریش ندب المسلمین الیھم و قال ھذه عیر قریش وفیھا اموالھم فاخرجوا الیھا لعل اللہ تعالی بفتحھا لکم فانتدب الناس فخفّ بعضھم وثقل بعضھم وذلك انھم لم یظنوا ان رسول اللہ صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم یلقی حربا وکان ابو سفیان حین دنا من الحجاز یتجسس الاخبار و یسأل من یلقی تخوفا علی العیر حتی أصاب خبرا من بعض الرکبان ان محمدا علیه الصلوة والسلام قد استنفر اصحابه لك ولعیرك فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاری فبعثه الی مکة وأمره أن یأتی قریشاً فیستنفرھم إلی أموالھم ویخبرھم أنّ محمداً (صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم) قد عرض لھا فی أصحاب فخرج ضمضم بن عمرو سریعا إلی مکة فلمّا بلغ بالأبطح جعل یصرخ ببطن الوادی واقفاً علی بعیره وشقّ قمیصه وجدع بعیره وحوّل رحله وھو یقول یا معشر قریش اللطیمة اللطیمة اموالکم مع ابی سفیان قد عرض لھا محمد فی أصحابه لا أری أن تدرکوھا الغوث الغوث فتجھز الناس سراعاً وقالوا أیظنّ محمّد صلّی اللہ تعالی علیه وسلّم وأصحابه کعیر ابن الحضرمی کلّا واللہ لیعلمنّ غیر ذلك. فکانوا بین

رجلين اما خارجاً واما باعثاً مكانه رجلا و اوعبت قريش ولم يتخلف من اشرافهم احد الا ابا لهب بن عبد المطلب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ..... وقام سهيل بن عمرو فقال من اراد ظهرا فهذا ظهرو من اراد قوة فهذه قوة و كذلك فعل زمعة بن الاسود وعتبة و شيبة اخرجادروعا لهما ... ثمّ خرجوا وهم الف و ثلثمائة رجل وفي قصة ماجرى عليهم في الطريق طول ... واما رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقد خرج هو لثمان خلون من شهر رمضان على ناقته الغضباء لابساً سلاحه و خرج معه من المهاجرين احد و ثمانون رجلا قرشي اوحليف او مولى لهم والباقي من الانصار جملتهم ثلثمائة و خمسة عشر رجلا وجعل على الميمنة ابا بكر وعلى الميسرة عمر وعلى المقدمة ابا عبيدة بن الجراح وعلى الساقة قيس بن ابي صعصة الانصاري وعلى ميمنة القلب زبير بن العوام وعلى ميسرة القلب المقداد بن عمرو ودفع راية المهاجرين وهي العقاب الى علي رضي الله عنه وعن سائر الصحابة اجمعين ودفع اللواء الى مصعب بن عمير وجعل لواء الانصار مع سعد بن عبادة ورايتهم مع حباب بن المنذر.... فنزل صلّى الله تعالى عليه وسلّم بمن معه بالبقع وهو بيوت السقيا ولهم سبعون بعيرا فقط وكانوا يعاقبون الابل الاثنان والثلاثة والاربعة فلما نزل عدي و بسبس ببدر اناخا الى تل قريب من الماء ثم اخذا شنّاً لهما يستقيان فيه وعلى الماء مجدي بن عمرو وهو كان بريدا لابي سفيان فسمعا جاريتين من جواري جهينة يلازم احداهما الاخرى بدرهم لها عليها وهي تقول ويحك دعيني فانما ياتي العير غدا او بعد غد فاعمل لهم ثم اقضيك حقك فقال مجدي بن عمرو صدقت وخلّي سبيلها فلما سمع بذلك انصرفا الى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فاخبراه الخبر واقبل ابو سفيان بعدهما حتى ورد الماء فقال للمجدي ابن عمرو هل احسست احدا قال رأيت راكبين اناخا الى هذا التل واستقيا ثم انصرفا فاتى ابو سفيان مناختهما ففتّ ابعار راحلتيهما فاذا فيها النوى فقال هذه والله اعلاف يثرب وهذه عيون محمد واصحابه ما ارى القوم الا قريبا فصرف وجه عيره الى غير سبيله ومضى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم حتى كان بوادي ذفران اتاه الخبر بمسير قريش فاخبرهم واستشار الناس فقام ابو بكر فقال و احسن ثم قام عمر فقال واحسن ثم قام مقداد بن عمرو فقال رسول الله امض لامر الله فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لنبيهم اذهب انت و ربك فقاتلا انا ههنا قاعدون بل نقول انا معك مقاتلون والذي بعثك بالحق لو سرت بها الى برك الغماد من وراء المكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر الغماد لسرنا فقال له رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم خيرا ودعا له بخير ثم قام سعد بن عبادة فقال يا رسول الله لو امرتنا ان نخوض البحر لخضنا قيل استنطق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم الانصار فقام سعد بن معاذ فقال انا اجيبت عن الانصار كانك يا رسول الله تريدنا قال اجل اياكم اريد قال انك عسى ان تكون خرجت لامر اوحي اليك فانا قد آمنا بك وصدقناك و شهدنا ان ما جئت به حق واعطيناك موثاقنا وعهودنا على السمع والطاعة فامض يا نبي الله لما اردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرجت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل فصل من شئت واقطع من شئت وخذ من اموالنا ما شئت وما اخذت من اموالنا احب الينا مما تركته لعل الله تعالى يريك منا حين نلقي عدونا بعض ما تقربه عينك فندب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فانطلقوا حتى نزلوا بدرا ووردت عليهم رايات قريش و فيهم غلام اسود فاخذوه فكان اصحاب رسول الله صلّى الله تعالى

علیه وسلّم یسألونه عن ابی سفیان واصحابه فیقول مالی علم بأبی سفیان ولکن هذا ابو جهل وعتبة و شیبة وامیة بن خلف فصدّقه رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم وکان رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم یضع یده علی الارض ویقول هذا مصرع فلان وفلان وعن عمر رضی الله عنه ابه قال فوالذی بعثه بالحق ما اخطاء و تلك الخطوط والحدود وجعلوا یتصرّعون علیها وکان ابلیس قد یری لقریش فی صورة سراقة بن خثعم وکان من اشراف بنی کنانة فلما التقت الفئتان وهو قوله تع فلما تراءت الفئتان نکص علی عقبیه رأی ابلیس جبرائیل علیه السلام ینزل ومعه الملائکة فرجع القهقری کراهة ان یأتیه جبرائیل فیعرفه الناس فلن یطیعوه وقال الحارث بن هشام اخو ابی جهل یا سراقة تدعنا و تذهب فقال دعنی فانی اری مالا تری ثم خطب رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم حین اصطفّ الفریقان واثنی علی الله وحث اصحابه علی القتال ووقف رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم ینظر علی الصفوف فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه واقبل المشرکون واستقبلوا الشمس فنزل رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم بالعدوة الشامیه ونزل قریش بالعدوة الیمانیة وعدنا الوادی جانبا ثم حمی و طیس الحرب وطلب المشرکون الا کفاء وبرز منهم عتبه وشیبة وولید بن عتبة فکر علیهم حمزة وعلی و عبیدة بن الحارث فجاءهم نصر الله فقتلوا هولاء المشرکین ثم نظر معاذ بن عمرو الجموح فرای ابا جهل قد اصدق به بنو مخزوم فما فارق منه حتی قطع رجله فطرحت من الساق ثم قتله عبد الله بن مسعود و قتل اکثر صنادید المشرکین ولما التقی الفریقان وکان رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم فی العریش قاعدا یدعو وکان ابو بکر قاعد عن یمینه لیس معه غیره فخفق رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم خفقة وهو فی العریش ثم انتبه وضرب بیمینه علی فخذ ابی بکر وقال ابشر ابابکر أتاك نصر الله هذا جبرئیل آخذ بعنان فرس یقوده علی ثنایاه النقع معتمّ بعمامته وإنّ رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم أخذ حفنة من حصباء فاستقبل قریشاً بها ثمّ قال شاهت الوجوه ثمّ نفخهم بها فلم یبق مشرك الا دخل عینیه وفیه ومنخریه شیء منها ثمّ دفعهم المؤمنون یقتلونهم والملائکة یمدونهم فیأسرونهم فکانت الرمیة سبب هزیمة القوم وا کتناف الملائکة سبب قتلهم وقد من الله تعالی بإنزال تلك الآیات وقال ما انزلنا علی عبدنا یوم الفرقان یوم التقی الجمعان والله علی کل شیء قدیر۔

(والثالثة) غزوة احد قالوا کان سببها ان قریشا لما اصیبت یوم بدر ورجع من بقی منهم الی مکة وافو ابا سفیان و قد وقف العیر بدار الندوة فمشی الیه اکابر قریش مثل صفوان بن امیة و عبد الله بن ابی ربیعة وعکرمة بن ابی جهل و ابی بن خلف وامثالهم فی رجال ممن اصیب آباءهم وابناءهم بدر فکلموا ابا سفیان ومن کانت له فی تلك العیر تجارة من قریش فقالوا یا معشر قریش ان محمدا قد وتر کم وقتل خیارکم فأعینونا بهذا المال علی حربه لعلنا ان ندرك ثأرنا بما اصاب منا ففعلوا واجتمعت قریش لحرب رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم ومن تبعها واطاعها من قبائل کنانة واهل تهامة وخرجوا مع الظعن التماس الحفیظة لئلا یغزوا وخرج ابو سفیان وهو قائد الناس بهند بنت عتبة بن ربیعة ...... وخرج صفوان بأمراته برزة بنت مسعود الثقفی وجماعة قریش مع نساءهم یطول تعدادهم ومعهن الدفوف یحترزن الرجال ویذکرون قتلی قومهم وعبأ ابو سفیان الخیل فجعل خالد بن ولید علی المیمنة وعلی المیسرة صفوان بن امیة وعلی الرماة عمرو بن العاصی بین یدی ابی سفیان فی القلب وعلی الساقة

ابی بن خلف وسار طلحة بین یدیه باللّواء فتفکروا بذی طوی و کتب العباس بذلك کتابا وبعث به مع رجل من بنی غفار وشرط علیه ان یسیر ثلاثا الی رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم اخبره خبر قریش ومسیرهم وانهم ثلثة آلاف رجل وممن تابعهم ومائتا فرس وفیهم سبع مائة دارع وثلاثة آلاف بعیر فقدم الغفاری المدینة والنبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم بقباء فدفع الیه الکتاب فقراء ه علیه ابی بن کعب ودخل علیه السلام منزلة سعد بن الربیع واخبره بکتاب العباس فقال سعد والله إنّی لارجو ان یکون فی ذلك خیر ثم فشا الخبر بمسیر قریش والقریش نزلوا الجحفة ثم عشر من خروجهم یوم الخمیس لخمس عشرة خلون من شوال السنة الثالثه من الهجرة وبعث علیه السلام انسا و مونسا ابنی فضالة یوم الخمیس یعرفان له الخبر فرجعا الی النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم فاخبراه ومضوا حتی نزلوا فی زروع بنی حارثة وبنی سلمة وبنی عبد الاشهل فسرحوا خیلهم وابلهم فی زروعهم وهم کانوا ترکوا اوطانهم ومضوا الی المدینة وبعث رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم الحباب بن المنذر یحرض لهم القوم سرا وقال لاتجهر بشیء بین یدی احد فرجع اخبره الخبر فواطا ذلك خبر العباس فقال رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم ونعم الوکیل اللهمه بك اصول وبك احول وبات وجوه الانصار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة واسید بن حضیر فی عدد منهم وعلیهم السلاح لیلة الجمعة بباب رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم وحرصت المدینة تلك اللیلة وصلی علیه الصلوة والسلام صلوة الجمعة وخطب الناس فحمدو اثنی علیه وامرهم بالجد والاجتهاد واخبرهم ان لهم النصر ما صبروا وامرهم بالثبات والتهیّأ وقال ایها الناس انی رایت فی منامی بقرا ینحر ورایت کانی فی درع حصینه ورایت کان سیفی ذولفقار انفصم ورایت کأنی مردف کبشا فاولت البقر نفرا من اصحابی یقتلون واما الدرع الحصینة فالمدینةواولت انفصام سیفی شیئا یصیبنی فی نفسی واما الکبش فکبش الکتیبة القوم اقتله ان شاء الله وقال رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم اشیروا علی وکان رائیه ان لا یخرج من المدینة بهذه الرویا ووافق رای عبد الله ابن ابی رأی رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم فی الاقامة بالمدینة فقال رجال من المسلمین ممن فاتهم حضور بدر اخرج بنا یا رسول الله الی اعداء نا لا یرون انا حُبسنا فدخل رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم ولبس لامته ثم خرج فندم الناس فقالوا یا رسول الله اکرهناك ولم یکن لنا ذلك اقعد فی المدینة کما هو رأیك فقال لا ینبغی بنبی اذا لبس لامته ان یضعها حتی یقاتل فخرج رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم یوم الجمعة بعد ما صلی باصحا به الجمعة فی الف من اصحابه حتی اذا کان بین المدینة واحد بحیث یراه المشرکون انخزل عنه عبد الله بن ابی بثلث الناس فقال اطاعهم وعصانی فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزام یقول یاقوم اذکرکم الله ان تخزلوا نبیکم وقومکم عند ما حضر عدوکم فلما ابوا الا الانصراف قال ابعد کم الله اعداء الله فسیغنی الله عنکم قال أهل التفسیر غدا رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم من منزل عائشة وهو قوله تعالی (واذ غدوت من أهلك تبوّء المؤمنین مقاعد للقتال) فمشی الی احد یوم السبت لست خلون من شوال سنة ثلاثة من الهجرة وهمت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس بالانصراف مع ابن ابی فعصمهم الله فلم ینصرفوا و ذلك قوله تعالی اذ همّت طائفتان منکم ان تفشلا والله ولیهما وامر رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم عبد الله بن جبیر علی الرماة وهم خمسون رجلا وقال ان رأیتمونا تختطفنا الطیر فلا ترجعوا مکانکم هذا

حتی ارسل الیکم وان رأیتمونا هزمنا القوم و اوطأنهم فلا ترجعوا حتی ارسل الیکم فهزمهم رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم۔ قال البراء بن عازب فانا رایت النساء یستندن ای یصعدن الجبال قد بدت خلا خلهن و سوقهن رافعات ثیابهن فقال اصحاب عبد الله بن جبیر الغنیمة ظهر اصحابکم فما تنظرون فقال عبد الله بن جبیر انسیتم ما قال لکم رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم اغتم الناس فلنصیبین من الغنیمة فلما اتوهم صرفت وجوههم فاقبلوا منهزمین وما بقی فی المرکز الا عبد الله بن جبیر وحیدا فقاتل حتی قتل رضی الله عنه۔ ونظر خالد بن ولید الی تلك العورة فافترصها ودخل منها علی المسلمین فی مائة فارس وتبعه عکرمة بن ابی جهل والمسلمون مشغولون بجمع الغنائم فاتاهم الخیل من ورائهم فانکشف المسلمون واصاب منهم العدو فکان یوم بلاء اکرم الله فیه من اکرم بالشهادة من المسلمین وکانوا اثلاثا فثلث قتیل وثلث جریح وثلث منهزم حتی خلص العدو الی رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم وقذف بالحجارة حتی اصیبت رباعیته وشج وجهه وکلمت شفتاه والرامی عبد الله بن قمئة الحارثی قرب منه مصعب بن عمیر وهو صاحب الرایة یوم بدر ویوم احد حتی قتله ابن قمئة وهو یری انه رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم فقال قتلت محمدا وصرخ صارخ الا ان محمدا قتل وقیل کان الصارخ الشیطان ففشا فی الناس خبر قتله فانکفئوا وجعل رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم یدعوا الی عباد الله حتی انحازت الیه طائفة من اصحابه فقالوا یا رسول الله فدیناك بآبائنا وامهاتنا اتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولینا مدبرین وما کان ذلك الا لمخالفتهم امر النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم وعدم ثباتهم علی محافظ المرکز وفیه إظهار لکمال استغنائه تعالی عن العالمین واختبار بشدائد المحن للمحبین حتی یتبین الراضی بقضائه والصابر علی بلائه والشاکر علی نعمائه ممن یحبّه علی السعة والراحة ویعرض عنه الالم والجراحة بل فیه ساعة الرحمة فی صورة نقمة لاولیائه کما فی الظفر شدة النقمة فی صورة سعة النعمة لاعدائه ومع هذه الهزیمة هزم الله المشرکین یوم احد حتی کشفوهم عن عسکرهم وتبعهم المؤمنون یحسّونهم قتلا وهکذا تدارك الله المسلمین بعد ما انهزموا هنیهة وادرکهم بنصره فحوّل الهزیمة ظفرا وفتح لهم فتحا ونصرهم نصرا فی هذا الموطن ممتازا ولهذا قال ابن العباس ما نصر نبی الله فی موطن کما نصر باحد فانکروا علیه فقال بینی وبین من انکر کتاب الله ولقد صدقکم الله وعده اذ تحسونهم باذنه والحس القتل الشدید۔ (شیخ زاده ص۱۹۵ إلی ۲۰۱)

وما تقدّم من أنّه صلّی الله تعالی علیه وسلّم شجّ وجهه یوم احد ذکره الناظم فی همزیته فاحسن وصفه حیث یقول:

مُظْهِر شجّة الجبین علی البرء
کما أظهر الهلالَ البراء

سُتِرَ الحسن منه بالحسن فاعجب
لجمال له الجمال الوقاء

وهو کالزهر لاح من صدف الأکمام
کالعود شقّ عنه اللحاء

يستفاد مما روى اخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بما هو من جملة الخمس التى هى مفاتيح الغيب وانه صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم بأعلام من الله تعالى الغيب ما كان ومايكون وهو من اعلام النبوّة ووظيفة الرسالة (وبيّن هذا الأمر بما لا مزيد عليه جدّنا الإمام الهمام الشيخ أحمد رضا قدّس سرّه فى الدولة المكّية بالمادّة الغيبيّة). وفى القصة آيات كثيرة على صحة نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم و على انفراده وانقطاع نظيره حتى فى عوارض البشرية المشتركة بينه وبين سائر الناس فهو صلى الله تعالى عليه وسلم ممتنع النظير حتى فى بشريته صلى الله تعالى عليه وسلم فشجّته زين وشجّة غيره شين.

شرح غريب الكلمات الواردة فى الابيات وفى غيرها:

قوله شجّة الجبين أى جرح جبينه. على البرء أى مع البرء. من برء من المرض يبرأ برءاً بالضمّ وبرأ يبرأ برءاً بالفتح والبراء بفتح الموحّدة أوّل ليلة من الشهر. قوله صدف بفتح أوّله ستر الأكمام والأكمام كالأكمّة جمع كمّ بالكسر وهو غطاء النور المشبّه به هنا ظاهر الجلد. وقوله العود هو الّذى يتطيّب به. واللّحاء قشر الشجر من لحوته ألحوه قشرته لحاء وفى المعجم اللّحاء قشر كلّ شيء يقال لا تدخلوا بين العصاء ولحاءها جمع ألحية ولُحيّ ولحاء التمرة ما كسا النواة.

قوله فى صفة العبّاس ابن عبد المطّلب رضى الله تعالى عنه صيّتاً: أى الشديد الصوت. وقوله العنق: الجماعة من الناس. يقال جاء الناس عنقا عنقا. لاط له بأربعة آلاف درهم أى أربى له. و كذلك جاء اللّياط مفسّرا فى غريب الحديث للخطابى وهو قوله عليه الصلاة والسلام فى الكتاب الّذى كتبه لثقيف وما كان لهم من دين لا رهن فيه وهو لياط مبرّأ من الله. وقال أبو عبيد وسمّى الربا لياطاً لأنّه ملصق بالبيع وليس ببيع. قيل للرباء ربا لأنّه لاصق بصاحبه لا يقضيه ولا يوضع عنه وأصل هذا اللّفظ من اللّصوق. قوله تخلّف فخرج عنه وتخلّف أبولهب الضمير راجع إلى العاصى ابن هشام ابن المغيرة أى تنازل أبولهب عن المبلغ الّذى كان على العاصى وبعثه مكانه و تخلّف هو.

قوله تحقق: أى مال ونعس. قوله الظعن: جمع ظعينة وهى المرأة. والحفيظة: الغضب والحميّة والتقية والحذر والحرز يعلّق على الصبى جمع حفائظ واهل الحفائظ : المدافعون عن اعراضهم ومعنى التماس الحفيظة التماس الحميّة والغضب من المشركين يتحرّضوا على قتال المؤمنين أو الدفاع عن قبلهم. وذوطوى: موضع بقرب مكّة.

رقم البيت (١٢٩، ١٣٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيتين الثانى عشر والثالث عشر من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

المصدرى البيض حمراً بعد ما وردت

من العدى كلّ مسودّ من اللمم

وقوله:

والکاتبین بسمر الخطّ ما ترکت
أقلامهم حرف جسم غیر منعجم

غدا الناظم الفاهم یصف الصحابة رضی الله تعالی عنهم بعد ما تحدث عن ثباتهم و کمال علوّهم وتمکّنهم من العدو فی میادین القتال. یصف الصحابة بالمهارة بالسیوف والرماح حتی کأنها اقلام یقلّبها الکتبة کیف شاء وا وکأنّ السیوف بهم عطاش ترد المناهل من کل ذی لمّة مسودّة وتصدر بعد ما رویت من دماء الاعداء حمراً وکأنّ اجسام الکفرة حروف اعجمها الکاتبون بسمر الخط فأنشأ یقول: المصدری البیض حمراً البیتین.

المصدری اما منصوب علی المدح ای امدح المصدری البیض او مجرور علی انه بدل من الضمیر فی منهم فی البیت السابق. والمصدری جمع مصدر من قولهم صدر عن الماء ای رجع عنه واصدر غیره فهو مصدر وقوله المصدری البیض بحذف النون من المصدرین للإضافة والإضافة فیه لفظیّة من قبیل الضارب الرجل ومن قبیل قوله تعالی (والمقیمی الصلاة). والبیض جمع ابیض والمراد السیوف المصقولة لصفاء جواهرها. وحمراً جمع احمر وهو بالنصب حال من البیض أی متلطخة تلك السیوف بالدماء حتی صارت حمراً بعد ما کانت بیضاً لشربها من دماء الکفّار وریّها منها. وبعد ما وردت ظرف للاصدار وما مصدریّة ووردت من الورود وهو الاتیان والضمیر فیه للسیوف وقوله من العدا ظرف مستقرّ حال من کلّ مسودّ قدّمت علیه. وکلّ مسودّ بالنصب مفعول وردت. ومن اللّمم بیان للمسودّ. واللّمم بکسر اللام جمع لِمّة وهی الشعر المسترسل الی المنکب سمّی لمّة لکونه یلمّ بالمنکب والمراد منبتها وهو الرأس بالمسودّ إشارة إلی أنّ الکفّار المقتولین شبّان أولو قوّة.

والمعنی أنّ الصحابة رضی الله تعالی عنهم أجمعین یُصدرون سیوفهم الی أغمادها حمراء من دماء العدا بعد ما جرّدوها من أغمادها بیضاً وأشار بذلك الی کمال بسالة الصحابة رضی الله تعالی عنهم وأنّهم لا یرجعون فیالغالب الّا بقتل الشبّان دون الشیوخ... علی وجه الاستعارة شبّه البیض وهی السیوف المصقولة بإبل بیض وردت ینبوعاً أسود یجری بماء أحمر ثمّ صدرت عنه حمراً لتلبّسها وتلوّنها بالماء الذی خاضت فیه تشبیهاً مضمراً فی النفس وطوی لفظ المشبّه به وهو الابل ورمز الیه بشیء من لوازمه وهو الاصدار ففیه استعارة بالکنایة وتخییل.

وقوله الکاتبین عطف علی المصدری والکاتبین جمع کاتب من کتبه سطره وحرزه وجمعه والمراد بالکاتبین الطاعنون علی طریق الاستعارة التصریحیة التبعیّة بجامع التأثیر فی کلّ. والسمر جمع أسمر والمراد بالسمر نصال الرماح والخطّ بفتح الخاء وقد تُکْسَر شجر یتّخذ منه الرماح. وقیل: موضع بالیمامة تجلب الیه أعواد الرماح من الهند والمراد بسمر الخط الرماح الخطّیة والباء فی بسمر الخطّ تتعلّق بالکاتبین. قوله ما ترکت أقلامهم استیناف وما نافیة وما ترکت جملة فی محلّ النصب حال من الکاتبین وأقلامهم بالرفع فاعل ترکت أی غیر تارکة أقلامهم أو الجملة استینافیة وأقلام جمع قلم والمراد بأقلامهم رماحهم فیکون قد شبّه رماحهم بالأقلام واستعار اسم المشبّه به للمشبّه علی طریق الاستعارة التصریحیّة الأصلیّة. حرف جسم الحرف بمعنی الطرف وحرف جسم أی من الکفّار واضافة الحرف الی الجسم بمعنی اللام أو للبیان أو من قبیل اضافة المشبّه به الی المشبّه أی جسم

كحرف. والمنعجم اسم فاعل من انعجم بمعنى قبل النقطة فمعنى غير منعجم غير منقوط والمراد بغير منعجم غير مطعون أي ما تركت رماح الصحابة رضى الله تعالى عنهم حرفاً من الجسم جانباً من أجسام الكفّار غير مطعون فالمراد بغير منعجم غير مطعون على طريق المجاز أو الاستعارة التبعيّة. ولا يخفى ما في هذا البيت من ايهام التناسب من ذكر الكتابة والخطّ والقلم والحرف ومنعجم. وفى هذا البيت لطائف منها تشبيه الصحابة بالكتبة وتشبيه أسنّة رماحهم بالأقلام وذلك دليل على غاية تمكّنهم من رماحهم وإحكامهم للطعن بها حتى كأنّها فى أيديهم أقلام فى يد الكتبة وليس عليهم كبير مشقّة فى التصرّف بها. ومنها الاشارة الى أنّهم لا يطعنون طعنة الّا فى محلّها كما لا تنقط الكتبة نقطة الّا فى محلّها. ومنها الاشارة الى أنّهم أعجموا حروف أجسام الكفّار ليتميّزوا من المسلمين.

رقم البيت (١٣١، ١٣٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيتين الرابع عشر والخامس عشر من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

شاكى السلاح لهم سيما تميّزهم
والورد يمتاز بالسيما عن السلم

وقوله:

تُهدى اليك رياح النصر نشرهم
فتحسب الزهر فى الأكمام كلّ كمى

أخذ الناظم الفاهم يتحدث بعدما تحدث عن بعض خلالهم مما يدل على كمال قوتهم وشدة بطشهم يتحدث عن سلاحهم وعدتهم جملة على سبيل التاكيد لما فصل فيما مضى مع تأسيس وافادة معنى جديد في وصف السلاح بالتمام كما و كيفا وان لهم فى اسلحتهم وفى وجوههم سيما تميزهم. وا كد ذلك المعنى بما اخرجه مخرج المثل وهو قوله والورد يمتاز بالسيما عن السلم ووصفهم بالبهاء وحسن المنظر وطيب الرائحة بالورد الزاهر نوره والطيب ريحه وعرض بالكافرين فى وصفه لهم بالسلم فى وقت واحد فوجوه ناضرة الى ربها ناظرة مسفرة. ووجوه باصرة عليها غبرة ترهقها قترة ومضى يتحدث عما تهدى رياح النصر الى الناس من نشرهم فيحسب الزهر فى الأكمام كلّ كمىّ منهم مَن كان منهم على كَثَب او سمع بهم فاشتاق اليهم حتى كأنه بَصُرَ بهم عن جُنُب وقد تكفّروا بالسلاح وتستّروا بالبيضة والدروع فجمعوا الى شجاعتهم من حسن الأشباه وطيب الأنفاس والأرواح ماجعلهم بمثابة الأصل فى الطيب والبهاء وكاد ان يضرب المثل بهم للزهر فى الازدهار.

قوله شاكي السلاح أي حادّيه كما عليه الجوهري وبعضهم فسروه بتامّيه أي جامعين لأنواعه والمناسب

لأخذه من الشوكة التى هى الحدّة الوجه الأوّل. والتركيب وبيان الاعراب فى شاكى السلاح كما مضى فى المصدرى البيض فأصله شاكين السلاح حذفت منه النون للاضافة وأصل شاكى شاوك فدخله القلب المكانى فصار شاكو ثمّ أبدلت الواو ياء لانكسار ماقبلها فصار شاكى. السلاح اسم لكل آلة الحرب من سيف و رمح وغيرهما قال الأخفش شاكى السلاح مقلوب شائك أى تامّ السلاح ويحتمل أن يكون هنا مفرداً فاللام فى السلاح بدل عن المضاف اليه أى تامّ سلاحهم وأن يكون جمعاً أى تامّين فى سلاحهم فهو صفة للمصدرى البيض. لهم اى للصحابة الممدوحين وهو ظرف مستقر خبر مقدم. وسيما بالكسر والقصر أى العلامة فى وجه الانسان يستدلّ بها على بعض أحواله. وجملة تميّزهم صفة لسيما أى تفرّقهم عن أعدائهم. فلايقع بينهم وبينهم التباس وان تشابهوا فى الصورة الانسانيّة لأنّ الصحابة يمتازون عن الكفّار بوجوه ناضرة الى ربّها ناظرة وتمتاز الكفرة عن الصحابة بوجوه عليها غبرة ترهقها قترة قال الله تعالى فى حق الصحابة رضى الله تعالى عنهم (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) أى والكفّار بخلاف ذلك اذ بضدّها تتميّز الأشياء. ثمّ ضرب لذلك مثلاً يتّضح به الفرق بين الفريقين بأكمل وجه فقال والورد يمتاز بالسيما عن السلم. الورد مبتدأ واحده وردة وهو فى الأصل اسم لكلّ نبت ذى نَور غلب فى عرف اللّغة على المتعارف لكونه أشرف أنواعه. وقوله يمتاز بالسيما عن السلم خبر المبتدأ وبالسيما متعلّق بيمتاز وكذا القول فى عن السلم. والسلم واحده السلمة وهو نوع من شجر العضاه يشبه الورد فى أنّ كلاًّ شجر مورق ذو شوك غير أنّ الورد يمتاز عن السلم بحسن الخلقة وبهاء المنظر وطيب الرائحة فالسلم كالورد والكافر كالسلم لايلتبس أحدهما بالآخر ولله درّ القائل:

وجوه عليها للقبول علامة
وليس على كلّ الوجوه قبول

والمعنى هؤلاء الشجعان أصحاب النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم المختار بأعداد الأسلحة وامداد القوّة أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم بالتواضع والانكسار والكرم والايثار. قال الله تعالى مخبراً عن جميل شيمهم (محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) الآية. يمتاز أولئك السعداء فى عيون الأحبّاء من الأعداء بحسن السيما كما يمتاز الشجر من الشجر والشجر من الثمر فهم أزهار حدائق الوجود سيماهم فى وجوههم من أثر السجود.

ثمّ أراد لذلك مزيد تأكيد أتبعه بما يزيده بياناً فقال: تهدى اليك رياح النصر نشرهم البيت.

تُهدِى فعل مضارع من أهدى بمعنى توصل أو بمعنى ترسل الهديّة والجملة مستأنفة أو هو فى محلّ النصب حال واليك متعلق بتهدى والخطاب لغير معيّن أى كلّ أحد. رياح النصر بالرفع فاعل تهدى والرياح جمع ريح. والمراد بها الدولات كما فى قوله اذا هبّت رياحك فاغتنمها فعُقبى كلّ عاصفة سكون.

وفى البيت اشارة ظاهرة الى التأييدات للصحابة بالنصرة والمراد بالرياح التأييدات والبيت ناظر الى قول النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم (نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور). وروى الشيخان (نصرت بالرعب مسيرة شهر) وروى الطبرانى (نصرت بالرعب شهرين).

ونشرهم بالنصب مفعول تهدی والضمير راجع الی الصحابة والنشر الرائحة الطيّبة فی الحقيقة والمراد ههنا علی سبيل المجاز والاستعارة أخبارهم الطيّبة وأنباءهم العجيبة۔ وقوله فتحسب الفاء للتفريع وتحسب أی تظنّ أيّها المخاطب من أجل ما ذُكِرَ۔

الزهر مفعول ثان لتحسب۔ فی الأكمام ظرف مستقر حال من الزهر أو صفة للزهر واللّام فی الزهر للجنس والأكمام جمع كمّ بمعنی الغلاف وقيّده بكونه فی أكمامه لأنّه فيها أحسن منظراً وأطيب رائحة منه خارجها ولذا وصف الشجاع بكونه مستوراً بسلاحه۔ كلّ كمی بالنصب مفعول أوّل لتحسب۔ والكمی البطل الشجاع فی سلاحه ودرعه وبيضته من كمی جسده بالسلاح اذا ستره به۔ واللّام فی الزهر لاستغراق الجنس وكلُّ كمی عامّ واذ تقرّر أنّ اللّام فی الزهر لاستغراق الجنس فالزهر مفرد لفظاً وجمع معنیً وقع بازاء كلّ كمی ومقابلة الجمع بالجمع تقتضی انقسام الآحاد بالآحاد والمعنی كلّ واحد من الأزهار فی كلّ واحد من الأكمام يشبهه كلّ كمی۔ ولا يخفی أنّ الناظم الفاهم جاء بالتشبيه علی الوجه المقلوب أی جاء بالتشبيه علی القلب وكان الحق أن يقول فتحسب كلّ كمی الزهر فی الأكمام علی حدّ قول الشاعر:

ومهمه مغبرّة أرجاءه كأنّ لون أرضه سماءه

وحاصل المعنی أنّه لمّا تفتّحت الأزهار فی رياض ملّة الاسلام برياح نصرهم كان كلّما تهبّ هذه الرياح من تلك الأزهار وتنشر الی المشامّ روائح نشرهم فتظنّ كلّ بطل فی الدروع الغامرة زهراً فی الأكمام الفاخرة۔

رقم البيت (۱۳۳، ۱۳۲)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم علی رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان الی يوم الدين۔

وبعد فقد أخذنا فی شرح البيتين السادس عشر والسابع عشر من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

كأنّهم فی ظهور الخيل نبتُ رُبا
من شدّة الحزم لا من شدّة الحزم

وقول الناظم:

طارت قلوب العدی من بأسهم فرقاً
فما تفرّق بين البَهْم والبُهَم

مازال الناظم الفاهم يتفنّن فی بيان ثباتهم وتمكّنهم من مقاعدهم وعدم تزحزحهم من شدّة جريهم وسرعة عدوهم فی المضمار وتحرّكهم يمنة ويسرة وما حازوا إلی ذلك من حسن المنظر ولم يجد لذلك مثلا الّا نبت الربی الذی يمثّل فی العيون بعض خلالهم وعجيب حالهم۔ ثمّ أتبع ذلك بذكر ما سُلّط علی قلوب العدی من بأسهم من الفزع حتی صارت كأنّها تتطاير فرقاً فرقاً۔ وانعزلت عن الشعور والتميز فلا تتمايز عندها المحسوسات

المتباينة بداهة فها هو ذا يقول: كأنّهم فى ظهور الخيل نبتُ رُبا البيتين.

كأنّ للتشبيه والضمير للأصحاب وفى ظهور الخيل ظرف مستقرّ حال من الضمير والظهور جمع ظهر بمعنى المتن والخيل اسم جنس يقع على الذكور والاناث واحده فى المعنى فرس. ورُبى جمع ربوة مثلّثة فيجوز فيها الضمّ والفتح والكسر وهو المرتفع من الأرض واضافة النبت إلى الربى من قبيل شجر الأراك. شبّه الأصحاب بنبت الرّبى والخيول بالرّبى فى الثبات والتقرّر. واختار نبت الربى دون سائر النبات لأنّه أثبت فى الاستقرار من غيره لطول عروقه ووصوله الى الماء. وقوله فى ظهور الخيل معناه على ظهور الخيل ففى بمعنى على على حدّ قوله تعالى (ولأصلّبنّكم فى جذوع النخل). واختار التعبير بفى ليفيد أنّهم لشدّة تمكّنهم من ظهور الخيل صاروا كأنّهم مظروفون فيها. والمعنى أنّ الصحابة حالة كونهم على ظهور الخيل يُشبهون نبت الربى فى الاستقرار والثبوت حتى انّهم لو تحرّكوا عليها لم ينقلعوا من ظهور الخيل وانّما يتحرّكون للطعن والاتقاء مع ثبوت أصلهم كما يتحرّك نبت الربى اذا حرّكته الرياح. وقوله من شدّة متعلّق بقوله كأنّهم لأنّه متضمّن معنى التشبيه. والشدّة بكسر الشين والحزم بفتح الحاء وسكون الزاء وشدّة الحزم معناه قوّة الثبات ومراعاة الاحتياط. وقوله لا من شدّة الحزم معطوف على الجار والمجرور قبله والحُزم بضمّ الحاء والزاء جمع حزام وهو ما يشدّ به سرج الفرس على ظهره بأحكام.

وقوله طارت من الطيران وهو جملة مستأنفة. وقلوب العدى بالرفع فاعل طارت. من بأسهم جار ومجرور متعلق بطارت ومن للتعليل أى من أجل بأسهم والبأس بمعنى الشدّة وضمير الجمع راجع الى الأصحاب. وفرقاً بالنصب على أنّه مفعول لأجله أو حال أو مفعول مطلق وفى هذا الوجه من الاعراب خفاء أو تمييز لرفع الابهام فى نسبة الطيران. فما تفرّق الفاء لافادة السببيّة أو تفريعيّة وما نافية وتفرّق من التفريق والضمير المستتر فيه راجع الى القلوب. وبين مضاف والبهم مضاف اليه وهو بفتح الباء وسكون الهاء جمع بهمة وهى السخلة ولد الغنم. والبهم بضمّ ففتح جمع بهمة بضمّ فسكون وهو الشجاع الذى يستبهم على القِرن وجه غلبته.

ومعنى البيتين كأنّهم فى ثباتهم مثل ثبات نبت الربا ونبتها أثبت فى الأرض من نبت غيرها لطول عروقها حتّى تصل إلى الماء بخلاف نبت غيرها. وثباتهم على ظهور الخيل من شدّة حزمها لا من شدّ الحزم على السرج واضطربت قلوب الأعادى من ثباتهم فى الحرب خوفاً منهم حتّى صارت من الخوف لا تفرّق من دهشتها بين سخال الغنم وشجعان الفرسان. وفى البيت الأوّل من البديع الجناس المحرّف بين قوله شدّة وشدّة الأولى بالكسر وهى القوّة والثانية بالفتح وهى المرّة من الشدّ وهو الربط. وبين قوله الحزم والحزم. وفى البيت الثانى الجناس المحرّف أيضاً فى قوله بهم وبهم. والجناس الشبيه بالمشتق فى قوله فرقاً وتفرّق. (شرح خالد الأزهرى ص۱۰).

وقال العلّامة على القارى فى الزبدة: المعنى انّ قلوب الأعداء اضطربت من أجل شدّتهم فى الحرب فنزعت إلى أن صارت لا تميّز بين المذكورين ولا تفرّق بين المسطورين لأنّ نظرهم محصور على الظاهر ولا يفرّقون بين القذر والطاهر وأمّا المؤمنون فبنظرهم الدقيق المقرون بالمعنى الحقيق يميّزون بالمحقّ والمبطل ويفرّقون بين الحقّ والباطل قال الله تعالى (وما يستوى البحران وإن كان فى نظر الحيران أنّهما مستويان هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) ومن لم يذق لم يعرف ومن يغترف يعترف. (الزبدة ص۱۰۶).

رقم البيت (١٣٥، ١٣٦)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيتين الثامن عشر والتاسع عشر من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

ومن تكن برسول الله نصرته
ان تلقه الأسد فى آجامها تجم

وقول الناظم الفاهم:

ولن ترى من ولىّ غير منتصر
به ولا من عدوّ غير منقسم

أخذ الناظم الفاهم عوداً على بدء يمتدح النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم مباشرة بعد ما توسّل بمدح الصحابة الى مدحه صلى الله تعالى عليه وسلم و تبرّك بذكرهم وماحصل لهم من النصر وأراد أن ينبّه على أنّه صلى الله تعالى عليه وسلم هو السبب فيما حصل لهم من النصر على العدوّ فهو الممدوح وهو المقصود ومدحهم يرجع الى مدحه صلى الله تعالى عليه وسلم فتخلّص من الواسطة الى الأصل وأعاد ما بدأ فوصل ما فصل و نبّه على الاتصال فيما ظهر فى زىّ الانفصال فأنشأ يقول:

ومن تكن برسول الله نصرته
ان تلقه الأسد فى آجامها تجم

(البيتين)

الواو للابتداء ومن شرطيّة تكن فى محلّ الجزم فعل الشرط برسول الله جارّ ومجرور ظرف متعلّق بمحذوف خبر مقدّم لتكن. نصرته اذا انتصر به على أعدائه وهو بالرفع اسم لتكن. وفيه وجه من الاعراب آخر وهو أنّ نصرته بالرفع فاعل لتكن على كون كان تامّة وان شرطيّة تلق مجزوم وضمير المفعول راجع الى من. والأسد بضمّ الهمزة وسكون السين جمع أسد بمعنى الهزبر وهو بالرفع فاعل تلق وفى تقديم مفعول تلقه على فاعله اشارة الى أنّ الرجل لايلاقى باختياره الأسد. فى آجامها أى غاباتها جمع أجمة وهى مسكن الأسد والظرف متعلّق بمحذوف حال من الأسد. وقيّد به لأنّ الأسد فى آجامها أشدّ جرأة منها فى غيرها. تجم مضارع وجم من باب وعد أى سكن ولا تتحرك خوفاً منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أو خوفاً من المنتصر به صلّى الله تعالى عليه وسلّم أن يسمع صوتها فيستدلّ به على أمكنتها فيأتيها ويقبض عليها.

والبيت يشير إلى قصّة سفينة مولى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. قال رضى الله تعالى عنه: ركبت سفينة فى البحر فانكسرت. فركبت لوحاً منها. فأخرجنى إلى أجمة فيها أسد فإذا هو قد أقبل علىّ. فلمّا رأيته قلت: يا

أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فأقبل يبصبص بذنبه حتى ضربني بجنبه حتى كأنّما سمع صوتاً أهوى إليه ثمّ أقبل يمشي إلى جنبي حتى أقامني على الطريق ثمّ همهم ساعة فرأيت أنّه يودّعني. (العمدة ص٥٥٦)

قوله: يبصبص من بصبص الكلب حرّك ذنبه طمعاً وملقاً. وقوله يهمهم من همهم الرجل تكلّم كلاماً خفيّاً يسمع ولا يفهم محصوله. وردّد الزئير في صدره من الهمّ والحزن. ويقال: همهم الأسد.

قوله ولن ترى الواو للعطف ولن نافية وترى على صيغة الخطاب من الرؤية والخطاب لغير معيّن كما في قوله تعالى ولو ترى إذا المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربّهم. ومن زائدة لتأكيد النفي واستغراقه. وليّ لله عزّوجلّ ولرسوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم والولىّ إمّا فعيل بمعنى الفاعل أو بمعنى المفعول. غير بالنصب صفة الولى على المحل أو بالجرّ صفة له على اللفظ. منتصر به على عدوّه والمنتصر المنتقم وبه متعلّق بالمنتصر والضمير راجع إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم ولا من عدوّ عطف على من ولىّ أى ولا ترى من عدوّ له صلّى الله تعالى عليه وسلّم. وغير بالرفع أو بالنصب أو بالجرّ والمنقصم بالقاف المنكسر المقطوع. فسّر المنقصم بعضهم بالمنكسر مع الإبانة وانفصال الأجزاء بعضها عن بعض.

ومعنى البيتين ومن تكن نصرته وتأييده بإعانة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فهو المنتصر والمؤيّد ولو لقيته السباع في غاباتها التي هي أشدّ فيها وثوباً منها في غيرها سكنت وخضعت له فلذلك لا تبصر وليّاً وصديقاً مسلماً إلّا وهو به منصور ولا تبصر عدوّاً كافراً إلّا وهو به منقصم مقهور ولا يخفى ما فيه من الموازنة والتكرير.

وهذا البيت والّذان بعده خاصّيتها أنّ من كان خائفاً في بحر أو برّ و كتبها بريقه في كفّه وأراها للسباع فإنّها تذهب عنه بإذن الله تعالى كذا أفاد العلّامة الباجورى. (باجورى ص٤٢).

رقم البيت (١٣٧)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع في شرح البيت العشرين من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

أحلّ أمّته في حرز ملّته
كالّليث حلّ مع الأشبال في أجم

أخذ الناظم الفاهم يجدّد ما يؤكّد بتأكيد بعد تأكيد ويتفنّن في الإفادة لمعنى جديد فأنشأ يقول:

أحلّ أمّته في حرز ملّته
كالّليث حلّ مع الأشبال في أجم

قوله أحلّ أمّته فعل ماض مع فاعله وأحلّ بمعنى أنزل وأمّته بالنصب مفعول أحلّ وفي حرز ملّته جار مجرور متعلّق بقوله أحلّ والحرز ما يتحرّز به والمراد ههنا الحصن وإضافة الحرز إلى ملّته من قبيل إضافة المشبّه به إلى المشبّه

فيه تشبيه للدين بالحصن الحصين. وشبّه الناظم الفاهم نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم بالأسد فى قوله كاللّيث فى القوّة و كمال الشّجاعة والمهابة وشدّة البطش وحماية الأولاد. وشبّه أمّته عليه الصلاة والسّلام بأولاده فى كونه عليه الصلاة والسلام سبباً لحياتهم كالأسد. وشبّه الملّة بالأجم فى أنّ كلّا منهما سبب للحفظ ومنع الضرر من الغير. الليث الأسد وقوله كاللّيث حال من الضمير فى أحلّ وقوله حلّ صفة اللّيث على حدّ قول الشاعر ولقد أمرّ على اللّئيم يسبّنى فمضيت ثمّة قلت لايعنينى والأشبال جمع شبل ولد الأسد ويجمع أيضاً على شُبُل وشُبُول. أفاد الناظم الفاهم بصنيعه هذا أنّه لايحصل لها كمال الحفظ وتمام الحراسة إلّا إذا كان اللّيث معها. كذلك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم مع أمّته فى حرز ملّته دائماً لأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم حيّ فى قبره يتعبّد بأنواع العبادات وإن سقط عنه بوفاته أمر التكليف. وهذا التشبيه له صلّى الله تعالى عليه وسلّم يفيد وصفه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بأكمل الشجاعة وتشبيه أمّته بكمالها.

هذا وقد عثرنا على قصيدة رائعة للعلامة الإمام ابن الحجر المكّى على هامش العمدة على شرح البردة أثبتها المعلّق على العمده بشام بارود وفيها بعض كلمات لم يتيسّر قرأتها فلم يظهر معناها إلّا أنّها قصيدة أجاد فيها الشاعر العلامة ببيان حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأفاد الكثير من فوائد مهمّة فأحببنا إيرادها. فها هو ذا رحمه الله يقول:

تواترت الأدلّة والنقول
فما يدرى المصنّف ما يقول

بأنّ المصطفى حيّ طريّ
هلال ليس يطرقه أفول

وأنّ الجسم منه بقاع لحد
كورد لا يدنسه الذبول

وأنّ الهاشميّ بكلّ وصف
جميل لاتغيّره الحلول

وأنّ الدود لايأتى إليه
كذا الآفات ليس لها وصول

وتأتيه الملائكة كلّ وقت
تحيّيه ويسمع ما تقول

ولا تأكل له الغبراء لحماً
ولا عظماً وأثبت ما أقول

وتأتيه بأرزاق حسان
وبرّ حيث يأمرها الجليل

وصوم وحجّ كلّ عام
يجوز عليه إذ لايستحيل

يطهر للصلاة بماء غيب
ويقضيها كذا ورد الدليل

يصلّي فى الضريح صلاة خمس
دواماً لا يملّ ولايميل

كذا الأعمال تعرض كلّ حين
عليه إذ يُسَرّ بها الرسول

فإن كانت صلاحاً قام
يدعو إلى المولى ويسمع ما يقول

وإلّا غير ذلك فهو يدعو
إلى المولى وقد صفح الجليل

وبقعته الّتى ضمّت عضاه
رياض من جان تستطيل

كذا الجدث الّذى ضمّ الطوايا
تشرّف حين حلّ به النزيل

وأفضل من سماوات وأرض
وأملاك وأفلاك تجول

ومن عرش ومن جنّات عدن
وفردوس بها خير جزيل

وفى القبر الشريف تراه حيّاً
إلى كلّ البقاع له وصول

وكلّ الأنبياء كذاك جمعاً
بأجداث لهم ظلّ ظليل

ولم تعلم مقابرهم بأرض
يقيناً غير ما سكن الرسول

ولو لا أنّه حقّ طرقّ
بإدراك كما نقل الفحول

لها سعت الشموس إليه سعياً
تسلّم حين تطلع أو تزول

كذاك النوق فى الوادى ينادى
لها الحادى وطاب لها المقيل

تمد رقابها شوقاً إليه
وأدمعها كسيل إذ يسيل

ويلقاهم إذا وفدوا إليه
وينظرهم إذا ازدحم القفول

ويسمعهم إذا صلّوا عليه
بأذنيه فقطِر يا ملول

ومن لم يعتقد هذا بطه
وإلّا فهو زنديق جهول

عبيد هيتمى مستجير
بمن حطّت بساحته الحمول

وإن أبرى البقا جسمى فحسبى
إله واحد نعم الجليل

عليك الله صلّى كلّ وقت
من الأيّام ما شدّ القفول

وآلك والأصحاب ما تراناً
من الأمطار سيل إذ يسيل

(العمدة ص٦٠٦،٦٠٥)

رقم البيت (١٣٨، ١٣٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد انتهينا الى نهاية هذا الفصل وأخذنا فى شرح البيتين الحادى والعشرين والثانى والعشرين من الفصل الثامن من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

كم جدَّلَت كلمات الله من جدل
فيه وكم خصم البرهان من خصم

وقوله:

كفاك بالعلم فى الأمّى معجزة
فى الجاهليّة والتأديب فى اليتم

أخذ الناظم الفاهم يمتدح النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم بما جاء به من دين الإسلام ودلّ بفحوى غلبة كلمات الله التى انزلت عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وهى القرآن المبين على كل ذى جدل فيه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى اوقعته على الجدالة فلا حراك به وما توفرت على حمايته وكلاء ته من الله من البراهين الدالة على صحّة نبوّته وصدق رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم ممّا يدلّ على أنّ الإسلام يعلو ولا يعلى وان الله سبحانه وتعالى هو الذى تولّى الذبّ عنه صلى الله تعالى عليه وسلم وأجاب خصماء ه بما أفحمهم وألقى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم محبّة منه. ميّزته عن غيره من النبيين حيث أجابوا قومهم إذ رموهم بالسفاهة والضلالة بإذن الله فقال النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم من قبله (يا قومى ليس بى سفاهة). ونفى آخر عن نفسه الضلالة.

أمّا نبينا صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقد تولّى القرآن تبرء ته عن الضلال فقال وهو يقسم به ويصفه بأنّه نجم به يُهتدَى ويقسم بما أنزل عليه من نجوم الهدى على أحد الوجوه فى قوله (والنجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلّا وحى يوحى). وكما فُهِم من فحوى البيان أنّ الإسلام يعلو ولا يعلى. كذلك عُلِم بالفحوى أنّ النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم بما جاء به الحق ليس بحاجة إلى من ينصره صلّى الله تعالى عليه وسلّم بل هو المتفضّل بإذن الله على من قام بنصرة دينه حيث نالوا ببركة متابعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم الظفر على الأعداء والسعادة الأبديّة والحياة السرمديّة فى دار القرار ويرشدك إلى هذا قوله تعالى (وما النصر إلّا من عند الله). وقوله تعالى (إلّا تنصروه فقد نصره الله) وقوله تعالى (يأيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم فسيأتى الله بقوم يحبّهم ويحبّونه) إلى غير ذلك من الآيات البيّنات.

ثمّ استشعر الناظم الفاهم كأنّ سائلاً يسأله عن معجزات نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فأجاب بما حاصله بأنّ معجزاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم لاتعدّ كثرة. لكنّى أدلّك على معجزتين فى ذاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم تشهدان على صحّة نبوّته وصدق رسالته وعلى أنّ شمائله تنبئ عن انفراده عن سائر البشر فى بشريّته وأنّ صباه ينبئك عن شأنه قبل أن يخبر هو صلّى الله تعالى عليه وسلّم عن نفسه فهو كما قال الشاعر:

ولو لم تكن فيه آيات مبيّنة
كانت بديهته تأتيك بالخبر

شرح غريب الكلمات وبيان الإعراب: كم خبرية منصوبة بالفعل فى قوله كم جدّلت من المجادلة وهى المخاصمة إلى أن ينقطع فيها أحد المتجادلين عن الآخر أو من الجدالة وهو وجه الأرض ألقت المجادل على الأرض فلا حراك به. من جدل جار مجرور متعلق بقوله جدّلت. جدل بكسر الدّال صفة مشبّهة كفَرِح أى شديد الجدال وكثيره حتى صار كأنّه وصف لازم له. من خصم جار مجرور متعلّق بخصّمت وخصِم صفة مشبّهة معناه شديد الخصومة والجدال فيه وحذف الظرف وهو فيه لدلالة الأوّل عليه. ومن فى الموضعين زائدة جارّة لمميّز كم الخبريّة

إذا فُصِل بين كم الخبريّة ومميّزها بفعل متعدّ وجب جرّه بِمِنْ لئلّا يلتبس بمفعول ذلك الفعل كما فى قوله تعالى (كم تركوا من جنّات وعيون) وهو فى الكلام الفصيح كثير.

وأعرب الشيخ زاده فى زيادة من عن وجه آخر فقال: ومن زائدة فى الإثبات كما فى قد كان من مطر أو باعتبار أنّ مضمون الفعلين يتضمّن النفى وذلك لأنّ كلّاً منهما يستلزم الإفحام والإلزام والغلبة وكلّ منهما يستلزم نفى الخصم وعلى الأوّل فهو نكرة فى موضع الإثبات كما فى علمت نفس بقرينة التنكير ومقام المدح للكلمات ويجوز أن تكون من للابتداء أى جدالاً من جدل كما فى قد كان من مطر على قول أى شىء من مطر (شيخ زاده ص٢٠٧). وخصّم بالتشديد للمبالغة بمعنى كثيراً ما غلب فى الخصومة.

قوله كفاك فعل ماض والكاف فى محلّ النصب مفعول كفى والخطاب لغير معيّن. وقوله بالعلم فاعل كفى والباء فيه زائدة كما فى قوله تعالى (كفى بالله شهيدا) صفة للعلم أو حال منه والمراد به العلم الكامل لأنّ المطلق ينصرف إلى الفرد الكامل و كذلك القول فى التأديب فالمراد به التأديب الكامل. معجزة بالنصب تمييز من نسبة الفعل إلى الفاعل والأصل كفاك معجزة العلم فى الأمّى. وقوله والتأديب بالجرّ عطف على العلم وبالرفع عطف على محلّه لأنّ بالعلم فى محلّ الرفع فاعل كفى. فى اليُتُم بضمّ التاء لغة فى اليُتْم كما هى لغة فى العُقُم بضمّ القاف وقد تقدّم بيانها فى العُقُم.

وحاصل معنى البيتين كم مرّة رمت إلى الأرض فى المجادلة كلمات الله التى جاء بها صلّى الله تعالى عليه وسلّم من عند الله شخصاً منكوساً على الرأس غلب الدليلُ القاطعُ على أشخاص كثيرين. وحاصل معنى البيت الثانى أنّ معجزاته صلّى الله تعالى عليه وسلّم كثيرة شهيرة فإذا نظرت إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بعين البصيرة كفاك لمعجزاته وآياته العلومُ الّتى لا تعدّ ولا تحصى فيه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بغير تعلّم من العلماء ولا كتابة ولا قراءة فى زمان كثر فيه الجهل وغلب على الأنام وزاد فيه الضلال بلا انفصام و كذا كفاك كونه مؤدّباً جامعاً لمكارم الأخلاق ومتحلّياً بأعلى وجه من الكمال فى أوان يُتمه وحداثة سنّه وأوّل خلقته.

الفصل التاسع

فی التوسّل بالنبی (صلّی اللہ تعالیٰ علیہ وسلّم)

رقم البيت (١٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الأوّل من الفصل التاسع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

خدمته بمديح أستقيل به
ذنوب عمر مضى فى الشعر والخدم

أخذ الناظم الفاهم بعد ما فرغ من مدحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بجميل شيمه وعظيم كرمه وجميع ما ينتسب إليه من الأصحاب والأسباب يتوسّل به صلّى الله تعالى عليه وسلّم ويستشفع به عليه الصلاة والسلام يتوسّل به صلّى الله تعالى عليه وسلّم فى إنجاح سؤله وتحقيق مأموله ويستشفع بهذا الحبيب المحبوب صلّى الله تعالى عليه وسلّم إلى ربّه فى كشف الكروب ومغفرة الذنوب ويتوب عليه سبحانه و تعالى وينيب امتثالا بقوله سبحانه وتعالى ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّاباً رحيماً. ويستشعر عن جنب كأنّه على كسب عاذ منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم بجنابه لائذ بأعتابه واقف بين يديه على قدم الخدمة فأنشأ يقول:

خدمته بمديح أستقيل به
ذنوب عمر مضى فى الشعر والخدم

أى انقطعت وتشرّفت بخدمته عليه الصلاة والسلام بمديح وهو فعيل بمعنى ما يمتدح به من نظم أونثر وغلب على المنظوم وقيل هو مصدر أستقيل به من الاستقالة أى اطلب العفو مستعيناً بهذا المديح امتثالا للأمر وتحقيقاً لنيل العفو بالوعد الحق من إله الحق فالباء للاستعانة والجار والمجرور متعلّق بأستقيل الّذى هو فى محلّ الجرّ صفة لقوله مديح والضمير المستتر فى مضارع فاعله وذنوب منصوب على أنّه فعول أستقيل وعمر مضاف إليه موصوف ومضى فى محلّ الجرّ صفته والعمر مدّة يعيشها الإنسان والمراد بعض العمر بقرينة قوله مضى وهو من قبيل إطلاق الكلّ وإرادة الجزء على حدّ قوله تعالى (فمن أدرك فليصم) وقوله فى الشعر والخدم متعلّق بمضى وهو الكلام المقفّى الموزون عمداً أو الإتيان بالكلام الموزون وعلى هذا فالمراد بالشعر المعنى المصدرى وعلى الوجه الأول فالمعنى على حذف المضاف أى الاشتغال بالشعر فى الشعر منه حسن و قبيح فيجرى فيه الأحكام الخمسة.

هذا وقد ذكر الفقهاء أنّ الاشتغال بالشعر على أقسام: ممدوح ومذموم ومباح.

فالممدوح: ما كان باعثاً على الخير ومرغّباً فى الفضائل ومرغّ للكفرة والفسقة الأراذل. ولذا كان صلّى الله تعالى عليه وسلّم يسمع أشعار الصحابة كحسّان وغيره. وسمع أيضاً قصيدة كعب ابن زهير الّتى مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيّم إثرها لم يفد مكبول

وأجازه عليها ببردته الّتي بيعت بعد موته من معاوية بعشرة آلاف دينار بعد أن طلبها منهم في حياته بعشرة آلاف درهم. وقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهو البردة الّتي قد وليها الملوك إلى زماننا هذا وهي الآن عند ملك الروم عثمان خان بن مصطفى خان. (العمدة ص٦٢١)

وهنا علم أنّ التبرّك بآثار النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم وإعظام أسبابه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وتكريم ما نسب إليه عليه الصلاة والسلام من لوازم الإيمان وبواعث المحبّة الّتي تنشأ في قلب المؤمن عن الإيمان به صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأنّ الاحتفاظ بإثارة التيمّن بأسبابه صلّى الله تعالى عليه وسلّم سنّة توارثها المسلمون من لدن الصحابة إلى يومنا هذا فرمي المسلمين بالبدعة والإشراك من أجل هذا يضع الّذي أصبح سنّة متوارثة لهم من غير نكير رمي للصحابة الّذين هم مصادر الشرع بعد النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم والأمناء على الكتاب والسنّة فإن كان الصحابة فمن بعدهم مشركين فأين الشرع وأين الدين ومن أين جاء الّذين يرمون الّذين يبدّعون ويكفّرون الأبرياء المسلمين.

هذا قد تابع العلّامة ابن حجر قوله فيما بعد إذ يقول: وهذا القسم ينقسم إلى واجب ومندوب ومذموم. فما ترتّب عليه مفسدة دينيّة أو دنيويّة كمدح أبناء الدنيا لقصد استجلاب ما في أيديهم من الحطام الفاني والتقرّب إليهم واستمالة قلوبهم. ونفوذ الكلمة عندهم. مع المبالغة في أوصافهم بما يقود إلى الكذب ويجرّ إلى الباطل وكالتغزّل في المرد والنساء على وجه التعيين. وعليه قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (احثوا التراب في وجوه المدّاحين).

وقوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم (لأن يمتلئ جوف أحد كم قيحاً خير من أن يمتلئ شعراً).

وهذا ينقسم إلى حرام ومكروه. والمباح ما لا يتعلّق به مصلحة أخروية. ولا يترتّب عليه مفسدة دينيّة كمدح المياه والأشجار والأماكن والأعصار.

فظهر أنّ الشعر تعتريه الأحكام الخمسة. وهذا الشعر الّذي مدح به الناظم النّبيّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم شعر قويم. يغسل عنه أوساخ الذنوب ويزيل عنه أقذار العيوب. (العمدة ص٦٢١ إلى ٦٢٣).

تتمّة: من خلال ماتلونا عليك يمكنك ان ماصنعه الناظم الفاهم من التوسل بجاهه صلى الله تعالى عليه وسلم وما اثنى عليه ليس من الشرك في شئ فرمى هذا الامام بالشرك كما اولع به الوهبية في هذا الزمان تهوّر عظيم وبهتان جسيم ومنابذة الله ورسوله وابتداع في معنى الشرك وجهل بالله. فما رموا به الامام شرف الدين البوصيري وغيره من ائمة المسلمين وعامتهم شيّة تعدّت الى الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم كما هو ظهر هم اجدر بما يرمون به غيرهم والله يقول والحق ويهدى السبيل.

رقم البيت (١٣١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثانى من الفصل التاسع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

إذ قلّدانىَ ما تُخشَى عواقبه

كأنّنى بهما هدى من النعم

أخذ الناظم الفاهم يؤكّد معنى البيت السابق ويعلّله فأنشأ يقول:

إذ قلّدانىَ ما تُخشَى عواقبه

كأنّنى بهما هدى من النعم

إذ ظرفية تعليلية لأستقيل قلّدانى فعل ماضى مثنّى والضمير المستتر فاعله والياء للمتكلّم بعد نون الوقاية مفتوحة فى محلّ النصب مفعول أوّل وقوله ما اسم موصول مفعول ثان لقلّدانى وهو من التقليد وهو جعل القلادة فى العنق أو ربط شىء فى عنق الدابة على متن على أنّها هدى. ويجىء بمعنى الإلزام. وفيه مجاز واستعارة تصريحيّة تبعيّة بأعتبار أصل المعنى فى اللّغة جرت فى المصدر وهو التقليد ثمّ اشتقّ من التقليد قلّد المشبّه به وأريد به ألزم بعد ما اشتقّ من إلزام وهو المشبّه. وتُخشَى فعل مضارع مبنى للمجهول وعواقبه نائب فاعل لقوله تخشى والضمير المجرور بالإضافة يعود على ما. والجملة صلة اسم الموصول. والعواقب جمع عاقبة وهو ما يجىء عقب عملك من خير أوشرّ كأنّنى. كأنّ حرف تشبيه وياء المتكلّم اسم كأنّ. بهما جار مجرور فى محلّ النصب حال من اسم كأنّ والضمير للتثنية راجع إلى الشعر والخدم والباء للسببية وغلب على الخير عند استعماله مطلقاً. والهدى خبر كأنّ كما فى قوله تعالى (والعاقبة للمتقين). من النعم بيان للهدى. والنعم الإبل والبقر والغنم والهدى مايساق من الدوابّ لينحر فى الحرم.

وحاصل معنى البيت أنّ طلبى العفو من الله تعالى عن ذنوبى لازم لأنّه بسبب الشعر والخدم المذمومين لزم على الآثام والأوزار ممّا تخشى عواقبه من أنواع العقاب فى عاقبة الدار. فكأنّنى عينت للهلاك بسببهما كالهدى المقلّد المعدّ للهلاك وإن لم يتحوّل قلبى عن خالق الأفلاك. (الخرفوتى ص۲۱۰)

رقم البيت (۱۳۳،۱۳۲)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثالث والرابع من الفصل التاسع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

أطعت غىّ الصبا فى الحالتين وما حصّلت إلّا على الآثام والندم

وقوله: فيا خسارة نفس فى تجارتها لم تشتر الدّين بالدّنيا ولم تسم

ثم غدا الناظم الفاهم يبيّن سبب الذنوب ويجدّد التوبة ويجدّد فى الأوبة ويجتهد فى الاعتراف بالتقصير

والإنابة إلى اللّطيف الخبير فيقول:

أطعت غيّ الصبا في الحالتين وما
حصّلت إلّا على الآثام والندم

ويتعجّب من خسارة النفس في تجارتها حيث لم تستبدل الدنيا بالدين ولم تتعرّض لشراءه ثم أخرج هذا المعنى المعقول من المحسوس وضرب له مثلا من الشاهد وجاء له بشاهد من الأمر المشاهد فانشأ يقول:

فيا خسارة نفس في تجارتها
لم تشتر الدّين بالدّنيا ولم تسم

أطعت أي اتّبعت. و غيّ الصبا بالنصب مفعول أطعت و الغيّ بتشديد الياء بمعنى الغواية و الضلالة. و الصبا بكسر الصاد و القصر الصباوة و المراد من غيّ الصبا الاغترار بالأباطيل و الالتذاذ بالتماثيل و الركون و الميل الى العاجل و ترك النظر في الأمر و الآجل. و في الحالتين متعلق بأطعت أو ظرف مستقر صفة لغيّ الصبا أي الحاصل في الحالتين. و المراد من الحالتين الشعر و الخدم. الواو في و ما حصلت للعطف أو الحال و ما نافية و حصلت من حصل على كذا أي بقي عليه و صار قصاري أمره ذلك. الاّ للاستثناء. و الآثام جمع اثم و هو الذنب. و الندم بفتحتين الندامة و المراد به ما يترتب عليه الندامة و الاّ فالندم نفسه توبة و هي موجبة للنجاة. والمعنى ما بقيت منهما على شيء إلاّ على الآثم والندم.

وههنا معنى لطيف ونكتة خفيّة لايتنبه لها إلّا أهل السلوك الجامعون بين الظاهر والباطن العاملون العالمون بكل الشريعة ظاهرها وباطنها الّذين يبتعدون عن حدود النفس في الطاعة ولا همّة لهم إلّا في رضى الله والتفاني عن وجودهم الموهوم وإثبات حقيقة الوجود للموجود الحق والمعبود الحقّ فهم يعدّون الشعور بوجودهم ولحظ أنفسهم شاغلاً عن الشهود ولحظ حقيقة الوجود.

وحاصل معنى البيت انّي وافقت وما خالفت ضلالة الصباوة و الشهاب في الاستعمال بالشعر و الاشتغال بالخدمة و تضيع العمر بهما و الحال أنّي ما حصلت و ما بقيت الاّ على المعاصي و الندامة و التحسّر و التحزّن.

وقوله فيا خسارة نفس الفاء تعريفية كلمة يا للنداء و النداء في معنى التعجب أي ما اخسرها. و الخسران ضد الربح. و نداء الخسارة للتلهف و التحسّر كما في قوله تعالى حكاية "ياحسرتى على ما فرطت في جنب الله." و نفس أي حقيرة و عنى بها نفسه أو اراد مطلق النفس الموصوفة بما يأتي فتعم نفسه و غيرها من النفوس الموصوفة بذلك الوصف. في تجارتها متعلق بالخسارة فيه حذف مضاف أي وقت تجارتها و التجارة في الأصل: طلب الربح بالبيع و الشراء. ثم اتّسع فيها فاستعملت في استبدال شيء بآخر كما هنا و كما في قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين). والتجارة طلب الربح بالبيع والشراء وههنا مجاز عن طلب مرضاة الله ومثوبته وانما خسرت نفسه في تجارتها لانها أخرجت استعداد الاعراض عن الدنيا والتوغل في عبادة المولى عن اليد والقدرة فكأنّها لا يملك الرجوع اليه و لذا قال لم تشتر الذين اه. فجملة لم تشتر استينافية كأنه قيل لم خسرت نفسك في التجارة فأجاب عنه ببيانه فقال لم تشتر الخ و الضمير في تشتر راجع الى النفس ومعناه لم تختر

ولم ترو ولم تستبدل.

وهو عبارة عن جميع ما جاء به النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم والمراد منه فى البيت كماله الّذى يدور عليه النجاة والسعادة والدنيا متعلق بلم تشتر والدنيا ما شغلك عن المولى ولم تسم عطف على لم تشتر وهو من سام يسوم سوما والسوم هو الاتيان بمقدمات البيع و الشراء و هذا للمبالغة ثم ان الاشتراء مجاز عن الاتبدال و السوم عن القصد فقوله لم تشتر و لم تسم معناه ما حقق الاستبدال و لا أى بمقدماته أى و كّلت النفس الأمر كله الى المحبوب و ما انقطعت بالكلية عما يشغلها وعن المطلوب و لم تقل فى مقام الانقياد وكلت الى المحبوب أمرى كله فان شاء ابقانى و ان شاء أتلفنى و السالك ما بقى شئى من وجوده الموهوم المعيوب فهو يعد نفسه ممن ابتلى بأعظم الجرائم و الذنوب كما قيل : اذا قال ما أذنبت قالت مجيبة وجودك ذنب لا يقاس به ذنب اللّهم خلصنا بجود جودك عن توهم وجودنا.

وحاصل المعنى انظروا يا أصحابي و اعتبروا يا أحبابي من خسارة نفسي الفاسدة فى معاملتها الكاسدة من ايثار الدنيا الفانية مع معارضتها للعقبى الباقية على الدين القويم الموصل للنعم المقيم حيث لم تشتر الملك الباقى بالثمن الفانى و لم تقصد تحصيل الدين بترك الدنيا بحسن النية و صفاء الطوية و فيه مبالغة لا يخفى و ايماء الى عدم امكان الجمع بعينها و قال بعض أهل الاشارة أى لم تبدل الدنيا بالدين مع أنه يحصل بأدنى تبديل وهو حك الالف الدالة على حسنة الأنوثة و تقديم ياء اليمين المفطورة لتقديم المسيرة و تقديم الهمّة على تأخيره ثورة النفس المائلة الى الزهر. (زبدة : ١١١)

(رقم البيت ١٣٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الخامس من الفصل التاسع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

ومن يبع آجلاً منه بعاجله
يبن له الغبن فى بيع وفى سلم

الواو ابتدائية ومن اسم شرط وبيع مضارع مجروم من باع يبيع بيعا والبيع من الاضداد يقع على فعل المشرى البائع والمراد به هنا ما وقع على فعل البائع واريد منه المعنى المجازى اعنى الاستبدال والاخراج من اليد،وآجلا بالنصب مفعول يبع أى أمرا آتيا. وأراد به الآخرة الباقية. ومنه ظرف مستقر صفة لآجل وضميره راجع الى الدين أو الى من. قال الباجورى الظاهر أن الضمير فى منه راجع للدين فى البيت قبله (كذا قال بعض الشارحين) والأظهر أنّه راجع لمن يبيع كالضمير فى عاجله. (ص ٤٦)

وبعاجله متعلق بالبيع وضميره يرجع الى "من" وأراد به الدنيا الفانية بأن أخذ العاجل وترك الآجل (لأنّ الباء

فی حیّزہ البیع تدخل علی المأخوذ) ویبین أی ظھر وھو بالجزم جواب الشرط. وضمیر له راجع الی "من" و الغبن بالرفع فاعل ببین و ھو بفتح الغین وسکون الباء النقص و الخسارۃ. ولفظ البیع عام لأنواع البیع کبیع العین بالعین و ھو المقایضة و بیو العین بالدین و ھو المداینة و بیع الثمن بالثمن و ھو الصرف و بیع الدین بالعین و ھو السلم بفتحتین و ما نحن فیه من قبیل السلم و لھذا تعرّض له مع اندراجه تحت البیع. و فیه اشارۃ الی ردّ من یقول م الملاحدۃ: الدنیا نقد و الآخرۃ نسیئة و اعطاء النقد لھا غیر معقول فانّ السلم انما یکون باعطاء النقد للنسیئة و حذاق التجار یلقونه بالقبول" ولذا اذّم الله تعالی الکفار بقوله (کلاّ بل تحبّون العاجلة و تذرون الآخرۃ) وقال (من یرید العاجلة عجّلنا)

وحاصل المعنی أنّ من أخذ العاجلة و ترك الآجل یظھر له الخسارۃ الکاملة فی تجارته و الغبن الفاحش فی معاملته. قال الغزالی لو کانت الدنیا ذھبا فانیا و الآخرۃ خزفا باقیا لاختیار العاقل الخزف الباقی علی الذھب الفانی فکیف و الأمر بالعکس و قال تعالی من کان یرید حرث الآخرۃ نزدله فی حرثه أی باعطاء الدنیا أیضا و من کان یرید حرث الدنیا نؤته منھا أی بعضھا و ما له فی الآخرہ من نصیب.

قال النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم: (من أحبّ دنیاہ أضرہ بآخرته و من أحبّ آخرته أضر بدنیاہ فأثروا ما یبقی علی ما یفنی). وفی نسخة. وجری علیھا الجلال المحلّی: "ومن یبع عاجلا منه بآجله" أی من یعط عاجلا حاصلاً عندہ لمؤجّل قد لا یحصل له یکن أمرہ کما ذکرہ. وفی المثل "بُرّۃ عاجلة خیر من دُرّۃ آجلة".

(رقم البیت ١٢٥)

بسم الله الرحمن الرحیم

نحمدہ ونصلّی ونسلّم علی رسوله الکریم وآله وصحبه الکرام أجمعین ومن تبعھم بإحسان إلی یوم الدین.

وبعد فھذا أوان الشروع فی شرح البیت السادس من الفصل التاسع من قصیدۃ البردۃ وھو قول الناظم الفاھم:

إن آت ذنباً فما عھدی بمنتقض
من النبیّ ولا حبلی بمنصرم

إن حرف الشرط. آت فعل الشرط مجزوم بحذف آخرہ. أی أفعل. ذنبا بالنصب مفعول آت أی جرما بعد ما تقدّم من توبتی بالندم علی الشعر والخدم السابقین. وغیرھما من المعاصی. فما أی فلیس. والفاء رابطة للجواب. عھدی أی میثاق. وأصله کما قال الزمخشری: کلّ أمر شأنه أن یراعی ویحافظ علیه. وأرادبه عھد الإیمان والإسلام. بمنتقض أی باطل. من "نقضت الحبل" أبطلة. ومنه "ینقضون عھد الله". وھو خبر "ما" دلّ علیه الباء الزائدۃ فجرّته لفظا. من النبی سیّدنا محمد صلّی الله تعالی علیه وسلّم والظرف متعلّق بمنتقض لأنّ نقض التوبة بارتکاب الذنب. ولو کبیرۃ ما خلا الکفر. لاینقض العھد المذکور. إذ ارتکاب الکبیرۃ لا تخرج الشخص من الایمان خلافاً للمعتزلة ویدخله فی الکفر خلافاً للخوارج. ولا حَبلی أی ووصلی بالنبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم. بمنصرم أی منقطع لکمال

محبّتي له. وقوّة رجائي فيه. وإن كان الذنب شأنه قطع المودّة وزوال المحبّة لأنّ من عصاك فقد عاداك ولذا وصف الله إبليس وسائر الكفرة بالعداوة له وللمؤمنين. والأصل "إن آت ذنباً رجوت عفوه لأنّ عهدى من النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم ليس بمنتقض. وعلى هذا قوله تعالى "وإن يكذّبوك فقد كذّبت رسل من قبلك". والأصل: وإن يكذّبوك فلا تحزن لأنّه قد كذّبت رسل من قبلك أي ولك فيهم أسوة. وهو فى القرآن كثير. (العمدة ص٦٣٢)

(رقم البيت ١٣٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت السابع من الفصل التاسع من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

فإنّ لى ذمّة منه بتسميتى
محمّداً وهو أوفى الخلق بالذّمم

الفاء للتفسير والذمّة بمعنى الأمان كما فى قوله عليه الصلاة والسلام (ويسعى بذمّتهم أدناهم) وتطلق على العهد أيضاً. منه ظرف مستقرّ صفة لذّمة والضمير راجع إلى التبيصلّى الله تعالى عليه وسلّم. وبتسميتى متعلّق بذمّة. والباء فيه للسببيّة. والتسمية إن كانت مصدر المعلوم تكون إضافة المصدر إلى المفعول الأوّل والفاعل متروك أى تسمية الله إيّاى لأنّ الألقاب تنزل من السماء وتلقى على المسمّى أوتسمية مسمّى إيّاى محمّداً. ويحتمل أن يكون النّبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم خاطب الناظم فى رؤياه بهذا الاسم أو فى اليقظة كما وقع لبعض المشائخ الكبار. فيكون التقدير بتسميته عليه الصلاة والسلام إيّاى ومحمّداً بالنصب مفعول ثان للتسمية. وإن كان مصدر المجهول فياء المتكلّم أقيم مقام الفاعل ومحمّداً هو المفعول الثانى.

وهو اه جملة استينافية والضمير له عليه الصلاة والسلام. وأوفى صيغة التفضيل من وفى يفى بالعهد إذا راعى مقتضاه أو من وفى بمعنى أتمّ أى أتمّ الخلق. والخلق بمعنى الأنام والمخلوقات. والذمم بكسر الذال جمع ذمّة.

وحاصل هذا البيت تعليل لحكم فى البيت السابق. والمعنى فإنّ لى عهداً وميثاقاً معه عليه الصلاة والسلام لأنّ اسمى محمّد وهو دالّ على محبّته له والاسم لايتغير بمخالفة المسمّى وهو عليه الصلاة والسلام بمراعاة الذمم أوفى فيقوم بحقّها بالشفاعة لأهلها فى دار العقبى.

والبيت يشير إلى الأحاديث الواردة فى فضائل من تسمّى باسمه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فعن أنس رضى الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: "يوقف عبدان بين يدى الله تعالى فيأمر بهما إلى الجنّة. فيقولان: ربّنا بم استأهلنا الجنّة ولم نعمل عملا يجازينا الجنّة؛ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنّة فإنّى آليت على نفسى أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد".

وروى أبو نعيم عن بسيط ابن شريط قال قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: قال الله سبحانه وتعالى:

وعزّتی وجلالی لا عذبت أحداً يسمّى باسمك فی النار".

وروى أبو منصور الديلمی عن علی رضی الله تعالى عنه أنّه قال: ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمّد إلّا قدّس الله ذلك كلّ المنزل كلّ يوم مرّتين.

وروى البزّار عن أبي رافع بسند ضعيف: "إذا سمّيتم الولد محمّداً فلا تضربوه ولا تحرموه".

وروى الخطيب من سيّدنا علی بن أبي طالب رضی الله تعالى عنه و كرّم وجهه من طريق ضعيف: "إذا سمّيتم الولد محمّداً فأكرموه وأوسعوا له فی المجلس ولا تقبّحوا له وجهاً".

وروى عن أبي أمامة الباهلی رضی الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم "من ولد له مولود فسمّاه محمّداً حبّاً لی وتبرّكاً به كان هو ومولود فی الجنّة".

وورد أنّ لله ملائكة سيّاحين عبادتها كلّ دار فيها من اسمه أحمد ومحمد. أی: حفظها ودخولها. على رواية عبادتها بالباء الموحّدة.

وفی رواية: بالياء المثناة أی: زيارتها وزيارة أهلها. وغير ذلك من الأخبار والآثار الواردة فی هذا الشأن.

ولاسم "محمد" صلّى الله تعالى عليه وسلّم خصائص: منها كونه على أربعة أحرف ليوافق اسم "الله" تعالى.

ومنها: ما قيل إنّ الله تعالى أكرم الآدمی بجعل صورته على صورة لفظ "محمّد" فالميم الأولى: رأسه. والحاء: جناحاه. والميم الثانية: سرّته. والدال: رجلاه".

قلت: وهذا إنّما يظهر فی الرسم الأصلی أی: رسم مصحف الإمام علی. وهو الّذی عليه عمل أهل الكوفة. ورسم أهل المغرب يقرب من ذلك.

وقال بعضهم: لا يدخل النار من يدخلها إلّا ممسوخ الصورة إكراماً لصورة هذا اللّفظ. (العمدة ص ٦٣٦ إلى ٦٤٠)

رقم البيت (١٣٧، ١٣٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّی ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فی شرح البيت الثامن والتاسع من الفصل التاسع من البردة وهو قول الناظم الفاهم:

إن لم يكن فی معادی آخذاً بيدی

فضلاً وإلّا فقل يا زلّة القدم

وقوله:

حاشاه أن يحرم الراجی مكارمه

أو يرجع الجار منه غير محترم

قوله إن لم يكن جملة شرطيّة والضمير لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم. فی معادی أی فی زمان عودی إلى الله تعالى للحساب والجزاء. وهو يوم القيامة. والظرف متعلّق بقوله: آخذاً بيدی أی مشفعاً لی. وشافعاً

فیّ. فضلاً منك لا وجوباً علیك. أو لأجل فضلك وإحسانك الشامل لجمیع الأمّة فهو حال أو مفعول له. وإلّا أی وإن لم یكن فی معادی آخذاً بیدی فضلاً. فقل هو خطاب لمن جرّده من نفسه. یا زلّة القدم أی رداءة الحال وسوء المنقلب.

هذا البیت مستشكل جدّاً من حیث الاعراب. وفی الإعراب وجوه صعاب وبعضها مقبول وبعضها مردود كما یظهر خلال ما یأتیك حق البیان والیك البیان من الشیخ زاده. قال الشیخ زاده ما نصّه:

أمّا جواب إن لم یكن فیحتمل وجهین أحدهما أن یكون قوله فقل یا زلّة القدم جواب إن الّتی أدغم نونه فی اللّام لا محذوف أی وإن كان آخذاً بیدی لأنّ نفی النفی إثبات فقل یا سعادة أمرك ویا طبیب حالك. والثانی أن یكون محذوفاً أی فقل یا شدّة الحال ویا سوء المآل. ویكون قوله وإلّا مع الشرط والجزاء تكراراً للشرط والجزاء السابق بالعطف وذلك لمزید بیان تأكید الحال والمآل.

ثم اخذ الشیخ العلامة شیخ زاده وجها آخر و استحسنه ورده اخیرا لمكان الایهام وهذا نصّه فیما یلی:

ویحتمل وجهاً آخر وهو أن یكون قوله وإلّا تكرار للشرط السابق ویكون لمجرّد تأكید الشرط فقط لمزید تقرّر الغرض المذكور بكلمة إن لأنّ هذا الغرض مستبعد عنه لقوّة حسن ظنّه بالنبی الرؤوف الرحیم صلّی الله تعالی علیه وسلّم فعلی هذا لا یحتاج إلی الجوابین لكون الشرط واحداً وهذا أوجه وألطف من الوجهین السابقین. ولو قرئ الا بالتنوین والال هو العهد یكون سبكاً ملیحاً ومعنی صحیحاً ویكون المعنی إن لم یدركنی علی مقتضی الفضل والعهد ولكنّ السماع والروایة بدون التنوین وأیضاً فیه فرض ما یمتنع فرضه فی حقّ النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم من ترك مقتضی العهد. وأمّا قوله تعالی (لئن أشركت لیحبطنّ عملك) فإنّه تعریض للأمّة. (ص۲۱۶،۲۱۵)

قوله حاشاه أی تنزیهاً له صلّی الله تعالی علیه وسلّم عن. أن یحرم أی یمنع من أحرم الرباعی مبنیّاً. والفاعل ضمیر یعود إلیه صلّی الله تعالی علیه وسلّم. أو من حرم الثلاثی مبنیّاً للمفعول. قوله الراجی اسم فاعل من الرجاء وهو تأمیل الخیر وضدّه الیأس. نائب فاعل علی التوجیه الثانی. ومفعول به علی الأوّل. وتسكین یاءه لغة جری علیها الناظم لاستقامة الوزن. مكارمه جمع مكرمة بمعنی الكرامة. وهو بالنصب تنازعه كلّ من الفعل واسم الفاعل. أو للعطف. ویرجع یستعمل لازماً أو متعدّیاً كما هنا. یقال رجعه رجع أی ردّه فارتدّ. والجار أی الداخل فی جواره والمحتمی بحماه. والضمیر فی منه یرجع إلی النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم. والجملة معطوفة علی جملة یحرم. غیر محترم حال من فاعل یرجع.

وحاصل المعنی إن لم یكن النبی صلّی الله تعالی علیه وسلّم فی عودی یوم القیامة لدار الجزاء آخذاً بیدی فیشفع لی فضلاً منه وإحساناً لی. وإلّا فیا زلّة قدمی عن الصراط المستقیم إلی نار الجحیم. وإن كان كما أرجو فروح وریحان وجنّة نعیم وحاشا قدره الجلیل أن یحرم الراجی الذلیل كرمه الجزیل وأن یرجع من التجأ إلی جواره المنیع وجنابه الرفیع محروماً من نواله الوسیع.

رقم البيت (۱۴۹، ۱۵۰، ۱۵۱)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد أخذنا في اختتام الفصل التاسع بشرح الأبيات الثلاثة الأخيرة من هذا الفصل من هذه القصيدة المجيدة وهي:

ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه
وجدته لخلاصي خير ملتزم

ولن يفوت الغنى منه يداً تربت
إنّ الحيا ينبت الأزهار في الأكم

ولم أُرِد زهرة الدنيا الّتي اقتطفت
يدا زهير بما أثنى على هرم

البيت الاول استدلال من الناظم الفاهم على قوّة رجاءه صلّى الله تعالى عليه وسلّم في طائله صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأنّه لايخيّب من أحسن الظنّ به صلّى الله تعالى عليه وسلّم بل يعمّ بكرمه الناس كافّة ويشمل بجوده المحسن والمسيء. المطر الذي يصيب كل موضع مرتفع ومنخفض حتى أنّه يُنبت الأزهار في المنازل الّتي لايستقرّ فيها الماء كالأكمام. فكيف يفوت خيره يداً افتقرت إليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وأنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم عظيم لا يدانيه عظيم و كريم فوق كلّ كريم يرجى منه خير الدنيا والآخرة وهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم قد تكفّل لقصر أفكاري عليه وانقطاعي إليه بخلاصي من كلّ مكروه في الدنيا. فلا أريد حطام الدنيا الفانية وأنّما أريد الغنى الحقيقي وهو شفاعته صلّى الله تعالى عليه وسلّم و كونه لي في دار القرار.

شرح الغريب وبيان الإعراب: منذ ظرف زمان لدخولها على الجملة الفعليّة في محلّ نصب مفعول فيه لِوجدت. وعلى هذا فالعامل فيه قوله وجدت. وهذا إن جعل مفعولاً فيه وإلّا فمبتدأ أي جميع المدّة الّتي ألزمت أفكاري. قال العلّامة ابن حجر في العمدة شرح البردة: منذ ومذ مبنيان أوّلهما على الضم وثانيهما على السكون. ويكونان حرفي جرّ فيجرّان ما بعدهم ولا يكونان إلّا زماناً أنت فيه نحو ما رأيته منذ يومِ الجمعة على أنّه حرف جرّ. هومنذ يومُ الجمعة على أنّه ظرف زمان. أي أوّل انقطاع الرؤية يوم الجمعة. وقال سيبويه: منذ للزمان. نظيره من للمكان يعني كما أنّ من لابتداء الغاية في الأمكنة كذلك منذ لابتداءها في الأزمنة (العمدة ص۶۳۹).

ألزمت بضمّ التاء فعل وفاعل. وأفكاري مفعول أوّل لألزمتُ ومدائحه مفعوله الثاني. وجدته بالجيم فعل وفاعل والضمير فيه مفعول أوّل لوجدت. ولخلاصي متعلّق بوجدت مفعول ثان لوجدت. ملتزم بكسر الزاء على الرواية الشهيرة مضاف إليه. لن يفوت بالفاء والمثناة الفوقيّة ناصب ومنصوب. والغنى بكسر الغين المعجمة وفتح النون مع القصر فاعل يفوت. والغنى بالكسر مع القصر اليسار ومع المدّ بكسر الغين تطريب الصوت وبفتح

الغين مع القصر الإقامة وبفتح الغين مع المدّ الكفاية. وقوله منه بالإشباع متعلّق بيفوت والهاء للنبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم. ويداً المراد بها النفس من إطلاق الجزء وإرادة الكلّ وهو بفتح الياء التحتانيّة مفعول يفوت، وتربت بفتح التاء المثنّاة الفوقيّة و كسر الراء المهملة وفتح الباء الموحّدة فعل وفاعل أي افتقرت. وتربت نعت يداً. إنّ بكسر الهمزة وفتح النّون المشدّدة الحيا بفتح الموحّدة وفتح الياء المثنّاة التحتيّة اسم إنّ. وينبت بضمّ الياء التحتيّة وسكون النون وبكسر الموحّدة فعل مضارع والضمير المستتر فيه للحيا. والأزهار بفتح الهمزة وسكون الزاء جمع زهر. في الأكم بفتحتين جمع أكمة وهي الربوة متعلّق بِيُنْبِتُ.

ولم أرد بضمّ الهمزة و كسر الراء فعل وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً. زهرة بفتح الزاء وسكون الهاء وفتح الراء مفعول به. الدنيا مضاف إليها. الّتي اسم موصول نعت لزهرة لا للدنيا. اقتطفت صلة الّتي وعائدها محذوف أي اقتطفتها. يَدَا فاعل اقتطفت وحذفت النون للإضافة بناء على أنّه مثنّى ويجوز أن يكون مفرداً مقصوراً على لغة من قال:

يا ربّ سار بات ما توسّدا

إلّا ذراع العيس أو كفّ اليدا

زهير بضمّ الزاء وفتح الهاء مضاف إليه. بما الباء للسببيّة أو للاستعانة أو للبدل باقتطفت. وما مصدريّة أو اسم موصول. أثنى بفتح الهمزة وسكون الثاء وفتح النون فعل ماض وفاعله مستتر فيه يعود إلى زهير والجملة صلة ما. على هرم بفتح الهاء و كسر الراء متعلّق بأثنى.

وأشار الناظم الفاهم بقوله ومنذ ألزمت أفكاري اها إلى ما أصابه من داء الفالج الّذي أبطل نصفه وعمل هذه القصيدة من جراءه يتوسّل بها إلى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم في إزالته عنه. ثمّ رأى النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم في النوم يمسح بيده الشريفة عليه فعُفِي لوقته من مرضه فلمّا استيقظ وأصبح يمشي في أزقّة بلبيس مرّ به بعض الصالحين وقال له: أسمعني القصيدة الّتي امتدحت بها النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّتي مطلعها:

أمن تذكّر جيران بذي سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

فقال له الناظم رضي الله تعالى عنه ولم يكن قد أطلع أحداً عليها: من أخبرك بها؛ فقال: سمعتها تُنْشَد بين يديه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وهو يتمايل كالقضيب. (العمدة ص٦٣٩).

والحيا بالقصر المطر كما تقدّم وأمّا بالمدّ فمعناه الاستحياء. وفيه حكاية ذكرها الخرفوتي عن بعض الصالحين. قال: إنّ بعض صلحاء مكّة رأى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم في المنام وسأل منه صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقال: أأنت قلت يارسول الله الحياء من الإيمان بالقصر. فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم لا. فاستيقظ وتعجّب من ذلك. وحكى هذه الواقعة عند علماء مكّة فتعجّبوا من ذلك لأنّهم تيقّنوا بالرواية الصحيحة وعلموا أنّ الرواة ثقاة أمناء إذ هو مذكور في البخاري وغيره فأمروا له بتكرار التوجّه إلى الحضرة العليّة له صلّى الله تعالى عليه وسلّم في اللّيلة الثانية ففعل فرأى تلك الحضرة على الطريق المذكور ثمّ حكى ذلك عندهم فأمروه ثانياً بتكرير التوجّه إلى أن بلغ ثلاث ليال وكان الأمر كما ذكر فاجتمعوا و كتبوا هذه الوقعة في صحيفة فأرسلوا بها إلى

سلطان مصر وعلماء ها. وكان ذلك فى زمن شمس الدين ابن حجر من المحدّثين فلمّا سمع ابن حجر ذلك تعجّب وقال للملك مره ليجيء إلينا فنراه ونسمع من لسانه فأرسل السلطان إليه مبلغاً من النقود لترتيب أسباب السفر وطلبه فأبى عن تلك النقود وذهب إليه بماله. فلمّا وصل استقبله العلماء والكبراء. فلمّا رأوه سألوه عن ذلك. فحكى عندهم كما أمر فتعجّبوا من ذلك. فرفعوا القضيّة إلى الإمام برهان الدين المحدّث بالشام فقال أريد أن أرى هذا الرجل وأسمع ذلك من لسانه. فذهبوا به إليه. فحكى عنده كما مرّ فتنبّه برهان الدين لما سبق من الفرق بين الممدود والمقصور. فقال لقد صدق رسول الله. فإنّ الحيا بالقصر المطر والحديث ممدود. لكن توجّه هذه اللّيلة. واسأل الحضرة. ففعل فرأى رسول الله فاستكشف منه فقال الأمر كذلك بارك الله فيك وفى معلّمك برهان الدين. (خرفوتى ص٢١٧،٢١٦).

وزهير المذكور فى البيت شاعر من فحول الشعراء وهو زهير ابن أبي سلمى كان عمر ابن الخطّاب رضى الله تعالى عنه لا يقدّم عليه أحداً ويقول أشعر الناس زهير وولده كعب صحابي صاحب قصيدة بانت سعاد. و كذلك أخوه بجير صحابي. وفيالوشاح لابن دريد أنّ كنية زهير أبو بجير. وذكر غيره أنّه مات قبل المبعث. وأخرج ثعلب عن ابن عبّاس بسنده قال قال عمر أنشدنى أشعر شعراء كم. قلت من هو يا أمير المؤمنين؛ قال زهير. وعن ابن الأعرابى قال كان لزهير فى الشعر ما لم يكن لغيره كان أبوه شاعراً وهو شاعر وخاله شاعر وأخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين وأخته الخنساء شاعرة وهذه أيضاً صحابيّة فالشعر فيهم وراثة.

وهرم هو ابن سنان بن حارثة المزنى أحد أجواد العرب وكان يصل زهيراً بالصّلات الجزيلة ويجيزه على مدحه بالجوائز الجميلة ولذا أضاف الناظم رضى الله تعالى عنه اقتطافها أى اقتطاف زهرة الدنيا إلى كلتا يديه لأنّ اليد الواحدة لاتقلها لعظمها. فمن ثناء ه عليه:

من يلق يوماً على علّاته هرماً
يلق السّماحة منه والندا خُلُقاً

لو نال حيّ من الدنيا بمنزلة
أفق السماء لنالت كفّه الأفقا

ومنه أيضاً:

إنّ البخيل ملوم حيث كان
ولكنّ الجواد على علّاته هَرِمُ

هو الجواد الّذى يعطيك نائلَه
عفواً ويُظلَم أحياناً فيظّلم

وكان هرم قد حلف أن لا يمدحه زهير إلّا أعطاه. ولا يسأله إلّا أعطاه. ولا يسلّم عليه إلّا أعطاه. عبداً أو وليدة أو فرساً. فاستحى زهير من كثرة ما كان يقبل منه

وقال عمر رضى الله تعالى عنه لبعض ولد هرم: أنشدنى بعض مدح زهير أباك. فأنشده. فقال عمر: إنّه كان

يُحْسِن فيكم المدح. فقال: ونحن. والله. لنُحْسِن له العطيّة. فقال: لقد ذهب ما أعطيتموه. وبقي ما أعطاكم. (العمدة ص٦٥٦.٦٥٥).

ومعنى الأبيات الثلاثة ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه وجدته خير ملتزم لخلاصي من كلّ مكروه وعطاياه لا تفوت يد فقير ذي فاقة فإنّ المطر إذا نزل إلى الأرض عمّ الصالح منها وغير الصالح وأنبت الرياحين والأزهار على رؤوس المنازل وأطراف الروابي وأنا على فقري ومسيس حاجتي ما أريد على مدحه شيئاً من حطام الدنيا مثل ما حصل لزهير من هرم بن سنان بسبب ثناءه عليه حيث مدحه لحطام الدنيا الفانية وإنّما أريد الشفاعة. (شرح خالد الأزهري ص٥٩).



الفصل العاشر

فی المناجاة وعرض الحاجات

رقم البيت (١٥٢، ١٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الوصل إلى أصل الأصول. الأوّل الآخر والباطن الظاهر والّذى هو فى شتّى المظاهر بمثابة الحبّة والبذرة والثمرة والشجرة. المنجي من الشدائد ومعطي السؤل. والملاذ الوحيد للأوّلين والآخرين فى يوم الشديد ولذلك نأسب أن يسمّى هذا الفصل العاشر بالوصل الفاخر.

لمّا فرغ الناظم الفاهم من مدحه صلى الله تعالى عليه فى كلّ فصل فصل جاءت النوبة به إلى أن أوصلته فى الحضرة فتمثل قائماً على قوم الخدمة متضرّعاً إليه صلّى الله عليه وسلّم باسطاً يديه بالسؤال مستشعراً انقطاعه عمّن يأخذ بيده فى عصب الأحوال وينجيه من أشدّ الأهوال وقطع رجاءه عن كلّ من سواه والتجأ إليه فيما دهاه ونزل بالناس كافّة فاتّخذ فقره إلى بابه الرفيع حيلة لما رأى أنّ ذلك الجناب آخر الأبواب ومنتهى كلّ وسيلة وأنّه باب الله الّذى لا يصل إليه من سواه إلّا به وأنّ جاهه عند الله عظيم لا يضيق بمن لاذ به فى زمن من الازمان بل يسعه وسائر النّاس من الأوّلين والآخرين لا سيّما المذنبين فى أشدّ حين وهو حين يتحلّى الكريم ويتجلّى الرحيم باسم المنتقم من العصاة وهو حين يقول النبيّون الأوّلون نفسى نفسى ويقول خاتم النبيّين أمّتى أمّتى ويرغب إليه الكلّ حتى إبراهيم الخليل على ابنه هذا النبي وعليه وعلى كلّ عبد مصطفى لدى الجليل أفضل الصلاة والتسليم بألف تبجيل.

لذلك التفت الناظم الفاهم من الغيبة إلى الخطاب عند ما استشعر من نفسه غاية الشوق إلى ذلك الجناب فأنشأ يقول وهو يخاطب الرسول:

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به
سواك عند حلول الحادث العَمَمِ

ولن يضيق رسول الله جاهك بى
إذا الكريم تحلّى باسم منتقم

شرح الغريب وبيان الإعراب: يا حرف نداء. أكرم الخلق منادى منصوب ومضاف إليه. والمعنى يا أكرم كلّ مخلوق إنساً وجنّاً وملكاً عطاءً وطبعاً وقدراً ومنزلةً. وما حرف نفي. لى خبر مقدّم من بفتح الميم مبتدأ مؤخر بمعنى أحد نكرة موصوفة. ألوذ فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً. به متعلّق بألوذ والجملة صفة مَن والعائد فيها الهاء. سواك بكسر السين والقصر بدل مِنْ مَنْ أو صفة ثانية لها أى غيرك أو ظرف مكان أى مكانك. عند ظرف مستقرّ منصوب بما فى قوله لى من معنى الاستقرار أى ما لى من ألوذ به كائناً ومستقرّاً عند حلول الحادث العمم. حلول بضمّ الهاء المهملة واللّام مضاف إليه ومضاف أيضاً. الحادث بالحاء المهملة والثاء المثلّثة مضاف إليه. العَمِم بفتح العين المهملة وكسر الميم نعت الحادث ويجوز فيه الفتح أى العَمَم.

ولن يضيق بفتح المثنّاة التحتيّة و كسر الضاد المعجمة ناصب ومنصوب. رسول الله منصوب على أنّه منادى مضاف سقطت منه الياء. جاهك بالجيم وضمّ الهاء فاعل يضيق. والجاه أصله وجه على زنة فعل حوّلت الجيم الّتى كانت فى محلّ عين الكلمة إلى محلّ الفاء فصار جَوَه وأبدلت الواو ألفاً لتركها وانفتاح ما قبلها فصار جاه وهو مقلوب على زنة عفل ومصداق ذلك أمثلة الاشتقاق. وما بينهما اعتراض أى قوله رسول الله. بى بكسر الباء الموحّدة متعلّق بيضيق. إذا بكسر الهمزة وفتح الذال ظرف لما يستقبل من الزمان. الكريم أى الله تعالى وهو مرفوع بفعل محذوف يفسّره ما بعده وذلك لأنّ إذا من العوامل الدّواخل على الأفعال كما فى قوله تعالى (إذا السّماء انشقّت). وفى نسخة إذ الكريم على أنّه ظرف بمعنى حين. تحلّى بالحاء المهملة أى اتصف، وهو بفتح التاء المثنّاة الفوقيّة وفتح الحاء المهملة فعل ماض وفاعله مستتر فيه يعود إلى الكريم. وفى نسخة يروى إذ بسكون الذال والكريم على هذا مبتدأ وتحلّى خبره. باسم متعلّق بتحلّى. منتقم بكسر القاف مضاف إليه.

ويروى تجلّى بدل تحلّى والمقصود واحد لأنّه كان ظهور هذا الاسم فى ذلك اليوم أمّا الاتصاف بهذا الاسم فهو أزلاً وأبداً. فمعنى اتصف ظهر اتصافه بهذه الصفة الأزليّة وحدث تعلّقها التنجيزى. فالتعلّق حادث والصفة قديمة. وبهذه الكلمات القلائل يزول الإشكال الّذى أبداه العلّامة الباجورى وأطال فى الجواب عنه المقال.

والمراد بالحادث العمم الأمر الّذى يحصل بغتة ويعمّ النّاس كافّة. والمراد به الساعة الّتى لا تأتى إلّا بغتة. قال سبحانه وتعالى (لا تأتيكم إلّا بغتة). وأشار بذلك إلى هول يوم القيامة حين يفرّ المرء من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته الّتى تؤويه ومن فى الأرض جميعا. و تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت. وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. يوم يقول كلّ امرء: نفسى نفسى. وتقول أنت يا أكرم الخلق: أمّتى أمّتى. والناظم الفاهم يقول بلسان حاله منشداً:

ما لى سوى فقرى لبابك حيلة
فلئن رُدِدْت فأىّ باب أقرع

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع
أنت المعَدّ لكلّ ما يتوقّع

يا من يرجى للشدائد كلّها
يا من إليه المشتكى والمفزع

يا من خزائن رزقه فى قول كن
منن فإنّ الخير عندك أجمع

ما لى سوى فقرى إليك وسيلة
فبالافتقار إليك فقرى أدفع

ما لى سوى قرعى لبابك حيلة
فلئن رُدِدت فأىّ باب أقرع

من الّذى أرجو وأهتف بأسمه
إن كان فضلك عن فقير يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصياً
الفضل أجزل والمواهب أوسع

(العمدة ص ٦٦٠، ٦٦١).

رقم البيت (١٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الثالث من الفصل العاشر من القصيدة المجيدة المسمّاة بالبردة وهو قول الناظم الفاهم:

فإنّ من جودك الدنيا وضرّتها
ومن علومك علم اللوح و القلم

أخذ الناظم الفاهم فى تفصيل ما ترجّاه من سعة جاهه للناظم الّذى هرب إليه فى المرهب ورغب إليه كسائر النّاس فى المطلب وشرع فى تعليل ما ادّعاه من أنّ جاهه صلّى الله تعالى عليه وسلّم لن يضيق بمثله هذا الموقف العظيم والحادث العميم. كيف وأنت يا رسول الله! الجواد الكريم الّذى من جوده خير الدّنيا وضرّتها الأخرى وأنت الواسطة العظمى والسبب فى كلّ موجود ولولاك لما تحلّى الكون بالوجود. وعلومك الجمّة أوسع وأكثر من أن تُحصر ومن علومك علم اللّوح والقلم الّذى لايقدّره البشر فأنشأ يقول:

فإنّ من جودك الدّنيا وضرّتها
ومن علومك علم اللّوح والقلم

شرح الغريب وبيان الإعراب: قوله فإنّ الفاء فى قوله فإنّ للتعليل وإنّ حرف تو كيد، من جودك بضمّ الجيم خبر إنّ مقدّم. ومن للتبعيض، والجود إفاضة ما ينبغى لمن ينبغى كما ينبغى لا لعوض ولا لغرض، والدّنيا اسم إنّ مؤخّراً وهو ما يقابل الأخرى. وضرّة الدّنيا هى الآخرة وإنّما سمّاها ضرّة لأنّ الجمع بينهما متعسّر إلّا أن يوفّق الله تعالى كتعسّر الجمع بين المرأتين كما قال عليه الصّلاة والسّلام (من أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ومن أحبّ دنياه أضرّ بآخرته) وقال عليه الصّلاة والسّلام (الدنيا والآخرة ضرّتان إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى) وقال عليه الصلاة والسّلام (من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى). ومن لطائف ما قيل:

عتبت على الدّنيا لتأخير عالم
وتقديم ذى جهل فقال خذ العذرى

بنو الجهل أولادى لذاك رفعتهم
وأهل النهى أولاد ضرّتى الأخرى

وضرّتها بفتح الضاد المعجمة والمثنّاة الفوقية معطوف على الدنيا. ومن علومك معطوف على من جودك والعلوم جمع علم وهو إمّا بمعناه أو بمعنى المعلوم أى من معلوماتك علم اللّوح والقلم أى المعلومات الحاصلة منهما. وعلم بكسر العين ونصب الميم معطوف على الدنيا من عطف الاسم على الاسم والخبر على الخبر و كرّر من هرباً من العطف على معمولى عاملين مختلفين. ويُحتَمَل أن يكون علم اللّوح على الرفع على الابتداء تقدّم خبره فى المجرور قبله والجملة مستأنفة والأولى أولى لما فيه من التأكيد بإنّ. اللّوح بالحاء المهملة مضاف إليه والقلم بفتح القاف واللّام معطوف على اللّوح.

تتمة تتعلّق بقول النّاظم الفاهم:

فإنّ من جودك الدّنيا وضرّتها
ومن علومك علم اللّوح والقلم

فى الشطر الأوّل إيماء إلى ما ورد (لولاك لما خلقت الأفلاك) وذكره الملّا على القارى فى الموضوعات والمعنى أنّ الحديث موضوع بهذا اللّفظ أمّا المعنى فصحيح ولذا أورده فى الزبدة.

اضطرب الشرّاح فى المصراع الثانى فقيل العلم مصدر مضاف إلى فاعله أى علم اللّوح والقلم بالأشياء فاحتاج إلى القول بأنّ لهما إدراكاً وشعوراً ويؤيّده ما يجىء ممّا ورد فى القلم كما يؤيّده قوله سبحانه وتعالى "إن من شىء إلّا يسبّح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم" وقيل إنّه مضاف إلى المفعول أى علم النّاس باللّوح والقلم ويؤيّده وصفه سبحانه وتعالى له بالمبين ويجىء بيانه. كما يؤيّده ما ورد عن الشيخ محى الدين أنّه قال (أنا ممّن اطّلع على اللّوح المحفوظ). وما ورد عن الشيخ محى الدين عبد القادر الجيلانى رضى الله تعالى عنه. وقيل إنّ الله تعالى أطلعه عليه الصلاة والسلام على ما كتبه القلم فى اللّوح المحفوظ. وهو علم الأوّلين والآخرين وهو الأظهر وتوضيحه بأنّ المراد بعلم اللّوح ما أثبت فيه من النقوش القدسية والصور الغيبية وبعلم القلم به كما شاء. والإضافة لأدنى ملابسة و كون علمهما من علومه لأنّ علومه تتنوّع إلى الكلّيات والجزئيّات وحقائق ودقائق وعوارف ومعارف يتعلّق بالذات والصفات وعلمهما يكون سطراً من سطور علمه ونهراً من بحور علمه. ثمّ مع هذا هو من بركة وجوده صلّى الله تعالى عليه وسلّم على ما نقل أنّه ورد أوّل ما خلق الله نورى. فنظر إليه تعالى نظر هيبة فانشقّ نصفين فخلق من نصفه الكونين. وهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم المراد بالقلم ولذا ورد أوّل ما خلق الله القلم فلا تعارض. والحاصل أنّ الدنيا والآخرة من آثار وجودك وما ظهر من القلم على اللّوح من أسرار معارفك وأنوار علومك. وفى البيت إيماء إلى أنّ الجاه إنّما هو باعتبار العلم بالله تعالى والجود على الخليقة كما ورد أنّ كمال الإيمان التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى. (زبدة ص١١٤).

فهو صلّى الله تعالى عليه وسلّم على بصيرة كاملة ومعرفة تامّة بالله تعالى وما يجرى به القضاء ويتنوّع إليه وما يتأتّى فى المقادير من الأقسام وأنّه لايعزب عن علمه ما كان وما يكون ممّا هو مسطور فى الإمام المبين كما

أشار إليه النّاظم. وأنّ الله تعالى أطلعه على كلّ شيء حتى الخمس الّتی هی مفاتيح الغيب كما بيّنه الأئمّة الأعلام وتلاهم الإمام الهمام جدّنا الفذّ الشيخ أحمد رضا قُدِّس سرُّه فبيّنه بأحسن وجه ونقّحه فی الدولة المكّيّة بالمادّة الغيبيّة. وسنوافيك نبذة من كلامه عمّا قليل ونودّ أن نقدّم القول عن أقسام المقادير وأنواع القضاء و نفصّل المقال فی اللّوح والقلم فنقول جاء فی المعتقد المنتقد للعلّامة الفهّامة سيف الله المسلول فضل الرسول ما نصّه: مسألة يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يريد من المرقوم فی الكتاب أی اللّوح المحفوظ كذا قيل. وما فی أمّ الكتاب أی أصله وهو علم الربّ كما قال الله تعالى: (وعنده أمّ الكتاب) وعنده علم الكتاب. فلا يتغيّر ولا يتبدّل مبرماً كان أو معلّقاً. فسعد سعيد. وشقاء ضدّه مقرّر فی علمه. لا يزول بذلك الكتاب. وهذا لا خلاف فيه بين أهل السنّة وإن اختلفوا فی أنّ السعيد قد يشقى وبالعكس وهو مذهب الماتريدية وهو قول عمر وابن مسعود نظراً للحال أو لا يكون ذلك وعليه الأشاعرة وابن عبّاس ومجاهد نظراً للمآل فالخلاف لفظی. و كذا قوله أنا مؤمن إن شاء الله تعالى. فائدة: للتقدير أربعة أقسام: الأوّل فی العلم وهذا لا يتغيّر. والثانی فی اللّوح المحفوظ وهو يمكن تغيّره. والثالث فی الرحم لما أنّ الملك يؤمر بكتب رزقه وأجله وشقی وسعيداً. والرابع هو سوق المقادير إلى المواقيت وهذا إذا لطف الله بعبده صرف عنه إذا كان قبل أن يصل إليه.

والقضاء على ضربين مبرم ومعلّق: فالأوّل لا يتغيّر. والثانی يمكن تغيّره. ومنه ما عناه سلطان العارفين سيّدی عبد القادر الجيلانی قدّس سرّه الربّانی بقوله فی القضيّة (إنّما الرجل من يعترض للقضاء فيردّه) إذ المعلّق قد يغيّره الله بلا واسطة فلا بدع أن يردّه بها إكراماً لأولياءه. ومنه ما قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم لا يردّ القضاء إلّا الدعاء ونحوه كذا فی الكنز وادّعاء ردّ القضاء المبرم باطل. (المعتقد المنتقد ص۶۰،۶۱، مطبوعه مصر)

قال الشيخ الإمام أحمد رضا فی المستند المعتمد عند قول العلّامة فضل الرسول (أی اللّوح المحفوظ كذا قيل) ما نصّه: مرّضه لأنّ اللّوح محفوظ وإنّما المحو والإثبات فی صحف الملائكة لكن ورد بعض ما يثبته فی اللّوح أيضاً. ولعلّ التوفيق ما أخرج ابن جرير فی تفسيره عن ابن عبّاس رضی الله تعالى عنهما قال: إنّ لله تعالى لوحاً محفوظاً مسيرة خمس مائة عام من درّة بيضاء. له دفّتان من ياقوت. والدفّتان لوحان. لله كلّ يوم ثلاث مائة وستّون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب اهـ فنفس اللّوح محفوظ وفی دفّتيه المحو والإثبات. والله تعالى أعلم.

وقال الشيخ الإمام أحمد رضا عند قول العلّامة فضل الرسول البدايونی (وادّعاء ردّ القضاء المبرم باطل) ما نصّه: أقول أخرج أبو الشيخ فی كتاب الثواب عن أنس ابن مالك رضی الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم: أكثر من الدعاء. فإنّ الدعاء يردّ القضاء المبرم. وأخرج الديلمی فی مسند الفردوس عن أبی موسى الأشعری رضی الله تعالى عنه وابن عساكر عن نمير ابن أوس الأشعری مرسلاً كلاهما عن النبی صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: الدعاء جند من أجناد الله مجنّد يردّ القضاء بعد أن يبرم.

ثمّ تابع الشيخ الإمام أحمد رضا يحقّق المقال ويأتی بالتوفيق بين مختلف الأقوال فزاد قسماً ثالثاً وهو القضاء الشبيه بالمبرم وهذا نصّه: وتحقيق المقام على ما ألهمنی الملك العلّام أنّ الأحكام الإلهية التشريعية كما تأتی

على وجهين: الأوّل مطلق عن التقييد بوقت كعامّتها. والثانى مقيّد به كقوله تعالى (فإن شهدوا فأمسكوهنّ فى البيوت حتّى يتوفّهنّ الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلا). فلمّا نزل حدّ الزنا قال صلّى الله تعالى عليه وسلّم خذوا عنّى قد جعل الله لهنّ سبيلا. الحديث رواه مسلم وغيره عن عبادة رضى الله تعالى عنه. والمطلق يكون فى علم الله مؤبّداً أو مقيّداً. وهذا الأخير هو الّذى يأتيه النسخ فيظنّ أنّ الحكم تبدل لأنّ المطلق يكون ظاهره التأبيد حتّى سبق إلى بعض الخواطر أنّ النسخ رفع الحكم. وإنّما هو بيان مدّته عندنا وعند المحققين. كذلك الأحكام التكوينية سواء بسواء. فمقيّد صراحة كأن يقال لملك الموت عليه الصلاة والسلام: اقبض روح فلان فى الوقت الفلانى إلّا أن يدعو فلان. ومطلق نافذ فى علم الله تعالى وهو المبرم حقيقة ومصروف بدعاء مثلاً. وهو المعلّق الشبيه بالمبرم. فيكون مبرماً فى ظنّ الخلق لعدم الإشارة إلى التقييد. معلّقاً فى الواقع. فالمراد فى الحديث الشريف هو هذا. أمّا المبرم الحقيقى فلا رادّ لقضاءه ولا معقب لحكمه. وإلّا لزم الجهل. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. فاحفظ هذا فلعلّك لا تجده إلّا منّا. وبالله التوفيق. (ص٤٨،٤٤،٤٦)

هذا والمراد من اللّوح المذكور فى البيت اللّوح المحفوظ من أن يتطرّق إليه تبديل أو تغيير بناء على أنّه المراد من أمّ الكتاب فى قوله تعالى "يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب". وهو جسم نورانى مكتوب فيه ما كان وما يكون على أنّه المراد من "الكتاب" فى قوله تعالى (ما فرّطنا فى الكتاب من شىء) وفى بعض الآثار: أنّه درّة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب. وحافّتاه الدرّ والياقوت. ينظر الله عزّ وجلّ فيه كلّ يوم مئة وستّين نظرة. يخلق ويرزق. ويعزّ ويذلّ. ويفنى ويبقى. ويحيى ويميت. ويفعل مايشاء. فذلك قوله "كلّ يوم هو فى شأن".

والقلم الكاتب فى اللّوح المحفوظ ما كان وما يكون. والمراد بقوله علم اللّوح والقلم العلم الحاصل من كتابة القلم فى اللّوح. والقلم جسم نورانى خلقه الله تعالى. وأمره بكتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. (العمدة ص٦٦٤،٦٦٦)

وورد فى الحديث "أوّل ما خلق الله القلم. فقال له اكتب. قال وما أكتب؟ قال اكتب مقادير كلّ شىء حتى تقوم الساعة. الحديث.

هذا وقد قال العلّامة إسماعيل الحقى فى روح البيان تحت قوله تعالى "وعنده أمّ الكتاب" ما نصّه: (وعنده) تعالى (أمّ الكتاب) أى أصله الّذى لا يتغيّر منه شىء. وهو ما كتبه فى الأزل. وهو العلم الأزلى الأبدى السرمدى القائم بذاته. وقد أحاط بكلّ شىء علماً بلا زيادة ولا نقصان وكلّ شىء عنده بمقدار هو لوح القضاء السابق. فإنّ الألواح أربعة: لوح القضاء السابق الخالى عن المحو والإثبات وهو لوح العقل الأوّل. ولوح القدر أى لوح النفوس الناطقة الكلّية الّتى يفصّل فيها كلّيات اللّوح الأوّل ويتعلّق بأسبابها وهو المسمّى باللّوح المحفوظ. ولوح النفوس الجزئية السماويّة الّتى ينتقش فيها كلّ ما فى هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره وهو المسمّى بالسماء الدنيا وهو بمثابة خيال العالم كما أنّ الأوّل بمثابة روحه والثانى بمثابة قلبه ثمّ لوح الهيولى القابل للصّور فى عالم الشهادة.

وفی الواقعات المحمودية اعلم أنّ اللّوح معنوی وصوری. فالصوری ثمانية عشر ألفاً أصغرها فی هذا التعيّن وهو قابل للتغيّر والتبدّل، وقوله تعالیٰ (يمحو الله ما يشاء ويثبت) ناظر إليه.

وأمّا المعنوی فلا يقبل التغيّر والتبدّل وليس له زمان ولا حجم. وما ذكروا من انّ اللّوح ياقوتة حمراء أطرافه من زبرجد فهو اللّوح الصوری. وأمّا المعنوی ففي علم الله تعالیٰ الأزلی وهو لا يتغيّر أبداً وقد وقع الكلّ بإرادة واحدة.

وفی الوجود الإنسانی أيضاً لوحان جزئيّان معنوی وصوری: فالمعنوی الجزئی بإب اللّوح المعنوی الكلّی والصوری للصوری. فالصوری ينكشف لأكثر الأولياء. وأمّا المعنوی فلا يحصل لواحد بعد واحد. وفی موضع آخر منها جميع ما سوی الله تعالیٰ ممّا كان وما سيكون من إرادة واحدة أزلية لا تكثّر فيها ولا تغيّر ولا تبدّل وهی المراد من قوله (ما يبدّل القول لدیّ)، وأمّا قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت) فناظر إلی تعلّقات تلك الإرادة الأزليّة الّتی هی من الصفات الحقيقيّة بالمحدثات علی ما تقتضيه حكمته ومن جملتها أفعال العبوديّة فتصدر منهم بإرادتهم الحادثة واختيارهم الجزئی بمعنی أنّهم يصرفون اختيارهم إلی جانب أفعالهم فيخلقها الله سبحانه فالكسب منهم والخلق من الله. فلا يلزم الجبر والأعمال أعلام فمن قدّر له السعادة ختم بالسعادة ومن قدّر له الشقاوة ختم بالشقاوة. وفی الحديث (إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّی لايكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتّی لايكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها)، وفی قوله عليه الصلاة والسلام فی الحديث (فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)، وقوله (فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها) تنبيه علی سببيّة العمل فی الجانبين حيث لم يقل فيسبق عليه الكتاب فيدخل النار أو الجنّة بل ذكر العمل أيضاً كما لا يخفی علی المتفطّن. (٣/٣٨٦)

قوله فی روح البيان: بمثابة روح العالم: أقول وهذا المعنی لاينطبق إلّا عليه صلّی الله تعالیٰ عليه وسلّم، فهو صلّی الله تعالیٰ عليه وسلّم روح العالم وملاكه. فعنه وُجد وبه قيامه كما يرشد إلی ذلك قوله صلّی الله تعالیٰ عليه وسلّم "أوّل ما خلق الله نوری". فهو أوّل مخلوق فی كلّ طور. وهو المراد بقوله أوّل ما خلق الله العقل كما هو المقصود بقوله أوّل ما خلق الله القلم. وقد تقدّم بيانه عن الزبدة للملّا علی القاری فلا تعارض. وقد يسمّی الشیء الواحد بأسماء شتّی والحقيقة تتجلّی فی تعيّنات شتّی. فالعقل واللّوح والقلم وغير ذلك تعيّنات وتجلّيات لحقيقة واحدة وهو نوره صلّی الله تعالیٰ عليه وسلّم.

وإذا قد فرغنا من بيان اللّوح والقلم وتفصيل أنواع اللّوح وأنّ اللّوح مسطور فيه ما كان وما سيكون وأنّه يطّلع عليه كثير من الأولياء بل ربما يقف عليه آحاد البشر كما سيذكر اقتضی المقام مزيد بيان لما اندرج فی مفهوم ما كان وما سيكون ممّا هو مسطور فی اللّوح المحفوظ الّذی سمّاه الله سبحانه وتعالیٰ بالإمام المبين، واستدعی ذلك أن يكون علوم الخمس الّتی هی مفاتيح الغيب مندرجة فيما أثبت فی اللّوح المحفوظ والإمام المبين بنصّ الكتاب وبما ورد ممّا تقدّم فی هذا الباب ودلّ تسمية الله له بالمبين علی أنّه مبين غير محجوب عن أوليائه سبحانه وتعالیٰ فيطّلع عليه من شاء الله من عباده وإليك البيان عمّا وعدناك به فنسوق إليك نبذة من

الدولة المكّيّة للإمام أحمد رضا قدّس سرّه. قال الإمام الهمام جدّنا الفذّ أحمد رضا رضي الله تعالى عنه بعد ما بيّن أنّه صلّى الله تعالى عليه وسلّم أعطي علوم الأوّلين والآخرين وما كان وما يكون من أوّل يوم إلى آخر الدهر وهو يثير سؤالاً عن اختصاص الخمس بالله سبحانه وتعالى ويجيب عنه بما نصّه:

عسى أن يقول بعض من لا معرفة له بمعاني النصوص و موارد العموم والخصوص إنّكم إذا أثبتّم لنبيّكم صلّى الله تعالى عليه وسلّم علم جميع ما كان وما يكون من أول يوم إلى آخر الأيام فقد دخلت فيه خمس لا يعلمهن إلا الله فأين ذهب اختصاصها بالله تعالى.

أقول: يا هذا! ما أسرع ما نسيت. أما ألقينا عليك أنّ الاختصاص بربنا تبارك وتعالى إنّما هو بمعنى الاستقلال والإحاطة بجميع علوم ذي الجلال. أمّا مطلق العلم العطائي فثابت لعباده بإثباته تعالى وإرشاده.

أما علمت أنّ علم ما كان وما يكون لم نبثته لهذا النبي الكريم عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم من عند أنفسنا. بل الله أثبت، والقرآن أثبت، ومحمد صلى الله عليه وسلم أثبت، والصحابة أثبتوا، وبعدهم الأئمة أثبتوا كما تلونا وروينا ونقلنا وحكينا. فأنّى تصرفون ما لكم كيف تحكمون، أتردّون آيات الله بعضها ببعض وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون.

أما وعيتم ما أسمعنا كم أنّ الله تعالى نفى نفيا لا مردّ له، وأثبت إثباتا لا محيد عنه، وجب الجمع وقد حُلّي بوجوهه السمع، فكأنكم تصغون ولا تسمعون، وتنظرون ولا تبصرون.

فإن قلت: قدّ عدّ الله تعالى هذه الخمس وخصّها بالذكر، فلا بدّ لها من مزيد على غيرها في الاختصاص بالله تعالى، فالإعلام يجري فيما وراءها لا فيها وإلا لبطلت خصوصية اختصاصها لكونها إذن كسائر الغيوب في الانكشاف بالإعلام.

قلت أولا: مهلا إيّاك والعجل، فإنّ العجل يأتي بالزلل، إن بغيت المحاورة، على سنن المناظرة. فمن أين لك ادّعاء الخصوصية في الاختصاص فإنّ الآية هكذا: إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير" (لقمان: ۳۴). فأنّى دلالتها على اختصاص الخمس جميعا فضلا عن خصوصية الاختصاص؛ ألا ترى أنّ في بعضها ليس بشيء ممّا يدل على الحصر والقصر كقوله تعالى "ينزل الغيث"، وقوله تعالى "يعلم ما في الأرحام".

ومضى الإمام قائلاً إلى أن بلغ إلى قوله: نعم قال النبي صلّى الله تعالى عليه وسلم: "خمس لا يعلمهن إلّا الله". وقال الله عزوجل: "قل لا يعلم من في السمٰوٰت والأرض الغيب إلّا الله" (النمل: ٦٥).

فخصّص الرسول وعمّم الإله، وإنّا بكلّ مؤمنون، فإنّ الخصوص لا ينفي العموم. فلا يعلم الخمس إلا الله، ولا يعلم غيرها من الغيوب التي هي أعلى وأشرف وأدق وألطف منها إلّا الله.

أقول بل لا يعلم شيئا إلا الله، بل لا وجود حقيقيا إلا الله، وقد جعل النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم أصدق كلمة قالها العرب قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقد تقرّر عندنا أنّ كلمة لا الله إلّا الله معناها عند العامّة لا معبود إلا الله، وعند الخاصّة لا مقصود إلا الله، وعند الأخصّين لا مشهود إلا الله، وعند المنتهين لا موجود إلا الله، والكل حق، ومدار الإيمان على الأول، ومناط الصلاح الثاني، وتمام السلوك بالثالث، وملاك الوصول هو الرابع، رزقنا الله من جميعها حظًا وافيا بمنّه وكرمه آمين.

وقد أنشد سواد بن قارب رضي الله تعالى عند النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم:

فأشهد أنّ الله لا شيء غيره وأنّك مأمون على كل غائب

وأنّك أدنى المرسلين شفاعة إلى الله يا ابن الأكرمين الأطائب

فكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة سواك بمغن عن سواد بن قارب

هكذا روينا في المسند وإن كانت الرواية الأخرى "لا ربّ غيره".

قال الإمام أحمد رضا قدّس سرّه: أقول: فأوّلا: نفى الوجود عن كل شيء سوى الله تعالى.

ثانيا: أثبت علم المغيّبات لنبيّنا صلى الله تعالى عليه وسلم حيث جعله أمينا على جميع الغيوب والجاهل عن شيء لا يكون أمينا عليه.

ثالثا: آمن بأنّ نبيّنا صلى الله تعالى عليه وسلم قد أُعطي الشفاعة كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث مسلم "وأُعطِيت الشفاعة" لا كما قالت الوهابية: إنّه لم يُعطها بعدُ وإنّما يؤذن له فيها يوم القيامة. قصدوا بذلك أن لا يستغاث به صلى الله تعالى عليه وسلم الآن، لأنّه لا يقدر الآن (على حدّ قولهم) على الشفاعة ونبذوا قوله تعالى: "واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنٰت". وقوله تعالى: "ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّابا رحيما" (النساء: ٦٤). "وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون" (البقرة: ١٠١).

ورابعا: آمن بأنّه صلى الله تعالى عليه وسلم هو الأقرب شفاعة لا كما قال كبير الوهابية إنّه تعالى إذا أراد الاحتيال لمغفرة النادم التائب ولا شفاعة عنده إلّا له لا لمن أذنب ولم يتب فإنّه يقيم من شاء شفيعا له من دون تخصيص.

وخامسا: استغاث به صلى الله تعالى عليه وسلم ردّا على الوهابية.

وسادسا: ترقى عن أقربية شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم فحصر الشفاعة فيه وهو الحق، أمّا سائر الشفعاء فيشفعون عنده صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يشفع عند الله تعالى إلّا هو كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم "أنا صاحب شفاعتهم ولا فخر".

وسابعا: أثبت له صلى الله تعالى عليه وسلم الإغناء عن المتوسلين به، ردّاً على كبير الوهابية الذي زعم أنّه صلى الله تعالى عليه وسلم لا يغني عن بنته فضلا عن غيرها.

فانظروا إلى عظم نفع هذه الكلمات اليسيرة من ذلك الصحابي الكريم رضي الله تعالى عنه وقد نطق الحديث أنّه صلى الله تعالى عليه وسلم أقره على جميع ذلك، هذا. وقال الله تعالى: "يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجبتم

قالوا لا علم لنا" (المائدة: ١٠٩).

كذا مضى الإمام الهمام أحمد رضا قدّس سرّه يثبت لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وسلّم علم جميع ما كان وما يكون بما في ذلك الخمس ويحقّق ويبيّن حتى جاءت النوبة به إلى أن سرد الجزئيّات الّتي فيها الإخبار بما هو من جملة الخمس فقال:

أخرج الخطيب وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدثني أمّ الفضل قال مررت بالنبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقال: إنّك حامل بغلام. فإذا ولدتيه فأتيني به. قالت: يا رسول الله أنّي لي ذلك وقد تحالفت قريش أن لا يأتوا النساء؟ قال: هو ما أخبرتك. قالت: فلما ولدته أتيته فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وألبأه من ريقه وسمّاه عبد الله. وقال: اذهبي بأبي الخلفاء. فأخبرت العباس. فأتاه. فذكر له. فقال: هو ما أخبرتها هذا أبو الخلفاء حتى يكون منهم السفاح حتى يكون منهم المهدي.

أقول فقد علم صلى الله تعالى عليه وسلم ما في الرحم. وعلم ما هو فوق ذلك بكثير. علم ما في صلب ما في الرحم. وعلم ما في صلب من في صلب ما في الرحم إلى عدة مراتب نازلة لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: اذهبي بأبي الخلفاء. وقوله: منهم السفاح ومنهم المهدي.

وروى الإمام مالك عالم المدينة عن أم المؤمنين الصديقة رضي الله تعالى عنها. قالت: إنّ أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان نحلها جاد عشرين وسقا من ماله بالغابة. فلمّا حضرته الوفاة قال: يا بنية والله ما من الناس أحد أحبّ إليّ غنى بعدي منك. ولا أعزّ عليّ فقرا بعدي منك. وإنّي كنت نحلتك جاد عشرين وسقا. فلو كنت جددته وأحرزته كان لك. وإنّما هو اليوم مال وارث. وإنّما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله. فقالت: يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته. إنّما هي أسماء فمن الأخرى؟ فقال: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية.

ولا بن سعد في الطبقات قال رضي الله تعالى عنه: ذات بطن ابنة خارجة. قد ألقي في روعي أنّها جارية فاستوصي بها خيرا. فولدت أمّ كلثوم.

وقد صحّ وثبت في أحاديث كثيرة أنّ بالرحم ملكا موّكلا يصوّر الولد ذكرا وأنثى، وحسنا وقبيحا. ويكتب أجله ورزقه. وشقي أم سعيد. فهو يعلم ما في الرحم ويعلم ما يجري عليه.

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه في حديث خيبر قوله صلّى الله تعالى عليه وسلّم لأعطين هذه الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله. فأعطاها عليّا كرّم الله تعالى وجهه.

فقد ساق مساق القسم مؤكّداً باللّام والنون فقد علم جزما ما يكسب غدا وقد كان صلّى الله تعالى عليه وسلّم أنّ وفاته بالمدينة.

وقال للأنصار الكرام رضي الله تعالى عنهم: المحيا محيا كم والممات مماتكم. رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

وقال لمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: لمّا بعثه إلى اليمن: يا معاذ إنّك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا.

ولعلك أن تمرّ بمسجدی هذا وقبری۔ رواہ الإمام أحمد فی مسندہ۔

وفی صحیح مسلم عن أنس رضی اللہ تعالی عنہ ندب رسول اللہ صلی اللہ تعالی علیہ وسلم الناس. فانطلقوا حتی نزلوا بدرا. فقال رسول اللہ صلی اللہ تعالی علیہ وسلم: هذا مصرع فلان و یضع یدہ علی الأرض هھنا وهھنا. قال: فما ماط أی ما زال وما تجاوز أحدهم عن موضع ید رسول اللہ صلی اللہ تعالی علیہ وسلم۔

وفی حدیثه عن أمیر المؤمنین عمر رضی اللہ تعالی عنہ: والّذی بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود الّتی حدّها رسول اللہ صلی اللہ تعالی علیہ وسلم۔ رواہ مسلم۔

وهذا سیّدنا علی کرم اللہ تعالی وجهه لمّا أتت اللیلة التی أستشهد فی صبیحتها جعل یکثر من الخروج من البیت والنظر إلی السماء. وجعل یقول: واللہ ما کَذَبْتُ وما کُذِبْتُ وأنّها اللّیلة الّتی وعدت. وأقبل علیه الإوزّ یصحن فی وجهه فطردوهن. فقال: دعوهن فإنّهن نوائح۔

والأقوع ابن شفی رجل من أصحاب النبی صلی اللہ تعالی علیہ وسلم. کان یعلم یقیناً أنّه بأیّ أرض یموت۔

أخرج عنه ابن السکن وابن مندة وابن عساکر قال: دخل النبی صلی اللہ تعالی علیہ وسلم فی مرض یعودنی. فقلت: ما أحسب إلّا أنّی میّت من مرضی. قال: کلّا لتبقین ولتهاجرن إلی أرض الشام وتموت بالربوة من فلسطین. فمات فی خلافة عمر رضی اللہ تعالی عنہ. ودفن بالرملة هذا نبی اللہ الصدیق علیہ الصلاة والسلام قائلا لأهل مصر "تزرعون سبع سنین دأبا" (یوسف: ٤٧)۔

قال: "یأتی من بعد ذلك سبع شداد" (یوسف: ٤٨)۔

قال: "ثمّ یأتی من بعد ذلك عام فیه یُغاث الناس" (یوسف: ٤٩)۔

فقد علم أنّ المطر یأتیهم سبعة أعوام علی حین. ثمّ لا یمطرون سبع سنین. ثمّ فی عام الخامس عشر یمطرون وینبت العنب فیعصرون۔

قال الإمام رضی اللہ تعالی عنہ بعد سردہ تلك الجزئیات: ما لی أعدّ الجزئیات ولا حصر لها. وقد ثبت علم جمیع الخمس سوی الساعة علی خلاف فیها بثبوت لا ریب فیه عند أهل النهی. فإنّ کل ذلك مثبت فی اللوح المحفوظ قطعاً۔

وقد عُلِمَ اطلاع کثیر من الملائکة والأولیاء علیه فضلا عن الأنبیاء علیهم الصلاة والسلام علما لا ینکرہ إلّا محروم. بل قد وصف اللہ تعالی اللوح فی کتابه الکریم بوصف المبین. والمبین هو الّذی یوضح ویبین. فإن کان اللوح مغیباً عن أبصار الخلق جمیعا. فما یُبین ولمن یُبین۔

قال تعالی: "وکل شیء أحصینه فی إمام مبین" (یس: ١٢)۔

قال البیضاوی: یعنی اللوح المحفوظ۔

وقال تعالی: "وما من غائبة فی السماء والأرض إلّا فی کتب مبین" (النمل: ٧٥)۔

قال الإمام البغوی فی معالم التنزیل: أی فی اللّوح المحفوظ۔

وقال الإمام النسفی فی مدارك التنزیل: المبین الظاهر البیّن لمن ینظر فیه من الملائکة. وقال علی القاری

فی المرقاة: حکمة ذلك أی إثبات الکوائن کلها فی اللّوح اطلاع الملائکة علی ما سیقع لیزدادوا بوقوعه إیماناً وتصدیقاً ویعلمون من یستحق المدح والذم فیعرفوا الکل مرتبته انتهی۔

وقد ذکر الشاه عبد العزیز فی تفسیر فتح العزیز: أنّ المراد من الاطلاع علی اللوح المحفوظ الاطلاع علی الموجودات النفس الأمریة قبل ظهورها فی الخارج سواء کان بمطالعة النقوش أو بدونها۔ وهذا یحصل لأولیاء الله تعالی أیضاً۔ قال: والاطلاع علی اللوح المحفوظ بمطالعة النقوش أیضاً منقول عن بعض أولیاء الله بالتواتر انتهی مترجماً۔

وأخرجت الأئمّة کالشطنوفی وغیره بسند صحیح عن ابن رسول الله صلّی الله تعالی علیه وسلّم غوث الثقلین وغیاث الکونین سیّدنا الغوث الأعظم أبی محمد عبد القادر الحسنی والحسینی الجیلانی رضی الله تعالی عنه وأرضاه عنّا وأفاض علینا فی الدارین من نوره الربانی أنّه رضی الله تعالی عنه کان یقول: عینی فی اللوح المحفوظ۔ إلی آخر ما أفاد وأجاد جدّنا الإمام أحمد رضا علیه رحمة الملك الجوّاد۔

أقول: والاطّلاع علی اللّوح المحفوظ والکوائن الغیبیّة لیس مخصوصاً بالأولیاء بل ربّما یقع ذلك لآحاد البشر کالمصروع والنائم والمحتضر۔ قال الإمام الغزالی قدّس سرّه فی الکتاب المستطاب قانون التأویل ما نصّه: أمّا إخبار المصروع بالغیب فسببه أنّ جمیع ما کان وما یکون مسطور ثابت فی شیء خلقه الله تارة یسمّی لوحاً وتارة إماماً وتارة کتاباً کما قال الله تعالی (فی کتاب مبین) و (إمام مبین)۔ وثبوت الأشیاء فیه کثبوت القرآن فی دماغ الحافظ للقرآن۔ ولیس مثل الرقوم المکتوبة المرتبة فی جسم متناه۔ لأنّ غیر المتناهی لا یمکن أن یکتب فی المتناهی کهذه الکتب الظاهرة۔ والقلب مثل مرآة۔ واللّوح مثل مرآة ولکن بینهما حجاب۔ فإذا ارتفع ترآی فی القلب الصور الّتی فی اللّوح۔ والحجاب هو الشاغل۔ والقلب فی الدنیا مشغول۔ وأکثر اشتغاله التفکّر فیما یورده الحسّ علیه۔ فإنّه من الحواس فی شغل دائم۔ فإذا رکدت الحواس بالنوم أو الصرع ولم یکن من فساد الأخلاط شاغل آخر فی الباطن ربما یری القلب بعض تلك الصور المکتوبة فی اللّوح۔ وکذلك ما یظهر عند سکرات الموت حتی ینکشف للإنسان موضعه من الجنّة فیکون بشری۔ أو من النار۔ والعیاذ بالله۔ فیکون نذیراً لأنّ الحواس ترکد فی مقدّمات الموت قبل زهوق الروح انتهی ملتقطاً۔ (ص۱۶،۱۷ مطبوعه مصر)

ولنختم هذا المقال ما قاله العلّامة الخرفوتی نقلاً عن الشیخ الأکبر محی الدین ابن العربی۔ قال ما نصّه: قال الشیخ محی الدین ابن العربی اعلم أنّ الله تعالی لمّا تجلّی للقلم اشتقّ منه موجوداً آخر سمّاه اللّوح وأمر القلم أن یتدلّی إلیه ویودع فیه جمیع ما یکون إلی یوم القیامة انتهی۔

قال الشعرانی فی کتاب الیواقیت والجواهر۔ فإن قلت: فهل اطّلع أحد من الأولیاء علی عدد الحوادث الّتی یکتبها القلم علی اللّوح إلی یوم القیامة۔ فالجواب قال الشیخ فی الباب الثامن والستّین بعد المائة من الفتوحات المکّیّة: نعم أنا ممّن أطلعه الله علی ذلك۔ وقال الشیخ أطلعنی الله علی عدد أمّهات علوم أمّ الکتاب وهو مائة ألف نوع وتسعة وعشرون ألف نوع وستّ مائة نوع کلّ نوع منها یحتوی علی علوم انتهی۔

وقال الشیخ زادة: هذا علی قدر فهمك وأمّا من اکتحلت عین بصیرته بالنّور الإلهی فیشاهد بالذوق أنّ علوم

اللّوح والقلم جزء من علومه كما هي جزء من علم الله تعالى.

وحاصل المعنى أنّه عليه الصلاة والسلام هو الواسطة فى إفاضة المنح الظاهريّات والباطنيّات من المبدأ الأوّل فى الكائنات العلويّات والسفليّات. وإذا كان كذلك فلن يضيق جاهه بعنايته و كفايته ولايعزب عن علمه حال ضراعته فلا يقصر جوده عن شفاعته انتهى ما قاله العلّامة الخرفوتى. (خرفوتى ص٢١٩)

رقم البيت (١٥٥، ١٥٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد أخذنا فى شرح البيت الرابع والخامس من الفصل العاشر من قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

يانفس لاتقنطى من زلّة عظمت
إنّ الكبائر فى الغفران كاللّمم

لعلّ رحمة ربّى حين يقسمها
تأتى على حسب العصيان فى القسم

بينما الناظم الفاهم فى الحضرة العليّة يناجى عظيم الرجاء وعميم الجود والعطاء والعون الوحيد لكلّ أحد فى الهول الشديد ويرتجى ويجتدى إذ حانت منه التفاتة إلى نفسه فإذا هى قد اعتراها الخوف من العقاب الأليم إن لم يتداركها بفضله الرحيم. وأشرفت على اليأس فأقبل عليها يناديها استبعاداً لها من مظانّ الزلفى ويزلّفها إلى الجناب الأعلى ويسكّن من روعتها ويهوّن عليها من شدّتها وينهاها عن اليأس من مغفرة الذنب مهما كبر ويترجّى أن تناله قسمة من الرحمة بقدر ذنبه إذا قسمها الرحيم فيكون له من الرحمة الحظ الجسيم فأنشأ يقول: يانفس لاتقنطى من زلّة عظمت البيتين.

قوله يا نفس النفس لها معان البدن والروح والدم والوجود الخاصّ. وقيل النفس ما يشير إليه كل أحد بقوله أنا. والنفس الّتى من صفاتها الأمّارة واللّوّامة والملهمة والمطمئنّة بحسب أطوارها. ونفس إن قرء بالضمّ فهو المنادى المفرد الّذى تعرف بالقصد إليه فيكون النداء لكلّ نفس يُقْصَد إليها وإن قرء بالكسر فهو بحذف ياء المتكلّم والاكتفاء بالكسر. لاتقنطى من قَنِطَ. قَنَطَ. ويقنُط فهو من باب سمع وضرب ونصر من الشيء يئس منه. والمعنى لاتيئسى من رحمة الله تعالى وغفرانه. من زلّة من لابتداء الغاية والسببيّة أى لا تيئسى من أجل زلّة عظمت أو لاتيئسى يأساً ناشئاً من زلّة عظمت والزلّة الذنب سواء كان كبيراً أوصغيراً. عظمت كبرت وجلّت أى كانت من كبار الذنوب. قال الله تعالى "قل يا عبادى الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم".

قال الإمام القشيرى فى تفسير هذه الآية فى لطائف الإشارات ما نصّه: التسمية بيا عبادي مدح. والوصف

بأنّهم أسرفوا ذمّ. فلمّا قال ياعبادى طمع المطيعون فى أن يكونوا هم المقصودين بالآية. فرفعوا رؤوسهم. ونكّس العصاة رؤوسهم وقالوا: من نحن حتى يقول لنا هذا؟

فقال تعالى (الّذين أسرفوا) فانقلب الحال. فهؤلاء الّذين نكّسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت ذلّتهم. والّذين رفعوا رؤوسهم أطرقوا وزالت صولتهم.

ثمّ أزال الأعجوبة عن القسمة بما قوّى رجاءهم بقوله (على أنفسهم) يعنى إن أسرفتَ فعلى نفسك أسرفت.

(لاتقنطوا من رحمة الله) بعد ما قطعت اختلافك إلى بابنا فلا ترفع قلبك عنّا.

(إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً) الألف واللّام فى الذنوب للاستغراق والعموم. والذنوب جمع ذنب. وجاءت جميعاً للتأكيد. فكأنّه قال: أغفر ولا أترك. وأعفو ولا أبقى.

ويقال إن كانت لكم جناية كثيرة عميمة فلى بشأنكم عناية قديمة. (٣/١٢٤)

وفى البيت إيماء أيضاً إلى قوله تعالى (إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

إنّ الكبائر: علّة للنّهى والكبائر جمع كبيرة وفى قول النّاظم إنّ الكبائر فى الغفران كالّلمم ردّ على من زعم أنّ الكبائر ليست كالصغائر كالمعتزلة حيث يقولون أنّ الكبائر لاتغفر بل مرتكبها يخلد فى النّار لأنّه ليس مؤمناً ولا كافراً فيزعمون أنّه منزلة بين المنزلتين ويعذّب عندهم بعذاب أخفّ من عذاب الكافر ولا اعتداد بقولهم. فالحقّ مذهب أهل السنّة أنّ الكبائر كالصغائر فى الغفران. وهو الموافق للقرآن والسنّة. والدليل العقلى لأنّه تعالى لايجب عليه ثواب عندنا معاشر أهل السنّة ولايتحتّم عليه عقاب فالثواب فضله والعقاب عدله لا يسئل عمّا يفعل وهم يسألون.

فى الغفران متعلّق بالكاف فى قوله كالّلمم لما فيه من رائحة الفعل ومعنى الاستقرار. واللمم بفتح أوّليه فُسِّر بصغائر الذنوب من غير تفاوت أى كما لايستبعد غفران الصغائر كذلك لايستبعد غفران الكبائر. قال الله تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء) ولذلك يجوز أن يعاقب عليها أويعفو عنها بتوبة وبدونها.

وفى البيت إيماء إلى تقسيم الذنوب إلى الكبائر والصغائر. وهو ناظر إلى قوله تعالى "والّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلّا اللّمم". فمن المناسب أن نورد تفسير هذه الآية وما قيل فى معنى اللّمم ليتعرّف منه حدّ الكبيرة والصغيرة وتتميّز منه الصغيرة. قال الإمام القرطبى عند قوله تعالى (والّذين يجتنبون) الآية. مانصه: قوله تعالى (الّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلّا اللّمم). فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى (الّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) هذا نعت للمحسنين. أى هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك لأنّه أكبر الآثام. والفواحش الزنى. وقال مقاتل: كبائر الإثم كلّ ذنب ختم بالنار. والفواحش كلّ ذنب فيه الحدّ.

قلت وبهذا يتأتّى حدّ الكبيرة.

قال القرطبى: ثمّ استثنى استثناء منقطعاً وهى: المسألة الثانية فقال: (إلّا اللّمم) وهى الصغائر الّتى لايسلم من الوقوع فيها إلّا من عصمه الله وحفظه. وقد اختلف فى معناها. فقال أبو هريرة وابن عبّاس والشعبى:

اللّمم كل ما دون الزنى. وذكر مقاتل بن سليمان: أنّ هذه الآية نزلت فى رجل كان يسمّى نبهان التمّار. كان له حانوت يبيع فيه تمراً فجاءته امرأة تشترى منه تمراً فقال لها: إنّ داخل الدكان ما هو خير من هذا. فلمّا دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نبهان. فأتى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم فقال: يا رسول الله! ما من شىء يصنعه الرجل إلّا وقد فعلته إلّا الجماع. فقال: لعلّ زوجها غازٍ فنزلت هذه الآية. وقد مضى فى آخره هود. وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى وحذيفة ومسروق: إنّ اللّمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة. وروى مسروق عن عبد الله ابن مسعود قال: زنى العينين النظر وزنى اليدين البطش وزنى الرّجلين المشى. وإنّما يصدّق ذلك أو يكذّبه الفرج فإن تقدّم كان زنى وإن تأخّر كان لمماً. وفى صحيح البخارى ومسلم عن ابن عبّاس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللّمم ممّا قال أبوهريرة أنّ النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: (إنّ الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنى أدرك ذلك لامحالة فزنى العينين النظر وزنى اللّسان النطق والنفس تتمنّى وتشتهى والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه). والمعنى أنّ الفاحشة العظيمة والزنى التامّ الموجب للحدّ فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة هو فى الفرج وغيرُه له حظّ من الإثم والله أعلم. وفى رواية أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم قال: كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك لا محالة. فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللّسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنّى ويصدّق ذلك الفرج ويكذّبه. خرّجه مسلم. وقد ذكر الثعلبى حديث طاووس عن ابن عبّاس فذكر فيه الأذن واليد والرّجل. وزاد فيه بعد العينين واللّسان. وزنى الشفتين القبلة. فهذا قول. وقال ابن عبّاس أيضاً: هو الرّجل يلمّ بذنب ثمّ يتوب. قال: ألم تسمع النبىّ صلّى الله تعالى عليه وسلّم كان يقول:

إن يغفر الله يغفر جمّاً

وأىّ عبد لك لا ألمّا

رواه عمرو ابن دينار عن عطاء عن ابن عبّاس. قال النحّاس: هذا أصحّ ما قيل فيه وأجلّها إسناداً. وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ابن عبّاس فى قول الله عزّ وجلّ (إلّا اللّمم) قال: هو أن يُلِمّ العبد بالذنب ثمّ لا يعاوده. قال الشاعر:

إن تغفر اللّهم تغفر جمّاً

وأىّ عبد لك لا ألمّا

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الّذى يأتى الذنب ثمّ لا يعاوده ونحوه عن الزهرى قال: اللّمم أن يزنى ثمّ يتوب فلا يعود. وأن يسرق أو يشرب الخمر ثمّ يتوب فلا يعود. (١٠٦/١٧، ١٠٧)

أقول: وعلى هذا التأويل اللمم يشمل الكبيرة التى تاب منها العبد ويؤيده ما قيل لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار وحاصله ان الكبيرة لاتبقى كبيرة مع الاستغفار والصغيرة تصير كبيرة عند الاصرار.

قال القرطبى: ودليل هذا التأويل قوله تعالى (والّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا الذنوبهم) الآية. ثمّ قال (أولئك جزاء هم مغفرة من ربّهم) فضمن لهم المغفرة كما قال عقيب اللّمم

(إنّ ربّك واسع المغفرة). فعلى هذا التأويل يكون (إلّا اللّمم) استثناء متّصلاً. قال عبد الله ابن عمرو بن العاص: اللّمم ما دون الشرك. وقيل اللّمم الذنب بين الحدّين وهو ما لم يأت عليه حدّ في الدنيا. ولا تُوُعِّد عليه بعذاب في الآخرة تكفّره الصلوات الخمس. قاله ابن زيد وعكرمة والضحّاك وقتادة. ورواه العوفي والحكم ابن عتيبة عن ابن عبّاس. (۱۰۸،۱۰۷/۱۷)

قول القرطبي: اللّمم ما دون الشرك.

قلت: على هذا الوجه اللّمم يشمل الكبيرة والصغيرة. وهذا الوجه يقارب الوجه المتقدّم آنفاً أو هو عينه.

وقوله: قيل اللّمم الذنب بين الحدّين اه.

قلت: هذا القول يتأتّى منه حدّ الكبيرة وهو ما يأتي عليه حدّ في الدّنيا أو يُتَوَعَّد عليه بالعقوبة في الآخرة.

قال القرطبي: وقال الكلبي: اللمم على وجهين: كلّ ذنب لم يذكر الله عليه حدّاً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة. فذلك الّذي تكفّره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرّة بعد المرّة فيتوب منه. وعن ابن عبّاس أيضاً وأبي هريرة وزيد ابن ثابت هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أنّ المشركين قالوا للمسلمين: إنّما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت. وقاله زيد ابن أسلم وابنه. وهو كقوله تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين إلّا ما قد سلف). وقيل: اللّمم هو أن يأتي بذنب لم يكن له بعادة. قاله نفطويه. قال: والعرب تقول ما يأتينا إلّا لماماً. أي في الحين بعد الحين. قال ولا يكون أن يُلِمّ ولا يفعل. لأنّ العرب لا تقول ألمّ بنا إلّا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم يفعله. وفي الصحاح: وألمّ الرجل من اللّمم وهو صغائر الذنوب. ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة.

وقال عطاء ابن أبي رباح: اللّمم عادة النفس الحين بعد الحين. وقال سعيد ابن المسيّب: هو ما ألمّ على القلب. أي خطر. وقال محمّد بن الحنفية: كلّ ما هممت به من خير أو شرّ فهو لمم. ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام (إنّ للشيطان لمّة وللملك لمّة) الحديث. وقال أبو إسحاق الزجّاج: أصل اللّمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرّة بعد المرّة ولا يتعمّق فيه ولا يقيم عليه. يقال: ألممت به إذا زرته وانصرفت عنه. ويقال: ما فعلته إلّا لمماً وإلماماً. أي الحين بعد الحين. وإنّما زيارتك إلمام. ومنه إلمام الخيال. قال الأعشى:

ألمّ خيال من قتيلة بعد ما وهي حبلها من حبلنا فتصرّما

وقيل: اللّمم أيضاً طرف من الجنون. ورجل ملموم أي به لمم. ويقال أيضاً: أصابت فلاناً لمّة من الجنّ وهي المسّ والشيء القليل. قال الشاعر:

فإذا وذلك يا كبيشة لم يكن
إلّا كلمّة حالم بخيال

انتهى ملتقطاً من تفسير القرطبي. (۱۰۹،۱۰۸/۱۷)

أقول: هذا جملة ما قيل في تفسير اللّمم وبيان معناه لغة. وجليّ أنّ بعض ما قيل في تفسير اللّمم يشمل الكبائر. منه ما يشملها مطلقاً. ومنه ما يشمل الكبيرة. ومنه ما يشملها بشرط التوبة. فيطلق اللّمم كما تقدّم

وفيه نظر إذ لا كبيرة بعد التوبة ولا صغيرة ولا لمم. ومنه ما يشمل الكبيرة غير المعتادة. ومنه ما يندرج في اللّمم إذا صنعه المرء حيناً بعد حين ومرّة بعد أخرى كما سبق. ومن خلال ما قيل في حدّ اللّمم تبيّن حدّ الكبيرة. والكبائر كثيرة لا تحصى إلّا أنّ العلّامة ابن نجيم ذكر منها طرفاً صالحاً في رسالته نُحِبّ أن نُتحِف السامعين بها. قال العلّامة ابن نجيم ما نصّه: أمّا الكبائر أسأل الله تعالى العفو عنها والعافية منها فقالوا: هي بعد الكفر، الزنا واللّواطة وشرب الخمر وإن قلّ ولم يسكر أو النبيذ واعتقد تحريمه لا إن اعتقد حلّه إلّا إذا دام مثابرة عليه وحضوراً مع أهل السفه.

وللمقلّد حكم مقلّده وكالسرقة والقذف والقتل وكتم الشهادة عند تعيّن الأداء وشهادة الزور واليمين الغموس والغصب بمقدار نصاب السرقة من غني أو من فقير مطلقاً والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم والرشوة وعقوق الوالدين وقطع الرحم والكذب على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وسلّم عمداً والإفطار في رمضان عمداً بلا عذر وبخس كيل أو وزن وتقديم صلاة مكتوبة على وقتها أو تأخيرها عنه وترك الزكاة والصوم عن وقته بلا عذر والحجّ إذا مات وضرر المسلم ظلماً وسبّ واحد من الصحابة والوقيعة في العلماء أو حملة القرآن والسعاية عند ظالم والديانة والقِوادة وترك قادر أمراً بمعروف أو نهياً عن حرام وكالسحر تعلّماً وتعليماً أو عملاً ونسيان القرآن وإحراق حيوان عبثاً وامتناع امرأة عن زوجها ظلماً واليأس من رحمة الله تعالى والأمن من مكر الله تعالى وأكل لحم ميتة أو خنزير بغير اضطرار والنميمة والغيبة لمن لا يتظاهر بفسقه والقمار والسرف والسعي في الأرض بالفساد في المال والدين وعدول الحاكم عن الحقّ. والظهار وقطع الطريق وإدمان الصغيرة والإعانة على المعاصي والحثّ عليها والتغنّي للنّاس وتغنّي المرأة مطلقاً.

وكشف العورة في الحمام أي بحضرة الناس والبخل عن أداء واجب وتفضيل على الشيخين رضي الله تعالى عنهم وقتل نفسه أو إتلاف عضو من أعضاءه وهو أعظم وزراً من قتل غيره. وعدم استنزاه البول والمنّ والأذى في الصدقة والتكذيب بالقضاء والقدر. والغدر بأميره وتصديق كاهن أو منجّم والطعن في الأنساب والذبح لمخلوق ... إلى آخر ما أفاد وأجاد. (رسائل ابن نجيم ص ٢٢٩، ٢٢٨)

قوله: والذبح لمخلوق.

أقول: ليس على إطلاقه وإنّما هو مقيّد بما إذا خرج عن حدّ المباح وتعيّن للوجه المحظور كأن يذبح للصنم. وعلى هذا تؤخذ الكبيرة على المعنى الّذي يعمّ الشرك وكأن يذبح رياءً وسمعةً ومباراةً ومسابقةً في هذا الوجه أو يذبح على الوجه الغير المشروع بأن يُهِلّ عند الذبح لغير الله وإلّا فالذبح للوليمة والعقيقة ولقدوم الضيف ومواساة الفقراء والمساكين وصلة الرحم وكذلك الذبح إجلالاً للأولياء ممّا هو ذبح لمخلوق بالظاهر ليس من الكبيرة في شيء. وقد فصّل الكلام في هذا المرام جدّنا الإمام أحمد رضا قدّس سرّه في "سبل الأصفياء في حكم الذبح للأولياء".

شرح الغريب من البيت التالي وهو البيت الخامس وبيان الإعراب: قوله لعلّ للترجي جاء به الناظم الفاهم تنبيهاً على أنّ الأصلح لا يجب على الله تعالى وهو الفاعل المختار لا يجب عليه شيء ولا يتجاوز فعله على الحكمة والعدل. ورحمة منصوب على أنّه اسم لعلّ وهو مضاف وربّي مضاف إليه. وحين ظرف التأتي المؤخر. يقسمها أي

يوزّعها على العصاة المذنبين صلة لتأتى وتأتى بمعنى تجىء. على حسب العصيان جار مجرور متعلّق بتأتى أى على قدره قلّة وكثرة لأرجو منها لكثرة ذنوبى الحظّ الأوفر. العصيان ضدّ الطاعة يشمل الصغيرة والكبيرة. وفى ظرف لحسب. والقِسَم جمع قسمة وهى ما يقسمه الله تعالى لخلقه.

وحاصل معنى البيتين يا نفس لا تيأسى من مغفرة ذنب كبير. إنّ الذنوب الكبائر كالذنوب الصغائر فى جواز الغفران. لعلّ رحمة ربّى إذا قسمها تأتى على قدر العصيان فتعمّ الكبائر وأنا ذنبى كبير فأرجو أن يكون نصيبه من الرحمة بقدره.

رقم البيت (١٥٧، ١٥٨)

بسم الرحمٰن الرحيم

نحمده ونصلّى ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فهذا أوان الشروع فى شرح البيت الخامس والسادس من القصيدة المجيدة المسمّاة بالبردة وهو قول الناظم الفاهم:

يارب واجعل رجائى غيرمنعكس
لديك واجعل حسابى غير منخرم

وقوله:

والطف بعبدك فى الدارين ان له
صبراً متى تدعه الأهوال ينهزم

هذه الأبيات أنشدها الناظم الفاهم ختاماً لهذه القصيدة بالدعاء والصلاة على النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم وآله الكرام وصحبه العظام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيام بعد ما اشتملت على أنواع التغزّل فى البداية تطريباً وتنشيطاً للسامعين. ثمّ الترقّى إلى توبيخ النفس والوعظ. ثمّ الوصول إلى أصل المقصود بمدح أصل الجود وروح الوجود وهو النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم الّذى هو السبب فى صلّى الله تعالى عليه وسلّم كلّ موجود والاحتفال بأكرم مولود وذكر ما ظهر عند مولده ومبعثه وما بعده من الآيات والمعجزات. ثمّ ارتقى إلى مدح القرآن. وأردفه بأشرف ما حصل له من الفضيلة وهى فضيلة الإسراء والمعراج. ثمّ أتبعه مدح الصحابة وذمّ الكفار. ثمّ أتى على الإقرار بالذنب. وختمها بطلب الشفاعة والتوسّل والدعاء والصلاة على النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم كما ترى. والتفت فى هذا البيت والذى يليه من الغيبة إلى الخطاب لأنّ الخطاب أدْعَى للإجابة وأدخل فى الاستعطاف. فأقبل على ربّه يناديه ويسأله أن يدوم عبده هذا الناظم على حسن ظنّه به سبحانه وتعالى. وأن يجعل الله سبحانه وتعالى ما حسبه الناظم من العفو وقدّره فى نفسه وما رجا حصوله منه غير منقطع. ويتضرّع إليه بالخضوع المستمطر سحائب الخير والرحمة فى الدارين فأنشأ يقول: يارب واجعل رجائى غير منعكس البيتين.

شرح الغريب وبيان الإعراب: قوله يا ربّى كلمة يا فى قوله يا ربّى موضوعة لنداء البعيد وقد ينادى القريب بما

ينادى البعيد لحرص المنادى على إقبال المدعوّ عليه لما يدعوه له ولجعله نفسه فى عداد من لايستأهل القرب لحقارة المنادى أو لعظمة المنادى. ربّى منادى مضاف إلى ياء المتكلّم حذفت منه ياء المتكلّم واجتُزِئ بالكسرة وربّ الشيء مالكه وهو من أسماء الله تعالى ولايطلق على غيره تعالى إلّا مضافاً. واجعل رجائى: بالواو او بالفاء على الروايتين معطوف على فعل مقدّر مستفاد من قوله لعلّ رحمة ربّى أى ارحمنى أوحقّق رجائى فيك بالرحمة والعفو والغفران. والرجاء إمّا مصدر وإمّا بمعنى اسم المفعول ومرجوّه النجاة والسعادة. وانعكاس الرجاء بالخيبة وانعكاس المرجوّ بالهلاك والشقاوة. ولديك أى عندك متعلّق بمنعكس أو برجائى. قوله حسابى مضاف إلى ياء المتكلّم ومضاف ومضاف إليه فى محلّ النصب مفعول أوّل لقوله اجعل. وغيرَ منخرم مفعول ثان. وقوله واجعل حسابى غير منخرم معطوف على قوله اجعل رجائى غير منعكس والإعراب فى قوله اجعل رجائى كالإعراب فى الشطر الثانى والحساب يطلق على ثلاثة معان العدّ والترقّب والظنّ والمعنى اجعل عدّى نعمك المتصلة المتوالية أو ترقّبى لإنعامك المزيد أوحسن ظنّى بك وقد قلت أنا عند ظنّ عبدى بى إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. وغير منخرم أى غير منقطع. وقوله والطف معطوف على ما قبله أى اعطف وارفق. قوله بعبدك فيه التفات من التكلّم إلى الغيبة. ووجهه مافى لفظ "العبد" من الخضوع المستمطر لسحائب الخير والرحمة. كما قال الشاعر:

إلهى عبدك العاصى أتاك مُقِرّاً بالذنوب وقد دعاك
فإن تغفر فأنت لذاك أهل وإن تطرد فمن يرحم سواك؟

فى الدارين أى دار الدنيا ودار الآخرة. إنّ له جملة مستأنفة جاء بها تعليلاً لطلب اللطف فى الدارين. له خبر إنّ مقدّم أى لذلك العبد. صبراً اسم إنّ مؤخّراً وهو كظم الغيظ واحتمال الأذى. ومتى من الظروف الزمانيه المتضمّنة للشرط الجازمة للفعلين. وتدعه فيه روايات ثلاث تدعه بالدال بمعنى تطلبه وترعه بالراء بمعنى تخوّفه وفى أخرى تلقه من الملاقاة. والأهوال جمع هول وهو الشدّة والفزع من هاله يهوله إذا أفزعه وأخافه أى تطلبه المخاوف وتحرّكه الأفزاع. لا تدعه شرط وينهزم جزاء الشرط. أى يولّ ولايثبت خوفاً من الهلاك لقلّة صبره وضعف قوّته وباللطف يندفع ما يخاف من الهلاك و كسر ميمه للرّوى. والجملة الشرطية أى قوله متى تدعه صفة صبراً فهى فى محلّ النصب.

ومعنى البيتين يا ربّ واجعل ما أمّلته فيك غير مخالف له واجعل ما اعتقدته فيك من العفو غير منخرم عندك فإنّك وعدتنى بالإجابة وقلت ادعونى أستجب لكم وقلت فى الحديث القدسى أنا عند ظنّ عبدى بى إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ وقد قال من غلب عليه الرجاء:

وإنّى لأرجو الله حتى كأنّنى
أرى بجميل اللطف ما الله صانع

والطف أى ارفق بعبدك فى الدنيا والآخرة فيما قدّرته عليه فيهما فإنّ له صبراً ضعيفاً لايقيم على مقاساة الأهوال والشدائد. فمتى تدعه الأهوال لملاقاتها ينهزم منها من أوّل الأمر ولايقابلها فهو مفتقر إلى لطفك به والإحسان إليه.

رقم البيت (١٥٩، ١٦٠، ١٦١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلّي ونسلّم على رسوله الكريم وآله وصحبه الكرام أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد أتينا على شرح ختام قصيدة البردة وهو قول الناظم الفاهم:

وائذن لسحب صلاة منك دائمة
على النبي بمنهلّ ومنسجم

وقوله:

والآل والصحب ثمّ التابعين لهم
أهل التقى والنقى والحلم والكرم

وقوله في آخر القصيدة:

ما رنّحت عذبات البان ريح صبا
وأطرب العيس حادي العيس بالنغم

ختم الناظم الفاهم القصيدة المجيدة بالصلاة على النبي الكُرام وآله الكِرام وصحبه العظام التابعين لهم تحقيقاً لإجابة الدعاء وإيذاناً بأنّ التقرّب إلى الله سبحانه وتعالى لا يتمّ إلّا بالتوسّل الى حبيبه وصفوته من خلقه سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. والتوسل بالحبيب لا يستتب إلّا بالاعتصام بأذيال آله وصحبه الكرام، والاستمساك بمن تبعهم بإحسان فقام بنصر الدين أحسن قيام. فأنشأ يقول: وائذن لسحب صلاة منك دائمة الأبيات.

قوله وائذن من أذن. وأذن له وإليه: استمع، وإليه: استراح. ولرائحة الطعام: اشتهاه. وبه إذناً وأذناً وأذاناً وأذانة: علم. وله فيه إذناً وأذيناً: أباحه له. وله على فلاناً: أخذ له منه الإذن. وائذن ههنا بالمعنى الأخير. أي مُرْ وأعطِ الإجازة. والسحب بضمّ الحاء وبالتخفيف جمع سحاب وهو الغيم. وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة. من إضافة المشبّه به إلى المشبّه. أي ائذن للصلاة الشبيهة بالسحب في أنّ كلاًّ رحمة. وقوله صلوة الصلاة حقيقة في الدعاء لغة وفي العبادة المخصوصة شرعاً. فالصلاة المسندة إلى العباد حقيقة وإلى الله مجاز بعلاقة السببية. والصلوة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن الإنس والجنّ الدعاء بمزيد الخير. والصلوة على الأنبياء طلب مزيد اللطف والكرامة. كذا قال الشيخ زاده وأفاد أنّ المشهور بين الجمهور أنّ الصلاة حقيقة في الدعاء لغة. قلت: وهو الصواب وخالف الزمخشري الجمهور وناقض نفسه في التحدّث عن مادّة واحدة وبيان معناها كما هو ظاهر من كلام الشيخ زاده فيما بعد فلنتابع ما قاله الشيخ زاده قال ما نصّه: والمذكور في الكشّاف في تفسير قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) أنّها تحريك الصلوين حقيقة سمّيت الأركان المخصوصة بها لتحرّكهما فيها ثمّ سمّي بها الدعاء تشبيهاً للدّاعي بالمصلّي في تخشّعه. فهي في الدعاء استعارة من المجاز المرسل.

قال الشيخ زاده: و كونها مشهورة فيما بينهم ومستعملة فى تراكيبهم بمعنى الدّعاء قبل شرعيّة الصلاة المشتملة على التخشّع يؤيّد المشهور ويأبى المذكور.

أقول: وهذا منه تأييد للمشهور الّذى عليه الجمهور وردّ لما خرقه الزمخشرى. و كون الكلمة مشهورة فى معنى ومستعملة فى محاورات الناس فى ذلك المعنى غالباً أمارة وضع اللّفظ بإزاء ذلك المعنى من الواضع. وهذا هو معنى الحقيقة و كفى بالاستعمال وتبادر الذهن إليه بمجرّد السماع شاهدين لذلك والمجاز لايصار إليه إلّا عند تعذّر الحقيقة ثمّ إنّه لايتعيّن المجاز لايجوز ان يكون اللفظ مشتركا فى معان عدّة منها تحريك الصلوين ومنها الدعاء وله معان سوى ماذكر. قال فى المصباح المنير ما نصّه: والصلاة قيل أصلها فى اللّغة الدّعاء لقوله تعالى (وصلّ عليهم) أى ادع لهم (واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى) أى دعاء. ثمّ سمّى بها هذه الأفعال المشهورة لاشتمالها على الدّعاء. وهل سبيله النقل حتّى تكون الصلاة حقيقة شرعيّة فى هذه الأفعال مجازاً لغوياً فى الدعاء لأنّ النقل فى اللّغات كالنسخ فى الأحكام أو يقال استعمال اللّفظ فى المنقول إليه مجاز راجح وفى المنقول عنه حقيقة مرجوحة فيه خلاف بين أهل الأصول. وقيل (الصلاة) فى اللّغة مشتركة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة ومنه (اللّهم صلّ على أبى أوفى) أى بارك عليهم أو ارحمهم وعلى هذا فلايكون قوله (يصلّون على النبى. (الأحزاب ٥٦)) مشتركاً بين معنيين بل مفرد فى معنى واحد وهو التعظيم و(الصلاة) تجمع على (صلوات). و(الصلاة) أيضاً بيت (يصلّى) فيه اليهود وهو كنيستهم والجمع (صلوات) أيضاً قال ابن فارس ويقال إنّ الصّلاة من (صلّيت) العود بالنّار إذا ليّنته لأنّ (المصلّى) يلين بالخشوع و(الصلاة) فى قول المنادى (الصّلاة جامعة) منصوبة على الإغراء أى الزموا الصّلاة.

قال فى القاموس بعد ما ذكر المعانى الّتى ذكرها صاحب المصباح المنير ما نصّه: صلّى الفرس تلا السابق. والحمار أتنه طردها وقحمها الطريق.

اقول: هذا نص المصباح المنير بمرأى منك صريحا فى ان الصلوة لغه مشتركة وهذا تبطل دعوى المجاز ومانحن فيه نظير المجلى فان المجلى كالمصلى له معان عدّة. قال فى المعجم الوسيط: جلّى الفرس تجلية سبق فى الحلبة. والبازى رفع رأسه ثمّ نظر. وببصره رمى به كما ينظر الصّقر إلى الصيد. وعن نفسه عبّر عن ضميره. والنهار الظلمة كشفها. والهمّ والأمر عنه كشفه. والقوم عن أوطانهم أجلاهم. وفلان عروسه وصيفة أو غيرها أعطاها إيّاها وقت الجلوة.

قلت: واشتراك الفعل فى معان عدة يقتضى اشتراك اسم الفاعل فى معان مختلفة كما هو ظاهر.

قال الشيخ زاده نقلاً عن الزمخشرى أنّه قال فى تفسير قوله تعالى (هو الّذى يصلّى عليكم وملائكته) أنّ الصلاة عبارة عن الأركان المخصوصة. ثمّ نقل إلى الانعطاف على وجه الترحّم كانعطاف عائد المريض عليه والمرأة على ولدها لوجوده فيها. ثمّ منه إلى الترحّم. ثمّ منه إلى الدّعاء. فيكون فى الدّعاء مجازاً عن المجاز عن الاستعارة. والمذكور فى الفائق أنّ الصلاة تقويم العود. ثمّ قيل للرّحمة صلاة لاشتمالها على تقويم العمل. ثمّ نقلت إلى الدّعاء. ففى الدّعاء مجاز مرسل عن استعارة. ولايخفى وجود المخالفة ظاهراً فى كلام صاحب الكشّاف فعلى الفطن أن ينظر بعين الإنصاف. (ص٢٢٣)

هذا كلام الشيخ زاده. وظاهره اشتراك الصلوة في معان مختلفة كما أسلفنا. فقد اعترف الزمخشري أنّ الصلاة مشتركة كما قلنا.

هذا وقد قال الإمام أحمد بن منير الإسكندري في كتاب الانتصاف فيما تضمّنه الكشّاف من الاعتزال: قال محمود إن جعلت يصلّي بمعنى يرحم فما بال عطف الملائكة عليه؟ فأجاب بأنّهم لمّا كانوا يدعون الله بالرحمة ويستجيب دعاء هم بذلك ... كأنّهم فاعلون الرحمة كما تقول حيّاك الله يحيّيك. ثمّ تقول حيّيته بمعنى دعوت الله له بالحياة والمقصد بذلك جعل الحياة محقّقة له كأنّك قلت دعوت له بالحياة فاستجيبت الدّعوة.

قال أحمد: كثيراً مّا يفرّ الزمخشري من اعتقاد إرادة الحقيقة والمجاز معاً بلفظ واحد وقد التزمه ههنا. ولكن جعل أي الزمخشري الصلاة من الله حقيقة ومن الملائكة مجازاً لأنّه حملها على الرحمة. وأمّا غيره فحملها على الدعاء وجعلها من الملائكة حقيقة ومن الله مجازاً والله تعالى أعلم.

بقيّة الإعراب وشرح الغريب: قوله منك نعت صلاة. دائمة أي مستمرّة على ما ممرّ الدهور والأعصار.. وهو إمّا بالجرّ صفة أخرى لصلاة أو بالنصب حال منها لوصفها أوّلاً على النبي سيّدنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم. قال ابن حجر: الظرف متعلّق بدائمة لا بصلاة لأنّ المصدر المنعوت قبل العمل لا يعمل. وقال غيره متعلّق بصلاة أو دائمة أو مقدّر. وقوله منهل من انهلّ المطر إذا سال بشدّة. ومنسجم من انسجم إذا سال بشدّة وغيرها. ومنهل متعلّق بائذن أي بإفاضة مطر أي منصبّ سائل من انقطاع من انهلّت السماء أي صبّت وانهلّ المطر سال. ومنسجم اسم فاعل من انسجم وانسجم الدمع سال. قال العلّامة على القاري في الزبدة: أتى الناظم بالصلاة على السيّد الكرام بأبلغ الوجوه وأحسن النظام حيث جمع في بيته ذكر الصلاة ودوامها ونزولها ومبدأ النزول ومنتهاه وكثرتها في ضمن الانصباب وعمومها في طيّ السيلان ومحملها وتشبيهها بالأمطار وإثبات السحب لها فهذه عشرة أشياء يستفاد من كلامه بعضها بالدلالة وبعضها بالإشارة. وفي لفظ ائذن إيذان بأنّ سحب الصلاة حاضرة موقوفة على إذنه تعالى والإذن متحقّق فإنّه سبحانه وتعالى مع الملأ الأعلى يصلّون عليه صلّى الله تعالى عليه وسلّم وقد أمر عبيده المنقادين لديه بقوله (صلّوا عليه وسلّموا تسليما) تشريفاً له وتعظيماً وأدخل بعضهم هنا بيتاً حسناً لا بأس به وهو:

وآله الغرّ وصحبه الّذين علوا
أهل الصفا والوفا والجود والكرم

قوله والآل أصله أهل. والصحب تخفيف صاحب أو جمع له كركب جمع راكب. وقوله ثمّ التابعين وجاء بكلمة ثمّ تنبيها على تأخّر مرتبة التابعين عن الصحابة. ولهم متعلّق للتابعين. وقوله أهل التقى بالجرّ صفة لكلّ واحد منهم أو بالرفع خبر مبتدأ محذوف أو هم أهل التقى. والتقى بالضمّ التقوى أصله الوقى كتراث وتجاه. والنقى أي وأهل النقى وهو بضمّ النون أي الخيار ونقاوة كلّ شيء خياره. ويروى النُهَى مكانه جمع نهية. وهي العقل والحلم والكرم. وكرمه معروف.

قوله ما رنّحت ما مصدريّة ظرفيّة. ورنّحت بالنون والحاء أي ميّلت وحرّكت. وعذبات محرّكة مفعول رنّحت وهو

جمع عذبة بمعنى الغصن، وعذبة الشيء طرفه اللّطيف الرقيق، والبان شجر معروف طيّب الرائحة. قال بعضهم يحتمل أنّه أشار بالعذبات إلى عذبة النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم لتمايلها بتمايله صلّى الله تعالى عليه وسلّم عند سماعه المديح، وأشار بالبان إلى قامته الشريفة لاستقامتها وطيب رائحتها كطيب رائحة البان بل أعظم. وقوله أطرب أى أوقع فى الطرب وهى الخفّة الحاصلة من السرور المقتضية للهزّة والحركة والفعل منه طرب يطرب على وزن حفظ يحفظ. والعيس جمع أعيس كالبيض جمع أبيض وهى الإبل الّتى يخالط بياضها شيء من الشقرة وقيل هى من كرائم الإبل. وأشار بالعيس إلى أمّته لطربهم عند سماع المديح كطرب العيس عند سماع صوت الحادى وهو سائق الإبل وراعيها وهو من الحُداء بضمّ الحاء والمدّة فى آخره سوق الإبل من حدا الإبل وبها ساقها وحثّها على السير بالحُداء، والحُداء الغناء للإبل. قال الشاعر:

فغنّها وهى لك الفداء

إنّ غناء الإبل الحُداء

وقوله بالنغم متعلّق بأطرب. والباء للاستعانة. والنغم جمع نغمة وهى حسن الصوت يقال نغم ينغَم ينغِم يقال سكت فلان فما بحرف أى ما تكلّم بشيء.

ومعنى الأبيات الثلاثة يا من هو الربّ اللّطيف بعباده ويا مفيض الخير والجود أسألك أن تأمر لسحب الصلوات والتسليمات الدائمات على نبيّك المصطفى ورسولك المرتضى الّذى جمعت فيه بين المكارم والخيرات بحذافيرها وجعلته حائزاً لفضائل كبيرها وصغيرها وأهل بيته وأصحابه وأتباعه الّذين كلّهم جامعون للصفات الجميلة والخصال الحميدة كالتقوى والنقاوة والحلم والكرم وهم كاملون من جميع الجهات بشرف تصادفهم لمصاحبة أشرف المخلوقات ما دامت الصبا تميل أغصان البان وما دام الحادى يطرب العيس بالنغم والألحان. ويذكّرها للعهد بالحمى والأوطان. فإنّك أمرتنا بالصلاة والسلام عليه قديماً فقلت (إنّ الله وملائكته يصلّون على النبى يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما).

وبقى معنى البيت الأخير على الاحتمال الّذى تقدّم وهو أن يكون المراد بالعذبات عذبة النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم، وبالبان ذاته الشريفة فنقول: وحاصل المعنى على هذا ما تمايلت عذبة النبى صلّى الله تعالى عليه وسلّم عند سماع المديح وأطرب المادح أمّته بمديحه صلّى الله تعالى عليه وسلّم.

قال العلّامة الباجورى: وفى هذا البيت والّذى قبله براعة الختام وتسمّى حسن المقطع وحسن الخاتمة وهى فى الشعر عبارة عن ختم القصيدة بأجود بيت يحسن السكوت عليه لأنّه آخر ما يبقى فى الأسماع وربّما حفظ دون غيره لقرب العهد به. ويوجد فى بعض النسخ أبيات لم يشرح عليها أحد من الشارحين لكن لا بأس بها وهى:

ثمّ الرضا عن أبى بكر وعن عمر	وعن علىّ وعن عثمان ذى الكرم
والآل والصحب ثمّ التابعين فهم	أهل التقى والنقى والحلم والكرم
يا ربّ بالمصطفى بلّغ مقاصدنا	واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
واغفر إلهى لكلّ المسلمين بما	يتلوه فى المسجد الأقصى وفى الحرم

بجاه من بيته فی طيبة حرم — واسمه قسم من أعظم القسم
وهذه بردة المختار قد ختمت — والحمد لله فی بدء وفی ختم
أبياتها قد أتت ستّين مع مائة — فرج بها كربنا يا واسع الكرم

فرج الله الكرب عنّا وعن سائر المسلمين بجاه سيّد المرسلين وآله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين. (ص ٨٣)

أسأل الله بجاه نبيّه صلّی الله تعالی عليه وسلّم أن يحسن الخاتم لی ولوالدیّ ولمشائخی ولأولادی ولأحبّائی وللمسلمين وأستودعه دينی ونفسی وخواتيم عملی وما أنعم به علیّ والمسلمين فإنّه لا يضيّع ودائعه وهو نعم الحفيظ. وأسأله أن يجعل هذا الشرح مقبولاً وبالقبول مشغولاً وأن يمنّ علیّ وعلی والدیّ وأولادی وأحبّائی بالاندراج فی حزب سيّدنا محمّد صلّی الله تعالی عليه وسلّم وحوز قربه فی الدارين إنّه الربّ المالك وهو ولیّ ذلك لا ربّ سواه ولا مطلوب غيره وغيره أتاه. والحمد لله أوّلاً وآخراً وباطناً وظاهراً وصلّی الله تعالی علی سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين آمين.

بحمد الله وتوفيقه وقع الفراغ من شرح هذه القصيدة المجيدة بعد يوم الاثنين عشيّة الثلاثاء ليلة الحادی عشر من جمادی الأولی سنة الف واربع مائة واحدی وثلاثين من هجرة سيّد المرسلين صلّی الله تعالی عليه وسلّم وآله وصحبه أجمعين. والمأمول من بحر كرم سيّدنا رسول الله صلّی الله تعالی عليه وسلّم القبول والجائزة بالشفاعة وبنيل خير الدارين لی ولوالدیّ ولأولادی ولأحبّائی وللمسلمين تقبّله الله بمنّه وكرمه آمين.

